

الجزء الثاني

تطبعه

مؤسسة المطبوعات الإسلامية

(مكتبة ومطبعة عبد الرحمن محمد لنشر القرآن الكريم والكتب الإسلامية)

١٣ شارع الصنادقية بميدان الجامع الأزهر

صندوق بريد رقم ٤٠٦ بالقاهرة

سورة

البقرة

مدنية إلا آية ٢٨١ فنزلت بمنى فى حجة الوداع

وآياتها مائتان وست وثمانون

بسم الله الرحمن الرحيم

الم

تفسير الم حروف الهجاء

﴿الم﴾ فيه مسئلتان : المسألة الأولى : —

اعلم أن الألفاظ التى يتهجى بها أسماء مسمياتها الحروف المبسوطة ، لأن الضاد مثلا لفظة مفردة داله بالتواطؤ على معنى مستقل بنفسه من غير دلالة على الزمان المعين لذلك المعنى ، وذلك المعنى هو الحرف الأول من « ضرب » فثبت أنها أسماء ولأنها يتصرف فيها بالامالة والتفخيم والتعريف والتنكير والجمع والتصغير والوصف والاسناد والاضافه ، فكانت لا محالة أسماء . فان قيل قد روى أبو عيسى الترمذى عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ حرفا من كتاب الله تعالى فله حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الم حرف ، لكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » الحديث ، والاستدلال به يناقض ماذكرتم قلنا : سماه حرفا مجازاً لكونه اسماً للحرف ، واطلاق اسم أحد المتلازمين على الآخر مجاز مشهور .

معانى تسمية حروفها

(فروع) : الأول : أنهم راعوا هذه التسمية لمعان لطيفة ، وهى أن المسميات لما كانت ألفاظا كأساميها وهى حروف مفردة والأسامى ترتقى عدد حروفها إلى الثلاثة اتجه لهم طريق إلى أن يدلوا فى الاسم على المسمى ، فجعلوا المسمى صدر كل اسم منها إلا الألف فانهم استعاروا الهمزة مكان مسماها لأنه لا يكون إلا ساكنا .

حكمها مالم تلها العوامل

(الثانى) : حكمها ما لم تلها العوامل أن تكون ساكنة الأعجاز كأسماء الأعداد فيقال ألف لام ميم ، كما تقول واحد اثنان ثلاثة فاذا وليتها العوامل أدركها الاعراب كقولك هذه ألف وكتبت ألفا ونظرت إلى ألف ، وهكذا كل اسم عمدت إلى تادية مسماه فحسب ، لأن جوهر اللفظ موضوع لجوهر المعنى ، وحركات اللفظ دالة على أحوال المعنى ، فاذا أريد إفادة جوهر المعنى وجب اخلاء اللفظ عن الحركات .

كونها معربة

(الثالث) : هذه الأسماء معربة وإنما سكنت سكون سائر الأسماء حيث لا يمسها إعراب لفقد موجبه ، والدليل على أن سكونها وقف لا بناء أنها لو بنيت لحذى بها حذو كيف وأين وهؤلاء ولم يقل صاد قاف نون بمجموع فيها بين الساكنين .

معانى الم

(المسألة الثانية) للناس فى قوله تعالى ﴿الم﴾ وما يجرى مجراه من الفواتح قولان : أحدهما : أن هذا علم مستور وسر محجوب استأثر الله تبارك وتعالى به . وقال ابو بكر الصديق رضى الله عنه : لله فى كل كتاب سر وسره فى القرآن أوائل السور ، وقال على رضى الله عنه : إن لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجى . وقال بعض العارفين : العلم بمنزلة البحر فأجرى منه واد ثم أجرى من الوادى نهر . ثم أجرى من النهر جدول ، ثم أجرى من الجدول ساقية ، فلو أجرى إلى الجدول ذلك الوادى لغرقه وافسده ، ولو سال البحر إلى الوادى لأفسده ، وهو المراد من قوله تعالى (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها) فبحور العلم عند الله تعالى ، فأعطى الرسل منها أودية ، ثم أعطت الرسل من أوديتهم أنهارا إلى العلماء ، ثم أعطت العلماء إلى العامة جداول صغارا على قدر طاقتهم ، ثم أجرت العامة سواقى الى أهاليهم بقدر طاقتهم . وعلى هذا ما روى فى الخبر « للعلماء سر ، وللخلفاء سر . وللأنبياء سر ، وللملائكة سر ، ولله من بعد ذلك كله سر ، فلو اطلع الجهال على سر العلماء لأبادوهم ، ولو اطلع العلماء على سر الخلفاء لنابذوهم ، ولو اطلع الخلفاء على سر الأنبياء لخالفوهم . ولو اطلع الأنبياء على سر الملائكة لاتهموهم ، ولو اطلع الملائكة على سر الله تعالى لطاحوا حائرين ، وبادوا بائرين . والسبب فى ذلك أن العقول الضعيفة لا تحتمل الأسرار القوية ، كما لا يحتمل نور الشمس أبصار الخفافيش ، فلما زيدت الأنبياء فى عقولهم قدروا على احتمال أسرار النبوة ، ولما زيدت العلماء فى عقولهم قدروا على احتمال أسرار ما عجزت العامة عنه ، وكذلك علماء الباطن ، وهم الحكماء زيد فى عقولهم فقدروا على احتمال ما عجزت عنه علماء الظاهر . وسئل الشعبى عن هذه الحروف فقال : سر الله فلا تطلبوه ، وروى أبو ظبيان عن ابن عباس قال : عجزت العلماء عن ادراكها ، وقال الحسين بن الفضل : هو من المتشابه .

واعلم أن المتكلمين أنكروا هذا القول ، وقالوا لا يجوز أن يرد فى كتاب الله تعالى ما لا يكون مفهوما للخلق ، واحتجوا عليه بالآيات والأخبار والمعقول .

حجج المتكلمين بالآيات

أما الآيات فاربعة عشر (أحدها) قوله تعالى (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) أمرهم بالتدبر فى القرآن ، ولو كان غير مفهوم فكيف يأمرهم بالتدبر فيه (وثانيها) قوله (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) فكيف يأمرهم بالتدبر فيه لمعرفة نفى التناقض والاختلاف مع أنه غير مفهوم للخلق ؟ (وثالثها) قوله : (وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين) فلو لم يكن مفهوما بطل كون الرسول صلى الله عليه وسلم منذرا به ، وأيضا قوله (بلسان عربى مبين) يدل على أنه نازل بلغة العرب ، وإذا

كان الأمر كذلك وجب أن يكون مفهوما (ورابعها) قوله (لعلمه الذين يستنبطونه منهم) والاستنباط منه لا يمكن إلا مع الاحاطة بمعناه (وخامسها) قوله (تبيانا لكل شىء) وقوله (مافرطنا فى الكتاب من شىء) (وسادسها) قوله (هدى للناس ، هدى للمتقين) وغير المعلوم لا يكون هدى (وسابعها) قوله (حكمة بالغة) وقوله (وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) وكل هذه الصفات لا تحصل فى غير المعلوم (وثامنها) قوله (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين) (وتاسعها) قوله (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ، إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) وكيف يكون الكتاب كافيا وكيف يكون ذكرى مع أنه غير مفهوم ؟ (وعاشرها) قوله تعالى (هذا بلاغ للناس ولينذروا به) فكيف يكون بلاغا ، وكيف يقع الانذار به مع أنه غير معلوم ؟ وقال فى آخر الآية (وليذكر أولوا الألباب) وانما يكون كذلك لو كان معلوما (الحادى عشر) قوله : (قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا) فكيف يكون برهان ونورا مبينا مع أنه غير معلوم ؟ (الثانى عشر) قوله (فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا) فكيف يمكن اتباعه والاعراض عنه غير معلوم ؟ (الثالث عشر) (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) فكيف يكون هاديا مع أنه غير معلوم ؟ (الرابع عشر) قوله تعالى (آمن الرسول - الى قوله سمعنا وأطعنا) والطاعة لا تمكن إلا بعد الفهم فوجب كون القرآن مفهوما

الاحتجاج بالأخبار

وأما الأخبار : فقوله عليه السلام « إنى تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وسنتى » فكيف يمكن التمسك به وهو غير معلوم ؟ وعن على رضى الله عنه أنه عليه السلام قال : عليكم بكتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغ الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، والذكر الحكيم والصراط المستقيم ، هو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن خاصم به فلج ، ومن دعا إليه هدى الى صراط مستقيم .

الاحتجاج بالمعقول

أما المعقول فمن وجوه (أحدها) : أنه لو ورد شىء لا سبيل إلى العلم به لكانت المخاطبة به تجرى مجرى مخاطبة العربى باللغة الزنجية ، ولما لم يجز ذلك فكذا هذا (وثانيها) أن المقصود من الكلام الافهام ، فلو لم يكن مفهوما لكانت المخاطبة به عبثا وسفها ، وانه لا يليق بالحكيم (وثالثها) أن التحدى وقع بالقرآن وما لا يكون معلوما لا يجوز وقوع التحدى به ، فهذا مجموع كلام المتكلمين ، واحتج مخالفوهم بالآية ، والخبر ، والمعقول .

احتجاج مخالفى المتكلمين بالآيات

أما الآية فهو أن المتشابه من القرآن وانه غير معلوم ، لقوله تعالى (وما يعلم تأويله إلا الله) والوقف ههنا واجب لوجوه (أحدها) أن قوله تعالى (والراسخون فى العلم) لو كان معطوفا على قوله (الا الله) لبقى (يقولون آمنا به) منقطعا عنه وانه غير جائز لأنه وحده لا يفيد ، لا يقال انه حال ،

لانا نقول حينئذ يرجع إلى كل ماتقدم ، فيلزم أن يكون الله تعالى قائلا آمنا به كل من عند ربنا وهذا كفر (وثانيها) أن الراسخين فى العلم لو كانوا عالمين بتأويله لما كان لتخصيصهم بالايمان به وجه ، فانهم لما عرفوه بالدلالة لم يكن الايمان به إلا كالايمان بالمحكم ، فلا يكون فى الايمان به مزيد مدح (وثالثها) : أن تأويلها لو كان مما يجب أن يعلم لما كان طلب ذلك التأويل ذما ، لكن قد جعله الله تعالى ذما حيث قال (فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله)

احتجاجهم بالخبر

وأما الخبر فقد روينا فى أول هذه المسئلة خبرا يدل على قولنا ، وروى أنه عليه السلام قال «ان من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله ، فاذا نطقوا به أنكره أهل الغرة بالله» ولأن القول بأن هذه الفواتح غير معلومة مروى عن اكابر الصحابة فوجب أن يكون حقا ، لقوله عليه السلام «أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»

احتجاجهم بالمعقول

وأما المعقول فهو أن الأفعال التى كلفنا بها قسمان . منها ما نعرف وجه الحكمة فيها على الجملة بعقولنا : كالصلاة والزكاة والصوم ؛ فان الصلاة تواضع محض وتضرع للخالق ، والزكاة سعى فى دفع حاجة الفقير ، والصوم سعى فى كسر الشهوة . ومنها مالانعرف وجه الحكمة فيه : كافعال الحج فاننا لانعرف بعقولنا وجه الحكمة فى رمى الجمرات والسعى بين الصفا والمروة ، والرمل ، والاضطباع ، ثم اتفق المحققون على انه كما يحسن من الله تعالى أن يأمر عباده بالنوع الأول فكذا يحسن الامر منه بالنوع الثانى ، لأن الطاعة فى النوع الاول لاتدل على كمال الانقياد لاحتمال أن المأمور إنما أتى به لما عرف بعقله من وجه المصلحة فيه ، أما الطاعة فى النوع الثانى فانه يدل على كمال الانقياد ونهاية التسليم ، لانه لما لم يعرف فيه وجه مصلحة البتة لم يكن إتيانه به إلا لمحض الانقياد والتسليم ، فاذا كان الامر كذلك فى الافعال فلم لايجوز ايضا أن يكون الامر كذلك فى الاقوال ؟ وهو أن يامرنا الله تعالى تارة أن نتكلم بما نقف على معناه ، وتارة بما لانقف على معناه ، ويكون المقصود من ذلك ظهور الانقياد والتسليم من المأمور للآمر ، بل فيه فائدة أخرى ، وهى أن الانسان إذا وقف على المعنى وأحاط به سقط وقعه عن القلب ، وإذا لم يقف على المقصود مع قطعه بأن المتكلم بذلك أحكم الحاكمين فانه يبقى قلبه ملتفتا إليه أبدا ، ومتفكرا فيه أبدا ، ولباب التكليف إشغال السر بذكر الله تعالى والتفكر فى كلامه ، فلا يبعد أن يعلم الله تعالى أن فى بقاء العبد ملتفت الذهن مشتغل الخاطر بذلك أبدا مصلحة عظيمة له ، فيتعبده بذلك تحصيلا لهذه المصلحة . فهذا ملخص كلام الفريقين فى هذا الباب

هل المراد من الفواتح معلوم

(القول الثانى) قول من زعم أن المراد من هذه الفواتح معلوم ، ثم اختلفوا فيه وذكروا وجوها (الأول) أنها أسماء السور ، وهو قول أكثر المتكلمين واختيار الخليل وسيبويه قال القفال : وقد سمت العرب بهذه الحروف أشياء ، فسموا بلام والد حارثة بن لام الطائى ، وكقولهم للنحاس : صاد ، وللنقد عين ، وللسحاب غين ، وقالوا : جبل قاف ، وسموا الحوت نونا ، (الثانى) أنها أسماء الله تعالى ، روى عن على عليه السلام أنه كان يقول «يا كهيعص ، ياحم عسق» (الثالث) أنها أبعاض

أسماء الله تعالى ، قال سعيد بن جبير : قوله (الر، حم ، ن) بمجموعها هو اسم الرحمن ، ولكننا لا نقدر على كيفية تركيبها فى البواقى ، (الرابع) أنها أسماء القرآن ، وهو قول الكلبى والسدى وقتادة (الخامس) أن كل واحد منها دال على اسم من أسماء الله تعالى وصفة من صفاته . قال ابن عباس رضى الله عنهما فى (الم) : الألف اشارة إلى أنه تعالى أحد ، أول ، آخر، أزلى ، أبدى ، واللام إشارة إلى أنه لطيف ، والميم إشارة إلى أنه ملك مجيد منان ، وقال فى (كهيعص) إنه ثناء من الله تعالى على نفسه ، والكاف يدل على كونه كافيا ، والهاء يدل على كونه هاديا ، والعين يدل على العالم ، والصاد يدل على الصادق وذكر ابن جرير عن ابن عباس أنه حمل الكاف على الكبير والكريم ، والياء على أنه يجير ، والعين على العزيز والعدل . والفرق بين هذين الوجهين أنه فى الأول خصص كل واحد من هذه الحروف باسم معين ، وفى الثانى ليس كذلك ، (السادس) بعضها يدل على أسماء الذات ، وبعضها على أسماء الصفات . قال ابن عباس فى (الم) أنا الله أعلم ، وفى (المص) أنا الله أفصل ، وفى (الر) أنا الله أرى ، وهذا رواية أبى صالح وسعيد بن جبير عنه . (السابع) كل واحد منها يدل على صفات الأفعال ، فالالف آلاؤه ، واللام لطفه ، والميم مجده . قاله محمد بن كعب القرظى . وقال الربيع ابن أنس : مامنها حرف الا فى ذكر آلائه ونعمائه . (الثامن) : بعضها يدل على أسماء الله تعالى وبعضها يدل على أسماء غير الله ، فقال الضحاك : الألف من الله ، واللام من جبريل ، والميم من محمد ، أى أنزل الله الكتاب على لسان جبريل إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، (التاسع) : كل واحد من هذه الحروف يدل على فعل من الافعال ، فالألف معناه ألف الله محمدا فبعثه نبيا ، واللام أى لامه الجاحدون ، والميم أى ميم الكافرون غيظوا وكبتوا بظهور الحق . وقال بعض الصوفية : الألف معناه أنا ، واللام معناه لى ، والميم معناه منى ، (العاشر) : ماقاله المبرد واختاره جمع عظيم من المحققين ـ إن الله تعالى إنما ذكرها احتجاجا على الكفار ، وذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما تحداهم أن يأتوا بمثل القرآن ، أو بعشر سور ، أو بسورة واحدة فعجزوا عنه أنزلت هذه الحروف تنبيها على أن القرآن ليس إلا من هذه الحروف ، وأنتم قادرون عليها ، وعارفون بقوانين الفصاحة ، فكان يجب أن تأتوا بمثل هذا القرآن ، فلما عجزتم عنه دل ذلك على أنه من عند الله لا من البشر ، (الحادى عشر) : قال عبد العزيز بن يحيى : إن الله تعالى إنما ذكرها لأن فى التقدير كأنه تعالى قال : اسمعوها مقطعة حتى إذا وردت عليكم مؤلفة كنتم قد عرفتموها قبل ذلك ، كما أن الصبيان يتعلمون هذه الحروف أولا مفردة ثم يتعلمون المركبات ، (الثانى عشر) : قول ابن روق وقطرب : إن الكفار لما قالوا (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) وتواصوا بالاعراض عنه أراد الله تعالى لما أحب من صلاحهم ونفعهم أن يورد عليهم ما لا يعرفونه ليكون ذلك سببا لاسكاتهم واستماعهم لما يرد عليهم من القرآن ؛ فأنزل الله تعالى عليهم هذه الحروف فكانوا إذا سمعوها قالوا كالمتعجبين : اسمعوا إلى مايجىء به محمد عليه السلام ، فاذا أصغوا هجم عليهم القرآن فكان ذلك سببا لاستماعهم وطريقا إلى انتفاعهم ، (الثالث عشر) : قول أبى العالية إن كل حرف منها فى مدة أقوام ، وآجال

آخرين ، قال ابن عباس رضى الله عنه : مر أبو ياسر بن أخطب برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يتلو سورة البقرة (الم ذلك الكتاب) ، ثم أتى أخوه حي بن أخطب وكعب بن الأشرف فسألوه عن الم وقالوا ننشدك الله الذى لا إله إلا هو أحق أنها أتتك من السماء ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : نعم كذلك نزلت ، فقال حي إن كنت صادقا انى لاعلم أجل هذه الأمة من السنين ، ثم قال كيف ندخل فى دين رجل دلت هذه الحروف بحساب الجمل على أن منتهى أجل أمته احدى وسبعون سنة ، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم فقال حي : فهل غير هذا ؟ فقال نعم (المص) ، فقال حي : هذا أكثر من الأول هذا مائة وإحدى وستون سنة ، فهل غير هذا ، قال : نعم (الر) ، فقال حي : هذا أكثر من الأولى والثانية ، فنحن نشهد إن كنت صادقا ما ملكت أمتك إلا مائتين وإحدى وثلاثين سنة ، فهل غير هذا ؟ فقال : نعم (المر) ، قال حي : فنحن نشهد أنا من الذين لا يؤمنون ولا ندرى بأى أقوالك نأخذ . فقال أبو ياسر : أما أنا فاشهد على أن أنبياءنا قد أخبرونا عن ملك هذه الأمة ولم يبينوا أنها كم تكون ، فان كان محمد صادقا فيما يقول إنى لأراه يستجمع له هذا كله فقام اليهود ، وقالوا اشتبه علينا أمرك كله ، فلا ندرى أبالقليل نأخذ أم بالكثير ؟ فذلك قوله تعالى (هو الذى أنزل عليك الكتاب) . (الرابع عشر) هذه الحروف تدل على انقطاع كلام واستئناف كلام آخر ، قال أحمد بن يحيى بن ثعلب : إن العرب إذا استأنفت كلاما فمن شأنهم أن يأتوا بشيء غير الكلام الذى يريدون استئنافه ، فيجعلونه تنبيها للمخاطبين على قطع الكلام الأول واستئناف الكلام الجديد . (الخامس عشر) : روى ابن الجوزى عن ابن عباس أن هذه الحروف ثناء أثنى الله عز وجل به على نفسه (السادس عشر) : قال الأخفش : إن الله تعالى أقسم بالحروف المعجمة لشرفها وفضلها ولأنها مبانى كتبه المنزلة بالألسنة المختلفة ، ومبانى أسماء الله الحسنى وصفاته العليا ، وأصول كلام الأمم ، بها يتعارفون ويذكرون الله ويوحدونه ثم إنه تعالى اقتصر على ذكر البعض وإن كان المراد هو الكل ، كما تقول قرأت الحمد ، وتريد السورة بالكلية ، فكأنه تعالى قال : أقسم بهذه الحروف إن هذا الكتاب هو ذلك الكتاب المثبت فى اللوح المحفوظ (السابع عشر) أن التكلم بهذه الحروف ، وإن كان معتادا لكل أحد ، إلا ان كونها مسماة بهذه الأسماء لا يعرفه إلا من اشتغل بالتعلم والاستفادة ، فلما أخبر الرسول عليه السلام عنها من غير سبق تعلم واستفادة كان ذلك إخبارا عن الغيب ؛ فلهذا السبب قدم الله تعالى ذكرها ليكون أول ما يسمع من هذه السورة معجزة دالة على صدقه (الثامن عشر) قال أبو بكر التبريزى : إن الله تعالى علم أن طائفة من هذه الأمة تقول بقدم القرآن فذكر هذه الحروف تنبيها على أن كلامه مؤلف من هذه الحروف ، فيجب أن لا يكون قديما (التاسع عشر) : قال القاضى الماوردى : المراد من « الم » أنه الم بكم ذلك الكتاب . أى نزل عليكم ، والالمام الزيارة ، وإنما قال تعالى ذلك لأن جبريل عليه السلام نزل به نزول الزائر (العشرون) الألف إشارة إلى ما لابد منه من الاستقامة فى أول الأمر ، وهو رعاية الشريعة ، قال تعالى (إن

الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) واللام اشارة إلى الانحناء الحاصل عند المجاهدات ، وهو رعاية الطريقة ، قال الله تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) والميم إشارة إلى أن يصير العبد فى مقام المحبة ، كالدائرة التى يكون نهايتها عين بدايتها وبدايتها عين نهايتها ، وذلك إنما يكون بالفناء فى الله تعالى بالكلية ، وهو مقام الحقيقة ، قال تعالى (قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون)

(الحادى والعشرون) : الألف من أقصى الحلق ، وهو أول مخارج الحروف ، واللام من طرف اللسان ، وهو وسط المخارج ، والميم من الشفة ، وهو آخر المخارج ، فهذه إشارة إلى أنه لا بد وأن يكون أول ذكر العبد ووسطه وآخره ليس إلا الله تعالى ، على ما قال (ففروا إلى الله)

كون فواتح السور أسماءها

والمختار عند أكثر المحققين من هذه الأقوال أنها أسماء السور ، والدليل عليه أن هذه الألفاظ إما أن لا تكون مفهومة ، أو تكون مفهومة ، والأول باطل ، أما أولا فلانه لو جاز ذلك لجاز التكلم مع العربى بلغة الزنج ، وأما ثانيا فلانه تعالى وصف القرآن أجمع بأنه هدى وذلك ينافى كونه غير معلوم . وأما القسم الثانى فنقول : إما أن يكون مراد الله تعالى منها جعلها أسماء الألقاب ، أو أسماء المعانى ، والثانى باطل ؛ لأن هذه الألفاظ غير موضوعة فى لغة العرب لهذه المعانى التى ذكرها المفسرون ، فيمتنع حملها عليها ؛ لأن القرآن نزل بلغة العرب ، فلا يجوز حملها على ما لا يكون حاصلا فى لغة العرب ؛ ولأن المفسرين ذكروا وجوها مختلفة ، وليست دلالة هذه الألفاظ على بعض ما ذكروه أولى من دلالتها على الباقى فاما أن يحمل على الكل ، وهو معتذر بالاجماع ؛ لأن كل واحد من المفسرين إنما حمل هذه الألفاظ على معنى واحد من هذه المعانى المذكورة ، وليس فيهم من حملها على الكل ، أولا يحمل على شىء منها ، وهو الباقى ، ولما بطل هذا القسم وجب الحكم بأنها من أسماء الألقاب

جعلها أسماء القاب او معانى

فان قيل : لم لا يجوز أن يقال : هذه الألفاظ غير معلومة ، قوله « لو جاز ذلك لجاز التكلم مع العربى بلغة الزنج » قلنا : ولم لا يجوز ذلك ؟ وبيانه أن الله تعالى تكلم بالمشكاة وهو بلسان الحبشة ، والسجيل والاستبرق فارسيان ، قوله « وصف القرآن أجمع بأنه هدى وبيان » قلنا : لا نزاع فى اشتمال القرآن على المجملات والمتشابهات ، فاذا لم يقدح ذلك فى كونه هدى وبيانا فكذا ههنا ، سلمنا أنها مفهومة ، لكن قولك « انها إما أن تكون من اسماء الألقاب أو من أسماء المعانى » إنما يصح لو ثبت كونها موضوعة لافادة أمر ما وذلك ممنوع ، ولعل الله تعالى تكلم بها لحكمة أخرى ، مثل ما قال قطرب من أنهم لما تواضعوا فى الابتداء على أن لا يلتفتوا إلى القرآن أمر الله تعالى رسوله بأن يتكلم بهذه الأحرف فى الابتداء حتى يتعجبوا عند سماعها فيسكتوا ، فحينئذ يهجم القرآن على اسماعهم ، سلمنا أنها موضوعة لأمر ما ، فلم لا يجوز أن يقال : إنها من أسماء المعانى ؟ قوله « انها فى اللغة غير موضعة لشىء البتة » قلنا لا نزاع فى أنها وحدها غير موضوعة لشىء ، ولكن لم لا يجوز أن يقال : انها مع القرينة المخصوصة تفيد معنى معينا ؟ وبيانه من وجوه :

(أحدها) : أنه عليه السلام كان يتحداهم بالقرآن مرة بعد أخرى فلما ذكر هذه الحروف دلت قرينة الحال على أن مراده تعالى من ذكرها أن يقول لهم : ان هذا القرآن إنما تركب من هذه الحروف التى أنتم قادرون عليها ، فلو كان هذا من فعل البشر لوجب أن تقدروا على الاتيان بمثله ، (وثانيها) : أن حمل هذه الحروف على حساب الجمل عادة معلومة عند الناس ، (وثالثها) : أن هذه الحروف لما كانت أصول الكلام كانت شريفة عزيزة ، فالله تعالى أقسم بها كما أقسم بسائر الأشياء ، (ورابعها) : أن الاكتفاء من الاسم الواحد بحرف واحد من حروفه عادة معلومة عند العرب ، فذكر الله تعالى هذه الحروف تنبيها على أسمائه تعالى .

سلمنا دليلكم لكنه معارض بوجوه : (أحدها) : أنا وجدنا السور الكثيرة اتفقت فى (الم) و (حم) فالاشتباه حاصل فيها ، والمقصود من اسم العلم ازالة الاشتباه

فان قيل : يشكل هذا بجماعة كثيرين يسمون بمحمد ؛ فان الاشتراك فيه لا ينافى العلمية . قلنا : قولنا (الم) لا يفيد معنى ألبتة ، فلو جعلناه علما لم يكن فيه فائدة سوى التعيين وازالة الاشتباه فاذا لم يحصل هذا الغرض امتنع جعله علما ، بخلاف التسمية بمحمد ، فان فى التسمية به مقاصد أخرى سوى التعيين ، وهو التبرك به لكونه اسما للرسول ، ولكونه دالا على صفة من صفات الشرف ، فجاز أن قصد التسمية به لغرض آخر من هذه الأغراض سوى التعيين ، بخلاف قولنا (الم) فانه لا فائدة فيه سوى التعيين ، فاذا لم يفد هذه الفائدة كانت التسمية به عبثا محضا ، (وثانيها) : لو كانت هذه الألفاظ أسماء للسور لوجب أن يعلم ذلك بالتواتر ؛ لأن هذه الأسماء ليست على قوانين اسماء العرب ، والأمور العجيبة تتوفر الدواعى على نقلها لا سيما فيما لا يتعلق باخفائه رغبة أو رهبة ، ولو توفرت الدواعى على نقلها لصار ذلك معلوما بالتواتر وارتفع الخلاف فيه ، فلما لم يكن الأمر كذلك علمنا أنها ليست من أسماء السور ، (وثالثها) : أن القرآن نزل بلسان العرب ، وهم ما تجاوزوا ما سموا به مجموع اسمين نحو معديكرب وبعلبك ، ولم يسم أحد منهم بمجموع ثلاثة أسماء وأربعة وخمسة ، فالقول بأنها أسماء السور خروج عن لغة العرب ، وانه غير جائز ، (ورابعها) : أنها لو كانت أسماء هذه السور لوجب اشتهار هذه السور بها لا بسائر الأسماء ، لكنها انما اشتهرت بسائر الأسماء ، كقولهم سورة البقرة وسورة آل عمران ، (وخامسها) : هذه الألفاظ داخلة فى السورة وجزء منها ، وجزء الشىء مقدم على الشىء بالرتبة ، واسم الشىء متأخر عن الشىء بالرتبة ، فلو جعلناها اسما للسورة لزم التقدم والتأخر معا ، وهو محال ، فان قيل : مجموع قولنا «صاد» اسم للحرف الأول منه ، فاذا جاز أن يكون المركب اسما لبعض مفرداته فلم لا يجوز أن تكون بعض مفردات ذلك المركب اسما لذلك المركب ؟ قلنا : الفرق ظاهر ؛ لأن المركب يتأخر عن المفرد ، والاسم يتأخر عن المسمى ، فلو جعلنا المركب اسما للمفرد لم يلزم إلا تاخر ذلك المركب عن ذلك المفرد من وجهين ، وذلك غير مستحيل ، أما لو جعلنا المفرد اسما للمركب لزم من حيث انه مفرد كونه متقدما ومن حيث انه اسم كونه متاخرا ،

ذَٰلِكَ ٱلْكِتَابُ

سيبويه مثله فى حم وطس ويس لو قرىء به ، وحكى السيرافى أن بعضهم قرأ « يس » بفتح النون ؛ وأن يكون الفتح جرا ، وذلك بأن يقدرها مجرورة باضمار الباء القسمية ، فقد جاء عنهم : « الله لأفعلن » غير انها فتحت فى موضع الجر لكونها غير مصروفة ، ويتأكد هذا بما روينا عن بعضهم « ان الله تعالى أقسم بهذه الحروف » ، وثانيتهما : قراءة بعضهم صاد بالكسر . وسببه التحريك لالتقاء الساكنين . أما القسم الثانى ـ وهو مالا يتأتى الاعراب فيه ـ فهو يجب أن يكون محكيا ، ومعناه أن يجاء بالقول بعد نقله على استبقاء صورته الأولى كقولك: «دعنى من تمرتان»

الثانى : أن الله تعالى أورد فى هذه الفواتح نصف أسامى حروف المعجم : أربعة عشر سواء ، وهى : الالف ، واللام ، والميم ، والصاد ، والراء ، والكاف ، والهاء ، والياء ، والعين والطاء ، والسين ، والحاء ، والقاف ، والنون فى تسع وعشرين سورة

الثالث : هذه الفواتح جاءت مختلفة الاعداد ، فوردت « ص ق ن » على حرف ، و« طه وطس ويس وحم » على حرفين ، و« الم والر وطسم » على ثلاثة أحرف ، والمص والمر على أربعة أحرف ، و « كهيعص وحم عسق » على خمسة أحرف ، والسبب فيه أن أبنية كلماتهم على حرف وحرفين إلى خمسة أحرف فقط فكذا ههنا

الرابع : هل لهذه الفواتح محل من الاعراب أم لا ؟ فنقول : إن جعلناها أسماء للسور فنعم ، ثم يحتمل الأوجه الثلاثة ، أما الرفع فعلى الابتداء ، وأما النصب والجر فلما مر من صحة القسم بها ، ومن لم يجعلها أسماء للسور لم يتصور أن يكون لها محل على قوله ، كما لا محل للجمل المبتدأة وللمفردات المعدودة

الاشارة فى «ذلك الكتاب»

قوله تعالى ﴿ ذلك الكتاب ﴾ وفيه مسائل

(المسألة الأولى) لقائل أن يقول : المشار إليه ههنا حاضر ، و« ذلك » اسم مبهم يشار به إلى البعيد ، والجواب عنه من وجهين : الأول : لانسلم أن المشار إليه حاضر ، وبيانه من وجوه أحدها : ما قاله الأصم : وهو أن الله تعالى أنزل الكتاب بعضه بعد بعض ، فنزل قبل سورة البقرة سور كثيرة ، وهى كل مانزل بمكة مما فيه الدلالة على التوحيد وفساد الشرك واثبات النبوة واثبات المعاد ، فقوله ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى تلك السور التى نزلت قبل هذه السورة ، وقد يسمى بعض القرآن قرآنا ، قال الله تعالى (واذا قرىء القرآن فاستمعوا له) وقال حاكيا عن الجن (إنا سمعنا قرآنا عجبا) وقوله (انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى) وهم ما سمعوا إلا البعض ، وهو الذى كان قد نزل إلى ذلك الوقت ، وثانيها : أنه تعالى وعد رسوله عند مبعثه أن ينزل عليه كتابا لا يمحوه الماحى ، وهو عليه السلام أخبر أمته بذلك وروت الامة ذلك عنه ،

ويؤيده قوله ﴿ إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا ﴾ وهذا فى سورة المزمل ، وهى إنما نزلت فى ابتداء المبعث ، وثالثها : أنه تعالى خاطب بنى اسرائيل ، لأن سورة البقرة مدنية ، وأكثرها احتجاج على بنى اسرائيل ، وقد كانت بنو إسرائيل أخبرهم موسى وعيسى عليهما السلام ان الله يرسل محمدا صلى الله عليه وسلم وينزل عليه كتابا فقال تعالى ﴿ ذلك الكتاب ﴾ أى الكتاب الذى أخبر الأنبياء المتقدمون بأن الله تعالى سينزله على النبى المبعوث من ولد اسماعيل ، ورابعها : أنه تعالى لما أخبر عن القرآن بأنه فى اللوح المحفوظ بقوله ﴿ وإنه فى أم الكتاب لدينا ﴾ وقد كان عليه السلام أخبر أمته بذلك ، فغير ممتنع أن يقول تعالى ﴿ ذلك الكتاب ﴾ ليعلم أن هذا المنزل هو ذلك الكتاب المثبت فى اللوح المحفوظ . وخامسها : أنه وقعت الاشارة بذلك الى «الم» بعد ما سبق التكلم به وانقضى ، والمنقضى فى حكم المتباعد ، وسادسها : أنه لما وصل من المرسل إلى المرسل إليه وقع فى حد البعد ، كما تقول لصاحبك — وقد أعطيته شيئاً — احتفظ بذلك . وسابعها : أن القرآن لما اشتمل على حكم عظيمة وعلوم كثيرة يتعسر اطلاع القوة البشرية عليها بأسرها — والقرآن وإن كان حاضرا نظراً إلى صورته لكنه غائب نظراً إلى أسراره وحقائقه — فجاز أن يشار إليه كما يشار إلى البعيد الغائب

« ذلك » يشار بها للقريب والبعيد

(المقام الثانى) : سلمنا أن المشار إليه حاضر ، لكن لا نسلم أن لفظة « ذلك » لا يشار بها إلا إلى البعيد ، بيانه أن ذلك ، وهذا حرفا إشارة ، وأصلهما «ذا» ؛ لانه حرف للاشارة ، قال تعالى ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا ﴾ ومعنى «ها» تنبيه ، فاذا قرب الشىء أشير إليه فقيل : هذا ، أى تنبه أيها المخاطب لما أشرت اليه فانه حاضر لك بحيث تراه . وقد تدخل الكاف على « ذا » للمخاطبة واللام لتأكيد معنى الاشارة فقيل « ذلك » فكأن المتكلم بالغ فى التنبيه لتأخر المشار إليه عنه ، فهذا يدل على أن لفظة ذلك لا تفيد البعد فى أصل الوضع ، بل اختص فى العرف بالاشارة إلى البعيد للقرينة التى ذكرناها ، فصارت كالدابة ، فانها مختصة فى العرف بالفرس ، وإن كانت فى أصل الوضع متناولة لكل ما يدب على الارض ، وإذا ثبت هذا فنقول : إنا نحمله ههنا على مقتضى الوضع اللغوى ، لا على مقتضى الوضع . العرفى ، وحينئذ لا يفيد البعد ؛ ولاجل هذه المقاربة يقام كل واحد من اللفظين مقام الآخر قال تعالى ﴿ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق — إلى قوله — وكل من الاخيار ﴾ ثم قال ﴿ هذا ذكر ﴾ وقال ﴿ وعندهم قاصرات الطرف أتراب هذا ما توعدون ليوم الحساب ﴾ وقال ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ وقال ﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والاولى إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ وقال ﴿ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ﴾ ثم قال ﴿ إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين ﴾ وقال ﴿ فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ﴾ أى هكذا يحيى الله الموتى ، وقال ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ﴾ أى ما هذه التى بيمينك والله أعلم .

(المسئلة الثانية) : لقائل أن يقول : لم ذكر اسم الاشارة والمشار اليه مؤنث ، وهو السورة ،

الجواب : لا نسلم أن المشار اليه مؤنث ؛ لأن المؤنث إما المسمى أو الاسم ، والأول باطل ، لأن المسمى هو ذلك البعض من القرآن وهو ليس بمؤنث ، وأما الاسم فهو (الم) وهو ليس بمؤنث ، نعم ذلك المسمى له اسم آخر ــ وهو السورة ــ وهو مؤنث ، لكن المذكور السابق هو الاسم الذى ليس بمؤنث وهو (الم) ، لا الذى هو مؤنث وهو السورة

مدلول لفظ « كتاب »

(المسئله الثالثة) : اعلم أن أسماء القرآن كثيرة : أحدها : الكتاب وهو مصدر كالقيام والصيام وقيل : فعال بمعنى مفعول كاللباس بمعنى الملبوس ، واتفقوا على أن المراد من الكتاب القرآن قال (كتاب أنزلناه إليك) والكتاب جاء فى القرآن على وجوه : أحدها : الفرض (كتب عليكم القصاص) (كتب عليكم الصيام) (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) وثانيها : الحجة والبرهان (فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين) أى برهانكم . وثالثها : الأجل (وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم) أى أجل . ورابعها : بمعنى مكاتبة السيد عبده (والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم) وهذا المصدر فعال بمعنى المفاعلة كالجدال والخصام والقتال بمعنى المجادلة والمخاصمة والمقاتلة ، واشتقاق الكتاب من كتبت الشيء إذا جمعته ، وسميت الكتيبة لاجتماعها ، فسمى الكتاب كتابا لأنه كالكتيبة على عساكر الشبهات ، أو لأنه اجتمع فيه جميع العلوم ، أو لأن الله تعالى ألزم فيه التكاليف على الخلق .

اشتقاق لفظ « قرآن »

وثانيها : القرآن ﴿ قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ﴾ (إنا جعلناه قرآنا عربيا) (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن) . (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) وللمفسرين فيه قولان : أحدهما : قول ابن عباس ان القرآن والقراءة واحد ، كالخسران والخسارة واحد ، والدليل عليه قوله (فاذا قرأناه فاتبع قرآنه) أى تلاوته ، أى اذا تلوناه عليك فاتبع تلاوته : الثانى : وهو قول قتادة أنه مصدر من قول القائل : قرأت الماء فى الحوض إذا جمعته ، وقال سفيان ابن عيينة : سمى القرآن قرآنا لأن الحروف جمعت فصارت كلمات ، والكلمات جمعت فصارت آيات ، والآيات جمعت فصارت سورا ، والسور جمعت فصارت قرآنا ، ثم جمع فيه علوم الأولين والآخرين . فالحاصل أن اشتقاق لفظ القرآن إما من التلاوة أو من الجمعية .

معنى الفرقان

وثالثها : الفرقان (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده) . (وبينات من الهدى والفرقان) واختلفوا فى تفسيره ، فقيل : سمى بذلك لأن نزوله كان متفرقا أنزله فى نيف وعشرين سنة ، ودليله قوله تعالى (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا) ونزلت سائر الكتب جملة واحدة ، ووجه الحكمة فيه ذكرناه فى سورة الفرقان فى قوله تعالى (وقالوا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك) وقيل : سمى بذلك لأنه يفرق بين الحق والباطل ، والحلال والحرام ، والمجمل والمبين ، والمحكم والمؤول ، وقيل : الفرقان هو النجاة ، وهو قول عكرمه والسدى ، وذلك لأن الخلق فى ظلمات الضلالات فبالقرآن وجدوا النجاة ،

وعليه حمل المفسرون قوله (وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون)

معنى تسميته بالذكر

ورابعها : الذكر ، والتذكرة ، والذكرى . أما الذكر فقوله (وهذا ذكر مبارك أنزلناه) (إنا نحن نزلنا الذكر) . (وإنه لذكر لك ولقومك) وفيه وجهان : أحدهما : أنه ذكر من الله تعالى ذكر به عباده فعرفهم تكاليفه وأوامره . والثانى : أنه ذكر وشرف وفخر لمن آمن به ، وأنه شرف لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وأمته ، وأما التذكرة فقوله (وإنه لتذكرة للمتقين) وأما الذكرى فقوله تعالى (وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين)

تسميته تنزيلا وحديثا

وخامسها : التنزيل (وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الامين)

وسادسها : الحديث (الله نزل أحسن الحديث كتابا) سماه حديثا ؛ لان وصوله إليك حديث ، ولأنه تعالى شبهه بما يتحدث به ، فان الله خاطب به المكلفين

وسابعها : الموعظة (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم) وهو فى الحقيقة موعظة لأن القائل هو الله تعالى ، والآخذ جبريل ، والمستملى محمد صلى الله عليه وسلم ، فكيف لا تقع به الموعظة

تسميته بالحكم والحكمة

وثامنها : الحكم ، والحكمة ، والحكيم ، والمحكم ، أما الحكم فقوله (وكذلك أنزلناه حكما عربيا) وأما الحكمة فقوله (حكمة بالغة) (واذكرن مايتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة) وأما الحكيم فقوله (يس والقرآن الحكيم) وأما المحكم فقوله (كتاب أحكمت آياته) واختلفوا فى معنى الحكمة ، فقال الخليل : هو مأخوذ من الأحكام والالزام ، وقال المؤرج : هو مأخوذ من حكمة اللجام ؛ لأنها تضبط الدابة ، والحكمة تمنع من السفه

معنى الحكمة

وتاسعها : الشفاء (وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين) وقوله (وشفاء لما فى الصدور) وفيه وجهان : أحدهما : أنه شفاء من الأمراض . والثانى : أنه شفاء من مرض الكفر ، لأنه تعالى وصف الكفر والشك بالمرض ، فقال (فى قلوبهم مرض) وبالقرآن يزول كل شك عن القلب ، فصح وصفه بأنه شفاء

كونه هدي وهاديا

وعاشرها : الهدى ، والهادى : أما الهدى فلقوله (هدى للمتقين) . (هدى للناس) . (وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) وأما الهادى (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) وقالت الجن (إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد)

الحادى عشر : الصراط المستقيم : قال ابن عباس فى تفسيره : إنه القرآن ، وقال : (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه)

والثانى عشر : الحبل : (واعتصموا بحبل الله جميعا) فى التفسير : انه القرآن . وانما سمى به لأن المعتصم به فى أمور دينه يتخلص به من عقوبة الآخرة ونكال الدنيا ، كما أن المتمسك بالحبل ينجو من الغرق والمهالك ، ومن ذلك سماه النبي صلى الله عليه وسلم عصمة فقال « إن هذا القرآن

عصمة لمن اعتصم به » لأنه يعصم الناس من المعاصى

الثالث عشر : الرحمة (وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين) وأى رحمة فوق التخليص من الجهالات والضلالات

تسميته بالروح

الرابع عشر : الروح (وكذلك أوحينا إليك روحا من امرنا) . (ينزل الملائكة بالروح من أمره) وإنما سمى به لأنه سبب لحياة الأرواح ، وسمى جبريل بالروح (فأرسلنا إليها روحنا) وعيسى بالروح (ألقاها إلى مريم وروح منه)

الخامس عشر : القصص (نحن نقص عليك أحسن القصص) سمى به لأنه يجب اتباعه (وقالت لأخته قصيه) أى اتبعى أثره ؛ أو لأن القرآن يتتبع قصص المتقدمين ، ومنه قوله تعالى (إن هذا لهو القصص الحق)

السادس عشر : البيان ، والتبيان ، والمبين : أما البيان فقوله (هذا بيان للناس) والتبيان فهو قوله (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء) وأما المبين فقوله (تلك آيات الكتاب المبين)

السابع عشر : البصائر (هذا بصائر من ربكم) أى هى أدلة يبصر بها الحق تشبيها بالبصر الذى يرى طريق الخلاص

الثامن عشر . الفصل (إنه لقول فصل وماهو بالهزل) واختلفوا فيه ، فقيل معناه القضاء ، لأن الله تعالى يقضى به بين الناس بالحق قيل لأنه يفصل بين الناس يوم القيامة فيهدى قوما إلى الجنة ويسوق آخرين إلى النار ، فمن جعله إمامه فى الدنيا قاده إلى الجنة ، ومن جعله وراءه ساقه إلى النار .

تسميته بالنجوم

التاسع عشر : النجوم (فلا أقسم بمواقع النجوم) (والنجم إذاهوى) لأنه نزل نجما نجما

العشرون : المثانى : (مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم) قيل لأنه ثنى فيه القصص والأخبار

تسميه القرآن نعمة وبرهانا

الحادى والعشرون : النعمة : (وأما بنعمة ربك فحدث) قال إبن عباس يعنى به القرآن

الثانى والعشرون : البرهان (قد جاءكم برهان من ربكم) وكيف لا يكون برهانا وقد عجزت الفصحاء عن أن يأتوا بمثله

الثالث والعشرون : البشير والنذير ، وبهذا الاسم وقعت المشاركة بينه وبين الأنبياء قال تعالى فى صفة الرسل (مبشرين ومنذرين) وقال فى صفة محمد صلى الله عليه وسلم (إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً) وقال فى صفة القرآن فى حم السجدة (بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم) يعنى مبشراً بالجنة لمن أطاع وبالنار منذراً لمن عصى ، ومن ههنا نذكر الأسماء المشتركة بين الله تعالى وبين القرآن

تسميته قيما

الرابع والعشرون : القيم (قيما لينذر بأساً شديداً) والدين أيضا قيم (ذلك الدين القيم) والله سبحانه هو القيوم (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) وإنما سمى قيما لأنه قائم بذاته فى البيان والإفادة

الخامس والعشرون : المهيمن (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه) وهو مأخوذ من الأمين ، وإنما وصف به لأنه من تمسك بالقرآن أمن الضرر فى

الدنيا والآخرة ، والرب المهيمن أنزل الكتاب المهيمن على النبي الأمين لأجل قوم هم أمناء الله تعالى على خلقه كما قال (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس)

السادس والعشرون : الهادى (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) وقال (يهدى إلى الرشد) والله تعالى هو الهادى لأنه جاء فى الخبر « النور الهادى »

تسميته نورا

السابع والعشرون : النور (الله نور السموات والأرض) وفى القرآن (واتبعوا النور الذى أنزل معه) يعنى القرآن وسمى الرسول نوراً (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين) يعنى محمد وسمى دينه نوراً (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم) وسمى بيانه نوراً (أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه) وسمى التوراة نوراً (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور) وسمى الانجيل نوراً (وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور) وسمى الايمان نوراً (يسعى نورهم بين أيديهم) .

الثامن والعشرون : الحق : ورد فى الاسماء « الباعث الشهيد الحق » والقرآن حق (وإنه لحق اليقين) فسماه الله حقا : لأنه ضد الباطل فيزيل الباطل كما قال (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق) أى ذاهب زائل .

التاسع والعشرون : العزيز (وإن ربك لهو العزيز الرحيم) وفى صفة القرآن (وإنه لكتاب عزيز) والنبى عزيز (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه) والأمة عزيزة (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) فرب عزيز أنزل كتابا عزيزاً على نبى عزيز لأمة عزيزة ، وللعزيز معنيان أحدهما : القاهر ، والقرآن كذلك ؛ لأنه هو الذى قهر الأعداء وامتنع على من أراد معارضته . والثانى : أن لا يوجد مثله .

تسمية القرآن بالكريم

الثلاثون : الكريم (وإنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون) واعلم أنه تعالى سمى سبعة أشياء بالكريم (ما غرك بربك الكريم) إذ لا جواد إجود منه ، والقرآن بالكريم ، لأنه لا يستفاد من كتاب من الحكم والعلوم ما يستفاد منه ، وسمى موسى كريما (وجاءهم رسول كريم) وسمى ثواب الأعمال كريما (فبشره بمغفرة وأجر كريم) وسمى عرشه كريما (الله لا إله إلا هو رب العرش الكريم) لانه منزل الرحمة ، وسمى جبريل كريما (إنه لقول رسول كريم) ومعناه أنه عزيز ، وسمى كتاب سليمان كريما (إنى ألقى إلى كتاب كريم) فهو كتاب كريم من رب كريم نزل به ملك كريم على نبى كريم لأجل أمة كريمة ، فاذا تمسكوا به نالوا ثوابا كريماً .

ومن أسمائه « العظيم »

الحادى والثلاثون : العظيم :(ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم) واعلم أنه تعالى سمى نفسه عظيما فقال (وهو العلى العظيم) وعرشه عظيما (وهو رب العرش العظيم) وكتابه عظيما (والقرآن العظيم) ويوم القيامة عظيما (ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين) والزلزلة عظيمة (إن زلزلة الساعة شىء عظيم) وخلق الرسول عظيما (وإنك لعلى خلق عظيم) والعلم عظيما (وكان فضل الله عليك عظيما) وكيد النساء عظيما (إن كيدكن عظيم) وسحر سحرة

لَا رَيْبَ فِيهِ

فرعون عظيما (وجاؤا بسحر عظيم) وسمى نفس الثواب عظيما (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما) وسمى عقاب المنافقين عظيما (ولهم عذاب عظيم)

ومنها المبارك

الثانى والثلاثون : المبارك : (وهذا ذكر مبارك) وسمى الله تعالى به أشياء ، فسمى الموضع الذى كلم فيه موسى عليه السلام مباركا (فى البقعة المباركة من الشجرة) وسمى شجرة الزيتون مباركة (يوقد من شجرة مباركة زيتونة) لكثرة منافعها ، وسمى عيسى مباركا (وجعلنى مباركا) وسمى المطر مباركا (وأنزلنا من السماء ماء مباركا) لما فيه من المنافع ، وسمى ليلة القدر مباركة (إنا أنزلناه فى ليلة مباركة) فالقرآن ذكر مبارك انزله ملك مبارك فى ليلة مباركة على نبى مبارك لأمة مباركة

اتصال «الم» بقوله «ذلك الكتاب»

﴿المسألة الرابعة﴾ : فى بيان اتصال قوله (الم) بقوله (ذلك الكتاب) قال صاحب الكشاف : إن جعلت (الم) اسما للسورة ففى التأليف وجوه :

الأول : أن يكون (الم) مبتدأو (ذلك) مبتدأ ثانيا و (الكتاب) خبره والجملة خبر المبتدأ الأول ، ومعناه أن ذلك هو الكتاب الكامل ، كأن ما عداه من الكتب فى مقابلته ناقص ، وإنه الذى يستأهل أن يكون كتابا كما تقول : هو الرجل ، أى الكامل فى الرجولية الجامع لما يكون فى الرجال من مرضيات الخصال ، وأن يكون الكتاب صفة ، ومعناه هوذلك الكتاب الموعود ، وأن يكون (الم) خبر مبتدأ محذوف أى هذه (الم) ويكون (ذلك الكتاب) خبراً ثانيا أو بدلا على أن الكتاب صفة ، ومعناه هو ذلك ، وأن تكون هذه (الم) جملة و (ذلك الكتاب) جملة أخرى وإن جعلت (الم) بمنزلة الصوت كان (ذلك) مبتدأ وخبره (الكتاب) أى ذلك الكتاب المنزل هو الكتاب الكامل ، أو الكتاب صفة والخبر ما بعده أو قدر مبتدأ محذوف ، أى هو يعنى المؤلف من هذه الحروف ذلك الكتاب وقرأ عبد الله (الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه) وتأليف هذا ظاهر .

قوله تعالى ﴿ لاريب فيه ﴾ فيه مسألتان

تفسير قوله تعالى « لاريب فيه »

(المسألة الأولى) : الريب قريب من الشك ، وفيه زيادة ، كأنه ظن سوء تقول رابنى أمر فلان إذا ظننت به سوء ، ومنها قوله عليه السلام « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » فان قيل : قد يستعمل الريب فى قولهم « ريب الدهر » و « ريب الزمان » أى حوادثه قال الله تعالى (نتربص به ريب المنون) ويستعمل أيضا فى معنى مايختلج فى القلب من أسباب الغيظ كقول الشاعر :

قضينا من تهامة كل ريب وخيبر ثم أجمعنا السيوفا

قلنا : هذان قد يرجعان إلى معنى الشك ، لأن مايخاف من ريب المنون محتمل ، فهو كالمشكوك

هُدًى لِلْمُتَّقِينَ

فيه ، وكذلك ما اختلج بالقلب فهو غير متيقن ، فقوله تعالى (لا ريب فيه) المراد منه نفى كونه مظنة للريب بوجه من الوجوه ، والمقصود انه لاشبهة فى صحته ، ولا فى كونه من عند الله ، ولا فى كونه معجزا . ولو قلت : المراد لا ريب فى كونه معجزا على الخصوص كان أقرب لتأكيد هذا التأويل بقوله (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا) وهاهنا سؤالات : (السؤال الأول) : طعن بعض الملحدة فيه فقال : ان عنى انه لا شك فيه عندنا فنحن قد نشك فيه ، وان عنى أنه لاشك فيه عنده فلا فائدة فيه . الجواب : المراد أنه بلغ فى الوضوح إلى حيث لاينبغى لمرتاب أن يرتاب فيه ، والأمر كذلك ؛ لأن العرب مع بلوغهم فى الفصاحة إلى النهاية عجزوا عن معارضة أقصر سورة من القرآن ، وذلك يشهد بأنه بلغت هذه الحجة فى الظهور إلى حيث لا يجوز للعاقل أن يرتاب فيه . السؤال الثانى : لم قال ههنا (لاريب فيه) وفى موضع آخر (لافيها غول) ؟ الجواب : لانهم يقدمون الأهم فالأهم ، وههنا الأهم نفى الريب بالكلية عن الكتاب ، ولو قلت : لافيه ريب لأوهم أن هناك كتابا آخرحصل الريب فيه لاهاهنا ، كما قصد فى قوله (لافيها غول) تفضيل خمر الجنة على خمور الدنيا ، فانها لا تغتال العقول كما تغتالها خمرة الدنيا السؤال الثالث : من أين يدل قوله (لا ريب فيه) على نفى الريب بالكلية ؟ الجواب : قرأ أبو الشعثاء (لاريب فيه) بالرفع . واعلم أن القراءة المشهورة توجب ارتفاع الريب بالكلية ، والدليل عليه أن قوله (لاريب) نفى لماهية الريب ونفى الماهية يقتضى نفى كل فرد من أفراد الماهية ، لأنه لو ثبت فرد من أفراد الماهية لثبتت الماهية ، وذلك يناقض نفى الماهية ، ولهذا السر كان قولنا « لا إله إلا الله » نفيا لجميع الآلهة سوى الله تعالى . وأما قولنا « لا ريب فيه » بالرفع فهو نقيض لقولنا : « ريب فيه » وهو يفيد ثبوت فرد واحد ، فذلك النفى يوجب انتفاء جميع الافراد ليتحقق التناقض .

الوقف على «فيه»

(المسألة الثانية) الوقف على (فيه) هو المشهور ، وعن نافع وعاصم انهما وقفا على (لا ريب) ولابد للواقف من أن ينوى خبرا ، ونظيره قوله (قالوا لاضير) وقول العرب : لا بأس ، وهى كثيرة فى لسان أهل الحجاز ؛ والتقدير : لاريب فيه فيه هدى . واعلم أن القراءة الأولى أولى ؛ لأن على القراءة الأولى يكون الكتاب نفسه هدى ، وفى الثانية لا يكون الكتاب نفسه هدى بل يكون فيه هدى . والأول أولى لما تكرر فى القرآن من أن القرآن نور وهدى والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ هدى للمتقين ﴾ فيه مسائل

حقيقة الهدى

(المسألة الأولى) : فى حقيقة الهدى : الهدى عبارة عن الدلالة ، وقال صاحب الكشاف : الهدى هو الدلالة الموصلة إلى البغية ، وقال آخرون : الهدى هو الاهتداء والعلم . والذى يدل

على صحة القول الأول وفساد القول الثانى والثالث أنه لو كان كون الدلالة موصلة إلى البغية معتبرا فى مسمى الهدى لامتنع حصول الهدى عند عدم الاهتداء ، لأن كون الدلالة موصلة إلى الاهتداء حال عدم الاهتداء محال ، لكنه غير ممتنع بدليل قوله تعالى (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) أثبت الهدى مع عدم الاهتداء ، ولأنه يصح فى لغة العرب أن يقال : هديته فلم يهتد ، وذلك يدل على قولنا ، واحتج صاحب الكشاف بأمور ثلاثة : أولها : وقوع الضلالة فى مقابلة الهدى ، قال تعالى (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) وقال (لعلى هدى أو فى ضلال مبين) وثانيها : يقول مهدى فى موضع المدح كمهتدى ، فلو لم يكن من شرط الهدى كون الدلالة موصلة إلى البغية لم يكن الوصف بكونه مهديا مدحا لاحتمال أنه هدى فلم يهتد وثالثها : أن اهتدى مطاوع هدى يقال : هديته فاهتدى ، كما يقال : كسرته فانكسر ، وقطعته فانقطع فكما أن الانكسار والانقطاع لا زمان للكسر والقطع ، وجب أن يكون الاهتداء من لوازم الهدى . والجواب عن الأول : أن الفرق بين الهدى وبين الاهتداء معلوم بالضرورة ، فمقابل الهدى هو الاضلال ومقابل الاهتداء هو الضلال ، فجعل الهدى فى مقابلة الضلال ممتنع ، وعن الثانى : أن المنتفع بالهدى سمى مهديا . وغير منتفع به لا يسمى مهديا ؛ ولأن الوسيلة إذا لم تفض إلى المقصود كانت نازلة منزلة المعدوم . وعن الثالث : أن الائتمار مطاوع الأمر يقال : أمرته فائتمر ، ولم يلزم منه أن يكون من شرط كونه آمرا حصول الائتمار ، فكذا هذا لا يلزم من كونه هدى أن يكون مفضيا إلى الاهتداء ، على أنه معارض بقوله : هديته فلم يهتد ، ومما يدل على فساد قول من قال الهدى هو العلم خاصة أن الله تعالى وصف القرآن بانه هدى ولا شك أنه فى نفسه ليس بعلم ، فدل على أن الهدى هو الدلالة لا الاهتداء والعلم .

معنى المتقى

(المسألة الثانية) المتقى فى اللغة اسم فاعل من قولهم وقاه فاتقى ، والوقاية فرط الصيانة ، إذا عرفت هذا فنقول : إن الله تعالى ذكر المتقى ههنا فى معرض المدح ، ومن يكون كذلك أولى بأن يكون متقيا فى أمور الدنيا ، بل بأن يكون متقيا فيما يتصل بالدين ، وذلك بأن يكون آتيا بالعبادات محترزا عن المحظورات . واختلفوا فى أنه هل يدخل اجتناب الصغائر فى التقوى ؟ فقال بعضهم : يدخل كما يدخل الصغائر فى الوعيد ، وقال آخرون : لا يدخل ، ولا نزاع فى وجوب التوبة عن الكل ، إنما النزاع فى أنه إذا لم يتوق الصغائر هل يستحق هذا الاسم ؟ فروى عنه عليه السلام أنه قال : « لا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع مالا بأس به حذرا مما به البأس » وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أنهم الذين يحذرون من الله العقوبة فى ترك ما يميل الهوى إليه ، ويرجون رحمته بالتصديق بما جاء منه . واعلم أن التقوى هى الخشية ، قال فى أول النساء (يا أيها الناس اتقوا ربكم) ومثله فى أول الحج ، وفى الشعراء (إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون) يعنى ألا تخشون الله ، وكذلك قال هود وصالح ، ولوط ، وشعيب لقومهم ، وفى العنكبوت قال إبراهيم لقومه (اعبدوا الله واتقوه) يعنى اخشوه ، وكذا قوله (اتقوا الله حق تقاته) (وتزودوا فان خير الزاد التقوى) (واتقوا يوما

لاتجزى نفس عن نفس شيئا) واعلم ان حقيقة التقوى وان كانت هى التى ذكرناها الا انها قد جاءت فى القرآن، والغرض الاصلى منها الايمان تارة، والتوبة أخرى، والطاعة ثالثة، وترك المعصية رابعا، والاخلاص خامسا. أما الايمان فقوله تعالى (وألزمهم كلمة التقوى) أى التوحيد (أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى) وفى الشعراء (قوم فرعون ألا يتقون) أى ألا يؤمنون وأما التوبة فقوله (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا) أى تابوا، وأما الطاعة فقوله فى النحل (أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون) وفيه أيضا (أفغير الله تتقون) وفى المؤمنين (وأنا ربكم فاتقون) وأما ترك المعصية فقوله (وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله) أى فلا تعصوه، وأما الاخلاص فقوله فى الحج (فإنها من تقوى القلوب) أى من اخلاص القلوب، فكذا قوله (وإياى فاتقون) واعلم أن مقام التقوى مقام شريف قال تعالى (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) وقال (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وعن ابن عباس قال عليه السلام «من أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله، ومن أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما فى يد الله أوثق بما فى يده» وقال على بن أبى طالب: التقوى ترك الاصرار على المعصية، وترك الاغترار بالطاعة. قال الحسن: التقوى أن لاتختار على الله سوى الله، وتعلم أن الأمور كلها بيد الله. وقال إبراهيم بن أدهم: التقوى أن لايجد الخلق فى لسانك عيبا. ولا الملائكة فى أفعالك عيبا ولاملك العرش فى سرك عيبا وقال الواقدى: التقوى أن تزين سرك للحق كما زينت ظاهرك للخلق، ويقال: التقوى أن لايراك مولاك حيث نهاك، ويقال: المتقى من سلك سبيل المصطفى، ونبذ الدنيا وراء القفا، وكلف نفسه الاخلاص والوفا. واجتنب الحرام والجفا، ولو لم يكن للمتقى فضيلة إلا ما فى قوله تعالى (هدى للمتقين) كفاه، لأنه تعالى بين أن القرآن هدى للناس فى قوله (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس) ثم قال ههنا فى القرآن: إنه هدى للمتقين، فهذا يدل على أن المتقين هم كل الناس، فمن لا يكون متقيا كأنه ليس بانسان

(المسألة الثالثة) فى السؤالات: السؤال الأول: كون الشىء هدى ودليلا لايختلف بحسب شخص دون شخص، فلماذا جعل القرآن هدى للمتقين فقط؟ وأيضا فالمتقى مهتدى، والمهتدى لايهتدى ثانيا والقرآن لايكون هدى للمتقين. الجواب: القرآن كما أنه هدى للمتقين ودلالة لهم على وجود الصانع، وعلى دينه وصدق رسوله، فهو أيضا دلالة للكافرين. إلا أن الله تعالى ذكر المتقين مدحا ليبين أنهم هم الذين اهتدوا وانتفعوا به كما قال (إنما أنت منذر من يخشاها) وقال (إنما تنذر من اتبع الذكر) وقد كان عليه السلام منذرا لكل الناس، فذكر هؤلاء الناس لأجل أن هؤلاء هم الذين انتفعوا بانذاره. وأما من فسر الهدى بالدلالة الموصلة إلى المقصود فهذا السؤال زائل عنه، لأن كون القرآن موصلا إلى المقصود ليس إلا فى حق المتقين. السؤال الثانى: كيف وصف القرآن كله بأنه هدى وفيه مجمل ومتشابه كثير؛ ولولا دلالة العقل لما تميز المحكم عن المتشابه، فيكون الهدى

فى الحقيقة هو الدلالة العقلية لا القرآن ، ومن هذا نقل عن على بن ابى طالب رضى الله عنه أنه قال لابن عباس حين بعثه رسولا إلى الخوارج . لا تحتج عليهم بالقرآن ، فانه خصم ذو وجهين ، ولو كان هدى لما قال على بن أبى طالب ذلك فيه ؛ ولأنا نرى جميع فرق الاسلام يحتجون به ، ونرى القرآن مملوءاً من آيات بعضها صريح فى الجبر وبعضها صريح فى القدر ، فلا يمكن التوفيق بينهما إلا بالتعسف الشديد ، فكيف يكون هدى ؟

الجواب : أن ذلك المتشابه والمجمل لما لم ينفك عما هو المراد على التعيين — وهو اما دلالة العقل أو دلالة السمع — صار كله هدى . السؤال الثالث : كل ما يتوقف صحة كون القرآن حجة على صحته لم يكن القرآن هدى فيه ، فإذن استحال كون القرآن هدى فى معرفة ذات الله تعالى وصفاته ، وفى معرفة النبوة ، ولاشك أن هذه المطالب أشرف المطالب ، فاذا لم يكن القرآن هدى فيها فكيف جعله الله تعالى هدى على الاطلاق ؟

الجواب : ليس من شرط كونه هدى أن يكون هدى فى كل شىء ، بل يكفى فيه أن يكون هدى فى بعض الاشياء ، وذلك بأن يكون هدى فى تعريف الشرائع ، أو يكون هدى فى تأكيد ما فى العقول ، وهذه الآية من أقوى الدلائل على ان المطلق لا يقتضى العموم ، فان الله تعالى وصفه بكونه هدى من غير تقييد فى اللفظ ، مع انه يستحيل أن يكون هدى فى اثبات الصانع وصفاته واثبات النبوة ، فثبت ان المطلق لا يفيد العموم .

السؤال الرابع : الهدى هو الذى بلغ فى البيان والوضوح إلى حيث بين غيره ، والقرآن ليس كذلك ، فان المفسرين مايذكرون آية إلا وذكروا فيها أقوالا كثيرة متعارضة ، وما يكون كذلك لا يكون مبينا فى نفسه فضلا عن أن يكون مبينا لغيره ، فكيف يكون هدى ؟ قلنا : من تكلم فى التفسير بحيث يورد الاقوال المتعارضة ، ولا يرجح واحدا منها على الباقى يتوجه عليه هو هذا السؤال ، وأما نحن فقد رجحنا واحدا على البواقى بالدليل فلا يتوجه علينا هذا السؤال

(المسألة الرابعة) قال صاحب الكشاف : محل (هدى للمتقين) الرفع ؛ لأنه خبر مبتدأ محذوف أو خبر مع (لاريب فيه) (لذلك) ، أو مبتدأ إذا جعل الظرف المتقدم خبرا عنه ، ويجوز أن ينصب على الحال ، والعامل فيه الاشارة ، أو الظرف ، والذى هو ارسخ عرقا فى البلاغة أن يضرب عن هذا المجال صفحا ، وأن يقال : إن قوله (الم) جملة برأسها ، أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها ، و (ذلك الكتاب) جملة ثانية ، و (لاريب فيه) ثالثة و (هدى للمتقين) رابعة وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة وموجب حسن النظم ، حيث جىء بها متناسقة هكذا من غير حرف نسق ، وذلك لمجيئها متآخية آخذا بعضها بعنق بعض ، والثانية متحدة بالأولى وهلم جرا إلى الثالثة ، والرابعة .

بيانه : أنه نبه أولا على أنه الكلام المتحدى به ، ثم أشير إليه بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ

فكان تقرير الجهة التحدى ، ثم نفى عنه أن يتشبث به طرف من الريب ، فكان شهادة بكماله ثم أخبر عنه بأنه هدى المتقين ، فقرر بذلك كونه يقينا لايحوم الشك حوله ، ثم لم يخل كل واحدة من هذه الأربع بعدأن رتبت هذا الترتيب الأنيق من نكتة ، ففى الأولى الحذف والرمز إلى الغرض بألطف وجه ، وفى الثانية ما فى التعريف من الفخامة ، وفى الثالثة ما فى تقديم الريب على الظرف ، وفى الرابعة الحذف ووضع المصدر — الذى هو هدى — موضع الوصف الذى هو هاد ، وإيراده منكرا .

قوله تعالى ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ اعلم ان فيه مسائل

﴿ المسئلة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف (الذين يؤمنون) اما موصول بالمتقين على انه صفة مجرورة ، أو منصوب أو مدح مرفوع بتقدير أعنى الذين يؤمنون . أو هم الذين ، وإما منقطع عن المتقين مرفوع على الابتداء مخبر عنه (بأولئك على هدى) فاذا كان موصولا كان الوقف على المتقين حسنا غير تام ، وإذا كان منقطعا كان وقفا تاما

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال بعضهم (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) يحتمل أن يكون كالتفسير لكونهم متقين ، وذلك لان المتقى هو الذى يكون فاعلا للحسنات وتاركا للسيآت ، أما الفعل فاما أن يكون فعل القلب — وهو قوله (الذين يؤمنون) — واما أن يكون فعل الجوارح ، وأساسه الصلاة والزكاة والصدقة ؛ لان العبادة اما أن تكون بدنية وأجلها الصلاة ، أو مالية ، وأجلها الزكاة ؛ ولهذا سمى الرسول عليه السلام « الصلاة عماد الدين ، والزكاة قنطرة الاسلام » وأما الترك فهو داخل فى الصلاة لقوله تعالى (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) والاقرب أن لا تكون هذه الاشياء تفسيرا لكونهم متقين ؛ وذلك لان كمال السعادة لا يحصل الا بترك ما لا ينبغى وفعل ما ينبغى ، فالترك هو التقوى ، والفعل إما فعل القلب ، وهو الايمان ، أو فعل الجوارح ، وهو الصلاة والزكاة ، وانما قدم التقوى الذى هو الترك على الفعل الذى هو الايمان والصلاة والزكاة ، لان القلب كاللوح القابل لنقوش العقائد الحقة والاخلاق الفاضلة ، واللوح يجب تطهيره أولا عن النقوش الفاسدة ، حتى يمكن اثبات النقوش الجيدة فيه ، وكذا القول فى الاخلاق ، فلهذا السبب قدم التقوى وهو ترك ما لا ينبغى ، ثم ذكر بعده فعل ما ينبغى

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال صاحب الكشاف : الايمان إفعال من الأمن ، ثم يقال آمنه إذا صدقه ، وحقيقته آمنه من التكذيب والمخالفة ، وأما تعديته بالباء فلتضمنه معنى « أقر وأعترف » وأما ما حكى أبو زيد : ما آمنت أن أجد صحابة أى ما وثقت ، فحقيقته صرت ذا أمن ، أى ذا سكون وطمأنينة وكلا الوجهين حسن فى (يؤمنون بالغيب) أى يعترفون به أو يثقون بأنه حق . وأقول : اختلف أهل القبلة فى مسمى الايمان فى عرف الشرع ويجمعهم فرق أربع

﴿الفرقة الأولى﴾ الذين قالوا : الايمان اسم لافعال القلوب والجوارح والاقرار باللسان ، وهم المعتزلة والخوارج والزيدية ، وأهل الحديث ، أما الخوارج فقد اتفقوا على أن الايمان بالله يتناول المعرفة بالله وبكل ماوضع الله عليه دليلا عقليا أو نقليا من الكتاب والسنة ، ويتناول طاعة الله فى جميع ما أمر الله به من الأفعال والتروك صغيرا كان أو كبيرا . فقالوا مجموع هذه الأشياء هو الايمان وترك كل خصلة من هذه الخصال كفر ، وأما المعتزلة فقد اتفقوا على أن الايمان إذا عدى بالباء فالمراد به التصديق ، ولذلك يقال فلان آمن بالله وبرسوله ، ويكون المراد التصديق ، إذ الايمان بمعنى أداء الواجبات لا يمكن فيه هذه التعدية ، فلا يقال فلان آمن بكذا إذا صلى وصام ، بل يقال فلان آمن بالله كما يقال صام وصلى لله ، فالايمان المعدى بالباء يجرى على طريقة أهل اللغة ، أما إذا ذكر مطلقا غير معدى فقد اتفقوا على أنه منقول من المسمى اللغوى — الذى هو التصديق — إلى معنى آخر ، ثم اختلفوا فيه على وجوه . أحدها : أن الإيمان عبارة عن فعل كل الطاعات سواء كانت واجبة أو مندوبة ، أو من باب الاقوال أو الافعال أو الاعتقادات ، وهو قول واصل بن عطاء وأبى الهذيل والقاضى عبد الجبار بن أحمد . وثانيها : أنه عبارة عن فعل الواجبات فقط دون النوافل ، وهو قول أبى على وأبى هاشم . وثالثها : أن الإيمان عبارة عن اجتناب كل ماجاء فيه الوعيد ، فالمؤمن عند الله كل من اجتنب كل الكبائر ، والمؤمن عندنا كل من اجتنب كل ماورد فيه الوعيد ، وهو قول النظام ، ومن أصحابه من قال : شرط كونه مؤمنا عندنا وعند الله اجتناب الكبائر كلها . وأما أهل الحديث فذكروا وجهين . الاول : أن المعرفة ايمان كامل وهو الأصل ، ثم بعد ذلك كل طاعة ايمان على حدة ، وهذه الطاعات لايكون شيء منها ايمانا الا اذا كانت مرتبة على الاصل الذى هو المعرفة . وزعموا أن الجحود وانكار القلب كفر ، ثم كل معصية بعده كفر على حدة ، ولم يجعلوا شيئا من الطاعات ايمانا مالم توجد المعرفة والاقرار ، ولا شيئا من المعاصى كفرا مالم يوجد الجحود والانكار ، لأن الفرع لايحصل بدون ماهو أصله ، وهو قول عبد الله بن سعيد بن كلاب . الثانى : زعموا أن الإيمان اسم للطاعات كلها وهو ايمان واحد وجعلوا الفرائض والنوافل كلها من جملة الإيمان ، ومن ترك شيئا من الفرائض فقد انتقص ايمانه ، ومن ترك النوافل لاينتقص ايمانه ، ومنهم من قال : الإيمان اسم للفرائض دون النوافل

﴿الفرقة الثانية﴾ الذين قالوا : الإيمان بالقلب واللسان معا ، وقد اختلف هؤلاء على مذاهب الأول : ان الإيمان اقرار باللسان ومعرفة بالقلب ، وهو قول أبى حنيفة وعامة الفقهاء ، ثم هؤلاء اختلفوا فى موضعين . احدهما : اختلفوا فى حقيقة هذه المعرفة ، فمنهم من فسرها بالاعتقاد الجازم — سواء كان اعتقادا تقليديا أو كان علما صادرا عن الدليل — وهم الأكثرون الذين يحكمون بأن المقلد مسلم ، ومنهم من فسرها بالعلم الصادر عن الاستدلال . وثانيهما : اختلفوا فى أن العلم المعتبر فى تحقق الإيمان علم بماذا ؟ قال بعض المتكلمين : هو العلم بالله وبصفاته على سبيل التمام والكمال ثم

انه لما كثر اختلاف الخلق فى صفات الله تعالى لاجرم أقدم كل طائفة على تكفير من عداها من الطوائف. وقال أهل الانصاف: المعتبر هو العلم بكل ماعلم بالضرورة كونه من دين محمد ﷺ، فعلى هذا القول العلم بكونه تعالى عالما بالعلم أو عالما لذاته وبكونه مرئيا أوغيره لايكون داخلا فى مسمى الإيمان. القول الثانى. ان الإيمان هو التصديق بالقلب واللسان معا، وهو قول بشر بن عتاب المريسى، وأبى الحسن الأشعرى، والمراد من التصديق بالقلب الكلام القائم بالنفس. القول الثالث: قول طائفة من الصوفية: الإيمان اقرار باللسان، واخلاص بالقلب

﴿الفرقة الثالثة﴾: الذين قالوا: الإيمان عبارة عن عمل القلب فقط، وهؤلاء قد اختلفوا على قولين (احدهما) ان الإيمان عبارة عن معرفة الله بالقلب، حتى ان من عرف الله بقلبه ثم جحد بلسانه ومات قبل أن يقر به فهو مؤمن كامل الإيمان وهو قول جهم بن صفوان. أما معرفة الكتب والرسل واليوم الآخر فقد زعم أنها غير داخلة فى حد الإيمان. وحكى الكعبى عنه: أن الإيمان معرفة الله مع معرفة كل ماعلم بالضرورة كونه من دين محمد ﷺ (وثانيهما) ان الإيمان مجرد التصديق بالقلب وهو قول الحسين بن الفضل البجلى.

﴿الفرقة الرابعة﴾ الذين قالوا: الإيمان هو الاقرار باللسان فقط وهم فريقان: الأول: أن الاقرار باللسان هو الإيمان فقط، لكن شرط كونه ايمانا حصول المعرفة فى القلب، فالمعرفة شرط لكون الاقرار اللسانى ايمانا، لا أنها داخله فى مسمى الإيمان، وهو قول غيلان بن مسلم الدمشقى والفضل الرقاشى وان كان الكعبى قد أنكر كونه قولا لغيلان. الثانى: أن الإيمان مجرد الاقرار باللسان، وهو قول الكرامية، وزعموا أن المنافق مؤمن الظاهر كافر السريرة فثبت له حكم المؤمنين فى الدنيا وحكم الكافرين فى الآخرة فهذا مجموع أقوال الناس فى مسمى الإيمان فى عرف الشرع، والذى نذهب إليه أن الإيمان عبارة عن التصديق بالقلب ونفتقر ههنا إلى شرح ماهية التصديق بالقلب فنقول: أن من قال العالم محدث فليس مدلول هذه الألفاظ كون العالم موصوفا بالحدوث، بل مدلولها حكم ذلك القائل بكون العالم حادثا، والحكم بثبوت الحدوث للعالم مغاير لثبوت الحدوث للعالم فهذا الحكم الذهنى بالثبوت أو بالانتفاء أمر يعبر عنه فى كل لغة بلفظ خاص، واختلاف الصيغ والعبارات مع كون الحكم الذهنى أمرا واحدا يدل على أن الحكم الذهنى أمر مغاير لهذه الصيغ والعبارات، ولأن هذه الصيغ دالة على ذلك الحكم والدال غير المدلول، ثم نقول هذا الحكم الذهنى غير العلم، لأن الجاهل بالشىء قد يحكم به. فعلمنا أن هذا الحكم الذهنى مغاير للعلم، فالمراد من التصديق بالقلب هو هذا الحكم الذهنى، بقى ههنا بحث لفظى وهو أن المسمى بالتصديق فى اللغة هو ذلك الحكم الذهنى أم الصيغة الدالة على ذلك الحكم الذهنى وتحقيق القول فيه قد ذكرناه فى أصول الفقه، إذا عرفت هذه المقدمة فنقول: الإيمان عبارة عن التصديق بكل ماعرف بالضرورة كونه من دين محمد صلى الله عليه وسلم مع الاعتقاد. فنفتقر فى إثبات هذا المذهب إلى إثبات قيود أربعة

﴿ القيد الأول ﴾ ان الإيمان عبارة عن التصديق ويدل عليه وجوه . الأول : انه كان فى أصل اللغة للتصديق ، فلو صار فى عرف الشرع لغير التصديق لزم أن يكون المتكلم به متكلما بغير كلام العرب ، وذلك ينافى وصف القرآن بكونه عربيا . الثانى : أن الإيمان أكثر الألفاظ دورانا على ألسنة المسلمين فلو صار منقولا إلى غير مسماه الأصلى لتوفرت الدواعى على معرفة ذلك المسمى ، ولاشتهر وبلغ إلى حد التواتر ، فلما لم يكن كذلك علمنا أنه بقى على أصل الوضع . الثالث : أجمعنا على أن الإيمان المعدى بحرف الباء مبقى على أصل اللغة فوجب أن يكون غير المعدى كذلك . الرابع : أن الله تعالى كلما ذكر الإيمان فى القرآن أضافه إلى القلب قال (من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم) وقوله (وقلبه مطمئن بالإيمان) (كتب فى قلوبهم الإيمان) (ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم) الخامس : أن الله تعالى أينما ذكر الإيمان قرن العمل الصالح به ولو كان العمل الصالح داخلا فى الإيمان لكان ذلك تكرارا . السادس : أنه تعالى كثيرا ذكر الإيمان وقرنه بالمعاصى ، قال (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله) واحتج ابن عباس على هذا بقوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى) من ثلاثة اوجه . أحدها : أن القصاص انما يجب على القاتل المتعمد ثم انه خاطبه بقوله (ياأيها الذين آمنوا) فدل على أنه مؤمن . وثانيها : قوله (فمن عفى له من أخيه شىء) وهذه الاخوة ليست إلا اخوة الإيمان ، لقوله تعالى (إنما المؤمنون اخوة) وثالثها : قوله (ذلك تخفيف من ربكم ورحمة) وهذا لايليق إلا بالمؤمن ، ومما يدل على المطلوب قوله تعالى (والذين آمنوا ولم يهاجروا) هذا أبقى اسم الإيمان لمن لم يهاجر مع عظم الوعيد فى ترك الهجرة فى قوله تعالى (الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم) وقوله (مالكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا) ومع هذا جعلهم مؤمنين ويدل أيضا عليه قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء) وقال (ياأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم) وقوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا) والأمر بالتوبة لمن لا ذنب له محال وقوله (وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون) لا يقال فهذا يقتضى أن يكون كل مؤمن مذنبا وليس كذلك قولنا : هب أنه خص فيما عدا المذنب فبقى فيهم حجة

﴿ القيد الثانى ﴾ ان الإيمان ليس عبارة عن التصديق اللسانى ، والدليل عليه قوله تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين) نفى كونهم مؤمنين ، ولو كان الإيمان بالله عبارة عن التصديق اللسانى لما صح هذا النفى

﴿ القيد الثالث ﴾ أن الإيمان ليس عبارة عن مطلق التصديق لأن من صدق بالجبت والطاغوت لا يسمى مؤمنا

﴿ القيد الرابع ﴾ ليس من شرط الإيمان التصديق بجميع صفات الله عز وجل؛ لأن الرسول عليه السلام كان يحكم بإيمان من لم يخطر بباله كونه تعالى عالماً لذاته أو بالعلم ، ولو كان هذا القيد وأمثاله شرطا معتبراً فى تحقيق الإيمان لما جاز أن يحكم الرسول بإيمانه قبل أن يجربه فى أنه هل يعرف ذلك أم لا . فهذا هو بيان القول فى تحقيق الإيمان ، فان قال قائل : هاهنا صورتان الصورة الأولى : من عرف الله تعالى بالدليل والبرهان ولما تم العرفان مات ولم يجد من الزمان والوقت مايتلفظ فيه بكلمة الشهادة . فههنا ان حكمتم انه مؤمن فقد حكمتم بأن الاقرار اللسانى غير معتبر فى تحقيق الإيمان ، وهو خرق للاجماع ، وان حكمتم بأنه غير مؤمن فهو باطل ؛ لقوله عليه السلام « يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من ايمان » وهذا قلب طافح بالإيمان ، فكيف لا يكون مؤمنا ؟ الصورة الثانية : من عرف الله تعالى بالدليل ووجد من الوقت ماأمكنه أن يتلفظ بكلمة الشهادة ولكنه لم يتلفظ بها فإن قلتم انه مؤمن فهو خرق للاجماع ، وان قلتم ليس بمؤمن فهو باطل ؛ لقوله عليه السلام « يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من الإيمان » ولا ينتفى الإيمان من القلب بالسكوت عن النطق

والجواب : أن الغزالى منع من هذا الاجماع فى الصورتين ، وحكم بكونهما مؤمنين ، وان الامتناع عن النطق يجرى مجرى المعاصى التى يؤتى بها مع الإيمان

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قيل (الغيب) مصدر أقيم مقام اسم الفاعل ، كالصوم بمعنى الصائم ، والزور بمعنى الزائر ، ثم فى قوله تعالى (يؤمنون بالغيب) قولان (الأول) — وهو اختيار أبى مسلم الاصفهانى — أن قوله (بالغيب) صفة المؤمنين معناه أنهم يؤمنون بالله حال الغيب كما يؤمنون به حال الحضور ، لا كالمنافقين الذين إذا لقو الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون . ونظيره قوله تعالى (ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب) ويقول الرجل لغيره : نعم الصديق لك فلان بظهر الغيب ، وكل ذلك مدح للمؤمنين بكون ظاهرهم موافقا لباطنهم ومباينتهم لحال المنافقين الذين يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم (والثانى) وهو قول جمهور المفسرين ان الغيب هو الذى يكون غائبا عن الحاسة ثم هذا الغيب ينقسم إلى ماعليه دليل ، وإلى ماليس عليه دليل . فالمراد من هذه الآية مدح المتقين بأنهم يؤمنون بالغيب الذى دل عليه دليل بأن يتفكروا ويستدلوا فيؤمنوا به ، وعلى هذا يدخل فيه العلم بالله تعالى وبصفاته والعلم بالآخرة والعلم بالنبوة والعلم بالأحكام وبالشرائع فان فى تحصيل هذه العلوم بالاستدلال مشقة فيصلح أن يكون سببا لاستحقاق الثناء العظيم . واحتج ابو مسلم على قوله بأمور : الأول : أن قوله (والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون) ايمان بالأشياء الغائبة فلوكان المراد من قوله (الذين يؤمنون بالغيب) هو الإيمان بالأشياء الغائبة لكان المعطوف نفس المعطوف عليه ، وأنه غير جائز : الثانى : لو حملناه على الإيمان بالغيب يلزم اطلاق القول بأن

الانسان يعلم الغيب ، وهو خلاف قوله تعالى (وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو) أما لو فسرنا الآية بماقلنا لايلزم هذا المحذور (الثالث) : لفظ الغيب انما يجوز اطلاقه على من يجوز عليه الحضور ، فعلى هذا لايجوز اطلاق لفظ الغيب على ذات الله تعالى وصفاته ، فقوله (الذين يؤمنون بالغيب) لو كان المراد منه الإيمان بالغيب لما دخل فيه الايمان بذات الله تعالى وصفاته ، ولا يبقى فيه إلا الإيمان بالآخرة . وذلك غير جائز لأن الركن العظيم فى الإيمان هو الإيمان بذات الله وصفاته ، فكيف يجوز حمل اللفظ على معنى يقتضى خروج الأصل أما لو حملناه على التفسير الذى اخترناه لم يلزمنا هذا المحذور .

والجوب عن الأول : ان قوله (يؤمنون بالغيب) يتناول الإيمان بالغائبات على الإجمال ثم بعد ذلك قوله (والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) يتناول الإيمان ببعض الغائبات فكان هذا من باب عطف التفصيل على الجملة ، وهو جائز كما فى قوله (وملائكته وجبريل وميكال). وعن الثانى : أنه لانزاع فى انا نؤمن بالأشياء الغائبة عنا، فكان ذلك التخصيص لازما على الوجهين جميعا . فان قيل أفتقولون : العبد يعلم الغيب أم لا ؟ قلنا قدبينا ان الغيب ينقسم إلى ما عليه دليل وإلى مالا دليل عليه أما الذى لادليل عليه فهو سبحانه وتعالى العالم به لاغيره ، وأما الذى عليه دليل فلا يمتنع أن تقول : نعلم من الغيب مالنا عليه دليل ، ويفيد الكلام فلا يلتبس ، وعلى هذا الوجه قال العلماء : الاستدلال بالشاهد على الغائب أحد أقسام الأدلة . وعن الثالث : لانسلم أن لفظ الغيبة لايستعمل إلا فيما يجوز عليه الحضور ، والدليل على ذلك أن المتكلمين يقولون هذا من باب إلحاق الغائب بالشاهد . ويريدون بالغائب ذات الله تعالى وصفاته والله أعلم

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال بعض الشيعة : المراد بالغيب المهدى المنتظر الذى وعد الله تعالى به فى القرآن والخبر ، أما القرآن فقوله (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم) وأما الخبر فقوله عليه السلام « لولم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطول الله ذلك اليوم حتى يخرج رجل من أهل بيتى يواطىء اسمه اسمى وكنيته كنيتى يملأ الأرض عدلا وقسطا كما ملئت جورا وظلما » واعلم أن تخصيص المطلق من غير الدليل باطل .

﴿ المسألة السادسة ﴾ ذكروا فى تفسير إقامة الصلاة وجوها : أحدها : أن إقامتها عبارة عن تعديل أركانها وحفظها من أن يقع خلل فى فرائضها وسننها وآدابها ، من أقام العود إذا قومه . وثانيها : أنها عبارة عن المداومة عليها كما قال تعالى (والذين هم على صلاتهم يحافظون) وقال (الذين هم على صلاتهم دائمون) من قامت السوق إذا نفقت ، وأقامتها نفاقها ؛ لأنها إذا حوفظ عليها كانت كالشىء النافق الذى تتوجه إليه الرغبات ، واذا أضيعت كانت كالشىء الكاسد الذى لا يرغب فيه وثالثها : انها عبارة عن التجرد لأدائها وأن لا يكون فى مؤديها فتور من قولهم : قام

بالأمر ، وقامت الحرب على ساقها ، وفى ضده : قعد عن الأمر ، وتقاعد عنه إذا تقاعس وتثبط . ورابعها : اقامتها عبارة عن أدائها ، وإنما عبر عن الأداء بالاقامة لأن القيام بعض أركانها كما عبر عنها بالقنوت وبالركوع وبالسجود ، وقالوا : سبح إذا صلى ، لوجود التسبيح فيها ، قال تعالى : (فلولا أنه كان من المسبحين) واعلم أن الأولى حمل الكلام على مايحصل معه من الثناء العظيم ، وذلك لايحصل إلا إذا حملنا الاقامة على إدامة فعلها من غير خلل فى أركانها وشرائطها ؛ ولذلك فان القيم بأرزاق الجند انما يوصف بكونه قيما إذا أعطى الحقوق من دون بخس ونقص ؛ ولهذا يوصف الله تعالى بأنه قائم وقيوم ؛ لأنه يجب دوام وجوده ؛ ولأنه يديم ادرار الرزق على عباده .

﴿ المسألة السابعة ﴾ ذكروا فى لفظ الصلاة فى أصل اللغة وجوها . أحدها : انها الدعاء قال الشاعر : وقابلها الريح فى دنها وصلى على دنها وارتسم

وثانيها : قال الخارزنجى . اشتقاقها من الصلى ، وهى النار ، من قولهم : صليت العصا إذا قومتها بالصلى ، فالمصلى كأنه يسعى فى تعديل باطنه وظاهره مثل من يحاول تقويم الخشبة بعرضها على النار . وثالثها : ان الصلاة عبارة عن الملازمة من قوله تعالى (تصلى نارا حامية) (سيصلى نارا ذات لهب) وسمى الفرس الثانى من أفراس المسابقة مصليا . ورابعها : قال صاحب الكشاف : الصلاة فعلة من « صلى » كالزكاة من « زكى » وكتبتها بالواو على لفظ المفخم ، وحقيقة صلى حرك الصلوين ، لأن المصلى يفعل ذلك فى ركوعه وسجوده ، وقيل الداعى : مصلى تشبيها له فى تخشعه بالراكع والساجد ، وأقول هاهنا بحثان

الأول : ان هذا الاشتقاق الذى ذكره صاحب الكشاف يفضى إلى طعن عظيم فى كون القرآن حجة ، وذلك لأن لفظ الصلاة من أشد الألفاظ شهرة وأكثرها دورانا على ألسنة المسلمين ، واشتقاقه من تحريك الصلوين من أبعد الأشياء اشتهارا فيما بين أهل النقل ، ولو جوزنا أن يقال : مسمى الصلاة فى الأصل ماذكره ، ثم أنه خفى واندرس حتى صار بحيث لا يعرفه إلا الآحاد لكان مثله فى سائر الألفاظ جائزا ، ولو جوزنا ذلك لما قطعنا بأن مراد الله تعالى من هذه الألفاظ ماتتبادر أفهامنا إليه من المعانى فى زماننا هذا ، لاحتمال انها كانت فى زمان الرسول موضوعة لمعان أخر ، وكان مراد الله تعالى منها تلك المعانى ، إلا أن تلك المعانى خفيت فى زماننا واندرست كما وقع مثله فى هذه اللفظة ، فلما كان ذلك باطلا باجماع المسلمين علمنا أن الاشتقاق الذى ذكره مردود باطل

الثانى : الصلاة فى الشرع عبارة عن أفعال مخصوصة يتلو بعضها بعضا مفتتحة بالتحريم ، مختتمة بالتحليل ، وهذا الإسم يقع على الفرض والنفل ، لكن المراد بهذه الآية الفرض خاصة ؛ لأنه الذى يقف الفلاح عليه ؛ لأنه عليه السلام لما بين للاعرابى صفة الصلاة المفروضة قال والله لاأزيد عليها ولا أنقص منها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أفلح إن صدق »

﴿المسألة الثامنة﴾ الرزق فى كلام العرب هو الحظ قال تعالى (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) أى حظكم من هذا الأمر ، والحظ هو نصيب الرجل وما هو خاص له دون غيره ثم قال بعضهم : الرزق كل شىء يؤكل أو يستعمل ، وهو باطل ، لأن الله تعالى أمرنا بأن ننفق مما رزقنا فقال (وأنفقوا مما رزقناكم) فلو كان الرزق هو الذى يؤكل لما أمكن انفاقه . وقال آخرون : الرزق هو ما يملك وهو أيضاً باطل ، لأن الانسان قد يقول : اللهم ارزقنى ولدا صالحاً أو زوجة صالحة وهو لا يملك الولد ولا الزوجه ، ويقول : اللهم ارزقنى عقلا أعيش به وليس العقل بمملوك ، وأيضا البهيمة يكون لها رزق ولا يكون لها ملك . وأما فى عرف الشرع فقد اختلفوا فيه ، فقال ابو الحسين البصرى : الرزق هو تمكين الحيوان من الانتفاع بالشىء والحظر على غيره أن يمنعه من الانتفاع به ، فاذا قلنا : قد رزقنا الله تعالى الأموال ، فمعنى ذلك أنه مكننا من الانتفاع بها ، واذا سألناه تعالى أن يرزقنا مالا فإنا نقصد بذلك ان يجعلنا بالمال أخص ، وإذا سألناه أن يرزق البهيمة فإنا نقصد بذلك أن يجعلها به أخص ، وإنما تكون به أخص إذا مكنها من الانتفاع به ، ولم يكن لأحد أن يمنعها من الانتفاع به . واعلم أن المعتزلة لما فسروا الرزق بذلك لاجرم قالوا : الحرام لا يكون رزقا . وقال أصحابنا : الحرام قد يكون رزقا ، فحجة الأصحاب من وجهين . الأول : أن الرزق فى أصل اللغة هو الحظ والنصيب على ما بيناه ، فمن انتفع بالحرام فذلك الحرام صار حظا ونصيبا ، فوجب أن يكون رزقا له الثانى : أنه تعالى قال (وما من دابه فى الأرض إلا على الله رزقها) وقد يعيش الرجل طول عمره لا يأكل إلا من السرقة ، فوجب أن يقال : انه طول عمره لم يأكل من رزقه شيئاً . أما المعتزلة فقد احتجوا بالكتاب والسنة والمعنى : أما الكتاب فوجوه . أحدها : قوله تعالى (ومما رزقناهم ينفقون) مدحهم على الانفاق مما رزقهم الله تعالى ، فلو كان الحرام رزقا لوجب أن يستحقوا المدح إذا أنفقوا من الحرام ، وذلك باطل بالاتفاق . وثانيها : لو كان الحرام رزقا لجاز أن ينفق الغاصب منه ، لقوله تعالى (وأنفقوا مما رزقناكم) وأجمع المسلمون على أنه لا يجوز للغاصب أن ينفق مما أخذه بل يجب عليه رده ، فدل على أن الحرم لا يكون رزقا . وثالثها : قوله تعالى (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل آلله أذن لكم) فبين أن من حرم رزق الله فهو مفتر على الله ، فثبت أن الحرام لا يكون رزقا ، وأما السنة فما رواه أبو الحسين فى كتاب الغرر باسناده عن صفوان بن أمية قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه عمرو بن قرة فقال له يارسول الله إن الله كتب على الشقوة فلا أرانى أرزق إلا من دفى بكفى فائذن لى فى الغناء من غير فاحشة فقال عليه السلام « لا إذن لك ولا كرامة ولا نعمة كذبت أى عدو الله لقد رزقك الله رزقا طيبا فاخترت ما حرم الله عليك من رزقه مكان ما أحل الله لك من حلاله أما انك لو قلت بعد هذه المقدمة شيئاً ضربتك ضربا وجيعا » وأما المعنى فان الله تعالى منع المكلف من الانتفاع بالحرام وأمر غيره بمنعه من الانتفاع به ، ومن منع من أخذ الشىء والانتفاع به لا يقال انه رزقه اياه . ألا ترى أنه لا يقال : أن

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ

السلطان قد رزق جنده مالا قد منعهم من أخذه ، وإنما يقال : إنه رزقهم ما مكنهم من أخذه ولا يمنعهم منه ولا أمر بمنعهم منه ، أجاب أصحابنا عن التمسك بالآيات بانه وإن كان الكل من الله . لكنه كما يقال : ياخالق المحدثات والعرش والكرسى ، ولا يقال : ياخالق الكلاب والخنازير ، وقال (عينا يشرب بها عباد الله) فخص اسم العباد بالمتقين ، وإن كان الكفار أيضاً من العباد . وكذلك هاهنا خص اسم الرزق بالحلال على سبيل التشريف وإن كان الحرام رزقا أيضاً ، وأجابوا عن التمسك بالخبر بأنه حجة لنا ، لأن قوله عليه السلام « فاخترت ماحرم الله عليك من رزقه » صريح فى أن الرزق قد يكون حراما وأجابوا عن المعنى بأن هذه المسألة محض اللغة وهو أن الحرام هل يسمى رزقا أم لا ؟ ولا مجال للدلائل العقلية فى الألفاظ والله أعلم

﴿المسألة التاسعة﴾ أصل الانفاق اخراج المال من اليد ، ومنه نفق المبيع نفاقا اذا كثر المشترون له ، ونفقت الدابة إذا ماتت أى خرج روحها . ونافقاء الفأرة لأنها تخرج منها ومنه النفق فى قوله تعالى (أن تبتغى نفقا فى الأرض)

﴿المسألة العاشرة﴾ فى قوله (ومما رزقناهم ينفقون) فوائد . أحدها : أدخل من التبعيضية صيانة لهم ، وكفى عن : الاسراف والتبذير المنهى عنه . وثانيها : قدم مفعول الفعل دلالة على كونه أهم ، كأنه قال ويخصون بعض المال بالتصدق به . وثالثها : يدخل فى الانفاق المذكور فى الآية ، الانفاق الواجب ، والانفاق المندوب ، والانفاق الواجب أقسام . أحدها : الزكاة وهى قوله فى آية الكنز (ولا ينفقونها فى سبيل الله) . وثانيها : الانفاق على النفس وعلى من تجب عليه نفقته . وثالثها : الانفاق فى الجهاد . وأما الانفاق المندوب فهو أيضاً انفاق لقوله (وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت) وأراد به الصدقة لقوله بعده (فأصدق وأكن من الصالحين) فكل هذه الانفاقات داخلة تحت الآية لأن كل ذلك سبب لاستحقاق المدح .

قوله تعالى (والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ﴾

اعلم أن قوله (الذين يؤمنون بالغيب) عام يتناول كل من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، سواء كان قبل ذلك مؤمنا بموسى وعيسى عليهما السلام ، أوما كان مؤمنا بهما ، ودلالة اللفظ العام على بعض مادخل فيه التخصيص أضعف من دلالة اللفظ الخاص على ذلك البعض ، لأن العام يحتمل التخصيص والخاص لا يحتمله فلما كانت هذه السورة مدنية ، وقد شرف الله تعالى المسلمين بقوله (هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب) فذكر بعد ذلك أهل الكتاب الذين آمنوا بالرسول : كعبد الله بن سلام وأمثاله بقوله (والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) لأن فى هذا التخصيص بالذكر مزيد تشريف لهم كما فى قوله تعالى : (من كان عدو الله وملائكته ورسله وجبريل وميكال) ثم تخصيص

عبدالله بن سلام وأمثاله بهذا التشريف ترغيب لأمثاله فى الدن ، فهذا هو السبب فى ذكر هذا الخاص بعد ذلك العام ، ثم نقول . أما قوله (والذين يؤمنون بما أنزل إليك) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ لانزاع بين أصحابنا وبين المعتزلة فى أن الإيمان إذا عدى بالباء فالمراد منه التصديق ، فاذا قلنا فلان آمن بكذا ، فالمراد أنه صدق به ولا يكون المراد أنه صام وصلى ، فالمراد بالإيمان هاهنا التصديق بالاتفاق لكن لابد معه من المعرفة لأن الايمان هاهنا خرج مخرج المدح والمصدق مع الشك لايأمن أن يكن كاذبا فهو إلى الذم أقرب

﴿ المسألة الثانية ﴾ المراد من انزال الوحى وكون القرآن منزلا ، ومنزلا ، ومنزولا به ، أن جبريل عليه السلام سمع فى السماء كلام الله تعالى فنزل على الرسول به ، وهذا كما يقال : نزلت رسالة الأمير من القصر ، والرسالة لاتنزل لكن المستمع يسمع الرسالة من علو فينزل ويؤدى فى سفل ، وقوله الآمير لايفارق ذاته ، ولكن السامع يسمع فينزل ويؤدى بلفظ نفسه ، ويقال فلان ينقل الكلام إذا سمع فى موضع وأداه فى موضع آخر . فان قيل كيف سمع جبريل كلام الله تعالى ، وكلامه ليس من الحروف والأصوات عندكم ؟ قلنا : يحتمل أن يخلق الله تعالى له سمعا لكلامه ثم أقدره على عبارة يعبر بها عن ذلك الكلام القديم ، ويجوز أن يكون الله خلق فى اللوح المحفوظ كتابة بهذا النظم المخصوص فقرأه جبريل عليه السلام فحفظه ، ويجوز أن يخلق الله أصواتا مقطعة بهذا النظم المخصوص فى جسم مخصوص فيتلقفه جبريل عليه السلام ويخلق له علما ضروريا بأنه هو العبارة المؤدية لمعنى ذلك الكلام القديم

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (والذين يؤمنون بما أنزل إليك) هذا الإيمان واجب ، لأنه قال فى آخره (وأولئك هم المفلحون) فثبت أن من لم يكن له هذا الايمان وجب أن لا يكون مفلحا ، وإذا ثبت أنه واجب وجب تحصيل العلم بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم على سبيل التفصيل ، لأن المرء لايمكنه أن يقوم بما أوجبه الله عليه علما وعملا إلا إذا علمه على سبيل التفصيل ، لانه ان لم يعلمه كذلك امتنع عليه القيام به ، الا أن تحصيل هذا العلم واجب على سبيل الكفاية ، فان تحصيل العلم بالشرائع النازلة على محمد صلى الله عليه وسلم على سبيل التفصيل غير واجب على العامة ، وأما قوله (وما أنزل من قبلك) فالمراد به ما أنزل على الأنبياء الذين كانوا قبل محمد ، والايمان به واجب على الجملة ، لأن الله تعالى ماتعبدنا الآن به حتى يلزمنا معرفته على التفصيل ، بل ان عرفنا شيئاً من تفاصيله فهناك يجب علينا الإيمان بتلك التفاصيل ، وأما قوله (وبالآخرة هم يوقنون) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الآخرة صفة الدار الآخرة ، وسميت بذلك لأنها متأخرة عن الدنيا وقيل للدنيا دنيا لأنها أدنى من الآخرة

﴿ المسألة الثانيه ﴾ اليقين هو العلم بالشىء بعد أن كان صاحبه شاكا فيه ، فلذلك لايقول القائل : تيقنت وجود نفسى ، وتيقنت أن السماء فوقى لما أن العلم به غير مستدرك ، ويقال ذلك فى العلم

أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

الحادث بالأمور سواء كان ذلك العلم ضروريا أو استدلاليا ، فيقول القائل : تيقنت ما أردته بهذا الكلام وإن كان قد علم مراده بالإضطرار ، ويقول تيقنت أن الإله واحد وإن كان قد علمه بالاكتساب ؛ ولذلك لا يوصف الله تعالى بأنه يتيقن الأشياء

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أن الله تعالى مدحهم على كونهم متيقنين بالآخرة ، ومعلوم أنه لا يمدح المرء بأن يتيقن وجود الآخرة فقط ، بل لا يستحق المدح إلا إذا تيقن وجود الآخرة مع ما فيها من الحساب والسؤال وإدخال المؤمنين الجنة ، والكافرين النار . روى عنه عليه السلام أنه قال « ياعجبا كل العجب من الشاك فى الله وهو يرى خلقه ، وعجبا ممن يعرف النشأة الأولى ثم ينكر النشأة الآخرة ، وعجبا ممن ينكر البعث والنشور وهو فى كل يوم وليلة يموت ويحيا — يعنى النوم واليقظة — وعجبا ممن يؤمن بالجنة وما فيها من النعيم ثم يسعى لدار الغرور ، وعجبا من المتكبر الفخور وهو يعلم أن أوله نطفة مذرة وآخره جيفة قذرة »

قوله تعالى ﴿ أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ اعلم أن فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى كيفية تعلق هذه الآية بما قبلها وجوه ثلاثه . أحدها : أن ينوى الابتداء (بالذين يؤمنون بالغيب) وذلك لأنه لما قيل (هدى للمتقين) نخص المتقين بأن الكتاب هدى لهم كان لسائل أن يسأل فيقول : ما السبب فى اختصاص المتقين بذلك ؟ فوقع قوله (الذين يؤمنون بالغيب) إلى قوله (وأولئك هم المفلحون) جوابا عن هذا السؤال ، كأنه قيل : الذى يكون مشتغلا بالإيمان وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والفوز بالفلاح والنجاة لابد وأن يكون على هدى من ربه . وثانيها : أن لا ينوى الابتداء به بل يجعله تابعاً (للمتقين) ثم يقع الابتداء من قوله (أولئك على هدى من ربهم) كأنه قيل أى سبب فى أن صار الموصوفون بهذه الصفات مختصين بالهدى ؟ فأجيب بأن أولئك الموصفين غير مستبعد أن يفوزوا دون الناس بالهدى عاجلا وبالفلاح آجلا . وثالثها : أن يجعل الموصول الأول صفة (المتقين) ويرفع الثانى على الابتداء (أولئك) خبره ويكون المراد جعل اختصاصهم بالفلاح والهدى تعريضاً بأهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بنبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم ظانون أنهم على الهدى وطامعون أنهم ينالون الفلاح عند الله تعالى

﴿ المسألة الثانية ﴾ معنى الاستعلاء فى قوله (على هدى) بيان لتمكنهم من الهدى واستقرارهم عليه حيث شبهت حالهم بحال من اعتلى الشىء وركبه ونظيره « فلان على الحق ، أو على الباطل » وقد صرحوا به فى قولهم « جعل الغواية مركبا ، وامتطى الجهل » وتحقيق القول فى كونهم على الهدى تمسكهم بموجب الدليل ، لأن الواجب على المتمسك بالدليل أن يدوم على ذلك ويحرسه

عن المطاعن والشبه فكأنه تعالى ومدحهم بالإيمان بما أنزل عليه أولا ، مدحهم بالاقامة على ذلك والمواظبة على حراسته عن الشبه ثانيا ، وذلك واجب على المكلف ، لأنه إذا كان متشدداً فى الدين خائفا وجلا فلا بد من أن يحاسب نفسه فى علمه وعمله ، ويتأمل حاله فيهما وإذا حرس نفسه عن الاخلال كان ممدوحا بأنه على هدى وبصيرة ، وإنما نكر (هدى) ليفيد ضربا مبهما لا يبلغ كنهه ولا يقدر قدره كما يقال لو أبصرت فلانا لأبصرت رجلا . قال عون بن عبد الله : الهدى من الله كثير ، ولا يبصره إلا بصير ، ولا يعمل به إلا يسير . ألا ترى أن نجوم السماء يبصرها البصراء ، ولا يهتدى بها إلا العلماء

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى تكرير (أولئك) تنبيه على أنهم كما ثبت لهم الاختصاص بالهدى ثبت لهم الاختصاص بالفلاح أيضا ، فقد تميزوا عن غيرهم بهذين الاختصاصين . فإن قيل : فلم جاء مع العاطف وما الفرق بينه وبين قوله (أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) قلنا : قد اختلف الخبران هنا فلذلك دخل العاطف بخلاف الخبرين ثمت فإنهما متفقان لأن التسجيل عليهم بالغفلة وتشبيههم بالبهائم شىء واحد ،وكانت الجملة الثانية مقررة لما فى الأولى فهى من العطف بمعزل

﴿ المسألة الرابعة ﴾ (هم) فصل وله فائدتان . إحداهما : الدلالة على أن الوارد بعده خبر لاصفة وثانيتهما : حصر الخبر فى المبتدأ ، فإنك لو قلت الانسان ضاحك فهذا لايفيد أن الضاحكية لاتحصل إلا فى الانسان ، أما لو قلت : الانسان هو الضاحك فهذا يفيد أن الضاحكية لاتحصل إلا فى الانسان

﴿ المسألة الخامسة ﴾ معنى التعريف فى (المفلحون) الدلالة على أن المتقين هم الناس الذين بلغك أنهم يفلحون فى الآخرة كما إذا بلغك أن إنسانا قد تاب من أهل بلدك فاستخبرت من هو ؟ فقيل زيد التائب ، أى هو الذى أخبرت بتوبته ، أو على أنهم الذين إن حصلت صفة المفلحون فهم هم ،كما تقول لصاحبك : هل عرفت الاسد وما جبل عليه من فرط الاقدام ؟ إن زيداً هو هو

﴿ المسألة السادسة ﴾ المفلح الظافر بالمطلوب كأنه الذى انفتحت له وجوه الظفر ولم تستغلق عليه ، والمفلج بالجيم مثله ،والتركيب دال على معنى الشق والفتح ، ولهذا سمى الزراع فلاحا ، ومشقوق الشفة السفلى أفلح ، وفى المثل « الحديد بالحديد يفلح » وتحقيقه أن الله تعالى لما وصفهم بالقيام بما يلزمهم علما وعملا بين نتيجة ذلك وهو الظفر بالمطلوب الذى هو النعيم الدائم من غير شوب على وجه الإجلال والإعظام ، لأن ذلك هو الثواب المطلوب للعبادات

﴿ المسألة السابعة ﴾ هذه الآيات يتمسك الوعيدية بها من وجه ، والمرجئة من وجه آخر . أما الوعيدية فمن وجهين . الاول . أن قوله (وأولئك هم المفلحون) يقتضى الحصر ، فوجب فيمن أخل بالصلاة والزكاة أن لا يكون مفلحا ، وذلك يوجب القطع على وعيد تارك الصلاة

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ

والزكاة . الثانى : أن ترتيب الحكم على الوصف مشعر بكون ذلك الوصف علة لذلك الحكم فيلزم أن تكون علة الفلاح هى فعل الإيمان والصلاة والزكاة ، فمن أخل بهذه الأشياء لم يحصل له علة الفلاح ، فوجب أن لايحصل الفلاح . أما المرجئة فقد احتجوا بأن الله حكم بالفلاح على الموصوفين بالصفات المذكورة فى هذه الآية فوجب أن يكون الموصوف بهذه الأشياء مفلحا وإن زنى وسرق وشرب الخمر . وإذا ثبت فى هذه الطائفة تحقق العفو ثبت فى غيرهم ضرورة ، إذ لاقائل بالفرق . والجواب : أن كل واحد من الاحتجاجين معارض بالآخر فيتساقطان ، ثم الجواب عن قول الوعيدية : أن قوله (وأولئك هم المفلحون) يدل على أنهم الكاملون فى الفلاح ، فيلزم أن يكون صاحب الكبيرة غير كامل فى الفلاح ، ونحن نقول بموجبه ، فانه كيف يكون كاملا فى الفلاح وهو غير جازم بالخلاص من العذاب ، بل يجوز له أن يكون خائفا منه ، وعن الثانى : أن نفى السبب الواحد لا يقتضى نفى المسبب ، فعندنا من أسباب الفلاح عفو الله تعالى . والجواب عن قول المرجئة : أن وصفهم بالتقوى يكفى فى نيل الثواب لأنه يتضمن اتقاء المعاصى ، واتقاء ترك الواجبات والله اعلم

قوله تعالى ﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون ﴾

اعلم أن فى الآية مسائل نحوية ، ومسائل أصولية ، ونحن نأتى عليها إن شاء الله تعالى . أما قوله (إن) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن (إن) حرف والحرف لاأصل له فى العمل ، لكن هذا الحرف أشبه الفعل صورة ومعنى ، وتلك المشابهة تقتضى كونها عاملة ، وفيه مقدمات (المقدمة الأولى) فى بيان المشابهة ، واعلم ان هذه المشابهة حاصلة فى اللفظ والمعنى ، أما فى اللفظ فلأنها تركبت من ثلاثة أحرف وانفتح آخرها ولزمت الأسماء كالأفعال ، ويدخلها نون الوقاية نحو إننى وكأننى ، كما يدخل على الفعل نحو : أعطانى وأكرمنى ، وأما المعنى فلأنها تفيد حصول معنى فى الاسم وهو تأكد موصوفيته بالخبر ، كما أنك إذا قلت : قام زيد ، فقولك قام أفاد حصول معنى فى الاسم (المقدمة الثانية) أنها لما أشبهت الأفعال وجب أن تشبهها فى العمل وذلك ظاهر بناء على الدوران (المقدمة الثالثة) فى أنها لم نصبت الاسم ورفعت الخبر ؟ وتقريره أن يقال : إنها لما صارت عاملة فاما أن ترفع المبتدأ والخبر معاً ، أوتنصبهما معاً ، أو ترفع المبتدأ وتنصب الخبر وبالعكس ، والأول باطل ؛ لأن المبتدأ والخبر كانا قبل دخول (إن) عليهما مرفوعين ، فلو بقيا كذلك بعد دخولها عليهما لما ظهر له أثر البتة ، ولأنها أعطيت عمل الفعل ، والفعل لايرفع الإسمين فلا معنى للاشتراك والفرع لايكون أقوى من الأصل ، والقسم الثانى أيضاً باطل ؛ لأن هذا أيضاً مخالف لعمل الفعل ،

لأن الفعل لاينصب شيئا مع خلوه عما يرفعه . والقسم الثالث أيضاً باطل ، لأنه يؤدى إلى التسوية بين الأصل والفرع . فان الفعل يكون عمله فى الفاعل أولا بالرفع ثم فى المفعول بالنصب ، فلو جعل الحرف ههنا كذلك لحصلت التسوية بين الأصل والفرع . ولما بطلت الأقسام الثلاثة تعين القسم الرابع : وهو أنها تنصب الاسم وترفع الخبر ، وهذا مما ينبه على أن هذه الحروف دخيلة فى العمل لاأصلية ، لأن تقديم المنصوب على المرفوع فى باب الفعل عدول عن الأصل فذلك يدل ههنا على أن العمل لهذه الحروف ليس بثابت بطريق الأصالة بل بطريق عارض .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال البصريون : هذا الحرف ينصب الاسم ويرفع الخبر ، وقال الكوفيون لاأثر له فى رفع الخبر بل هو مرتفع بما كان مرتفعا به قبل ذلك . حجة البصريين : أن هذه الحروف تشبه الفعل مشابهة تامة على ماتقدم بيانه ، والفعل له تأثير فى الرفع والنصب ، فهذه الحروف يجب أن تكون كذلك . وحجة الكوفيين من وجهين . الأول : أن معنى الخبرية باق فى خبر المبتدأ وهو أولى باقتضاء الرفع فتكون الخبرية رافعة ، وإذا كانت الخبرية رافعة استحال ارتفاعه بهذه الحروف ، فهذه مقدمات ثلاثة . إحداها : قولنا : الخبرية باقية ، وذلك ظاهر ، لأن المراد من الخبرية كون الخبر مسنداً إلى المبتدأ ، وبعد دخول حرف « إن » عليه فذاك الاسناد باق . وثانيها : قولنا : الخبرية ههنا مقتضية للرفع : وذلك لأن الخبرية كانت قبل دخول « إن » مقتضية للرفع ولم يكن عدم الحرف هناك جزءاً من المقتضى . لأن العدم لايصلح أن يكون جزء العلة ، فبعد دخول هذه الحروف كانت الخبرية مقتضية للرفع ، لأن المقتضى بتمامه لوحصل ولم يؤثر لكان ذلك لمانع وهو خلاف الأصل . وثالثها : قولنا : الخبرية أولى بالاقتضاء ، وبيانه من وجهين . الاول : أن كونه خبراً وصف حقيقى قائم بذاته ، وذلك الحرف أجنبى مباين عنه وكما أنه مباين عنه فغير مجاور له لان الاسم يتخللهما . الثانى : أن الخبر يشابه الفعل مشابهة حقيقية معنوية وهو كون كل واحد منهما مسندا إلى الغير ، أما الحرف فإنه لا يشابه الفعل فى وصف حقيقى معنوى ، فانه ليس فيه إسناد ، فكانت مشابهة الخبر للفعل أقوى من مشابهة هذا الحرف للفعل ، فاذا ثبت ذلك كانت الخبرية باقتضاء الرفع لاجل مشابهة الفعل أولى من الحرف بسبب مشابهته للفعل ورابعها : لما كانت الخبريه أقوى فى اقتضاء الرفع استحال كون هذا الحرف رافعاً ، لان الخبريه بالنسبة إلى هـــذا الحرف أولى ، وإذا كان كذلك فقد حصل الحكم بالخبرية قبل حصول هذا الحرف ، فبعد وجود هذا الحرف لوأسند هذا الحكم إليه لكان ذلك تحصيلا للحاصل، وهو محال . الوجه الثانى : أن سيبويه وافق على أن الحرف غير أصل فى العمل فيكون إعماله على خلاف الدليل ، وما ثبت على خلاف الدليل يقدر بقدر الضرورة . والضرورة تندفع باعمالها فى الاسم ، فوجب أن لايعملها فى الخبر

﴿ المسألة الثالثة ﴾ روى الانبارى أن الكندى المتفلسف ركب إلى المبرد وقال : إنى أجد

فى كلام العرب حشوا ، أجدالعرب تقول : عبد الله قائم ، ثم تقول إن عبد الله قائم . ثم تقول إن عبد الله لقائم ، فقال المبرد : بل المعانى مختلفة لاختلاف الألفاظ ، فقولهم عبد الله قائم إخبار عن قيامه ، وقولهم إن عبدالله قائم جواب عن سوال سائل ، وقولهم إن عبدالله لقائم جواب عن إنكار منكرلقيامه . واحتج عبد القاهر على صحة قوله بأنها إنما تذكر جوابا لسؤال السائل بأن قال انا رأيناهم قد ألزموها الجملة من المبتدأ والخبر إذا كان جوابا للقسم نحووالله إن زيدا منطلق ويدل عليه من التنزيل قوله (ويسئلونك عن ذى القرنين قل سأتلوا عليكم منه ذكرا إنا مكنا له فى الأرض) وقوله فى أول السورة (نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم) وقوله (فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون) وقوله (قل إنى نهيت أن أعبدالذين تدعون من دون الله) وقوله(وقل إنى أنا النذير المبين) وأشباه ذلك مما يعلم أنه يدل على أمر النبى صلى الله عليه وسلم بان يجيب به الكفارفى بعض ماجادلوا ونظروا فيه ، وعليه قوله (فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين) وقوله (وقال موسى يافرعون إنى رسول من رب العالمين) وفى قصةالسحرة (إنا إلى ربنا منقلبون) إذ من الظاهرأنه جواب فرعون عن قوله (آمنتم له قبل أن آذن لكم) وقال عبدالقاهر: والتحقيق أنها للتأكيد وإذا كان الخبر بأمر ليس للمخاطب ظن فى خلافه لم يحتج هناك إلى « إن » وإنما يحتاج إليها إذا كان السامع ظن الخلاف ، ولذلك تراها تزداد حسنا إذا كان الخبر بأمر يبعد مثله كقول أبى نواس :

عليك باليأس من الناس إن غنى نفسك فى الياس

وإنما حسن موقعها لأن الغالب أن الناس لايحملون أنفسهم على اليأس . وأما جعلها مع اللام جوابا للمنكر فى قولك « إن زيداً لقائم » فجيد لأنه إذا كان الكلام مع المنكر كانت الحاجة إلى التأكيد أشد ، وكما يحتمل أن يكون الانكار من السامع احتمل أيضاً أن يكون من الحاضرين . واعلم أنها قد تجىء إذا ظن المتكلم فى الذى وجد أنه لايوجد مثل قولك : إنه كان منى إليه إحسان فعاملنى بالسوء ، فكأنك ترد على نفسك ظنك الذى ظننت وتبين الخطأ فى الذى توهمت . وعليه قوله تعالى حكاية عن أم مريم (قالت رب إنى وضعتها أنثى والله اعلم بما وضعت) وكذلك قول نوح عليه السلام (قال رب إن قومى كذبون)

أما قوله تعالى (الذين كفروا) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنه صعب على المتكلمين ذكر حد الكفر ، وتحقيق القول فيه أن كل ما ينقل عن محمد صلى الله عليه وسلم أنه ذهب إليه وقال به فإما أن يعرف صحة ذلك النقل بالضرورة أو بالاستدلال أو بخبر الواحد . أما القسم الأول . وهو الذى عرف بالضرورة مجىء الرسول عليه السلام به فمن صدقه فى كل ذلك فهو مؤمن ، ومن لم يصدقه فى ذلك ، فاما بأن لا يصدقه فى جميعها أوبأن لايصدقه فى البعض دون البعض ، فذلك هو الكافر ، فاذن الكفر عدم تصديق

الرسول فى شىء مما علم بالضرورة مجيئه به ، ومثاله من أنكر وجود الصانع ، أو كونه عالما قادراً مختارا أو كونه واحدا أو كونه منزها عن النقائص والآفات ، أو أنكر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أو صحة القرآن الكريم أو أنكر الشرائع التى علمنا بالضرورة كونها من دين محمد صلى الله عليه وسلم كوجوب الصلاة والزكاة والصوم والحج وحرمة الربا والخمر، فذلك يكون كافرا ؛ لأنه ترك تصديق الرسول فيما علم بالضرورة أنه من دينه . فأما الذى يعرف بالدليل أنه من دينه مثل كونه عالما بالعلم أو لذاته وأنه مرئى أو غير مرئى ، وأنه خالق أعمال العباد أم لا فلم ينقل بالتواتر القاطع لعذر مجيئه عليه السلام بأحد القولين دون الثانى ، بل إنما يعلم صحة أحد القولين و بطلان الثانى بالاستدلال ، فلاجرم لم يكن إنكاره ولا الاقرار به داخلا فى ماهية الإيمان فلا يكون موجبا للكفر ، والدليل عليه أنه لو كان ذلك جزء ماهية الإيمان لكان يجب على الرسول صلى الله عليه وسلم أن لا يحكم بإيمان أحد إلا بعد أن يعرف أنه هل يعرف الحق فى تلك المسألة ، ولو كان الأمر كذلك لاشتهر قوله فى تلك المسألة بين جميع الأمة ، ولنقل ذلك على سبيل التواتر ، فلما لم ينقل ذلك دل على أنه عليه السلام ما وقف الإيمان عليها ، وإذا كان كذلك وجب أن لا تكون معرفتها من الإيمان ، ولا انكارها موجبا للكفر ، ولأجل هذه القاعدة لا يكفر أحد من هذه الأمة ولا نكفر أرباب التأويل . وأما الذى لا سبيل إليه إلا برواية الآحاد فظاهر أنه لا يمكن توقف الكفر والإيمان عليه . فهذا قولنا فى حقيقة الكفر . فان قيل يبطل ماذكرتم من جهة العكس بلبس الغيار وشد الزنار وأمثالهما فانه كفر مع أن ذلك شىء آخر سوى ترك تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما علم بالضرورة مجيئه به ، قلنا هذه الأشياء فى الحقيقة ليست كفرا لأن التصديق وعدمه أمر باطن لا اطلاع للخلق عليه ، ومن عادة الشرع أنه لا يبنى الحكم فى امثال هذه الأمور على نفس المعنى ، لأنه لا سبيل إلى الاطلاع ، بل يجعل لهـــا معرفات وعلامات ظاهرة ويجعل تلك المظان الظاهرة مداراً للاحكام الشرعية ، وليس الغيار وشد الزنار من هذا الباب ، فان الظاهر أن من يصدق الرسول عليه السلام فإنه لا يأتى بهذه الأفعال ، فحيث أتى بها دل على عدم التصديق فلاجرم الشرع يفرع الأحكام عليها ، لا أنها فى أنفسها كفر ، فهذا هو الكلام الملخص فى هذا الباب والله اعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (إن الذين كفروا) إخبار عن كفرهم بصيغة الماضى والاخبار عن الشىء بصيغة الماضى يقتضى كون المخبر عنه متقدما على ذلك الاخبار ، اذا عرفت هذا فنقول : احتجت المعتزلة بكل ماأخبر الله عن شىء ماض مثل قوله (إن الذين كفروا) أو (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ، إنا أنزلناه فى ليلة القدر ، إنا أرسلنا نوحا) على أن كلام الله محدث سواء كان الكلام هذه الحروف والاصوات أو كان شيئاً آخر . قالوا لان الخبر على هذا الوجه لا يكون صدقا إلا إذا كان مسبوقا بالمخبر عنه ، والقديم يستحيل أن يكون مسبوقا بالغير فهذا الخبر يستحيل أن يكون قديما فيجب أن يكون محدثا ، أجاب القائلون بقدم الكلام عنه من وجهين . الاول : أن

الله تعالى كان فى الأزل عالما بأن العالم سيوجد ، فلما أوجده انقلب العلم بأنه سيوجد فى المستقبل علما بأنه قد حدث فى الماضى ولم يلزم حدوث علم الله تعالى ، فلم لا يجوز أيضاً أن يقال : ان خبر الله تعالى فى الأزل كان خبرا بأنهم سيكفرون فلما وجد كفرهم صار ذلك الخبر خبرا عن أنهم قد كفروا ولم يلزم حدوث خبر الله تعالى . الثانى أن الله تعالى قال (لتدخلن المسجد الحرام) فلما دخلوا المسجد لا بد وأن ينقلب ذلك الخبر إلى أنهم قد دخلوا المسجد الحرام من غير أن يتغير الخبر الأول ، فاذا جاز ذلك فلم لا يجوز فى مسئلتنا مثله ؟ أجاب المستدل أولا عن السؤال الأول فقال : عند أبى الحسين البصرى وأصحابه العلم يتغير عند تغير المعلومات ، وكيف لا والعلم بأن العالم غير موجود وأنه سيوجد لو بقى حال وجود العالم لكان ذلك جهلا لا علما ، وإذا كان كذلك وجب تغير ذلك العلم ، وعلى هذا سقطت هذه المعارضة . وعن الثانى : أن خبر الله تعالى وكلامه أصوات مخصوصة ، فقوله تعالى (لتدخلن المسجد الحرام) معناه أن الله تعالى تكلم بهذا الكلام فى الوقت المتقدم على دخول المسجد لا أنه تكلم به بعد دخول المسجد ، فنظيره فى مسئلتنا أن يقال إن قوله (إن الذين كفروا) تكلم الله تعالى به بعد صدور الكفر عنهم لا قبله إلا أنه متى قيل ذلك كان اعترافا بأن تكلمه بذلك لم يكن حاصلا فى الأزل وهذا هو المقصود ، أجاب القائلون بالقدم بأنا لو قلنا إن العلم يتغير بتغير المعلوم لكننا إما أن نقول بأن العالم سيوجد كان حاصلا فى الأزل أو ما كان ، فان لم يكن حاصلا فى الأزل كان ذلك تصريحا بالجهل . وذلك كفر ، وإن قلنا إنه كان حاصلا فزواله يقتضى زوال القديم ، وذلك سد باب إثبات حدوث العالم والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (إن الذين كفروا) صيغة للجمع مع لام التعريف وهى للاستغراق بظاهره ثم إنه لا نزاع فى أنه ليس المراد منها هذا الظاهر ، لأن كثيراً من الكفار أسلموا فعلمنا أن الله تعالى قد يتكلم بالعام ويكون مراده الخاص ، إما لأجل أن القرينة الدالة على أن المراد من ذلك العموم ذلك الخصوص كانت ظاهرة فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم فحسن ذلك لعدم التلبيس وظهور المقصود ، ومثاله ما إذا كان للانسان فى البلد جمع مخصوص من الاعداء ، فاذا قال « إن الناس يؤذوننى » فهم كل أحد أن مراده من الناس ذلك الجمع على التعيين ، وإما لاجل أن التكلم بالعام لارادة الخاص جائز وان لم يكن البيان مقرونا به عند من يجوز تأخير بيان التخصيص عن وقت الخطاب ، وإذا ثبت ذلك ظهر أنه لا يمكن التمسك بشىء من صيغ العموم على القطع بالاستغراق لاحتمال أن المراد منها هو الخاص وكانت القرينة الدالة على ذلك ظاهرة فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلا جرم حسن ذلك ، وأقصى ما فى الباب أن يقال : لو وجدت هذه القرينة لعرفناها وحيث لم نعرفها علمنا أنها ما وجدت إلا أن هذا الكلام ضعيف ، لان الاستدلال بعدم الوجدان على عدم الوجود من أضعف الامارات المفيدة للظن فضلا عن القطع ، وإذا ثبت ذلك ظهر أن استدلال المعتزلة بعمومات الوعيد على القطع بالوعيد فى نهاية الضعف والله أعلم ومن المعتزلة من

احتال فى دفع ذلك فقال إن قوله : إن الذين كفروا لا يؤمنون كالنقيض لقوله : إن الذين كفروا يؤمنون ، وقوله : إن الذين كفروا يؤمنون لا يصدق إلا اذا آمن كل واحد منهم ، فاذا ثبت أنه فى جانب الثبوت يقتضى العموم وجب أن لا يتوقف فى جانب النفى على العموم بل يكفى فى صدقه أن لا يصدر الايمان عن واحد منهم ؛ لأنه متى لم يؤمن واحد من ذلك الجمع ثبت أن ذلك الجمع لم يصدر منهم الايمان ، فثبت أن قوله : ان الذين كفروا لا يؤمنون يكفى فى إجرائه على ظاهره أن لا يؤمن واحد منهم فكيف إذا لم يؤمن الكثير منهم والجواب : أن قوله (إن الذين كفروا) صيغة الجمع وقوله (لا يؤمنون) أيضاً صيغة جمع والجمع إذا قوبل بالجمع توزع الفرد على الفرد فمعناه أن كل واحد منهم لا يؤمن وحينئذ يعود الكلام المذكور

﴿ المسألة الرابعة ﴾ اختلف أهل التفسير فى المراد ههنا بقوله (الذين كفروا) فقال قائلون : إنهم رؤساء اليهود المعاندون الذين وصفهم الله تعالى بأنهم يكتمون الحق وهم يعلمون ، وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما ، وقال آخرون : بل المراد قوم من المشركين ، كأبى لهب وأبى جهل والوليد بن المغيرة وأضرابهم ، وهم الذين جحدوا بعد البينة ، وأنكروا بعد المعرفة ونظيره ما قال الله تعالى (فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه) وكان عليه السلام حريصا على أن يؤمن قومه جميعا حيث قال الله تعالى له (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) وقال (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) ثم إنه سبحانه وتعالى بين له عليه السلام أنهم لا يؤمنون ليقطع طمعه عنهم ولا يتأذى بسبب ذلك ، فان اليأس إحدى الراحتين

أما قوله تعالى (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذهم لا يؤمنون) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف (سواء) اسم بمعنى الاستواء وصف به كما يوصف بالمصادر ومنه قوله تعالى (تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم) (فى أربعة أيام سواء للسائلين) بمعنى مستوية ، فكأنه قيل إن الذين كفروا مستو عليهم إنذارك وعدمه

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى ارتفاع سواء قولان . أحدهما : أن ارتفاعه على أنه خبر لان و(أنذرتهم أم لم تنذرهم) فى موضع الرفع به على الفاعلية ، كأنه قيل . إن الذين كفروا مستو عليهم إنذارك وعدمه كما تقول : إن زيدا مختصم أخوه وابن عمه . الثانى : أن تكون أنذرتهم أم لم تنذرهم فى موضع الابتداء وسواء خبره مقدما بمعنى سواء عليهم إنذارك وعدمه والجملة خبر لأن ، واعلم أن الوجه الثانى أولى ؛ لأن « سواء » اسم ، وتنزيله بمنزلة الفعل يكون تركا للظاهر من غير ضرورة وأنه لا يجوز ، وإذا ثبت هذا فنقول : من المعلوم أن المراد وصف الإنذار وعدم الانذار بالاستواء ، فوجب أن يكون سواء خبرا فيكون الخبر مقدما . وذلك يدل على أن تقديم الخبر على المبتدأ جائز ، ونظيره قوله تعالى (سواء محياهم ومماتهم) وروى سيبويه قولهم « تميمى أنا »

« ومشنوء من يشنؤك » أما الكوفيون فانهم لايجوزونه واحتجوا عليه من وجهين . الأول : المبتدأ ذات ، والخبر صفة ، والذات قبل الصفة بالاستحقاق ، فوجب أن يكون قبلها فى اللفظ قياسا على توابع الاعراب والجامع التبعية المعنوية . الثانى : أن الخبر لابد وأن يتضمن الضمير ، فلو قدم الخبر على المبتدأ لوجد الضمير قبل الذكر ، وأنه غير جائز ، لأن الضمير هو اللفظ الذى أشير به إلى أمر معلوم ، فقبل العلم به امتنعت الاشارة إليه ، فكان الاضمار قبل الذكر محالا ، أجاب البصريون على الأول بأن ماذكرتم يقتضى أن يكون تقدم المبتدأ أولى ، لا أن يكون واجبا وعن الثانى : أن الإضمار قبل الذكر واقع فى كلام العرب ، كقولهم « فى بيته يؤتى الحكم » قال تعالى (فأوجس فى نفسه خيفة موسى) وقال زهير :

من يلق يوما على عـــلاته هرما ... يلق السماحة منه والندى خلقا

والله اعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اتفقوا على أن الفعل لايخبر عنه ، لأن من قال : خرج ضرب لم يكن آتياً بكلام منتظم ، ومنهم من قدح فيه بوجوه . أحدها : أن قوله (ءأنذرتهم أم لم تنذرهم) فعل وقد أخبر عنه بقوله (سواء عليهم) ونظيره قوله (ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين) فاعل « بدا » هو « ليسجننه » وثانيها : أن المخبرعنه بانه فعل لابدوأن يكون فعلا ، فالفعل قد أخبر عنه بأنه فعل فإن قيل : المخبر عنه بأنه فعل هو تلك الكلمة ، وتلك الكلمة اسم قلنا فعلى هذا : المخبر عنه بأنه فعل إذا لم يكن فعلا بل اسما كان هذا الخبر كذبا ، والتحقيق أن المخبر عنه بأنه فعـل إما أن يكون اسما أولا يكون ، فإن كان الأول كان هذا الخبر كذبا ، لأن الاسم لايكون فعلا ، وإن كان فعلا فقد صار الفعل مخبرا عنه وثالثهـــا : أنا إذا قلنا : الفعل لايخبر عنه فقد أخبرنا عنه بأنه لايخبر عنه ، والمخبر عنه بهذا الخبر لو كان اسما لزم أنا قدأخبرنا عن الاسم بأنه لايخبر عنه ، وهذا خطأ وإن كان فعلا صـار الفعل مخبرا عنه ثم قال هؤلاء : لما ثبت أنه لاامتناع فى الإخبار عن الفعل لم يكن بنا حاجة إلى ترك الظاهر . أما جمهورالنحويين فقد أطبقوا على أنه لايجوز الاخبار عن الفعل ، فلا جرم كان التقدير : سواء عليهم إنذارك وعدم إنذارك ، فإن قيـل العدول عن الحقيقة إلى المجاز لابد وأن يكون لفـائدة زائدة إما فى المعنى أو فى اللفظ فما تلك الفائدة ههنـا ؟ قلنا : قوله (سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم) معنـاه سواء عليهم إنذارك وعدم إنذارك لهم بعـد ذلك لأن القوم كانوا قد بلغوا فى الاصرار واللجـاج والاعراض عن الآيات والدلائل إلى حالة مابقى فيهم البتـة رجاء القبول بوجه . وقبل ذلك ما كانوا كذلك ، ولو قال سواء عليهم إنذارك وعدم إنذارك لمـا أفاد أن هذا المعنى إنمـا حصل فى هـذا الوقت دون ماقبله ، ولما قال (ءأنذرتهم أم لم تنذرهم) أفاد أن هذه الحالة إنمـــا حصلت فى هذا الوقت فكان ذلك يفيد حصول اليأس وقطع الرجاء منهم ، وقد بينا أن المقصود من هذه الآية ذلك

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال صاحب الكشاف : « الهمزة » و « أم » مجردتان لمعنى الاستفهام وقد انسلخ عنهما معنى الاستفهام رأسا ، قال سيبوية : جرى هذا على حرف الاستفهام كما جرى على حرف النداء كقوله : اللهم اغفر لنا أيتها العصابة ، يعنى أن هذا جرى على صورة الاستفهام ولا استفهام ، كما أن ذلك جرى على صورة النداء ولا نداء .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ فى قوله (ءأنذرتهم) ست قراءات : إما بهمزتين محققتين بينهما ألف ، أولا ألف بينهما ، أو بأن تكون الهمزة الأولى قوية والثانية بين بين بينهما ألف ، أولا ألف بينهما وبحذف حرف الاستفهام ، وبحذفه وإلقاء حركته على الساكن قبله كما قرىء « قد افلح » فان قيل : فما تقول فيمن يقلب الثانية ألفا ؟ قال صاحب الكشاف : هو لاحن خارج عن كلام العرب

﴿ المسألة السادسة ﴾ الانذار هو التخويف من عقاب الله بالزجر عن المعاصى ، وانما ذكر الانذار دون البشارة لأن تأثير الانذار فى الفعل والترك أقوى من تأثير البشارة ؛ لأن اشتغال الانسان بدفع الضرر أشد من اشتغاله بجلب المنفعة ، وهذا الموضع موضع المبالغة وكان ذكر الانذار أولى . أما قوله (لا يؤمنون) ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف : هذه إما أن تكون جملة مؤكدة للجملة قبلها أو خبراً «لان» والجملة قبلها اعتراض

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج أهل السنة بهذه الآية وكل ما أشبهها من قوله (لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون) وقوله (ذرنى ومن خلقت وحيدا) إلى قوله (سأرهقه صعودا) وقوله (تبت يدا أبى لهب) على تكليف مالا يطاق ، وتقريره أنه تعالى أخبر عن شخص معين أنه لا يؤمن قط ، فلو صدر منه الايمان لزم انقلاب خبر الله تعالى الصدق كذبا ، والكذب عند الخصم قبيح وفعل القبيح يستلزم إما الجهل وإما الحاجة ، وهما محالان على الله ، والمفضى إلى المحال محال ، فصدور الايمان منه محال فالتكليف به تكليف بالمحال ، وقد يذكر هذا فى صورة العلم ، هو أنه تعالى لما علم منه أنه لا يؤمن فكان صدور الايمان منه يستلزم انقلاب علم الله تعالى جهلا ، وذلك محال ومستلزم المحال محال . فالأمر واقع بالمحال . ونذكر هذا على وجه ثالث : وهو أن وجود الايمان يستحيل أن يوجد مع العلم بعدم الايمان ؛ لأنه إنما يكون علما لو كان مطابقا للمعلوم . والعلم بعدم الايمان إنما يكون مطابقا لو حصل عدم الايمان ، فلو وجد الايمان مع العلم بعدم الايمان لزم أن يجتمع فى الايمان كونه موجودا ومعدوما معا وهو محال ، فالأمر بالايمان مع وجود علم الله تعالى بعدم الايمان أمر بالجمع بين الضدين ، بل أمر بالجمع بين العدم والوجود ، وكل ذلك محال ونذكر هذا على وجه رابع : وهو أنه تعالى كلف هؤلاء الذين أخبر عنهم بأنهم لا يؤمنون بالايمان ألبتة ، والايمان يعتبر فيه تصديق الله تعالى فى كل ما أخبر عنه ، ومما أخبر عنه أنهم لا يؤمنون قط ، فقد صاروا مكلفين بأن يؤمنوا بأنهم لا يؤمنون قط ، وهذا تكليف بالجمع بين النفى

والاثبات ، ونذكر هذا على وجه خامس : وهو أنه تعالى عاب الكفار على أنهم حاولوا فعل شيء على خلاف ما أخبر الله عنه فى قوله (يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل) فثبت أن القصد إلى تكوين ما أخبر الله تعالى عن عدم تكوينه قصد لتبديل كلام الله تعالى ، وذلك منهى عنه . ثم ههنا أخبر الله تعالى عنهم بأنهم لا يؤمنون البتة فمحاولة الايمان منهم تكون قصدا إلى تبديل كلام الله ، وذلك منهى عنه ، وترك محاولة الايمان يكون أيضا مخالفة لأمر الله تعالى ، فيكون الذم حاصلا على الترك والفعل ، فهذه هى الوجوه المذكورة فى هذا الموضع ، وهذا هو الكلام الهادم لأصول الاعتزال . ولقد كان السلف والخلف من المحققين معولين عليه فى دفع أصول المعتزلة وهدم قواعدهم ، ولقد قاموا وقعدوا واحتالوا على دفعه فما أتوا بشيء مقنع ، وأنا أذكر أقصى ما ذكروه بعون الله تعالى وتوفيقه : قالت المعتزلة : لنا فى هذه الآية مقامان : المقام الأول : بيان أنه لا يجوز أن يكون علم الله تعالى وخبر الله تعالى عن عدم الايمان مانعا من الايمان ، والمقام الثانى : بيان الجواب العقلى على سبيل التفصيل ، أما المقام الأول فقالوا : الذى يدل عليه وجوه: أحدها : أن القرآن مملوء من الآيات الدالة على أنه لا مانع لأحد من الايمان قال (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى) وهو إنكار بلفظ الاستفهام ومعلوم أن رجلا لو حبس آخر فى بيت بحيث لا يمكنه الخروج عنه ثم يقول مامنعك من التصرف فى حوائجى كان ذلك منه مستقبحا وكذا قوله (وماذا عليهم لو آمنو) وقوله لإبليس (مامنعك أن تسجد) وقول موسى لأخيه (ما منعك إذ رأيتهم ضلوا) وقوله (فما لهم لا يؤمنون) (فما لهم عن التذكرة معرضين) (عفا الله عنك لم أذنت لهم) (لم تحرم ما أحل الله لك) قال الصاحب ابن عباد فى فصل له فى هذا الباب : كيف يأمره بالايمان وقد منعه عنه ؟ وينهاه عن الكفر وقد حمله عليه ، وكيف يصرفه عن الايمان ثم يقول أنى تصرفون ؟ ويخلق فيهم الافك ثم يقول أنى تؤفكون ؟ وأنشأ فيهم الكفر ثم يقوم لم تكفرون ؟ وخلق فيهم لبس الحق بالباطل ثم يقول (لم تلبسون الحق بالباطل) وصدهم عن السبيل ثم يقول (لم تصدون عن سبيل الله) وحال بينهم وبين الايمان ثم قال (وماذا عليهم لو آمنوا) وذهب بهم عن الرشد ثم قال (فأين تذهبون) وأضلهم عن الدين حتى أعرضوا ثم قال (فما لهم عن التذكرة معرضين) . وثانيها : أن الله تعالى قال (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل)وقال(ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى) فلما بين أنه ما أبقى لهم عذرا إلا وقد أزاله عنهم ، فلو كان علمه بكفرهم وخبره عن كفرهم مانعا لهم عن الايمان لكان ذلك من أعظم الاعذار وأقوى الوجوه الدافعة للعقاب عنهم فلما لم يكن كذلك علمنا أنه غير مانع . وثالثها : أنه تعالى حكى عن الكفار فى سورة « حم السجدة » أنهم قالوا : قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ، وإنما ذكر الله تعالى ذلك ذما لهم فى هذا القول ، فلو كان العلم مانعا لكانوا صادقين

فى ذلك فلم ذمهم عليه ؟ ورابعها : أنه تعالى أنزل قوله (إن الذين كفروا — إلى آخره) ذمالهم وزجرا عن الكفر وتقبيحا لفعلهم ، فلو كانوا ممنوعين عن الايمان غير قادرين عليه لما استحقوا الذم البتة ، بل كانوا معذورين كما يكون الأعمى معذورا فى أن لا يمشى . وخامسها : القرآن إنما أنزل ليكون حجة لله ولرسوله عليهم ، لا أن يكون لهم حجة على الله وعلى رسوله ، فلو كان العلم والخبر مانعا لكان لهم أن يقولوا : إذا علمت الكفر وأخبرت عنه كان ترك الكفر محالا منا ، فلم تطلب المحال منا ولم تأمرنا بالمحال ؟ ومعلوم أن هذا مما لا جواب لله ولا لرسوله عنه لو ثبت أن العلم والخبر يمنع وسادسها : قوله تعالى (نعم المولى ونعم النصير) ولو كان مع قيام المانع عن الايمان كلف به لما كان نعم المولى ، بل كان بئس المولى ومعلوم أن ذلك كفر ، قالوا : فثبت بهذه الوجوه أنه ليس عن الايمان والطاعة مانع البتة ، فوجب القطع بأن علم الله تعالى بعدم الايمان وخبره عن عدمه لا يكون مانعاً عن الايمان . المقام الثانى قالوا إن الذى يدل على أن العلم بعدم الايمان لا يمنع من وجود الايمان وجوه . أحدها : أنه لو كان كذلك لوجب أن لا يكون الله تعالى قادرا على شىء ؛ لأن الذى علم وقوعه يكون واجب الوقوع ، والذى علم عدم وقوعه يكون ممتنع الوقوع ، والواجب لا قدرة له عليه ؛ لأنه إذا كان واجب الوقوع ، لا بالقدرة فسواء حصلت القدرة أو لم تحصل كان واجب الوقوع ، والذى يكون كذلك لم يكن للقدرة فيه أثر ، وأما الممتنع فلا قدرة عليه ، فيلزم أن لا يكون الله تعالى قادرا على شىء أصلا ، وذلك كفر بالاتفاق فثبت أن العلم بعدم الشىء لا يمنع من إمكان وجوده . وثانيها : أن العلم يتعلق بالمعلوم على ما هو عليه ، فان كان ممكنا علمه ممكنا وإن كان واجبا علمه واجبا ، ولا شك أن الايمان والكفر بالنظر إلى ذاته ممكن الوجود ، فلو صار واجب الوجود بسبب العلم كان العلم مؤثرا فى المعلوم ، وقد بينا أنه محال . وثالثها : لو كان الخبر والعلم مانعا لما كان العبد قادرا على شىء أصلا ؛ لأن الذى علم الله تعالى وقوعه كان واجب الوقوع ، والواجب لا قدرة عليه ؛ والذى علم عدمه كان ممتنع الوقوع ، والممتنع لا قدرة عليه ، فوجب أن لا يكون العبد قادرا على شىء أصلا ، فكانت حركاته وسكناته جارية مجرى حركات الجمادات ، والحركات الاضطرارية للحيوانات ، لكننا بالبديهة نعلم فساد ذلك ، فان رمى إنسان إنسانا بالآجرة حتى شجه فانا نذم الرامى ولا نذم الآجرة ، وندرك بالبديهة تفرقة بين ما إذا سقطت الآجرة عليه ، وبين ما إذا لكمه إنسان بالاختيار : ولذلك فان العقلاء ببداءة عقولهم يدركون الفرق بين مدح المحسن وذم المسىء ، ويلتمسون ويأمرون ويعاتبون ويقولون لم فعلت ولم تركت ؟ فدل على أن العلم والخبر غير مانع من الفعل والترك . ورابعها : لو كان العلم بالعدم مانعا للوجود لكان أمر الله تعالى للكافر بالايمان أمرا باعدام علمه ، وكما أنه لا يليق به أن يأمر عباده بأن يعدموه فكذلك لا يليق به أن يأمرهم ، بأن يعدموا علمه ؛ لأن إعدم ذات الله وصفاته غير معقول ، والأمر به سفه وعبث ، فدل على أن العلم بالعدم لا يكون مانعا من الوجود . وخامسها : أن الايمان فى نفسه من قبيل الممكنات الجائزات

نظرا إلى ذاته وعينه ، فوجب أن يعلمه الله تعالى من الممكنات الجائزات ، إذا لو لم يعلمه كذلك لكان ذلك العلم جهلا ، وهو محال ، وإذا علمه الله تعالى من الممكنات الجائزات التى لا يمتنع وجودها وعدمها البتة ، فلو صار بسبب العلم واجبا لزم أن يجتمع على الشىء الواحد كونه من الممكنات ، وكونه ليس من الممكنات وذلك محال . وسادسها : ان الأمر بالمحال سفه وعبث ، فلو جاز ورود الشرع به لجاز وروده أيضاً بكل انواع السفه ، فما كان يمتنع وروده باظهار المعجزة على يد الكاذبين ولا إنزال الأكاذيب والأباطيل ، وعلى هذا التقدير لا يبقى وثوق بصحة نبوة الأنبياء ولا بصحة القرآن ، بل يجوز أن يكون كله كذبا وسفها ، ولما بطل ذلك علمنا أن العلم بعدم الايمان والخبر عن عدم الإيمان لا يمنع من الإيمان . وسابعها : أنه لو جاز ورود الأمر بالمحال فى هذه الصورة لجاز ورود أمر الأعمى بنقط المصاحف ، والمزمن بالطيران فى الهواء ، وأن يقال لمن قيد يداه ورجلاه وألقى من شاهق جبل : لم لا تطير إلى فوق ؟ ولما لم يجز شىء من ذلك فى العقول علمنا أنه لا يجوز الأمر بالمحال ، فثبت أن العلم بالعدم لا يمنع من الوجود ، وثامنها : لو جاز ورود الأمر بذلك لجاز بعثة الأنبياء إلى الجمادات وإنزال الكتب عليها ، وإنزال الملائكة لتبليغ التكاليف إليها حالا بعد حال ، ومعلوم أن ذلك سخرية وتلاعب بالدين . وتاسعها : أن العلم بوجود الشىء لو اقتضى وجوبه لأغنى العلم عن القدرة والارادة ، فوجب أن لا يكون الله تعالى قادرا مريدا مختارا ، وذلك قول الفلاسفة القائلين بالموجب . وعاشرها : الآيات الدالة على أن تكليف ما لا يطاق لم يوجد ، قال الله تعالى (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) وقال (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) وقال (ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم) وأى حرج ومشقة فوق التكليف بالمحال (المقام الثالث) الجواب على سبيل التفصيل ، وللمعتزلة فيه طريقان . الأول : طريقة أبى على وأبى هاشم والقاضى عبد الجبار ، فانا لما قلنا : لو وقع خلاف معلوم الله تعالى لانقلب علمه جهلا قالوا خطأ : قول من يقول : إنه ينقلب علمه جهلا ، وخطأ أيضاً قول من يقول : إنه لا ينقلب ، ولكن يجب الامساك عن القولين : والثانى : طريقة الكعبى واختيار أبى الحسين البصرى : أن العلم تبع المعلوم ، فاذا فرضت الواقع من العبد من الإيمان عرفت أن الحاصل فى الأزل لله تعالى هو العلم بالإيمان ، ومتى فرضت الواقع منه هو الكفر بدلا عن الإيمان عرفت أن الحاصل فى الأزل هو العلم بالكفر بدلا عن الإيمان ، فهذا فرض علم بدلا عن علم اخر ، لا أنه تغير العلم . فهذان الجوابان هما اللذان عليهما اعتماد جمهور المعتزلة . واعلم أن هذا المبحث صار منشأ لضلالات عظيمة : فمنها أن منكرى التكاليف والنبوات قالوا : قد سمعنا كلام أهل الجبر فوجدناه قويا قاطعا ، وهذان الجوابان اللذان ذكرهما المعتزلة يجريان مجرى الخرافة ولا يلتفت العاقل إليهما ، وسمعنا كلام المعتزلة فى أن مع القول بالجبر لا يجوز التكليف ويقبح ، والجواب الذى ذكره أهل الجبر ضعيف جداً فصار بمجموع الكلامين كلاما قويأ فى نفى التكاليف ، ومتى بطل ذلك بطل القول بالنبوات . ومنها أن الطاعنين

فى القرآن قالوا : الذى قاله المعتزلة من الآيات الكثيرة الدالة على أنه لامنع من الايمان ومن الطاعة فقد صدقوا فيه ، والذى قاله الجبرية : من أن العلم بعدم الايمان مانع منه فقد صدقوا فيه ، فدل على أن القرآن ورد على ضد العقل وعلى خلافه ، وذلك من أعظم المطاعن وأقوى القوادح فيه ، ثم من سلم من هؤلاء أن هذا القرآن هو القرآن الذى جاء به محمد ﷺ توسل به إلى الطعن فيه ، وقال قوم من الرافضة : ان هذ الذى عندنا ليس هو القرآن الذى جاء به محمد بل غير وبدل . والدليل عليه اشتماله على هذه المناقضات التى ظهرت بسبب هذه المناظرة الدائرة بين اهل الجبر واهل القدر . ومنها أن المقلدة الطاعنين فى النظر والاستدلال احتجوا بهذه المناظرة وقالوا : لوجوزنا التمسك بالدلائل العقلية لزم القدح فى التكليف والنبوة بسبب هذه المناظرة ، فان كلام أهل الجبر فى نهاية القوة فى إثبات الجبر ، وكلام أهل القدر فى بيان أنه متى ثبت الجبر بطل التكليف بالكلية فى نهاية القوة ، فيتولد من مجموع الكلامين أعظم شبهة فى القدح والتكليف والنبوة ، فثبت أن الرجوع إلى العقليات يورث الكفر والضلال ، وعند هذا قيل من تعمق فى الكلام تزندق . ومنها أن هشام بن الحكم زعم أنه سبحانه لا يعلم الأشياء قبل وقوعها وجوز البداء على الله تعالى وقال : أن قوله (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) إنما وقع على سبيل الاستدلال بالأمارة ، ويجوز له أن يظهر خلاف ماذكره ، وإنما قال بهذا المذهب فرارا من تلك الاشكالات المتقدمة . واعلم أن جملة الوجوه التى رويناها عن المعتزلة كلمات لا تعلق لها بالكشف عن وجه الجواب . بل هى جارية مجرى التشنيعات . فأما الجوابان اللذان عليهما اعتماد القوم ففى نهاية الضعف . أما قول أبى على وأبى هشام والقاضى : خطأ قول من يقول إنه يدل ، وخطأ قول من يقول : إنه لا يدل : إن كان المراد منه الحكم بفساد القسمين كان ذلك حكما بفساد النفى والاثبات وذلك لا يرتضيه العقل وإن كان معناه أن أحدهما حق لكن لا أعرف أن الحق هو أنه يدل أو لا يدل كفى فى دفعه تقرير وجه الاستدلال ، فانا لما بينا أن العلم بالعدم لا يحصل الا مع العدم ، فلو حصل الوجود معه لكان قد اجتمع العدم والوجود معا ولا يتمكن العقل من تقرير كلام أوضح من هذا وأقل مقدمات فيه . وأما قول الكعبى ففى نهاية الضعف ، لأنا وإن كنا لاندرى أن الله تعالى كان فى الأزل عالما بوجود الإيمان أو بعدمه لكنا نعلم أن العلم بأحد هذين الأمرين كان حاصلا ، وهو الآن أيضاً حاضر ، فلو حصل مع العلم بأحد النقيضين ذلك النقيض الآخر لزم اجتماع النقيضين ، ولو قيل بأن ذلك العلم لا يبقى كان ذلك اعترافا بانقلاب العلم جهلا ، وهذا آخر الكلام فى هذا البحث . واعلم أن الكلام المعنوى هو الذى تقدم ، وبقى فى هذا الباب أمور أخرى إقناعية ولابد من ذكرها وهى خمسة . أحدها : روى الخطيب فى كتاب تاريخ بغداد عن معاذ بن معاذ العنبرى قال : كنت جالسا عند عمرو بن عبيد فأتاه رجل فقال ياأبا عثمان سمعت والله اليوم بالكفر ، فقال لا تعجل بالكفر ، وماسمعت ؟ قال سمعت هاشما الأوقص يقول : إن (تبت يدا أبى لهب) وقوله (ذرنى ومن خلقت وحيداً) إلى قوله (سأصليه سقر) ان هذا

ليس فى أم الكتاب والله تعالى يقول (حم والكتاب المبين) إلى قوله (وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم) فما الكفر إلا هذا يا أبا عثمان ، فسكت عمرو هنيهة ثم أقبل على فقال والله لو كان القول كما يقول ما كان على أبى لهب من لوم ، ولا على الوليد من لوم ، فلما سمع الرجل ذلك قال أتقول يا أبا عثمان ذلك ، هذا والله الذى قال معاذ فدخل بالاسلام وخرج بالكفر . وحكى أيضاً أنه دخل رجل على عمرو بن عبيد وقرأ عنده (بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ) فقال له اخبرنى عن (تبت) أكانت فى اللوح المحفوظ ؟ فقال عمرو : ليس هكذا كانت ، بل كانت : تبت يدا من عمل بمثل ما عمل أبو لهب فقال له الرجل ، هكذا ينبغى أن تقرأ إذا قمنا إلى الصلاة : فغضب عمرو وقال : إن علم الله ليس بشيطان ، إن علم الله لا يضر ولا ينفع . وهذه الحكاية تدل على شك عمرو بن عبيد فى صحة القرآن . وثانيها : روى القاضى فى كتاب طبقات المعتزلة عن ابن عمر ، أن رجلا قام إليه فقال : يا أبا عبد الرحمن ان أقواما يزنون ويسرقون ويشربون الخمر ويقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ويقولون كان ذلك فى علم الله فلم نجد منه بدا ، فغضب ثم قال سبحان الله العظيم ، قد كان فى علمه أنهم يفعلونها فلم يحملهم علم الله على فعلها . حدثنى أبى عمر بن الخطاب أنه سمع رسول ﷺ يقول : مثل علم الله فيكم كمثل السماء التى أظلتكم ، والأرض التى أقلتكم ، فكما لا تستطيعون الخروج من السماء والارض فكذلك لا تستطيعون الخروج من علم الله تعالى ، وكما لا تحملكم السماء والأرض على الذنوب فكذلك لا يحملكم علم الله تعالى عليها . واعلم أن فى الأخبار التى يرويها الجبرية والقدرية كثرة ، والغرض من رواية هذا الحديث بيان أنه لا يليق بالرسول أن يقول مثل ذلك ، وذلك لأنه متناقض وفاسد ، أما المتناقض فلأن قوله « وكذلك لا تستطيعون الخروج من علم الله » صريح فى الجبر وما قبله صريح فى القدر فهو متناقض ، وأما أنه فاسد ، فلأنا بينا أن العلم بعدم الإيمان ووجود الإيمان متنافيان ، فالتكليف بالإيمان مع وجود العلم بعدم الإيمان تكليف بالجمع بين النفى والاثبات ، أما السماء والأرض فانهما لا ينافيان شيئا من الأعمال ، فظهر أن تشبيه إحدى الصورتين بالأخرى لا يصدر إلا عن جاهل أو متجاهل ، وجل منصب الرسالة عنه . وثالثها : الحديثان المشهوران فى هذا الباب : أما الحديث الأول : فهو ما روى فى الصحيحين عن الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق « إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقه مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الله إليه ملكا فينفخ فيه الروح فيؤمر بأربع كلمات ، فيكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أم سعيد ، فوالله الذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى مايكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » وحكى الخطيب فى تاريخ بغداد عن عمرو بن عبيد

خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ

أنه قال : لو سمعت الأعمش يقول هذا لكذبته ، ولو سمعت زيد بن وهب يقول هذا ما أحببته ، ولو سمعت عبد الله بن مسعود يقول هذا ماقبلته ، ولو سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا لرددته ، ولو سمعت الله عز وجل يقول هذا لقلت ليس على هذا أخذت ميثاقنا . وأما الحديث الثانى : فهو مناظرة آدم وموسى عليهما السلام ، فان موسى قال لآدم : أنت الذى أشقيت الناس وأخرجتهم من الجنة ؟ فقال آدم : أنت الذى اصطفاك الله لرسالاته ولكلامه وأنزل عليك التوراة فهل تجد الله قدره على ؟ قال نعم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فحج آدم موسى ، والمعتزلة طعنوا فيه من وجوه . أحدها : أن هذا الخبر يقتضى أن يكون موسى قد ذم آدم على الصغيرة وذلك يقتضى الجهل فى حق موسى عليه السلام ، وأنه غير جائز . وثانيها : أن الولد كيف يشافه والده بالقول الغليظ . وثالثها : أنه قال : أنت الذى أشقيت الناس وأخرجتهم من الجنة ، وقد علم موسى أن شقاء الخلق وإخراجهم من الجنة لم يكن من جهة آدم ، بل الله أخرجه منها . ورابعها : أن آدم عليه السلام احتج بما ليس بحجة ؛ إذ لو كان حجة لكان لفرعون وهامان وسائر الكفار أن يحتجوا بها ، ولما بطل ذلك علمنا فساد هذه الحجة . وخامسها : أن الرسول عليه السلام صوب آدم فى ذلك مع أنا بينا أنه ليس بصواب . إذا ثبت هذا وجب حمل الحديث على أحد ثلاثه أوجه . أحدها : أنه عليه السلام حكى ذلك عن اليهود لا أنه حكاه عن الله تعالى أو عن نفسه ، والرسول عليه السلام كان قد ذكر هذه الحكاية إلا أن الراوى حين دخل ماسمع الا هذا الكلام ، فظن انه عليه السلام ذكره عن نفسه لا عن اليهود . وثانيها : أنه قال : فحج آدم منصوبا أى أن موسى عليه السلام غلبه وجعله محجوجاً وأن الذى أتى به آدم ليس بحجة ولا بعذر . وثالثها : وهو المعتمد أنه ليس المراد من المناظرة الذم على المعصية ، ولا الاعتذار منه بعلم الله بل موسى عليه السلام سأله عن السبب الذى حمله على تلك الزلة حتى خرج بسببها من الجنة ، فقال آدم : إن خروجى من الجنة لم يكن بسبب تلك الزلة ، بل بسبب أن الله تعالى كان قد كتب على أن أخرج من الجنة إلى الأرض وأكون خليفة فيها ، وهذا المعنى كان مكتوباً فى التوراة ، فلا جرم كانت حجة آدم قوية وصار موسى عليه السلام فى ذلك كالمغلوب واعلم أن الكلام فى هذه المسألة طويل جداً والقرآن مملوء منه وسنستقصى القول فيها فى هذا التفسير إن قدر الله تعالى ذلك ؛ وفيما ذكرنا ههنا كفاية

قوله تعالى ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴾ إعلم أنه تعالى لما بين فى الآية الأولى أنهم لا يؤمنون أخبر فى هذه الآية بالسبب الذى لأجله لم يؤمنوا ، وهو الختم ، والكلام ههنا يقع فى مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الختم والكتم أخوان ، لأن فى الاستيثاق من الشيء بضرب الخاتم عليه كتما له وتغطية ، لئلا يتوصل إليه أو يطلع عليه ، والغشاوة الغطاء فعالة من غشاه إذا غطاه . وهذا البناء لما يشتمل على الشيء كالعصابة والعمامة

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلف الناس فى هذا الختم ، أما القائلون بأن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى فهذا الكلام على مذهبهم ظاهر ، ثم لهم قولان ، منهم من قال : الختم هو خلق الكفر فى قلوب الكفار ، ومنهم من قال هو خلق الداعية التى إذا انضمت إلى القدرة صار مجموع القدرة معها سببا موجبا لوقوع الكفر ، وتقريره أن القادر على الكفر إما أن يكون قادراً على تركه أو لا يكون ، فإن لم يقدر على تركه كانت القدرة على الكفر موجبة للكفر ، فخلق القدرة على الكفر يقتضى خلق الكفر ، وإن قدر على الترك كانت نسبة تلك القدرة إلى فعل الكفر وإلى تركه على سواء ، فإما أن يكون صيرورتها مصدرا للفعل بدلا عن الترك يتوقف على انضمام مرجح إليها أولا يتوقف ، فإن لم يتوقف فقد وقع الممكن لا عن مرجح ، وتجويزه يقتضى القدح فى الاستدلال بالممكن على المؤثر ، وذلك يقتضى نفى الصانع وهو محال ، وأما إن توقف على المرجح فذلك المرجح إما أن يكون من فعل الله أو من فعل العبد أولا من فعل الله ولا من فعل العبد ، لا جائز أن يكون من فعل العبد وإلا لزم التسلسل ، ولا جائز أن يكون لا بفعل الله ولا بفعل العبد ؛ لأنه يلزم حدوث شيء لا لمؤثر ، وذلك يبطل القول بالصانع . فثبت ان كون قدرة العبد مصدرا للمقدور المعين يتوقف على أن ينضم إليها مرجح هو من فعل الله تعالى . فنقول : إذا انضم ذلك المرجح إلى تلك القدرة فإما أن يصير تأثير القدرة فى ذلك الأثر واجبا أو جائزا أو ممتنعا ، والثانى والثالث ، باطل فتعين الأول ، وإنما قلنا إنه لا يجوز أن يكون جائزا لأنه لو كان جائزا لكان يصح فى العقل أن يحصل مجموع القدرة مع ذلك المرجح تارة مع ذلك الأثر ، وأخرى منفكا عنه ، فالنفرض وقوع ذلك ؛ لأن كل ما كان جائزا لا يلزم من فرض وقوعه محال ، فذاك المجموع تارة يترتب عليه الأثر ، وأخرى لا يترتب عليه الأثر ، فاختصاص أحد الوقتين بترتب ذلك الأثر عليه إما أن يتوقف على انضمام قرينة إليه ، أو لا يتوقف ، فإن توقف كان المؤثر هو ذلك المجموع مع هذه القرينة الزائدة ، لا ذلك المجموع ، وكنا قد فرضنا أن ذلك المجموع هو المستقل خلف هذا ، وأيضا فيعود التقسيم فى هذا المجموع الثانى ، فإن توقف على قيد آخر لزم التسلسل وهو محال ، وان لم يتوقف فحينئذ حصل ذلك المجموع تارة بحيث يكون مصدراً للأثر ، وأخرى بحيث لا يكون مصدراً له مع أنه لم يتميز أحد الوقتين عن الآخر بأمر ما البتة . فيكون هذا قولا بترجح الممكن لا عن مرجح وهو محال . فثبت أن عند حصول ذلك المرجح يستحيل أن يكون صدور ذلك الأثر جائزا ، وأما أنه لا يكون ممتنعا فظاهر ، وإلا لكان مرجح الوجود مرجحاً للعدم وهو محال ، وإذا بطل القسمان ثبت أن عند حصول مرجح الوجود يكون الأثر واجب الوجود عن

المجموع الحاصل من القدرة ، ومن ذلك المرجح ، وإذا ثبت هذا كان القول بالجبر لازما : لأن قبل حصول ذلك المرجح كان صدور الفعل ممتنعا وبعد حصوله يكون واجبا ، وإذ عرفت هذا كان خلق الداعية الموجبة للكفر فى القلب ختما على القلب ومنعا له عن قبول الإيمان ، فإنه سبحانه لما حكم عليهم بأنهم لايؤمنون ذكرعقيبة مايجرى مجرى السبب الموجب له ، لأن العلم بالعلة يفيد العلم بالمعلول ، والعلم بالمعلول لايكمل إلا إذا استفيد من العلم بالعلة ، فهذا قول من أضاف جميع المحدثات إلى الله تعالى . وأما المعتزلة فقد قالوا : إنه لايجوزأجراء هذه الآية على المنع من الإيمان واحتجوا فيه بالوجوه التى حكيناها عنهم فى الآية الأولى وزادوا ههنا بأن الله تعالى قد كذب الكفار الذين قالوا إن على قلوبهم كنا وغطاء يمنعهم عن الإيمان (وقالوا قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا) وقال (فأعرض أكثرهم فهم لايسمعون وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه) وهذا كله عيب وذم من الله تعالى فيما ادعوا أنهم ممنوعون عن الإيمان ثم قالوا : بل لابدمن حمل الختم والغشاوة على أمور أخر ثم ذكروا فيه وجوها . أحدها : أن القوم لما أعرضوا وتركوا الاهتداء بدلائل الله تعالى حتى صار ذلك كالالف والطبيعة لهم أشبه حالهم حال من منع عن الشيء وصد عنه، وكذلك هذا فى عيونهم حتى كأنها مسدودة لا تبصر شيئا وكأن بآذانهم وقرا حتى لايخلص إليها الذكر ، وإنما أضيف ذلك إلى الله تعالى لأن هذه الصفة فى تمكنها وقوة ثباتها كالشيء الخلقى ؛ ولهذا قال تعالى (بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون) (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) (فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه) . وثانيها : أنه يكفى فى حسن الاضافة أدنى سبب ، فالشيطان هوالخاتم فى الحقيقة أو الكافر إلا أن الله تعالى لما كان هو الذى أقدره أسند إليه الختم كما يسند الفعل إلى السبب . وثالثها : أنهم لما أعرضوا عن التدبر ولم يصغوا إلى الذكر وكان ذلك عند إيراد الله تعالى عليهم الدلائل أضيف مافعلوا إلى الله تعالى ؛ لأن حدوثه إنما اتفق عند إيراده تعالى دلائله عليهم كقوله تعالى فى سورة براءة (زادتهم رجسا إلى رجسهم) أى ازدادوا بها كفرا إلى كفرهم . ورابعها : أنهم بلغوا فى الكفر إلى حيث لم يبق طريق إلى تحصيل الإيمان لهم إلا بالقسر والإلجاء إلا أن الله تعالى ماأقرهم عليه لئلا يبطل التكليف فعبر عن ترك القسر والالجاء بالختم إشعارا بأنهم الذين انتهوا فى الكفر إلى حيث لايتناهون عنه إلا بالقسر وهى الغاية القصوى فى وصف لجاجهم فى الغى . وخامسها : أن يكون ذلك حكاية لما كان الكفرة يقولونه تهكما به من قولهم (قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب) ونظيره فى الحكاية والتهكم قوله (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة) . وسادسها : الختم على قلوب الكفار من الله تعالى هو الشهادة منه عليهم بأنهم لايؤمنون ، وعلى قلوبهم بأنها لاتعى الذكر ولاتقبل الحق ، وعلى أسماعهم بأنها لاتصغى إلى الحق كما يقول الرجل لصاحبه أريد أن تختم على

مايقوله فلان ، أى تصدقه وتشهد بأنه حق ، فأخبر الله تعالى فى الآية الأولى بأنهم لا يؤمنون ، وأخبر فى هذه الآية بأنه قد شهد بذلك وحفظه عليهم . وسابعها : قال بعضهم : هذه الآية إنما جاءت فى قوم مخصوصين من الكفار فعل الله تعالى بهم هذا الختم والطبع فى الدنيا عقابا لهم فى العاجل ، كما عجل لكثير من الكفار عقوبات فى الدنيا فقال (ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) وقال (فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين) ونحو هذا من العقوبات المعجلة لما علم الله تعالى فيها من العبرة لعبادة والصلاح لهم ، فيكون هذا مثل مافعل بهؤلاء من الختم والطبع ، إلا أنهم إذا صاروا بذلك إلى أن لا يفهموا سقط عنهم التكليف كسقوطه عمن مسخ ، وقد أسقط الله التكليف عمن يعقل بعض العقل كمن قارب البلوغ ، ولسنا ننكر أن يخلق الله فى قلوب الكافرين مانعا يمنعهم عن الفهم والاعتبار إذا علم أن ذلك أصلح لهم كما قد يذهب بعقولهم ويعمى أبصارهم ولكن لايكونون فى هذا الحال مكلفين . وثامنها : يجوز أن يجعل الله على قلوبهم الختم وعلى أبصارهم الغشاوة من غير أن يكون ذلك حائلا بينهم وبين الإيمان بل يكون ذلك كالبلادة التى يجدها الانسان فى قلبه والقذى فى عينيه والطنين فى أذنه ، فيفعل الله كل ذلك بهم ليضيق صدورهم ويورثهم الكرب والغم فيكون ذلك عقوبة مانعة من الإيمان كما قد فعل ببنى إسرائيل فتاهوا ثم يكون هذا الفعل فى بعض الكفار ويكون ذلك آية للنبى صلى الله عليه وسلم ودلالة له كالرجز الذى أنزل على قوم فرعون حتى استغاثوا منه ، وهذا كله مقيد بما يعلم الله تعالى أنه أصلح للعباد . وتاسعها : يجوز أن يفعل هذا الختم بهم فى الآخرة كما قد أخبر أنه يعميهم قال (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما) وقال (ونحشر المجرمين يومئذ زرقا) وقال (اليوم نختم على أفواههم) وقال (لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون) . وعاشرها : ماحكوه عن الحسن البصرى — وهو اختيار أبى على الجبائى والقاضى — أن المراد بذلك علامة وسمة يجعلها فى قلب الكفار وسمعهم فتستدل الملائكة بذلك على أنهم كفار ، وعلى أنهم لا يؤمنون أبدا فلا يبعد أن يكون فى قلوب المؤمنين علامة تعرف الملائكة بها كونهم مؤمنين عند الله كما قال (أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان) وحينئذ الملائكة يحبونه ويستغفرون له ، ويكون لقلوب الكفار علامة تعرف الملائكة بها كونهم ملعونين عند الله فيبغضونه ويلعنونه ، والفائدة فى تلك العلامة إما مصلحة عائدة إلى الملائكة ؛ لأنهم متى علموا بتلك العلامة كونه كافرا ملعونا عند الله تعالى صار ذلك منفرا لهم عن الكفر أو إلى المكلف ، فإنه إذا علم أنه متى آمن فقد أحبه أهل السماوات صار ذلك مرغبا له فى الإيمان وإذا علم أنه متى أقدم على الكفر عرف الملائكة منه ذلك فيبغضونه ويلعنونه صار ذلك زاجراً له عن الكفر . قالوا : والختم بهذا المعنى لايمنع ، لأنا نتمكن بعد ختم الكتاب أن نفكه ونقرأه ، ولأن الختم هو بمنزلة

أن يكتب على جبين الكافر أنه كافر ، فإذا لم يمنع ذلك من الإيمان فكذا هذا الكافر يمكنه أن يزيل تلك السمة عن قلبه بأن يأتى بالإيمان ويترك الكفر . قالوا : وإنما خص القلب والسمع بذلك ؛ لأن الأدلة السمعية لاتستفاد إلا من جهة السمع ، والإدلة العقلية لاتستفاد إلا من جانب القلب ، ولهذا خصهما بالذكر . فإن قيل : فيتحملون الغشاوة فى البصر أيضا على معنى العلامة ؟ قلنا لا ، لأنا إنما حملنا ماتقدم على السمة والعلامة . لأن حقيقة اللغة تقتضى ذلك ، ولا مانع منه فوجب إثباته . أما الغشاوة فحقيقتها الغطاء المانع من الابصار ومعلوم من حال الكفار خلاف ذلك فلا بد من حمله على المجاز ، وهو تشبيه حالهم بحال من لا ينتفع ببصره فى باب الهداية . فهذا مجموع أقوال الناس فى هذا الموضع

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الألفاظ الواردة فى القرآن القريبة من معنى الختم هى : الطبع ، والكنان ، والرين على القلب ، والوقر فى الآذان ، والغشاوة فى البصر ثم الآيات الواردة فى ذلك مختلفة فالقسم الأول : وردت دلالة على حصول هذه الأشياء قال (كلا بل ران على قلوبهم) (وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى أذانهم وقراً) (وطبع على قلوبهم) (بل طبع الله عليها بكفرهم) (فأعرض أكثرهم فهم لايسمعون) (لينذر من كان حيا) (إنك لاتسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء (أموات غير أحياء) (فى قلوبهم مرض) والقسم الثانى : وردت دلالة على أنه لا مانع البتة (وما منع الناس أن يؤمنوا) (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) (كيف تكفرون بالله) (لم تلبسون الحق بالباطل) والقرآن مملوء من هذين القسمين ، وصار كل قسم منهما متمسكا لطائفة ، فصارت الدلائل السمعية لكونها من الطرفين واقعة فى حيز التعارض . أما الدلائل العقلية فهى التى سبقت الاشارة إليها ، وبالجملة فهذه المسألة من أعظم المسائل الاسلامية وأكثرها شعباً وأشدها شغبا ، ويحكى أن الإمام أبا القاسم الأنصارى سئل عن تكفير المعتزلة فى هذه المسألة فقال لا ، لأنهم نزهوه ، فسئل عن أهل السنة فقال لا ، لأنهم عظموه ، والمعنى أن كلا الفريقين ماطلب إلا إثبات جلال الله وعلو كبريائه ، إلا أن أهل السنة وقع نظرهم على العظمة فقالوا : ينبغى أن يكون هو الموجد ولا موجد سواه ، والمعتزلة وقع نظرهم على الحكمة فقالوا لايليق بجلال حضرته هذه القبائح ، وأقول : ههنا سر آخر ، وهو أن إثبات الاله يلجىء إلى القول بالجبر ، لأن الفاعلية لولم تتوقف على الداعية لزم وقوع الممكن من غير مرجح ، وهو نفى الصانع ، ولو توقفت لزم الجبر . وإثبات الرسول يلجىء إلى القول بالقدرة . بل ههنا سر آخر هو فوق الكل ، وهو أنا لما رجعنا إلى الفطرة السليمة والعقل الأول وجدنا أن ما استوى الوجود والعدم بالنسبة إليه لا يترجح أحدهما على الآخر إلا لمرجح ، وهذا يقتضى الجبر ، ونجد أيضاً تفرقة بديهية بين الحركات الاختيارية والحركات الاضطرارية وجزما بديهياً بحسن المدح وقبح الذم والأمر والنهى ، وذلك يقتضى مذهب المعتزلة ، فكأن

هذه المسألة وقعت فى حيز التعارض بحسب العلوم الضرورية ، وبحسب العلوم النظرية ، وبحسب تعظيم الله تعالى نظراً إلى قدرته وحكمته ، وبحسب التوحيد والتنزيه وبحسب الدلائل السمعية ، فلهذه المآخذ التى شرحناها والأسرار التى كشفنا عن حقائقها صعبت المسألة وغمضت وعظمت ، فنسأل الله العظيم أن يوفقنا للحق وأن يختم عاقبتنا بالخير آمين رب العالمين

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال صاحب الكشاف : اللفظ يحتمل أن تكون الأسماع داخلة فى حكم الختم ، وفى حكم التغشية ، إلا أن الأولى دخولها فى حكم الختم ، لقوله تعالى (وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة) ولوقفهم على سمعهم دون قلوبهم

﴿ المسألة السادسة ﴾ الفائدة فى تكرير الجار فى قوله (وعلى سمعهم) أنها لما أعيدت للأسماع كان أدل على شدة الختم فى الموضعين

﴿ المسألة السادسة ﴾ إنما جمع القلوب والأبصار ووحد السمع لوجوه . أحدها : أنه وحد السمع ، لأن لكل واحد منهم سمعاً واحداً ، كما يقال : أتانى برأس الكبشين ، يعنى رأس كل واحد منهما ، كما وحد البطن فى قوله « كلوا فى بعض بطنكمو تعيشوا » يفعلون ذلك إذا أمنوا اللبس ، فإذا لم يؤمن كقولك . فرسهم وثوبهم وأنت تريد الجمع رفضوه . الثانى : أن السمع مصدر فى أصله ، والمصادر لاتجمع يقال : رجلان صوم ، ورجال صوم ، فروعى الأصل ، يدل على ذلك جمع الأذن فى قوله (وفى آذاننا وقر) الثالث : أن نقدر مضافا محذوفا أى وعلى حواس سمعهم . الرابع قال سيبويه : إنه وحد لفظ السمع إلا أنه ذكر ما قبله وما بعده بلفظ الجمع ، و ذلك يدل على أن المراد منه الجمع أيضاً ، قال تعالى (يخرجهم من الظلمات إلى النور) (عن اليمين وعن الشمال) قال الراعى :

بها جيف الحيدى فأما عظامها فبيض وأما جلدها فصليب

وإنما أراد جلودها ، وقرأ ابن أبى عبلة (وعلى أسماعهم)

﴿ المسألة السابعة ﴾ من الناس من قال : السمع أفضل من البصر ، لأن الله تعالى حيث ذكرهما قدم السمع على البصر ، والتقديم دليل على التفضيل ، ولأن السمع شرط النبوة بخلاف البصر ، ولذلك ما بعث الله رسولا أصم ، وقد كان فيهم من كان مبتلى بالعمى ، ولأن بالسمع تصل نتائج عقول البعض إلى البعض ، فالسمع كأنه سبب لاستكمال العقل بالمعارف ، والبصر لا يوقفك إلا على المحسوسات ، ولأن السمع متصرف فى الجهات الست بخلاف البصر ، ولأن السمع متى بطل بطل النطق ، والبصر إذا بطل لم يبطل النطق . ومنهم من قدم البصر ، لأن آلة القوة الباصرة أشرف ، ولأن متعلق القوة الباصرة هو النور ، ومتعلق القوة السامعة الريح

﴿ المسألة الثامنة ﴾ قوله (ختم الله على قلوبهم) يدل على أن محل العلم هو القلب . واستقصينا بيانه فى قوله (نزل به الروح الامين على قلبك) فى سورة الشعراء .

﴿ المسألة التاسعة ﴾ قال صاحب الكشاف : البصر نور العين وهوما يبصر به الرائى ويدرك المرئيات ، كما أن البصيرة نور القلب ، وهو مايستبصر به ويتأمل ، فكأنهما جوهران لطيفان خلق الله تعالى فيهما آلتين للابصار والاستبصار . أقول : إن أصحابه من المعتزلة لا يرضون منه بهذا الكلام : وتحقيق القول فى الابصار يستدعى أبحاثا غامضة لا تليق بهذا الموضع .

﴿ المسألة العاشرة ﴾ قرىء (غشاوة) بالكسر والنصب ، وغشاوة بالضم والرفع ، وغشاوة بالفتح والنصب ، وغشوة بالكسر والرفع ، وغشوة بالفتح والرفع والنصب ، وعشاوة بالعين غير المعجمة والرفع من العشا ، والغشاوة هى الغطاء ، ومنه الغاشية ، ومنه غشى عليه إذا زال عقله والغشيان كناية عن الجماع .

﴿ المسألة الحادية عشرة ﴾ العذاب مثل النكال بناء ومعنى ، لأنك تقول أعذب عن الشىء إذا أمسك عنه ، كما تقول نكل عنه ، ومنه العذب ، لأنه يقمع العطش ويردعه بخلاف الملح فإنه يزيده ، ويدل عليه تسميتهم إياه نقاخا ، لأنه ينقخ العطش أى يكسره ، وفراتا لأنه يرفته عن القلب ، ثم اتسع فيه فسمى كل ألم فادح عذابا وإن لم يكن نكالا أى عقابا يرتدع به الجانى عن المعاودة ، والفرق بين العظيم والكبير : أن العظيم نقيض الحقير ، والكبير نقيض الصغير ، فكأن العظيم فوق الكبير ، كما أن الحقير دون الصغير ، ويستعملان فى الجثث والأحداث جميعا ، تقول : رجل عظيم وكبير تريد جثته أو خطره ، ومعنى التنكير أن على أبصارهم نوعا من الأغطية غير مايتعارفه الناس ، وهو غطاء التعامى عن آيات الله ، ولهم من بين الآلام العظام نوع عظيم لا يعلم كنهه إلا الله تعالى .

﴿ المسألة الثانية عشرة ﴾ اتفق المسلمون على أنه يحسن من الله تعالى تعذيب الكفار ، وقال بعضهم لايحسن وفسروا قوله (ولهم عذاب عظيم) بأنهم يستحقون ذلك لكن كرمه يوجب عليه العفو ، ولنذكر ههنا دلائل الفريقين ، أما الذين لايجوزون التعذيب فقد تمسكوا بأمور . أحدها : أن ذلك التعذيب ضرر خال عن جهات المنفعة ، فوجب ان يكون قبيحا ، أما أنه ضرر فلا شك ، وأما أنه خال عن جهات المنفعة ، فلأن تلك المنفعة إما أن تكون عائدة إلى الله تعالى ، أوإلى غيره ، و الأول باطل ، لأنه سبحانه متعال عن النفع والضرر بخلاف الواحد منا فى الشاهد ، فإن عبده إذا أساء إليه أدبه ، لأنه يستلذ بذلك التأديب لما كان فى قلبه من حب الانتقام ولأنه إذا أدبه فإنه ينزجر بعد ذلك عمايضره . والثانى : أيضا باطل ، لأن تلك المنفعه إما أن تكون عائدة إلى المعذب أو إلى غيره أما إلى المعذب فهو محال ، لأن الاضرار لا يكون عين الانتفاع وأما إلى غيره فمحال ، لأن دفع الضرر أولى بالرعاية من إيصال النفع ، فإيصال الضرر إلى شخص لغرض إيصال النفع إلى شخص آخر ترجيح للمرجوح على الراجح ، وهو باطل وأيضا فلا منفعة يريد الله تعالى إيصالها إلى أحد إلا وهو قادر على ذلك الايصال من غير توسيط الاضرار بالغير ،

فيكون توسيط ذلك الاضرار عديم الفائدة . فثبت أن التعذيب ضرر خال عن جميع جهات المنفعة وأنه معلوم القبح ببديهة العقل ، بل قبحه أجلى فى العقول من قبح الكذب الذى لا يكون ضارا ، والجهل الذى لا يكون ضارا ، بل من قبح الكذب الضار والجهل الضار، لأن ذلك الكذب الضار وسيلة إلى الضرر وقبح مايكون وسيلة إلى الضرر ، دون قبيح نفس الضرر ، وإذا ثبت قبحه امتنع صدوره من الله تعالى ، لأنه حكيم والحكيم لا يفعل القبيح ، وثانيها : أنه تعالى كان عالما بأن الكافر لا يؤمن على ماقال (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) إذا ثبت هذا ثبت أنه متى كلف الكافر لم يظهر منه إلا العصيان ، فلو كان ذلك العصيان سببا للعقاب لكان ذلك التكليف مستعقبا لاستحقاق العقاب ، إما لأنه تمام العلة ، أو لأنه شطر العلة ، وعلى الجملة فذلك التكليف أمر متى حصل حصل عقيبه لا محالة العقاب ، وما كان مستعقبا للضرر الخالى عن النفع كان قبيحا ، فوجب أن يكون ذلك التكليف قبيحا ، والقبيح لا يفعله الحكيم ، فلم يبق هاهنا إلا أحد أمرين ، إما أن يقال لم يوجد هذا التكليف أو إن وجد لكنه لا يستعقب العقاب ، وكيف كان فالمقصود حاصل وثالثها : أنه تعالى إما أن يقال خلق الخلق للانفاع ، أو للاضرار ، أولا الانفاع ولا للاضرار ، فإن خلقهم للانفاع وجب أن لا يكلفهم ما يؤدى به إلى ضد مقصوده مع علمه بكونه كذلك ، ولما علم إقدامهم على العصيان لو كلفهم كان التكليف فعلا يؤدى بهم إلى العقاب ، فإذا كان قاصداً لانفاعهم وجب أن لا يكلفهم ، وحيث كلفهم دل على أن العصيان لا يكون سببا لاستحقاق العذاب ، ولا جائز أن يقال . خلقهم لا للانفاع ولا للاضرار ، لأن الترك على العدم يكفى فى ذلك ، ولانه على هذا التقدير يكون عبثا ، ولا جائز أن يقال : خلقهم للاضرار ، لان مثل هذا لا يكون رحيما كريما ، وقد تطابقت العقول والشرائع على كونه رحيما كريما ، وعلى أنه نعم المولى ونعم النصير ، وكل ذلك يدل على عدم العقاب . ورابعها : أنه سبحانه هو الخالق للدواعى التى توجب المعاصى ، فيكون هو الملجىء إليها فيقبح منه أن يعاقب عليها ، إنما قلنا إنه هو الخالق لتلك للدواعى ، لما بينا أن صدور الفعل عن مقدرة يتوقف على انضمام الداعية التى يخلقها الله تعالى إليها ، وبينا أن ذلك يوجب الجبر ، وتعذيب المجبور قبيح فى العقول ، وربما قرروا هذا من وجه آخر فقالوا : إذا كانت الاوامر والنواهى الشرعية قد جاءت إلى شخصين من الناس فقبلها أحدهما وخالفها الآخر فأثيب أحدهما وعوقب الآخر ، فإذا قيل لم قبل هذا وخالف الآخر ؟ فيقال لان القابل أحب الثواب وحذر العقاب فأطاع ، والآخر لم يحب ولم يحذر فعصى ، أو أن هذا أصغى الى من وعظه وفهم عنه مقالته فأطاع ، وهذا لم يصغ ولم يفهم فعصى ، فيقال : ولم أصغى هذا وفهم ولم يصغ ذلك ولم يفهم ؟ فنقول : لان هذا لبيب حازم فطن ، وذلك أخرق جاهل غبى فيقال ولم اختص هذا بالحزم والفطنة دون ذاك ، ولا شك أن الفطنة والبلادة من الاحوال الغريزية . فإن الإنسان لا يختار الغباوة والخرق ولا يفعلهما فى نفسه بنفسه ؟ فإذا تناهت

التعليلات إلى أمور خلقها الله تعالى اضطراراً علمنا أن كل هذه الأمور بقضاء الله تعالى وليس يمكنك أن تسوى بين الشخصين اللذين أطاع أحدهما وعصى الآخر فى كل حال أعنى فى العقل والجهل ، والفطانة والغباوة ، والحزم والخرق ، والمعلمين والباعثين والزاجرين ، ولا يمكنك أن تقول إنهما لو استويا فى ذلك كله لما استويا فى الطاعة والمعصية ، فإذن سبب الطاعة والمعصية من الأشخاص أمور وقعت بتخليق الله تعالى وقضائه ، وعند هذا يقال : أين من العدل والرحمة والكرم أن يخلق العاصى على ماخلقه الله عليه من الفظاظة والجسارة ، والغباوة والقساوة ، والطيش والخرق ، ثم يعاقبه عليه ، وهلا خلقه مثل ما خلق الطائع لبيبا حازماً عارفاً عالماً ، وأين من العدل أن يسخن قلبه ويقوى غضبه ويلهب دماغه ويكثر طيشه ولا يرزقه ما رزق غيره من مؤدب أديب ومعلم عالم وواعظ مبلغ ، بل يقيض له أضداد هؤلاء فى أفعالهم وأخلاقهم فيتعلم منهم ثم يؤاخذه بما يؤاخذ به اللبيب الحازم ، والعاقل العالم ، البارد الرأس ، المعتدل مزاج القلب ، اللطيف الروح الذى رزقه مربيا شفيقا ، ومعلما كاملا ؟ ماهذا من العدل والرحمة والكرم والرأفة فى شىء ! فثبت بهذه الوجوه أن القول بالعقاب على خلاف قضايا العقول . وخامسها : أنه تعالى إنما كلفنا النفع لعوده إلينا ، لأنه قال (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) فإذا عصينا فقد فوتنا على أنفسنا تلك المنافع ، فهل يحسن فى العقول أن يأخذ الحكيم إنسانا ويقول له إنى أعذبك العذاب الشديد ، لأنك فوت على نفسك بعض المنافع ،فإنه يقال له إن تحصيل النفع مرجوح بالنسبة إلى دفع الضرر فهب أنى فوت على نفسى أدون المطلوبين أفتفوت على لأجل ذلك أعظمها وهل يحسن من السيد أن يأخذ عبده ويقول إنك قدرت على أن تكتسب دينارا لنفسك ولتنتفع به خاصة من غير أن يكون لى فيه غرض البتة ، فلما لم تكتسب ذلك الدينار ولم تنتفع به آخذك وأقطع أعضاءك إرباً إرباً ، لاشك أن هذا نهاية السفاهة ، فكيف يليق بأحكم الحاكمين ! ثم قالوا هب أنا سلمنا هذا العقاب فمن أين القول بالدوام ؟ وذلك لأن أقسى الناس قلبا وأشدهم غلظة وفظاظة وبعداً عن الخير إذا أخذ من بالغ فى الاساءة إليه وعذبه يوما أو شهراً أو سنة فإنه يشبع منه ويمل ، فلو بقى مواظبا عليه لامه كل أحد ، ويقال هب أنه بالغ هذا فى أضرارك ، ولكن إلى متى هذا التعذيب ، فإما أن تقتله وتريحه ، وإما أن تخلصه ، فإذا قبح هذا من الانسان الذى يلتذ بالانتقام فالغنى عن الكل كيف يليق به هذا الدوام الذى يقال ! وسادسها : أنه سبحانه نهى عباده عن استيفاء الزيادة ، فقال (فلا يسرف فى القتل إنه كان منصوراً) وقال (وجزاء سيئة سيئة مثلها) ثم إن العبد هب أنه عصى الله تعالى طول عمره فأين عمره من الابد ؟ فيكون العقاب المؤبد ظلما . وسابعها : أن العبد لو واظب على الكفر طول عمره ، فإذا تاب ثم مات عفا الله عنه وأجاب دعاءه وقبل توبته ، ألا ترى أن هذا الكريم العظيم مابقى فى الآخرة ، أوعقول أولئك المعذبين ما بقيت فلم لايتوبون عن معاصيهم ؟ وإذا تابوا فلم لايقبل الله تعالى منهم توبتهم ، ولم لايسمع نداءهم ،

ولم يخيب رجاءهم ؟ ولم كان فى الدنيا فى الرحمة والكرم إلى حيث قال (ادعونى أستجب لكم) (أم من يجيب المضطر إذا دعاه) وفى الآخرة صار بحيث كلما كان تضرعهم إليه أشد فإنه لايخاطبهم إلا بقوله (اخسئوا فيها ولا تكلمون) قالوا : فهذه الوجوه مما توجب القطع بعدم العقاب . ثم قال من آمن من هؤلاء بالقرآن : العذر عما ورد فى القرآن من أنواع العذاب من وجوه . أحدها : أن التمسك بالدلائل اللفظية لا يفيد اليقين ، والدلائل العقلية تفيد اليقين ، والمظنون لا يعارض المقطوع . وإنما قلنا : إن الدلائل اللفظية لا تفيد اليقين ، لأن الدلائل اللفظية مبنية على أصول كلها ظنية والمبنى على الظنى ظنى ، وإنما قلنا إنها مبنية على أصول ظنية ، لأنها مبنية على نقل اللغات ونقل النحو والتصريف ، ورواة هذه الأشياء لايعلم بلوغهم إلى حد التواتر ، فكانت روايتهم مظنونة ، وأيضاً فهى مبنية على عدم الاشتراك وعدم المجاز وعدم التخصيص وعدم الاضمار بالزيادة والنقصان وعدم التقديم والتأخير ، وكل ذلك أمور ظنية ، وأيضاً فهى مبنية على عدم المعارض العقلى ، فإنه بتقدير وجوده لايمكن القول بصدقهما ولا بكذبهما معا ، ولا يمكن ترجيح النقل على العقل لأن العقل أصل النقل ، والطعن فى العقل يوجب الطعن فى العقل والنقل معا ، لكن عدم المعارض العقلى مظنون ، هذا إذا لم يوجد فكيف وقد وجدنا ههنا دلائل عقلية على خلاف هذه الظواهر ، فثبت أن دلالة هذه الدلائل النقلية ظنية ، وأما أن الظنى لا يعارض اليقينى فلا شك فيه . وثانيها : وهو أن التجاوز عن الوعيد مستحسن فيما بين الناس ، قال الشاعر :

وإنى إذا أوعدته أو وعدته لمخلف إيعادى ومنجز موعدى

بل الاصرار على تحقيق الوعيد كأنه يعد لؤما ، وإذا كان كذلك وجب أن لا يصدر من الله تعالى ، وهذا بناء على حرف وهو أهل السنة جوزوا نسخ الفعل قبل مدة الامتثال وحاصل حرفهم فيه أن الأمر تارة لحكمة تنشأ من نفس المأمور به ، وتارة لحكمة تنشأ من نفس الأمر ، فإن السيد قد يقول لعبده افعل الفعل الفلانى غداً وإن كان يعلم فى الحال أنه سينهاه عنه غداً ، ويكون مقصوده من ذلك الامر أن يظهر العبد الانقياد لسيده فى ذلك ويوطن نفسه على طاعته ، فكذلك إذا علم الله من العبد أنه سيموت غداً فإنه يحسن عند أهل السنة أن يقول : صل غداً إن عشت ، ولا يكون المقصود من هذا الامر تحصيل المأمور به ، لانه ههنا محال بل المقصود حكمة تنشأ من نفس الامر فقط ، وهو حصول الانقياد والطاعة وترك التمرد . إذا ثبت هذا فنقول : لم لا يجوز أن يقال الخبر أيضاً كذلك ؟ فتارة يكون منشأ الحكمة من الاخبار هو الشيء المخبر عنه وذلك فى الوعد ، وتارة يكون منشأ الحكمة هو نفس الخبر لا المخبر عنه كما فى الوعيد ، فإن الاخبار على سبيل الوعيد مما يفيد الزجر عن المعاصى والاقدام على الطاعات ، فإذا حصل هذا المقصود جاز أن لا يوجد المخبر عنه كما فى الوعيد ، وعند هذا قالوا إن وعد الله بالثواب حق لازم ؛ وأما توعده بالعقاب فغير لازم ، وإنما قصد به صلاح المكلفين مع رحمته الشاملة لهم ، كالوالد يهدد ولده

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَاهُمْ بِمُؤْمِنِينَ

بالقتل والسمل والقطع والضرب ، فإن قبل الولد أمره فقد انتفع وإن لم يفعل فما فى قلب الوالد من الشفقة يرده عن قتله وعقوبته ، فإن قيل فعلى جميع التقادير يكون ذلك كذبا والكذب قبيح قلنا لانسلم أن كل كذب قبيح بل القبيح هو الكذب الضار، فأما الكذب النافع فلا ، ثم إن سلمنا ذلك ، لكن لا نسلم أنه كذب ، أليس أن جميع عمومات القرآن مخصوصة ولا يسمى ذلك كذبا ، أليس أن كل المتشابهات مصروفة عن ظواهرها ، ولا يسمى ذلك كذبا فكذا ههنا . وثالثها : أليس أن آيات الوعيد فى حق العصاة مشروطة بعدم التوبة وإن لم يكن هذا الشرط مذكوراً فى صريح النص ، فهى أيضاً عندنا مشروطة بعدم العفو وإن لم يكن هذا الشرط مذكوراً بصريح النص صريحاً ، أو نقول : معناه أن العاصى يستحق هذه الأنواع من العقاب فيحمل الاخبار عن الوقوع على الاخبار عن استحقاق الوقوع فهذا جملة مايقال فى تقرير هذا المذهب . وأما الذين أثبتوا وقوع العذاب ، فقالوا إنه نقل إلينا على سبيل التواتر من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوع العذاب فإنكاره يكون تكذيبا للرسول وأما الشبه التى تمسكتم بها فى نفى العقاب فهى مبنية على الحسن والقبح وذلك مما لا نقول به والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين ﴾ اعلم أن المفسرين أجمعوا على أن ذلك فى وصف المنافقين قالوا : وصف الله الأصناف الثلاثة من المؤمنين والكافرين والمنافقين فبدأ بالمؤمنين المخلصين الذين صحت سرائرهم وسلمت ضمائرهم ، ثم أتبعهم بالكافرين الذين من صفتهم الاقامة على الجحود والعناد ، ثم وصف حال من يقول بلسانه إنه مؤمن وضميره يخالف ذلك ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أعلم أن الكلام فى حقيقة النفاق لا يتخلص إلا بتقسيم نذكره فنقول : أحوال القلب أربعة ، وهى الإعتقاد المطابق المستفاد عن الدليل وهو العلم ؛ والإعتقاد المطابق المستفاد لاعن الدليل وهو اعتقاد المقلد ، والإعتقاد الغير المطابق وهو الجهل ، وخلو القلب عن كل ذلك . فهذه أقسام أربعة ، وأما أحوال اللسان فثلاثة : الاقرار ؛ والإنكار ، والسكوت . فيحصل من تركيباتها اثنا عشر قسما . النوع الأول : ما أذا حصل العرفان القلبى فههنا إما أن ينضم إليه الإقرار باللسان أو الإنكار باللسان أو السكوت . القسم الأول : ما إذا حصل العرفان بالقلب والإقرار باللسان فهذا الإقرار إن كان اختيارياً فصاحبه مؤمن حقاً بالإتفاق ، وإن كان اضطرارياً وهو ما إذا عرف بقلبه ولكنه يجد من نفسه أنه لولا الخوف لما أقر ، بل أنكر ، فهذا يجب أن يعد منافقاً ؛ لأنه بقلبه منكر مكذب ، فإذا كان باللسان مقراً مصداقا وجب أن يعد منافقاً لأنه بقلبه منكر مكذب بوجوب الإقرار . القسم الثانى : أن يحصل العرفان القلبى والإنكار اللسانى

فهذا الإنكار إن كان اضطراريا كان صاحبه مسلما ، لقوله تعالى (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) وإن كان اختياريا كان كافراً معانداً . القسم الثالث أن يحصل العرفان القلبي ويكون اللسان خاليا عن الإقرار والإنكار ، فهذا السكوت إما أن يكون اضطراريا أو اختياريا ، فإن كان اضطراريا فذلك إذا خاف ذكره باللسان فهذا مسلم حقاً أو كما إذا عرف الله بدليله ثم لما تم النظر مات فجأة ، فهذا مؤمن قطعا ، لأنه أتى بكل ما كلف به ولم يجد زمان الإقرار والإنكار فكان معذورا فيه ، وأما إن كان اختياريا فهو كمن عرف الله بدليله ثم إنه لم يأت بالإقرار ، فهذا محل البحث ، وميل الغزالي رحمه الله إلى أنه يكون مؤمنا لقوله عليه السلام « يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان » وهذا الرجل قلبه مملوء من نور الإيمان فكيف لا يخرج من النار . النوع الثاني : أن يحصل في القلب الإعتقاد التقليدي ، فإما أن يوجد معه الإقرار ، أو الإنكار أو السكوت . القسم الأول : أن يوجد معه الإقرار ، ثم ذلك الإقرار إن كان اختيارياً فهذا هو المسألة المشهورة من أن المقلد هل هو مؤمن أم لا ؟ وإن كان اضطراريا فهذا يفرع على الصورة الأولى ، فإن حكمنا في الصورة الأولى بالكفر ، فهاهنا لا كلام ، وإن حكمنا هناك بالإيمان وجب أن نحكم هاهنا بالنفاق ، لان في هذه الصورة لو كان القلب عارفا لكان هذا الشخص منافقا ، فبأن يكون منافقا عند التقليد كان أولى . القسم الثاني : الإعتقاد التقليدي مع الإنكار اللساني ، ثم هذا الإنكار إن كان اختيارياً فلاشك في الكفر ، وإن كان اضطرارياً وحكمنا بإيمان المقلد وجب أن نحكم بالإيمان في هذه الصورة . القسم الثالث : الإعتقاد التقليدي مع السكوت اضطرارياً كان أو اختيارياً ، وحكمه حكم القسم الثالث من النوع الاول إذا حكمنا بإيمان المقلد . النوع الثالث : الإنكار القلبي فإما أن يوجد معه الاقرار اللساني ، أو الإنكار اللساني ، أو السكوت . القسم الاول : أن يوجد معه الإقرار اللساني ، فذلك الإقرار إن كان اضطرارياً فهو المنافق وإن كان اختيارياً فهو مثل أن يعتقد بناء على شبهة أن العالم قديم ثم بالإختيار أقر باللسان أن العالم محدث ، وهذا غير مستبعد ، لانه إذا جاز أن يعرف بالقلب ثم ينكر باللسان وهو كفر الجحود والعناد ، فلم لا يجوز أن يجهل بالقلب ثم يقر باللسان ؟ فهذا القسم أيضاً من النفاق . القسم الثاني : أن يوجد الإنكار القلبي ويوجد الإنكار اللساني فهذا كافر وليس بمنافق ، لأنه ما أظهر شيئا بخلاف باطنه . القسم الثالث : أن يوجد الإنكار القلبي مع السكوت اللساني فهذا كافر وليس بمنافق لأنه ما أظهر شيئا . النوع الرابع : القلب الخالي عن جميع الإعتقادات فهذا إما أن يوجد معه الإقرار أو الإنكار أو السكوت . القسم الاول إذا وجد الإقرار فهذا الإقرار إما أن يكون اختيارياً أو اضطراريا ، فإن كان اختياريا ، فإن كان صاحبه في مهلة النظر لم يلزمه الكفر ، لكنه فعل مالا يجوز حيث أخبر عما لايدري أنه هل هو صادق فيه أم لا ؟ وإن كان لا في مهلة النظر ففيه نظر ، أما إذا كان اضطراريا لم يكفر صاحبه ، لان توقفه إذا كان في مهلة النظر وكان يخاف على نفسه من ترك الإقرار لم يكن

عمله قبيحا . القسم الثانى : القلب الخالى مع الانكار باللسان وحكمه على العكس من حكم القسم العاشر القسم الثالث : القلب الخالى مع اللسان الخالى ، فهذا إن كان فى مهلة النظر فذاك هو الواجب ، وإن كان خارجا عن مهلة النظر وجب تكفيره ولا يحكم عليه بالنفاق البتة ، فهذه هى الأقسام الممكنة فى هذا الباب ، وقد ظهر منه أن النفاق ماهو ، وأنه الذى لايطابق ظاهره باطنه سواء كان فى باطنه مايضاد مافى ظاهره أو كان باطنه خاليا عما يشعر به ظاهره ، وإذ عرفت هذا ظهر أن قوله : (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر) المراد منه المنافقون والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا فى أن كفر الكافر الأصلى أقبح ، أم كفر المنافق ؟ قال قوم كفر الكافر الأصلى أقبح ، لأنه جاهل بالقلب كاذب باللسان ، والمنافق جاهل بالقلب صادق باللسان . وقال آخرون بل المنافق أيضاً كاذب باللسان ، فإنه يخبر عن كونه على ذلك الاعتقاد مع أنه ليس عليه ، ولذلك قال تعالى (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم) وقال (والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) ثم إن المنافق اختص بمزيد أمور منكرة . أحدها : أنه قصد التلبيس والكافر الأصلى ماقصد ذلك . وثانيها : أن الكافر على طبع الرجال ، والمنافق على طبع الخنوثة . وثالثها : أن الكافر مارضى لنفسه بالكذب بل استنكف منه ولم يرض إلا بالصدق ، والمنافق رضى بذلك . ورابعها : أن المنافق ضم إلى كفره الاستهزاء بخلاف الكافر الاصلى ، ولاجل غلظ كفره قال تعالى (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) . وخامسها : قال مجاهد : إنه تعالى ابتدأ بذكر المؤمنين فى أربع آيات ، ثم ثنى بذكر الكفار فى آيتين ثم ثلث بذكر المنافقين فى ثلاث عشرة آية ، وذلك يدل على أن المنافق أعظم جرما ، وهذا بعيد ، لان كثرة الاقتصاص بخبرهم لا توجب كون جرمهم أعظم ، فإن عظم فلغير ذلك ، وهو ضمهم إلى الكفر وجوها من المعاصى كالمخادعة والاستهزاء ، وطلب الغوائل إلى غير ذلك ، ويمكن أن يجاب عنه بأن كثرة الاقتصاص بخبرهم تدل على أن الاهتمام بدفع شرهم أشد من الاهتمام بدفع شر الكفار ، وذلك يدل على أنهم أعظم جرما من الكفار .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ هذه الآية دالة على أمرين . الأول : أنها تدل على أن من لايعرف الله تعالى وأقر به فإنه لا يكون مؤمنا ، لقوله (وماهم بمؤمنين) وقالت الكرامية : إنه يكون مؤمنا الثانى : أنها تدل على بطلان قول من زعم أن كل المكلفين عارفون بالله ، ومن لم يكن به عارفا لايكون مكلفاً أما الاول فلأن هؤلاء المنافقين لوكانوا عارفين بالله وقد أقروا به لكان يجب أن يكون اقرارهم بذلك إيمانا ، لان من عرف الله تعالى وأقر به لابد وأن يكون مؤمنا ، وأما الثانى فلأن غير العارف لو كان معذوراً لما ذم الله هؤلاء على عدم العرفان ، فبطل قول من قال من المتكلمين : ان من لايعرف هذه الاشياء يكون معذوراً

﴿ المسألة الرابعة ﴾ ذكروا فى اشتقاق لفظ الانسان وجوها . أحدها : يروى عن ابن عباس

أنه قال : سمى إنسانا لأنه عهد إليه فنسى ، وقال الشاعر . سميت إنسانا لأنك ناسى

وقال أبو الفتح البستى :

يا أكثر الناس إحسانا إلى الناس   وأكثر الناس إفضالا على الناس
نسيت عهدك والنسيان مغتفر   فاغفر فأول ناس أول النـــاس

وثانيها : سمى إنسانا لاستئناسه بمثله . وثالثها : قالوا : الانسان إنما سمى إنسانا لظهورهم وأنهم يؤنسون أى يبصرون من قوله (آنس من جانب الطور نارا) كما سمى الجن لاجتنانهم . واعلم أنه لايجب فى كل لفظ أن يكون مشتقا من شىء آخر وإلا لزم التسلسل ، وعلى هذا لاحاجة إلى جعل لفظ الانسان مشتقا من شىء آخر .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال ابن عباس : أنها نزلت فى منافقى أهل الكتاب ، منهم عبدالله بن أبى ومعتب بن قشير، وجد ابن قيس ، كانوا إذا لقوا المؤمنين يظهرون الإيمان والتصديق ويقولون إنا لنجد فى كتابنا نعته وصفته ولم يكونوا كذلك إذا خلا بعضهم إلى بعض .

﴿ المسألة السادسة ﴾ لفظة « من » لفظة صالحة للتثنية ، والجمع ، والواحد . أما فى الواحد فقوله تعالى (ومنهم من يستمع إليك) وفى الجمع كقوله (ومنهم من يستمعون إليك) والسبب فيه أنه موحد اللفظ مجموع المعنى ، فعند التوحيد يرجع إلى اللفظ . وعند الجمع يرجع إلى المعنى ، وحصل الأمران فى هذه الآية ؛ لأن قوله تعالى (يقول) لفظ الواحد و(آمنا) لفظ الجمع وبقى من مباحث الآية أسئلة . السؤال الأول : المنافقون كانوا مؤمنين بالله وباليوم الآخر ولكنهم كانوا منكرين لنبوته عليه السلام فلم كذبهم فى إدعائهم الإيمان بالله واليوم الآخر ؟ والجواب : إن حملنا هذه الآية على منافقى المشركين فلا إشكال ، لأن أكثرهم كانوا جاهلين بالله ومنكرين البعث والنشور وإن حملناها على منافقى أهل الكتاب — وهم اليهود — فإنما كذبهم الله تعالى لأن إيمان اليهود بالله ليس بإيمان ، لأنهم يعتقدونه جسما ، وقالوا عزير بن الله ، وكذلك إيمانهم باليوم الآخر ليس بإيمان ، فلما قالوا آمنا بالله كان خبثهم فيه مضاعفا لأنهم كانوا بقلوبهم يؤمنون به على ذلك الوجه الباطل، وباللسان يوهمون المسلمين بهذا الكلام إنا آمنا بالله مثل إيمانكم ، فلهذا كذبهم الله تعالى فيه . السؤال الثانى : كيف طابق قوله (وماهم بمؤمنين) قولهم (آمنا بالله) والأول فى ذكر شأن الفعل لا الفاعل ، والثانى فى ذكر شأن الفاعل لا الفعل ؟ والجواب : أن من قال فلان ناظر فى المسألة الفلانية ، فلو قلت إنه لم يناظر فى تلك المسألة كنت قد كذبته ، أما لو قلت إنه ليس من الناظرين كنت قد بالغت فى تكذيبه ، يعنى أنه ليس من هذا الجنس . فكيف يظن به ذلك ؟ فكذا ههنا لما قالوا آمنا بالله فلو قال الله ما آمنوا كان ذلك تكذيبا لهم أما لما قال (وماهم بمؤمنين) كان ذلك مبالغة فى تكذيبهم ، ونظيره قوله (يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها) هو أبلغ من قولك : وما يخرجون منها . السؤال الثالث : ما المرد باليوم الآخر ؟ الجواب : يجوز أن يراد به

يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ

فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ

الوقت الذى لا حد له وهو الأبد الدائم ، الذى لا ينقطع له أمد ، ويجوز أن يراد به الوقت المحدود من النشور إلى أن تدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار؛ لأنه آخر الأوقات المحدودة ، وما بعده فلا حد له .

قوله تعالى : ﴿ يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴾

اعلم أن الله تعالى ذكر من قبائح المنافقين أربعة أشياء . أحدها : ما ذكره فى هذه الآية ، وهو أنهم (يخادعون الله والذين آمنوا) فيجب أن يعلم أولا ما المخادعة ، ثم ثانيا ما المراد بمخادعة الله ؟ وثالثا أنهم لماذا كانوا يخادعون الله ؟ ورابعا أنه ما المراد بقوله وما يخدعون إلا أنفسهم ؟

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنه لاشبهة فى أن الخديعة مذمومة ، والمذموم يجب أن يميز من غيره لكى لا يفعل ، وأصل هذه اللفظة الاخفاء ، وسميت الخزانة المخدع ، والأخدعان عرقان فى العنق لأنهما خفيان . وقالوا : خدع الضب خدعا إذا توارى فى جحره فلم يظهر إلا قليلا ، وطريق خيدع وخادع ، إذا كان مخالفا للمقصد بحيث لا يفطن له ، ومنه المخدع . وأما حدها فهو إظهار ما يوهم السلامة والسداد ، وإبطان مايقتضى الاضرار بالغير والتخلص منه ، فهو بمنزلة النفاق فى الكفر والرياء فى الأفعال الحسنة ، وكل ذلك بخلاف مايقتضيه الدين ؛ لان الدين يوجب الاستقامة والعدول عن الغرور والاساءة ، كما يوجب المخالصة لله تعالى فى العبادة ، ومن هذا الجنس وصفهم المرائى بأنه مدلس إذا أظهر خلاف مراده ، ومنه أخذ التدليس فى الحديث ، لان الراوى يوهم السماع ممن لم يسمع ؛ وإذا أعلن ذلك لا يقال إنه مدلس .

﴿ المسألة الثانية ﴾ وهى أنهم كيف خادعوا الله تعالى ؟ فلقائل أن يقول : إن مخادعة الله تعالى ممتنعة من وجهين . الأول : أنه تعالى يعلم الضمائر والسرائر فلا يجوز أن يخادع ، لان الذى فعلوه لو أظهروا أن الباطن بخلاف الظاهر لم يكن ذلك خداعا ، فإذا كان الله تعالى لا يخفى عليه البواطن لم يصح أن يخادع . الثانى : أن المنافقين لم يعتقدوا أن الله بعث الرسول إليهم فلم يكن قصدهم فى نفاقهم مخادعة الله تعالى ، فثبت أنه لا يمكن إجراء هذا اللفظ على ظاهره بل لابد من التأويل وهو من وجهين . الأول : أنه تعالى ذكر نفسه وأراد به رسوله على عادته فى تفخيم وتعظيم شأنه . قال (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) وقال فى عكسه (واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه) أضاف السهم الذى يأخذه الرسول إلى نفسه فالمنافقون لما خادعوا

الرسول قيل إنهم خادعوا الله تعالى . الثانى : أن يقال صورة حالهم مع الله حيث يظهرون الايمان وهم كافرون صورة من يخادع ، وصورة صنيع الله معهم حيث أمر باجراء أحكام المسلمين عليهم وهم عنده فى عداد الكفرة صورة صنيع الله معهم حيث امتثلوا أمر الله فيهم فأجروا أحكامه عليهم

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فهى فى بيان الغرض من ذلك الخداع وفيه وجوه . الأول : أنهم ظنوا أن النبى ﷺ والمؤمنين يجرونهم فى التعظيم والاكرام مجرى سائر المؤمنين إذا أظهروا لهم الايمان وإن أسروا خلافه فمقصودهم من الخداع هذا . الثانى : يجوز أن يكون مرادهم إفشاء النبى ﷺ إليهم أسراره ، وإفشاء المؤمنين أسرارهم فينقلونها إلى أعدائهم من الكفار . الثالث : أنهم دفعوا عن أنفسهم أحكام الكفار مثل القتل ، لقوله عليه الصلاة والسلام « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله » . الرابع : أنهم كانوا يطمعون فى أموال الغنائم ، فإن قيل : فالله تعالى كان قادراً على أن يوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم كيفية مكرهم وخداعهم ، فلم لم يفعل ذلك هتكا لسترهم؟ قلنا : إنه تعالى قادر على استئصال إبليس وذريته ولكنه تعالى أبقاهم وقواهم ، إما لأنه يفعل مايشاء ويحكم ما يريد ، أو لحكمة لا يطلع عليها إلا هو . فإن قيل هل للاقتصار بخادعت على واحد وجه صحيح ؟ قلنا قال صاحب الكشاف وجهه أن يقال : عنى به فعلت إلا أنه أخرج فى زنة فاعلت ، لأن الزنة فى أصلها للمبالغة والفعل متى غولب فيه فاعله جاء أبلغ وأحكم منه إذا زاوله وحده من غير مغالب ، لزيادة قوة الداعى إليه ، ويعضده قراءة أبى حيوة (يخدعون الله) ثم قال (يخادعون) بياناً ليقول ويجوز أن يكون مستأنفاً كأنه قيل ولم يدعون الإيمان كاذبين . وما نفعهم فيه ؟ فقيل (يخادعون)

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو (وما يخادعون) والباقون (يخدعون) وحجة الأولين : مطابقة اللفظ حتى يكون مطابقا للفظ الأول ، وحجة الباقين أن المخادعة إنما تكون بين اثنين ، فلا يكون الانسان الواحد مخادعا لنفسه ، ثم ذكروا فى قوله (ومايخدعون إلا أنفسهم) وجهين . الأول : أنه تعالى يجازيهم على ذلك ويعاقبهم عليه فلا يكونون فى الحقيقة خادعين إلا أنفسهم عن الحسن . والثانى : ما ذكره أكثر المفسرين ، وهو أن وبال ذلك راجع إليهم فى الدنيا ، لان الله تعالى كان يدفع ضرر خداعهم عن المؤمنين ويصرفه إليهم ، وهو كقوله (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم) وقوله (إنما نحن مستهزءون . الله يستهزىء بهم) (أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء) (ومكروا مكراً ومكرنا مكراً) (إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيداً) (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله) (إن الذين يؤذون الله ورسوله) وبقى فى الآية بعد ذلك أبحاث . أحدها : قرىء (وما يخادعون) من اخدع و (يخدعون) بفتح الياء بمعنى يختدعون (ويخدعون) و (يخادعون) على لفظ مالم يسم فاعله . وثانيها النفس ذات الشىء وحقيقته ، ولا تختص بالأجسام لقوله تعالى (تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك) والمراد بمخادعتهم ذواتهم أن الخداع

لا يعدوهم إلى غيرهم . وثالثها أن الشعور علم الشيء إذا حصل بالحس ، ومشاعر الانسان حواسه ، والمعنى أن لحوق ضرر ذلك بهم كالمحسوس ، لكنهم لتماديهم فى الغفلة كالذى لا يحس .

أما قوله تعالى ﴿ فى قلوبهم مرض ﴾ فاعلم أن المرض صفة توجب وقوع الضرر فى الأفعال الصادرة عن موضع تلك الصفة ، ولما كان الأثر الخاص بالقلب إنما هو معرفة الله تعالى وطاعته وعبوديته ، فإذا وقع فى القلب من الصفات ماصار مانعا من هذه الآثار كانت تلك الصفات أمراضا للقلب . فان قيل : الزيادة من جنس المزيد عليه ، فلو كان المراد من المرض ههنا الكفر والجهل لكان قوله (فزادهم الله مرضا) محمولا على الكفر والجهل ، فيلزم أن يكون الله تعالى فاعلا للكفر والجهل . قالت المعتزلة : لا يجوز أن يكون مراد الله تعالى منه فعل الكفر والجهل لوجوه : أحدها أن الكفار كانوا فى غاية الحرص على الطعن فى القرآن ، فلو كان المعنى ذلك لقالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم : إذا فعل الله الكفر فينا ، فكيف تأمرنا بالايمان ؟ وثانيها : أنه تعالى لو كان فاعلا للكفر لجاز منه اظهار المعجزة على يد الكذاب ، فكان لا يبقى كون القرآن حجة فكيف نتشاغل بمعانيه وتفسيره . وثالثها : أنه تعالى ذكر هذه الآيات فى معرض الذم لهم على كفرهم فكيف يذمهم على شيء خلقه فيهم . ورابعها : قوله (ولهم عذاب أليم) فان كان الله تعالى خالق ذلك فيهم كما خلق لونهم وطولهم ، فأى ذنب لهم حتى يعذبهم ؟ وخامسها : أنه تعالى أضافه إليهم بقوله (بما كانوا يكذبون) وعلى هذا وصفهم تعالى بأنهم مفسدون فى الأرض ، وأنهم هم السفهاء ، وأنهم إذا خلوا إلى شياطينهم قالوا انا معكم ، إذا ثبت هذا فنقول : لا بد من التأويل وهو من وجوه . الأول يحمل المرض على الغم ، لأنه يقال مرض قلبى من أمر كذ ، والمعنى أن المنافقين مرضت قلوبهم لما رأوا ثبات أمر النبى صلى الله عليه وسلم واستعلاء شأنه يوما فيوما . وذلك كان يؤثر فى زوال رياستهم ، كما روى أنه عليه السلام مر بعبد الله بن أبى بن سلول على حمار ، فقال له نح حمارك يا محمد فقد آذتنى ريحه ، فقال له بعض الأنصار اعذره يارسول الله ، فقد كنا عزمنا على أن نتوجه الرياسة قبل أن تقدم علينا : فهؤلاء لما اشتد عليهم الغم وصف الله تعالى ذلك فقال (فزادهم الله مرضا) أى زادهم الله غما على غمهم بما يزيد فى إعلاء أمر النبى صلى الله عليه وسلم وتعظيم شأنه الثانى : أن مرضهم وكفرهم كان يزداد بسبب ازدياد التكاليف ، فهو كقوله تعالى فى سورة التوبة (فزادتهم رجسا إلى رجسهم) والسورة لم تفعل ذلك ، ولكنهم لما ازدادوا رجسا عند نزولها لما كفروا بها قبل ذلك ، وكقوله تعالى حكاية عن نوح (إنى دعوت قومى ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائى إلا فرارا) والدعاء لم يفعل شيئا من هذا ، ولكنهم ازدادوا فرارا عنده ، وقال (ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى) والنبى عليه السلام ان لم يأذن له لم يفتنه ، ولكنه كان يفتتن عند خروجه فنسبت الفتنه إليه (وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا) وقال (فلما جاءهم نذير مازادهم إلا نفورا) وقولك لمن وعظته فلم يتعظ وتمادى فى فساده : ما زادتك موعظتى إلا

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ

شرا ، وما زادتك إلا فسادا فكذا هؤلاء المنافقون لما كانوا كافرين ثم دعاهم الله إلى شرائع دينه فكفروا بتلك الشرائع وازدادوا بسبب ذلك كفراً لاجرم أضيفت زيادة كفرهم إلى الله . الثالث : المراد من قوله (فزادهم الله مرضا) المنع من زيادة الألطاف ، فيكون بسبب ذلك المنع خاذلا لهم وهو كقوله (قاتلهم الله أنى يؤفكون)الرابع : أن العرب تصف فتورالطرف بالمرض ، فيقولون : جارية مريضة الطرف . قال جرير :

إن العيون التى فى طرفها مرض قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

فكذا المرض ههنا إنما هو الفتور فى النية ، وذلك لأنهم فى أول الأمر كانت قلوبهم قوية على المحاربة والمنازعة وإظهارالخصومة ، ثم انكسرت شوكتهم فأخذوا فى النفاق بسبب ذلك الخوف والانكسار ، فقال تعالى (فزادهم الله مرضا) أى زادهم ذلك الانكسار والجبن والضعف ، ولقد حقق الله تعالى ذلك بقوله (وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين) الخامس : أن يحمل المرض على ألم القلب ، وذلك أن الانسان إذا صار مبتلى بالحسد والنفاق ومشاهدة المكروه فإذا دام به ذلك فربما صار ذلك سببا لغير مزاج القلب وتألمه ، وحمل اللفظ على هذا الوجه حمل له على حقيقته ، فكان أولى من سائر الوجوه . أما قوله (ولهم عذاب أليم) قال صاحب الكشاف : ألم فهو أليم ، كوجع فهو وجيع ، ووصف العذاب به فهو نحو قوله : تحية بينهم ضرب وجيع . وهذا على طريقة قولهم : جد جده ، والألم فى الحقيقة للمؤلم كما أن الجد للجاد ، أما قوله (بما كانوا يكذبون) ففيه أبحاث . أحدها . أن الكذب هو الخبر عن شىء على خلاف ماهو به والجاحظ لا يسميه كذباً إلا إذا علم المخبر كون المخبر عنه مخالفاً للخبر ، وهذه الآية حجة عليه . وثانيها : أن قوله (ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون) صريح فى أن كذبهم علة للعذاب الأليم ، وذلك يقتضى أن يكون كل كذب حراما فأما ماروى أن ابراهيم عليه السلام كذب ثلاث كذبات ، فالمراد التعريض ، ولكن لما كانت صورته صورة الكذب سمى به . وثالثها : فى هذه الآية قراءتان . إحداهما : (يكذبون) والمراد بكذبهم قوله آمنا بالله وباليوم الآخر . والثانية : يكذبون من كذبه الذى هو نقيض صدقه ، ومن كذب الذى هو مبالغة فى كذب ، كما بولغ فى صدق فقيل صدق .

قوله تعالى ﴿ وإذا قيل لهم لاتفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ﴾

إعلم أن هذا هو النوع الثانى من قبائح أفعال المنافقين ، والكلام فيه من وجوه . أحدها : أن يقال : من القائل لاتفسدوا فى الأرض ؟ وثانيها : ماالفساد فى الأرض ؟ وثالثها : من القائل : إنما نحن مصلحون ؟ ورابعها . ما الصلاح ؟

﴿ أما المسألة الأولى ﴾ فمنهم من قال : ذلك القائل هو الله تعالى ، ومنهم من قال : هوالرسول عليه السلام ، ومنهم من قال بعض المؤمنين ، وكل ذلك محتمل ، ولايجوز أن يكون القائل بذلك من لايختص بالدين والنصيحة ، وإن كان الاقرب هو أن القائل لهم ذلك من شافههم بذلك ، فإما أن يكون الرسول عليه السلام بلغه عنهم النفاق ولم يقطع بذلك فنصحهم فأجابوا بما يحقق إيمانهم وأنهم فى الصلاح بمنزلة سائر المؤمنين ، وإما أن يقال : إن بعض من كانوا يلقون إليه الفساد كان لايقبله منهم وكان ينقلب واعظاً لهم قائلالهم (لاتفسدوا) فإن قيل : أفما كانوا يخبرون الرسول عليه السلام بذلك ؟ قلنا نعم ، إلا أن المنافقين كانوا إذا عوتبوا عادوا إلى إظهار الاسلام والندم وكذبوا الناقلين عنهم وحلفوا بالله عليه كما أخبر تعالى عنهم فى قوله (يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر) وقال (يحلفون لكم لترضوا عنهم)

﴿ المسألة الثانية ﴾ الفساد خروج الشىء عن كونه منتفعاً به ، ونقيضه الصلاح فأما كونه فسادا فى الأرض فإنه يفيد أمراً زائداً ، وفيه ثلاثة أقوال . أحدها : قول ابن عباس والحسن وقتادة والسدى : أن المراد بالفساد فى الأرض إظهار معصية الله تعالى ، وتقريره ماذكره القفال رحمه الله وهو أن إظهار معصية الله تعالى إنما كان إفساداً فى الأرض ، لأن الشرائع سنن موضوعة بين العباد ، فإذا تمسك الخلق بها زال العدوان ولزم كل أحد شأنه ، فحقنت الدماء وسكنت الفتن ، وكان فيه صلاح الأرض وصلاح أهلها ، أما إذا تركوا التمسك بالشرائع وأقدم كل أحد على مايهواه لزم الهرج والمرج والاضطراب ، ولذلك قال تعالى (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض) نبههم على أنهم إذا أعرضوا عن الطاعة لم يحصلوا إلا على الافساد فى الأرض به ، وثانيها : أن يقال ذلك الفساد هو مداراة المنافقين للكافرين ومخالطتهم معهم ، لأنهم لما مالوا إلى الكفر مع أنهم فى الظاهر مؤمنون أوهم ذلك ضعف الرسول ﷺ ، وضعف أنصاره ، فكان ذلك يجرىء الكفرة على إظهار عداوة الرسول ونصب الحرب له وطمعهم فى الغلبة ، وفيه فساد عظيم فى الأرض . وثالثها : قال الأصم :كانوا يدعون فى السر إلى تكذيبه ، وجحد الإسلام ، والقاء الشبه

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الذين قالوا إنما نحن مصلحون هم المنافقون ، والأقرب فى مرادهم أن يكون نقيضاً لما نهوا عنه ، فلما كان الذى نهوا عنه هو الافساد فى الأرض كان قولهم (إنما نحن مصلحون) كالمقابل له ، وعندذلك يظهر احتمالان . أحدهما : أنهم اعتقدوا فى دينهم أنه هوالصواب ، وكان سعيهم لأجل تقوية ذلك الدين ، لاجرم قالوا إنما نحن مصلحون ، لأنهم فى اعتقادهم ماسعوا إلا للتطهير وجه الأرض عن الفساد . وثانيهما : أنا إذا فسرنا (لاتفسدوا) بمداراة المنافقين للكفار

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ

فقولهم (إنما نحن مصلحون) يعنى به أن هذه المداراة سعى فى الاصلاح بين المسلمين والكفار ، ولذلك حكى الله تعالى عنهم أنهم قالوا (إن أردنا إلا إحساناوتوفيقا) فقولهم (إنمانحن مصلحون) أى نحن نصلح أمور أنفسنا

واعلم أن العلماء استدلوا بهذه الآية على أن من أظهر الإيمان وجب اجراء حكم المؤمنين عليه ، وتجويز خلافه لا يطعن فيه ، وتوبة الزنديق مقبولة والله أعلم . وأما قوله (ألا إنهم هم المفسدون) فخارج على وجوه ثلاثة . أحدها : أنهم مفسدون لأن الكفر فساد فى الارض ، إذ فيه كفران نعمة الله . وإقدام كل أحد على ما يهواه ، لأنه إذا كان لا يعتقد وجود الاله ولا يرجو ثوابا ولا عقابا تهارج الناس ، ومن هذا ثبت أن النفاق فساد ؛ ولهذا قال (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض) على ما تقدم تقريره .

قوله تعالى ﴿ وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ﴾

اعلم أن هذا هو النوع الثالث من قبائح أفعال المنافقين ، وذلك لأنه سبحانه لما نهاهم فى الآية المتقدمة عن الفساد فى الأرض أمرهم فى هذه الآية بالإيمان ، لأن كمال حال الانسان لا يحصل إلا بمجموع الأمرين . أولهما : ترك ما لا ينبغى وهو قوله (آمنوا) وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (آمنوا كما آمن الناس) أى إيمانا مقرونا بالاخلاص بعيداً عن النفاق ، ولقائل أن يستدل بهذه الآية على أن مجرد الاقرار إيمان ، فانه لو لم يكن إيمانا لما تحقق مسمى الايمان إلا إذا حصل فيه الاخلاص ، فكان قوله (آمنوا) كافياً فى تحصيل المطلوب ، وكان ذكر قوله (كما آمن الناس) لغواً ، والجواب : أن الايمان الحقيقى عند الله هو الذى يقترن به الاخلاص ، أما فى الظاهر فلا سبيل إليه إلا باقرار الظاهر فلا جرم افتقر فيه إلى تأكيده بقوله (كما آمن الناس)

﴿ المسألة الثانية ﴾ اللام فى (الناس) فيها وجهان . أحدهما : أنها للعهد أى كما آمن رسول الله ومن معه ، وهم ناس معهودون ، أو عبد الله بن سلام وأشياعه . لأنهم من أبناء جنسهم والثانى : أنها للجنس ثم هاهنا أيضاً وجهان . أحدهما : أن الأوس والخزرج أكثرهم كانوا مسلمين ، وهؤلاء المنافقون كانوا ، منهم وكانوا قليلين ، ولفظ العموم قد يطلق على الأكثر والثانى : أن المؤمنين هم

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ . ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ

الناس فى الحقيقة ، لأنهم هم الذين أعطوا الانسانية حقها لأن فضيلة الانسان على سائر الحيوانات بالعقل المرشد والفكر الهادى

﴿ المسألة الثالثة ﴾ القائل (آمنوا كما آمن الناس) إما الرسول ، أو المؤمنون ، ثم كان بعضهم يقول لبعض : أنؤمن كما آمن سفيه بنى فلان وسفيه بنى فلان ، والرسول لا يعرف ذلك فقال تعالى (ألا إنهم هم السفهاء)

﴿ المسألة الرابعة ﴾ السفه الخفة يقال : سفهت الريح الشىء إذا حركته ، قال ذو الرمة :

جرين كما اهتزت رياح تسفهت أعاليها مر الرياح الرواسم

وقال أبو تمام الطائى :

سفيه الرمح جاهله إذا ما بدا فضل السفيه على الحليم

أراد به سريع الطعن بالرمح خفيفه ، وإنما قيل لبذىء اللسان سفيه ، لأنه خفيف لا رزانة له وقال تعالى (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما) وقال عليه السلام « شارب الخمر سفيه » لقلة عقله وإنما سمى المنافقون المسلمين بالسفهاء ؛ لان المنافقين كانوا من اهل الخطر والرياسة ، وأكثر المؤمنين كانوا فقراء ، وكان عند المنافقين أن دين محمد صلى الله عليه وسلم باطل ، والباطل لا يقبله إلا السفيه ؛ فلهذه الاسباب نسبوهم إلى السفاهة ثم إن الله تعالى قلب عليهم هذا اللقب — وقوله الحق — لوجوه . أحدها : أن من أعرض عن الدليل ثم نسب المتمسك به إلى السفاهة فهو السفيه . وثانيها : أن من باع آخرته بدنياه فهو السفيه . وثالثها : أن من عادى محمداً عليه الصلاة والسلام فقد عادى الله ، وذلك هو السفيه

﴿ المسألة الخامسة ﴾ انما قال فى آخر هذه الآية (لا يعلمون) وفيما قبلها (لا يشعرون) لوجهين . الاول : أن الوقوف على أن المؤمنين على الحق وهم على الباطل أمر عقلى نظرى ، وأما أن النفاق وما فيه من البغى يفضى إلى الفساد فى الارض فضرورى جار مجرى المحسوس . الثانى : أنه ذكر السفه وهو جهل ، فكان ذكر العلم أحسن طباقاً له والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون ﴾

هذا هو النوع الرابع من أفعالهم القبيحة ، يقال : لقيته ولاقيته إذا استقبلته قريباً منه ، وقرأ أبو حنيفة (وإذا لاقوا) أما قوله (قالوا آمنا) فالمراد أخلصنا بالقلب ، والدليل عليه وجهان

الأول أن الاقرار باللسان كان معلوماً منهم فما كانوا يحتاجون إلى بيانه ، إنما المشكوك فيه هو الاخلاص بالقلب . فيجب أن يكون مرادهم من هذا الكلام ذلك . الثاني : أن قولهم للمؤمنين « آمنا » يجب أن يحمل على نقيض ما كانوا يظهرونه لشياطينهم ، وإذا كانوا يظهرون لهم التكذيب بالقلب فيجب أن يكون مرادهم فيما ذكروه للمؤمنين التصديق بالقلب . أما قوله (وإذا خلوا إلى شياطينهم) فقال صاحب الكشاف : يقال خلوت بفلان وإليه ، إذا انفردت معه ويجوز أن يكون من « خلا » بمعنى مضى ، ومنه القرون الخالية ، ومن « خلوت به » إذا سخرت منه ، من قولك « خلا فلان بعرض فلان » أى يعبث به ، ومعناه أنهم أنهوا السخرية بالمؤمنين إلى شياطينهم وحدثوهم بها كما تقول : أحمد إليك فلانا وأذمه إليك . وأما شياطينهم فهم الذين ماثلوا الشياطين فى تمردهم ، أما قوله (إنا معكم) ففيه سؤالان . السؤال الأول : هذا القائل أهم كل المنافقين أو بعضهم الجواب : فى هذا خلاف ، لان من يحمل الشياطين على كبار المنافقين يحمل هذا القول على أنه من صغارهم وكانوا يقولون للمؤمنين آمنا وإذا عادوا إلى أكابرهم قالوا إنا معكم ؛ لئلا يتوهموا فيهم المباينة ، ومن يقول فى الشياطين : المراد بهم الكفار لم يمنع اضافة هذا القول إلى كل المنافقين ، ولا شبهة فى أن المراد بشياطينهم أكابرهم ، وهم إما الكفار وإما أكابر المنافقين ، لانهم هم الذين يقدرون على الافساد فى الارض ، وأما أصاغرهم فلا . السؤال الثانى : لم كانت مخاطبتهم المؤمنين بالجملة الفعلية ، وشياطينهم بالجملة الاسمية محققة « بأن » الجواب : ليس ما خاطبوا به المؤمنين جديراً بأقوى الكلامين ، لانهم كانوا فى ادعاء حدوث الإيمان منهم لا فى ادعاء أنهم فى الدرجة الكاملة منه ، إما لان أنفسهم لا تساعدهم على المبالغة لان القول الصادر عن النفاق والكراهة قلما يحصل معه المبالغة ؛ وإما لعلمهم بأن ادعاء الكمال فى الإيمان لا يروج على المسلمين ، وأما كلامهم مع اخوانهم فهم كانوا يقولونه عن الاعتقاد وعلموا أن المستمعين يقبلون ذلك منهم ، فلا جرم كان التأكيد لائقا به . أما قوله (إنما نحن مستهزئون) ففيه سؤالان . السؤال الاول : ما الاستهزاء ؟ الجواب : أصل الباب الخفة من الهزء وهو العدو السريع ، وهزأ يهزأ مات على مكانه ، وناقته تهزأ به أى تسرع ، وحده أنه عبارة عن إظهار موافقة مع إبطان ما يجرى مجرى السوء على طريق السخرية ، فعلى هذا قولهم (إنما نحن مستهزئون) يعنى نظهر لهم الموافقة على دينهم لنأمن شرهم ونقف على أسرارهم : ونأخذ من صدقاتهم وغنائمهم . السؤال الثانى : كيف تعلق قوله (إنما نحن مستهزئون) بقوله (إنا معكم) الجواب : هو توكيد له : لان قوله (إنا معكم) معناه الثبات على الكفر وقوله (إنما نحن مستهزئون) رد للاسلام ، ورد نقيض الشيء تأكيد لثباته ، أو بدل منه ، لان من حقر الاسلام فقد عظم الكفر ، أو استئناف ، كأنهم اعترضوا عليه حين قالوا : إنا معكم ، فقالوا إن صح ذلك فكيف توافقون أهل الاسلام ؟ فقالوا : إنما نحن مستهزئون

واعلم أنه سبحانه وتعالى لما حكى عنهم ذلك أجابهم بأشياء . أحدها : قوله (الله يستهزىء بهم)

وفيه أسئلة . الأول : كيف يجوز وصف الله تعالى بأنه يستهزىء وقد ثبت أن الاستهزاء لا ينفك عن التلبيس ، وهو على الله محال ، ولأنه لا ينفك عن الجهل ، لقوله (قالوا أتتخذنا هزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) والجهل على الله محال والجواب : ذكروا فى التأويل خمسة أوجه . أحدها : أن ما يفعله الله بهم جزاء على استهزائهم سماه بالاستهزاء ، لأن جزء الشيء يسمى باسم ذلك الشيء قال تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها) (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) (يخادعون الله وهو خادعهم) (ومكروا ومكر الله) وقال عليه السلام «اللهم إن فلانا هجانى وهو يعلم أنى لست بشاعر فاهجه ، اللهم والعنه عدد ما هجانى» أى اجزه جزاء هجائه ، وقال عليه السلام « تكلفوا من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا » وثانيها : أن ضرر استهزائهم بالمؤمنين راجع عليهم وغير ضار بالمؤمنين ، فيصير كأن الله استهزأ بهم . وثالثها : أن من آثار الاستهزاء حصول الهوان والحقارة فذكر الاستهزاء ، والمراد حصول الهوان لهم تعبيراً بالسبب عن المسبب . ورابعها : ان استهزاء الله بهم أن يظهر لهم من أحكامه فى الدنيا ما لهم عند الله خلافها فى الآخرة ، كما أنهم أظهروا للنبى والمؤمنين أمراً مع أن الحاصل منهم فى السر خلافه ، وهذا التأويل ضعيف ، لأنه تعالى لما أظهر لهم أحكام الدنيا فقد أظهر الأدلة الواضحة بما يعاملون به فى الدار الآخرة من سوء المنقلب والعقاب العظيم ، فليس فى ذلك مخالفة لما أظهره فى الدنيا . وخامسها : أن الله تعالى يعاملهم معاملة المستهزىء فى الدنيا وفى الآخره ، أما فى الدنيا فلأنه تعالى أطلع الرسول على أسرارهم مع أنهم كانوا يبالغون فى إخفائها عنه ، وأما فى الآخرة فقال ابن عباس : إذا دخل المؤمنون الجنة ، والكافرون النار فتح الله من الجنة بابا على الجحيم فى الموضع الذى هو مسكن المنافقين ، فإذا رأى المنافقون الباب مفتوحا أخذوا يخرجون من الجحيم ويتوجهون إلى الجنة ، وأهل الجنة ينظرون اليهم ، فإذا وصلوا إلى باب الجنة فهناك يغلق دونهم الباب ، فذاك قوله تعالى (إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون) إلى قوله (فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون) فهذا هو الاستهزاء بهم . السؤال الثانى : كيف ابتدأ قوله (الله يستهزىء بهم) ولم يعطف على الكلام الذى قبله ؟ الجواب : هو استئناف فى غاية الجزالة والفخامة . وفيه أن الله تعالى هو الذى يستهزىء بهم استهزاء العظيم الذى يصير استهزاؤهم فى مقابلته كالعدم ، وفيه أيضا أن الله هو الذى يتولى الاستهزاء بهم انتقاما للمؤمنين ، ولا يحوج المؤمنين إلى أن يعارضوهم باستهزاء مثله .

﴿ السؤال الثالث ﴾ هلا قيل : إن الله مستهزىء بهم ليكون مطابقا لقوله (إنما نحن مستهزئون) الجواب . لأن « يستهزىء » يفيد حدوث الاستهزاء وتجدده وقتاً بعد وقت ، وهكذا كانت نكايات الله فيهم (أولا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين) وايضاً فما كانوا يخلون فى أكثر أوقاتهم من تهتك أستار وتكشف أسرار واستشعار حذر من أن تنزل عليهم آية (يحذر

المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما قلوبهم قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون) الجواب الثانى : قوله تعالى (ويمدهم فى طغيانهم يعمهون) قال صاحب الكشاف إنه من مد الجيش وأمده إذا زاده وألحق به ما يقويه ويكثره ، وكذلك مد الدواة وأمدها زادها مايصلحها ؛ ومددت السراج والأرض إذا أصلحتهما بالزيت والسماد ، ومده الشيطان فى الغى ، وأمده إذا واصله بالوسواس ، ومد وأمد بمعنى واحد . وقال بعضهم : مد يستعمل فى الشر ، وأمد فى الخير قال تعالى (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين) ومن الناس من زعم أنه من المد فى العمر والاملاء والامهال وهذا خطأ لوجهين . الأول : أن قراءة ابن كثير ، وابن محيصن (ونمدهم) وقراءة نافع (وإخوانهم يمدونهم فى الغى) يدل على أنه من المدد دون المد . الثانى : أن الذى بمعنى أمهله إنما هو مدله ، كأملى له . قالت المعتزلة : هذه الآية لا يمكن اجراؤها على ظاهرها لوجوه أحدها : قوله تعالى (وإخوانهم يمدونهم فى الغى) أضاف ذلك الغى إلى إخوانهم ، فكيف يكون مضافا إلى الله تعالى وثانيها : أن الله تعالى ذمهم على هذا الطغيان فلو كان فعلا لله تعالى فكيف يذمهم عليه . وثالثها لو كان فعلا لله تعالى لبطلت النبوة وبطل القرآن فكان الاشتغال بتفسيره عبثا . ورابعها : أنه تعالى أضاف الطغيان إليهم بقوله : فى طغيانهم ولو كان ذلك من الله لما أضافه إليهم ، فظهر أنه تعالى إنما أضافه إليهم ليعرف أنه تعالى غير خالق لذلك ، ومصداقه أنه حين أسند المد إلى الشياطين أطلق الغى ولم يقيده بالاضافة فى قوله (وإخوانهم يمدونهم فى الغى) إذا ثبت هذا فنقول : التأويل من وجوه أحدها : وهو تأويل الكعبى وأبى مسلم بن يحي الأصفهانى أن الله تعالى لما منحهم ألطافه التى يمنحها المؤمنين وخذلهم بسبب كفرهم وإصرارهم عليه بقيت قلوبهم مظلمة بتزايد الظلمة فيها وتزايد النور فى قلوب المسلمين فسمى ذلك التزايد مددا وأسنده إلى الله تعالى لأنه مسبب عن فعله بهم . وثانيها : أن يحمل على منع القسر والالجاء كما قيل : إن السفيه إذا لم ينه فهو مأمور . وثالثها : أن يسند فعل الشيطان إلى الله تعالى لأنه بتمكينه وإقداره والتخلية بينه وبين اغواء عباده . ورابعها : ماقاله الجبائى فانه قال ويمدهم أى يمد عمرهم ثم انهم مع ذلك فى طغيانهم يعمهون وهذا ضعيف من وجهين . الأول : لما تبينا أنه لا يجوز فى اللغة تفسير ويمدهم بالمد فى العمر . الثانى : هب أنه يصح ذلك ولكنه يفيد أنه تعالى يمد عمرهم لغرض أن يكونوا فى طغيانهم يعمهون وذلك يفيد الاشكال أجاب القاضى عن ذلك بأنه ليس المراد أنه تعالى يمد عمرهم لغرض أن يكونوا فى الطغيان ، بل المراد انه تعالى يبقيهم ويلطف بهم فى الطاعة فيأبون إلا أن يعمهوا . واعلم أن الكلام فى هذا الباب تقدم فى قوله (ختم الله على قلوبهم) فلا فائدة فى الاعادة . وأعلم أن الطغيان هو الغلو فى الكفر ومجاوزة الحد فى العتو ، قال تعالى (إنا لما طغى الماء) أى جاوز قدره ، وقال (اذهب إلى فرعون إنه طغى) أى أسرف وتجاوز الحد وقرأ زيد بن على فى طغيانهم بالكسر وهما لغتان كلقيان ولقيان ، والعمه مثل العمى الا أن العمى عام فى البصر والرأى والعمه فى الرأى خاصة ، وهو التردد والتحير لا يدرى أين يتوجه

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ . مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ

قوله تعالى ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾ واعلم أن اشتراء الضلالة بالهدى اختيارها عليه واستبدالها به ، فإن قيل كيف اشتروا الضلالة بالهدى وما كانوا على هدى قلنا جعلوا لتمكنهم منه كأنه فى أيديهم فاذا تركوه ومالوا إلى الضلالة فقد استبدلوها به ، والضلالة الجور والخروج عن القصد وفقد الاهتداء ، فاستعير للذهاب عن الصواب فى الدين ، أما قوله (فما ربحت تجارتهم) فالمعنى أنهم ما ربحوا فى تجارتهم ، وفيه سؤالان السؤال الأول : كيف أسند الخسران إلى التجارة وهو لأصحابها ؟ الجواب : هو من الاسناد المجازى وهو أن يسند الفعل إلى شىء يتلبس بالذى هو فى الحقيقة له كما تلبست التجارة بالمشترى . السؤال الثانى : هب أن شراء الضلالة بالهدى وقع مجازاً فى معنى الاستبدال فما معنى ذكر الربح والتجارة وما كان ثم مبايعة على الحقيقة والجواب : هذا مما يقوى أمر المجاز ويحسنه كما قال الشاعر :

ولما رأيت النسر عز ابن دأية وعشش فى وكريه جاش له صدرى

لما شبه الشيب بالنسر ، والشعر الفاحم بالغراب أتبعه بذكر التعشيش والوكر فكذا ههنا لما ذكر سبحانه الشراء أتبعه ما يشاكله ويواخيه ، تمثيلا لخسارتهم وتصويراً لحقيقته . أما قوله (وما كانوا مهتدين) فالمعنى أن الذى تطلبه التجار فى متصرفاتهم أمران : سلامة رأس المال والربح ، وهؤلاء قد أضاعوا الأمرين لأن رأس مالهم هو العقل الخالى عن المانع ، فلما اعتقدوا هذه الضلالات صارت تلك العقائد الفاسدة الكسبية مانعة من الاشتغال بطلب العقائد الحقة . وقال قتادة : انتقلوا من الهدى إلى الضلالة ، ومن الطاعة إلى المعصية ، ومن الجماعة إلى التفرقة ومن الأمن إلى الخوف ، ومن السنة إلى البدعة ، والله أعلم

قوله تعالى ﴿ مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون ﴾

اعلم أنا قبل الخوض فى تفسير ألفاظ هذه الآية نتكلم فى شيئين . أحدها : أن المقصود من ضرب الأمثال أنها تؤثر فى القلوب مالا يؤثره وصف الشىء فى نفسه ، وذلك لأن الغرض من المثل تشبيه الخفى بالجلى ، والغائب بالشاهد ، فيتأكد الوقوف على ماهيته ، ويصير الحس مطابقا للعقل وذلك فى نهاية الايضاح ، ألا ترى أن الترغيب إذا وقع فى الايمان مجردا عن ضرب مثل له

لم يتأكد وقوعه فى القلب كما يتأكد وقوعه إذا مثل بالنور ، وإذا زهد فى الكفر بمجرد الذكر لم يتأكد قبحه فى العقول كما يتأكد إذا مثل بالظلمة ، وإذا أخبر بضعف أمر من الأمور وضرب مثله بنسج العنكبوت كان ذلك أبلغ فى تقرير صورته من الاخبار بضعفه مجردا ، ولهذا اكثر الله تعالى فى كتابه المبين وفى سائر كتبه أمثاله ، قال تعالى (وتلك الأمثال نضربها للناس) ومن سور الانجيل سورة الأمثال ، وفى الآية مسائل : —

﴿ المسألة الأولى ﴾ المثل فى أصل كلامهم بمعنى المثل وهو النظير ، ويقال مثل ومثل ومثيل كشبه وشبه وشبيه ، ثم قيل للقول الثائر الممثل مضر به بمورده : مثل ، وشرطه أن يكون قولا فيه غرابة من بعض الوجوه

﴿ المسألة الثانية ﴾ أنه تعالى لما بين حقيقة صفات المنافقين عقبها بضرب مثلين زيادة فى الكشف والبيان . أحدهما : هذا المثل وفيه إشكالات . أحدها : أن يقال : ماوجه التمثيل بمن أعطى نورا ثم سلب ذلك النور منه مع أن المنافق ليس له نور . وثانيها : أن يقال : ان من استوقد نارا فأضاءت قليلافقد انتفع بها وبنورها ثم حرم ، فأما المنافقون فلا انتفاع لهم البتة بالإيمان فما وجه التمثيل ؟ وثالثها : أن مستوقد النار قد اكتسب لنفسه النور ، والله تعالى ذهب بنوره وتركه فى الظلمات ، والمنافق لم يكتسب خيرا وما حصل له من الخيبة والحيرة فقد أتى فيه من قبل نفسه ، فما وجه التشبيه ؟ والجواب : أن العلماء ذكروا فى كيفية التشبيه وجوها . أحدها : قال السدى : ان ناسا دخلوا فى الاسلام عند وصوله عليه السلام إلى المدينة ثم إنهم نافقوا ، والتشبيه ههنا فى نهاية الصحة لأنهم بايمانهم أولا اكتسبوا نورا ثم بنفاقهم ثانيا أبطلوا ذلك النور ووقعوا فى حيرة عظيمة فإنه لاحيرة أعظم من حيرة الدين لأن المتحير فى طريقه لأجل الظلمة لايخسر إلا القليل من الدنيا ، وأما المتحير فى الدين فإنه يخسر نفسه فى الآخرة أبد الآبدين . وثانيها : إن لم يصح ماقاله السدى بل كانوا منافقين أبدا من أول أمرهم فههنا تأويل آخر ذكره الحسن رحمه الله ، وهو أنهم لما أظهروا الاسلام فقد ظفروا بحقن دمائهم وسلامة أموالهم عن الغنيمة وأولادهم عن السبي وظفروا بغنائم الجهاد وسائر أحكام المسلمين ، وعد ذلك نوراً من أنوار الإيمان ، ولما كان ذلك بالاضافة إلىالعذاب الدائم قليلا قدرت شبههم بمستوقد النارالذى انتفع بضوئها قليلا ثم سلب ذلك فدامت حيرته وحسرته للظلمة التى جاءته فى أعقاب النور ، فكان يسير انتفاعهم فى الدنيا يشبه النوروعظيم ضررهم فى الآخرة يشبه الظلمة . وثالثها : أن نقول ليس وجه التشبيه أن للمنافق نوراً ، بل وجه التشبيه بهذا المستوقد أنه لما زال النور عنه تحير ، والتحير فيمن كان فى نور ثم زال عنه أشد من تحير سالك الطريق فى ظلمة مستمرة ، لكنه تعالى ذكر النور فى مستوقد النار لكى يصح أن يوصف بهذه الظلمة الشديدة ، لا أن وجه التشبيه بمجمع النور والظلمة . ورابعها : أن الذى أظهروه يوهم أنه من باب النور الذى ينتفع به ، وذهاب النور هو مايظهره لأصحابه من الكفر والنفاق ، ومن قال بهذا قال إن المثل إنما عطف على قوله (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا

آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم) فالنار مثل لقولهم « آمنا » وذهابه مثل لقولهم للكفار « إنا معكم » فإن قيل وكيف صار مايظهره المنافق من كلمة الإيمان مثلا بالنور وهو حين تكلم بها أضمر خلافها ؟ قلنا إنه لو ضم إلى القول اعتقاداً له وعملا به لأتم النور لنفسه ، ولكنه لما لم يفعل لم يتم نوره ، وإنما سمى مجرد ذلك القول نوراً لأنه قول حق فى نفسه . وخامسها : يجوز أن يكون استيقاد النار عبارة عن إظهار المنافق كلمة الإيمان وإنما سماه نوراً لأنه يتزين به ظاهره فيهم ويصير ممدوحا بسببه فيما بينهم ، ثم إن الله تعالى يذهب ذلك النور بهتك ستر المنافق بتعريف نبيه والمؤمنين حقيقة أمره فيظهر له اسم النفاق بدل ما يظهر منه من اسم الإيمان فبقى فى ظلمات لايبصر ، إذ النور الذى كان له قبل قد كشف الله أمره فزال وسادسها : أنهم لما وصفوا بأنهم اشتروا الضلالة بالهدى عقب ذلك بهذا التمثيل ليمثل هداهم الذى باعوه بالنار المضيئة ماحول المستوقد ، والضلالة التى اشتروها وطبع بها على قلوبهم بذهاب الله بنورهم وتركه إياهم فى الظلمات . وسابعها : يجوز أن يكون المستوقد ههنا مستوقد نار لايرضاها الله تعالى ، والغرض تشبيه الفتنة التى حاول المنافقون إثارتها بهذه النار ، فإن الفتنة التى كانوا يثيرونها كانت قليلة البقاء ، ألا ترى إلى قوله تعالى (كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله) وثامنها : قال سعيد بن جبير : نزلت فى اليهود وانتظارهم لخروج الرسول الله صلى الله عليه وسلم واستفتاحهم به على مشركى العرب ، فلما خرج كفروا به فكان انتظارهم لمحمد صلى الله عليه وسلم كإيقاد النار ، وكفرهم به بعد ظهوره كزوال ذلك النور .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فأما تشبيه الإيمان بالنور والكفر بالظلمة فهو فى كتاب الله تعالى كثير ، والوجه فيه أن النور قد بلغ النهاية فى كونه هاديا إلى المحجة وإلى طريق المنفعة وإزالة الحيرة وهذا حال الإيمان فى باب الدين ، فشبه ماهو النهاية فى إزالة الحيرة ووجدان المنفعة فى باب الدين بما هو الغاية فى باب الدنيا ، وكذلك القول فى تشبيه الكفر بالظلمة ، لأن الضال عن الطريق المحتاج إلى سلوكه لا يرد عليه من أسباب الحرمان والتحير أعظم من الظلمة ، ولا شىء كذلك فى باب الدين أعظم من الكفر ، فشبه تعالى أحدهما بالآخر ، فهذا هو الكلام فيما هو المقصود الكلى من هذه الآية ، بقيت ههنا أسئلة وأجوبة تتعلق بالتعلق بالتفاصيل : السؤال الأول : قوله تعالى (مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً) يقتضى تشبيه مثلهم بمثل المستوقد ، فما مثل المنافقين ومثل المستوقد حتى شبه أحدهما بالآخر ؟ والجواب : استعير المثل للقصة أو للصفة إذا كان لها شأن وفيها غرابة ، كأنه قيل قصتهم العجيبة كقصة الذى استوقد نارا ، وكذا قوله (مثل الجنة التى وعد المتقون) أى فيما قصصنا عليك من العجائب قصة الجنة العجيبة (ولله المثل الأعلى) أى الوصف الذى له شأن من العظمة والجلالة (ومثلهم فى التوراة) أى وصفهم وشأنهم المتعجب منه ولما فى المثل من معنى الغرابة قالوا : فلان مثله فى الخير والشر ، فاشتقوا

منه صنعة للعجيب الشأن . السؤال الثانى : كيف مثلت الجماعة بالواحد ؟ والجواب من وجوه أحدها : أنه يجوز فى اللغة وضع الذى موضع الذين كقوله (وخضتم كالذى خاضوا) وإنما جاز ذلك لأن « الذى » لكونه وصلة إلى وصف كل معرفة بجملة وكثرة وقوعه فى كلامهم ، ولكونه مستطالا بصلته فهو حقيق بالتخفيف ، ولذلك أنهكوه بالحذف فحذفوا ياءه ثم كسرته ثم اقتصروا فيه على اللام وحدها فى أسماء الفاعلين والمفعولين . وثانيها : أن يكون المراد جنس المستوقدين أو أريد الجمع أو الفوج الذى استوقد نارا . وثالثها ، وهو الأقوى : أن المنافقين وذواتهم لم يشبهوا بذات المستوقد حتى يلزم منه تشبيه الجماعة بالواحد وإنما شبهت قصتهم بقصة المستوقد . ومثله قوله تعالى (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار) وقوله (ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت) ورابعها : المعنى ومثل كل واحد منهم كقوله (يخرجكم طفلا) أى يخرج كل واحد منكم . السؤال الثالث : ما الوقود ؟ وما النار ؟ وما الاضاءة ؟ وما النور ؟ ما الظلمة ؟ الجواب : أما وقود النار فهو سطوعها وارتفاع لهبها ، وأما النار فهو جوهر لطيف مضىء حار محرق ، واشتقاقها من « نار ينور » إذا نفر ؛ لأن فيها حركة واضطرابا ، والنور مشتق منها وهو ضوؤها ، والمنار العلامة ، والمنارة هى الشىء الذى يؤذن عليه . ويقال أيضا للشىء الذى يوضع السراج عليه ، ومنه النورة لأنها تظهر البدن والاضاءة فرط الانارة ، ومصداق ذلك قوله تعالى (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا) و « أضاء » يرد لازما ومتعديا . تقول : أضاء القمر الظلمة ، وأضاء القمر بمعنى استضاء قال الشاعر : —

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم   دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه

وأما ماحول الشىء فهو الذى يتصل به ، تقول دار حوله وحواليه ، والحول السنة لأنها يحول ، وحال عن العهد أى تغير ، وحال لونه أى تغير لونه ، والحوالة انقلاب الحق من شخص إلى شخص ، والمحاولة طلب الفعل بعد أن لم يكن طالبا له ، والحول انقلاب العين ، والحول الانقلاب ، قال الله تعالى (لا يبغون عنها حولا) والظلمة عدم النور عما من شأنه أن يستنير ، والظلمة فى أصل اللغة عبارة عن النقصان قال الله تعالى (آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا) أى لم تنقص وفى المثل : من أشبه أباه فما ظلم ، أى فما نقص حق الشبه ، والظلم الثلج لأنه ينتقص سريعا والظلم ماء السن وطراوته وبياضه تشبيها له بالثلج . السؤال الرابع : أضاءت متعدية أم لا ؟ الجواب : كلاهما جائز ، يقال : أضاءت النار بنفسها وأضاءت غيرها وكذلك أظلم الشىء بنفسه وأظلم غيره أى صيره مظلما ، وههنا الأقرب أنها متعدية ، ويحتمل أن تكون غير متعدية مستندة إلى ما حوله والتأنيث للحمل على المعنى لأن ما حول المستوقد أماكن وأشياء ، ويعضده قراءة ابن أبى عبلة « ضاء » السؤال الخامس : هلا قيل ذهب الله بضوئهم لقوله (فلما أضاءت) ؟ الجواب : ذكر النور أبلغ لأن الضوء فيه دلالة على الزيادة ، فلو قيل ذهب الله بضوئهم لأوهم

صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ . أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ

ذهاب الكمال وبقاء ما يسمى نوراً والغرض إزالة النور عنهم بالكلية . ألا ترى كيف ذكر عقيبه (وتركهم فى ظلمات لا يبصرون) والظلمة عبارة عن عدم النور ، وكيف جمعها ، وكيف نكرها وكيف أتبعها ما يدل على أنها ظلمة خالصة وهو قوله (لا يبصرون) السؤال السادس : لم قال (ذهب الله بنورهم) ولم يقل أذهب الله نورهم والجواب : الفرق بين أذهب وذهب به أن معنى أذهبه أزاله وجعله ذاهبا ، ويقال ذهب به إذا استصحبه ، ومعنى به معه ، وذهب السلطان بماله أخذه قال تعالى (فلما ذهبوا به) (إذا لذهب كل إله بما خلق) والمعنى أخذ الله نورهم وأمسكه (وما يمسك فلا مرسل له) فهو أبلغ من الاذهاب وقرأ اليمانى (أذهب الله نورهم) . السؤال السابع : ما معنى (وتركهم) ؟ والجواب : ترك إذا علق بواحد فهو بمعنى طرح وإذا علق بشيئين كان بمعنى صير ، فيجرى مجرى أفعال القلوب ومنه قوله (وتركهم فى ظلمات) أصله هم فى ظلمات ثم دخل ترك فنصبت الجزءين . السؤال الثامن : لم حذف احد المفعولين من لا يبصرون ؟ الجواب : أنه من قبيل المتروك الذى لا يلتفت إلى إخطاره بالبال ، لا من قبيل المقدر المنوى ، كأن الفعل غير متعد أصلا

قوله تعالى ﴿ صم بكم عمى فهم لا يرجعون ﴾

اعلم أنه لما كان المعلوم من حالهم أنهم كانوا يسمعون وينطقون ويبصرون امتنع حمل ذلك على الحقيقة فلم يبق إلا تشبيه حالهم لشدة تمسكهم بالعناد واعراضهم عما يطرق سمعهم من القرآن وما يظهره الرسول من الأدلة والآيات بمن هو أصم فى الحقيقة فلا يسمع ، وإذا لم يسمع لم يتمكن من الجواب ، فلذلك جعله بمنزلة الأبكم ، وإذا لم ينتفع بالأدلة ولم يبصر طريق الرشد فهو بمنزلة الأعمى ، أما قوله (فهم لا يرجعون) ففيه وجوه . أحدها : أنهم لا يرجعون عما تقدم ذكره وهو التمسك بالنفاق الذى لأجل تمسكهم به وصفهم الله تعالى بهذه الصفات فصار ذلك دلالة على أنهم يستمرون على نفاقهم أبدا . وثانيها : أنهم لا يعودون إلى الهدى بعد أن باعوه ، وعن الضلالة بعد أن اشتروها . وثالثها : أراد أنهم بمنزلة المتحيرين الذين بقوا خامدين فى مكانهم لا يبرحون ، ولا يدرون أيتقدمون أم يتأخرون وكيف يرجعون إلى حيث ابتدأوا منه

قوله تعالى ﴿ أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت

وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَـٰفِرِينَ . يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ كُلَّمَـا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير ﴾

إعلم أن هذا هو المثل الثانى للمنافقين وكيفية المشابهة من وجوه . أحدها : أنه إذا حصل السحاب الذى فيه الظلمات والرعد والبرق واجتمع مع ظلمة السحاب ظلمة الليل وظلمة المطر عند ورود الصواعق عليهم يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت وأن البرق يكاد يخطف أبصارهم ، فإذا أضاء لهم مشوا فيه ، وإذا ذهب بقوا فى ظلمة عظيمة فوقفوا متحيرين لأن من أصابه البرق فى هذه الظلمات الثلاث ثم ذهب عنه تشتد حيرته . وتعظم الظلمة فى عينه ، وتكون له مزية على من لم يزل فى الظلمة ، فشبه المنافقين فى حيرتهم وجهلهم بالدين بهؤلاء الذين وصفهم ، إذ كانوا لا يرون طريقا ولا يهتدون ، وثانيها : أن المطر وإن كان نافعا إلا أنه لما وجد فى هذه الصورة مع هذه الأحوال الضارة صار النفع به زائلا ، فكذا إظهار الإيمان نافع للمنافق لو وافقه الباطن . فإذا فقد منه الاخلاص وحصل معه النفاق صار ضررا فى الدين . وثالثها : أن من نزل به هذه الأمور مع الصواعق ظن المخلص منها أن يجعل أصابعه فى أذنيه وذلك لا ينجيه مما يريده تعالى به من هلاك وموت ، فلما تقرر ذلك فى العادات شبه تعالى حال المنافقين فى ظنهم أن اظهارهم للمؤمنين ما أظهروه ينفعهم ، مع أن الأمر فى الحقيقة ليس كذلك بما ذكر ورابعها : أن عادة المنافقين كانت هى التأخر عن الجهاد فرارا من الموت والقتل ، فشبه الله حالهم فى ذلك بحال من نزلت هذه الأمور به وأراد دفعها بجعل اصبعيه فى أذنيه . وخامسها : أن هؤلاء الذين يجعلون أصابعهم فى أذانهم وإن تخلصوا عن الموت فى تلك الساعة فإن الموت والهلاك من ورائهم لامخلص لهم منه فكذلك حال المنافقين فى أن الذى يخوضون فيه لا يخلصهم من عذاب النار . وسادسها : أن من هذا حاله فقد بلغ النهاية فى الحيرة لاجتماع أنواع الظلمات وحصول أنواع المخافة ، وحصل فى المنافقين نهاية الحيرة فى باب الدين ونهاية الخوف فى الدنيا لأن المنافق يتصور فى كل وقت أنه لو حصل الوقوف على باطنه لقتل ، فلا يكاد الوجل والخوف يزول عن قلبه مع النفاق . وسابعها : المراد من الصيب هو الإيمان والقرآن ، والظلمات والرعد والبرق هو الأشياء الشاقة على المنافقين ، وهى التكاليف الشاقة من الصلاة والصوم وترك الرياسات

والجهاد مع الآباء والأمهات ، وترك الأديان القديمة ، والانقياد لمحمد صلى الله عليه وسلم مع شدة استنكافهم عن الانقياد له فكما أن الانسان يبالغ فى الاحتراز عن المطر الصيب الذى هو أشد الأشياء نفعا بسبب هذه الأمور المقارنة ، فكذا المنافقون يحترزون عن الإيمان والقرآن بسبب هذه الأمور المقارنة ، والمراد من قوله (كلما أضاء لهم مشوا فيه) أنه متى حصل لهم شىء من المنافع ، وهى عصمة اموالهم ودمائهم وحصول الغنائم لهم فانهم يرغبون فى الدين (وإذا أظلم عليهم قاموا) أى متى لم يجدوا شيئا من تلك المنافع فحينئذ يكرهون الإيمان ولا يرغبون فيه ، فهذه الوجوه ظاهرة فى التشبيه . وبقى على الآية أسئلة وأجوبة . السؤال الأول : أى التمثيلين أبلغ ؟ والجواب : التمثيل الثانى ، لأنه أدل على فرط الحيرة وشدة الأغاليظ ؛ ولذلك تراهم يتدرجون فى نحو هذا من الأهون إلى الأغلظ . السؤال الثانى : لم عطف أحد التمثيلين على الآخر بحرف الشك ؟ الجواب من وجوه . أحدها : لأن « أو » فى أصلها تساوى شيئين فصاعدا فى الشك ، ثم اتسع فيها فاستعيرت للتساوى فى غير الشك . كقولك : جالس الحسن أو ابن سيرين تريد أنهما سيان فى استصواب أن تجالس أيهما شئت ، ومنه قوله تعالى (ولا تطع منهم آثما أو كفورا) أى أن الآثم والكفور متساويان فى وجوب عصيانهما ، فكذا قوله (أو كصيب) معناه أن كيفية المنافقين شبيهة بكيفيتى هاتين القصتين ، فبأيتهما مثلتها فأنت مصيب ، وإن مثلتها بهما جميعا فكذلك . وثانيها : إنما ذكر تعالى ذلك لأن المنافقين قسمان بعضهم يشبهون أصحاب النار ، وبعضهم يشبهون أصحاب المطر ، ونظيره قوله تعالى (وقالوا كونوا هوداً أونصارى) وقوله (وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أوهم قائلون) وثالثها أوبمعنى بل قال تعالى (وأرسلناه إلى مائه ألف أويزيدون) ورابعها : أوبمعنى الواو كأنه قال وكصيب من السماء نظيره قوله تعالى (أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم) وقال الشاعر :

وقد زعمت ليلى بأنى فاجر لنفسى تقاها أو عليها فجورها

وهذه الوجوه مطردة فى قوله (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة) السؤال الثالث : المشبه بالصيب والظلمات والرعد والبرق والصواعق ماهو ؟ الجواب : لعلماء البيان ههنا قولان . أحدهما : أن هذا تشبيه مفرق ومعناه أن يكون المثل مركبا من أمور والممثل يكون أيضا مركبا من أمور ويكون كل واحد من المثل شبيها بكل واحد من الممثل ، فههنا شبه دين الاسلام بالصيب ، لأن القلوب تحيابه حياة الأرض بالمطر ، وما يتعلق به من شبهات الكفار بالظلمات ، وما فيه من الوعد والوعيد بالبرق والرعد ؛ ومايصيب الكفرة من الفتن من جهة أهل الاسلام بالصواعق ، والمعنى أو كمثل ذوى صيب ، والمراد كمثل قوم أخذتهم السماء على هذه الصفة : والقول الثانى : أنه تشبيه مركب ، وهو الذى يشبه فيه احدى الجملتين بالأخرى فى أمر

من الأمور وإن لم تكن آحاد احدى الجملتين شبيهة بآحاد الجملة الأخرى وههنا المقصود تشبيه حيرة المنافقين فى الدنيا والدين بحيرة من انطفت ناره بعد إيقادها ، وبحيرة من أخذته السماء فى الليلة المظلمة مع رعد وبرق ، فان قيل الذى كنت تقدره فى التشبيه المفرق من حذف المضاف وهو قولك : أو كمثل ذوى صيب هل يقدر مثله فى المركب ، قلنا لولا طلب الراجع فى قوله (يجعلون أصابعهم فى آذانهم) ما يرجع إليه لما كان بنا حاجة إلى تقديره : السؤال الرابع ما الصيب ؟ الجواب : انه المطر الذى يصوب ، أى ينزل من صاب يصوب إذا نزل ومنه صوب رأسه إذا خفضه وقيل إنه من صاب يصوب إذا قصد ، ولا يقال صيب إلا للمطر الجود . كان عليه الصلاة والسلام يقول « اللهم اجعله صيبا هنيئا » أى مطراً جودا وأيضا يقال للسحاب صيب قال الشماخ :

* وأسحم دان صادق الوعد صيب *

وتنكير صيب لأنه اريد نوع من المطر شديد هائل ، كما تنكرت النار فى التمثيل الأول ، وقرىء أو كصائب وصيب أبلغ : والسماء هذه المظلة . السؤال الخامس : قوله من السماء . ما الفائدة فيه والصيب لا يكون إلا من السماء ؟ الجواب من وجهين . الأول : لو قال . أو كصيب فيه ظلمات . احتمل أن يكون ذلك الصيب نازلا من بعض جوانب السماء دون بعض ، أما لما قال من السماء دل على أنه عام مطبق آخذ بآفاق السماء فكما حصل فى لفظ الصيب مبالغات من جهة التركيب والتنكير أيد ذلك بأن جعله مطبقا . الثانى : من الناس من قال : المطر إنما يحصل من ارتفاع أبخرة رطبة من الأرض إلى الهواء فتنعقد هناك من شدة برد الهواء ثم تنزل مرة أخرى ، فذاك هو المطر ثم إن الله سبحانه وتعالى أبطل ذلك المذهب ههنا بأن بين أن ذلك الصيب نزل من السماء ، وكذا قوله (وأنزلنا من السماء ماء طهوراً) وقوله (وينزل من السماء من جبال فيها من برد) السؤال السادس ما الرعد والبرق ؟ الجواب الرعد الصوت الذى يسمع من السحاب كأن أجرام السحاب تضطرب وتنتقض وترتعد إذا أخذتها الريح فصوت عند ذلك من الارتعاد والبرق الذى يلمع من السحاب من برق الشىء بريقا إذا لمع . السؤال السابع : الصيب هو المطر والسحاب فأيهما أريد فما ظلماته ؟ الجواب : أما ظلمات السحاب فإذا كان أسحم مطبقا فظلمته سحمته وتطبيقه مضمومة إليهما ظلمة الليل ، وأما ظلمة المطر فظلمته تكاثفه وانسجامه بتتابع القطر وظلمته اظلال الغمامة مع ظلمة الليل . السؤال الثامن : كيف يكون المطر مكانا للرعد والبرق وإنما مكانهما السحاب . الجواب : لما كان التعليق بين السحاب والمطر شديداً جاز إجراء أحدهما مجرى الآخر فى الأحكام . السؤال التاسع : هلا قيل رعود وبروق كما قيل ظلمات ؟ الجواب : الفرق أنه حصلت أنواع مختلفة من الظلمات على الاجتماع فاحتيج إلى صيغة الجمع ، أما الرعد فإنه نوع واحد ، وكذا البرق ولا يمكن اجتماع أنواع الرعد والبرق فى السحاب الواحد فلا جرم لم يذكر فيه لفظ الجمع . السؤال العاشر : لم جاءت هذه الأشياء منكرات . الجواب : لأن المراد أنواع منها ، كأنه قيل فيه ظلمات داجية ورعد قاصف

وبرق خاطف . السؤال الحادى عشر : إلى ماذا يرجع الضمير فى يجعلون . الجواب : إلى أصحاب الصيب وهو وإن كان محذوفا فى اللفظ لكنه باق فى المعنى ولا محل لقوله يجعلون لكونه مستأنفاً لأنه لما ذكر الرعد والبرق على مايؤذن بالشدة والهول فكأن قائلا قال فكيف حالهم مع مثل ذلك الرعد فقيل يجعلون أصابعهم فى آذانهم ثم قال فكيف حالهم مع مثل ذلك البرق فقال (يكاد البرق يخطف أبصارهم) السؤال الثانى عشر: رءوس الأصابع هى التى تجعل فى الآذان فهلا قيل أناملهم؟ الجواب : المذكور وإن كان هو الأصبع لكن المراد بعضه كما فى قوله (فاقطعوا أيديهما) المراد بعضهما . السؤال الثالث عشر : ماالصاعقة ؟ الجواب : إنها قصف رعد ينقض منها شعلة من نار وهى نار لطيفة قوية لاتمر بشىء إلا أتت عليه إلا أنها مع قوتها سريعة الخمود . السؤال الرابع عشر : ماإحاطة الله بالكافرين . الجواب : إنه مجاز والمعنى أنهم لايفوتونه كما لايفوت المحاط به المحيط به حقيقة ثم فيه ثلاثة أقوال . أحدها أنه عالم بهم قال تعالى وأن الله قد أحاط بكل شىء علما) وثانيها : قدرته مستولية عليهم (والله من ورائهم محيط) وثالثها : يهلكهم من قوله تعالى (إلا أن يحاط بكم) السؤال الخامس عشر : ماالخطف . الجواب : أنه الأخذ بسرعة ، وقرأ مجاهد يخطف بكسر الطاء والفتح أفصح وعن ابن مسعود يختطف وعن الحسن يخطف بفتح الياء والخاء وأصله يختطف ، وعنه يخطف بكسرهما على اتباع الياء الخاء ، وعن زيد بن على : يخطف من خطف وعن أبى يتخطف من قوله (ويتخطف الناس من حولهم) أما قوله تعالى (كلما أضاء لهم مشوا فيه) فهو استئناف ثالث كأنه جواب لمن يقول كيف يصنعون فى حالتى ظهور البرق وخفائه والمقصود تمثيل شدة الأمر على المنافقين بشدته على أصحاب الصيب وما هم فيه من غاية التحير والجهل بما يأتون وما يذرون إذا صادفوا من البرق خفقة مع خوف أن يخطف أبصارهم انتهزوا تلك الخفقة فرصة فخطوا خطوات يسيرة ، فاذا خفى وفتر لمعانه بقوا واقفين متقيدين عن الحركة ، ولو شاء الله لزاد فى قصف الرعد فأصمهم ، وفى ضوء البرق فأعماهم . وأضاء إما متعد بمعنى كلما نور لهم مسلكا أخذوه ، فالمفعول محذوف ، وإما غير متعد بمعنى كلما لمع لهم مشوا فى مطرح نوره ، ويعضده قراءة ابن أبى عبلة « كلما ضاء » فان قيل كيف قال مع الاضاءة كلما ، ومع الاظلام إذا : قلنا لأنهم حراص على إمكان المشى ، فكلما صادفوا منه فرصة انتهزوها وليس كذلك التوقف ، والأقرب فى أظلم أن يكون غير متعد وهو الظاهر ، ومعنى قاموا وقفوا وثبتوا فى مكانهم ، ومنه قامت السوق ، وقام الماء جمد ، ومفعول شاء محذوف لأن الجواب يدل عليه والمعنى ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بهما وههنا مسألة ، وهى أن المشهور أن « لو » تفيد انتفاء الشىء لا نتفاء غيره ، ومنهم من أنكر ذلك وزعم أنها لا تفيد إلا الربط. واحتج عليه بالآية والخبر ، أما الآية فقوله تعالى (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) فلو أفادت كلمة لو انتفاء الشىء لا انتفاء غيره للزم التناقض لأن قوله (ولو علم الله فيهم

خيرا لأسمعهم يقتضى أنه ماعلم فيهم خيرا وما أسمعهم وقوله (ولوأسمعهم لتولوا وهم معرضون) يفيدأنه تعالى ماأسمعهم وأنهم ماتولوا ولـكن عدم التولى خير فلزم أن يكون قد علم فيهم خيرا وماعلم فيهم خيراً وأما الخبر فقوله عليه السلام « نعم الرجل صهيب لولم يخف الله لم يعصه » فعلى مقتضى قولهم يلزم أنه خاف الله وعصاه وذلك متناقض ، فقد علمنا أن كلمة « لو » لاتفيد إلا الربط والله أعلم

وأما قوله ﴿ إن الله على كل شىء قدير ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ منهم من استدل به على أن المعدوم شىء قال لأنه تعالى أثبت القدرة على الشىء ، والموجود لا قدرة عليه لاستحالة إيجاد الموجود ، فالذى عليه القدرة معدوم وهو شىء فالمعدوم شىء . والجواب : لوصح هذا الكلام لزم أن مالا يقدر الله عليه لا يكون شيئا ، فالموجود لما لم يقدرالله عليه وجب أن لا يكون شيئاً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج جهم بهذه الآية على أنه تعالى ليس بشىء ، قال لأنها تدل على أن كل شىء مقدور لله والله تعالى ليس بمقدورله ، فوجب أن لا يكون شيئاً ، واحتج أيضاً على ذلك بقوله تعالى (ليس كمثله شىء) قال لو كان هو تعالى شيئاً لكان تعالى مثل نفسه فكان يكذب قوله (ليس كمثله شىء) فوجب أن لا يكون شيئا حتى لا تتناقض هذه الآية ، واعلم أن هذا الخلاف فى الأسم ، لأنه لاواسطة بين الموجود والمعدوم ، واحتج أصحابنا بوجهين . الأول : قوله تعالى (قل أى شىء أكبر شهادة قل الله) والثانى قوله تعـالى (كل شىء هالك إلا وجهه) والمستثنى داخـل فى المستثنى منه فيجب أن يكون شيئاً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على أن مقدور العبد مقدور لله تعالى خلافا لأبى عـلى وأبى هاشم ، وجه الاستدلال أن مقـدور العبد شىء ، وكل شىء مقدور لله تعـالى بهذه الآية فيلزم أن يكون مقدور العبد مقدورا لله تعالى .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية عـلى أن المحدث حال حدوثه مقدور لله خلافا للمعـتزلة ، فإنهم يقولون : الاستطاعة قبل الفعل محال ، فالشىء إنمـا يكون مقدوراً قبل حـدوثه ، وبيان استدلال الأصحاب أن المحدث حال وجوده شىء ، وكل شىء مقدور ، وهذا الدليل يقتضى كون الباقى مقدوراً ترك العمل به فبقى معمولا به فى محل النزاع ، لأنه حال البقاء مقدوره ، على معنى أنه تعالى قادر على إعدامه ، أما حال الحدوث ، فيستحيل أن يقدرالله على إعدامه لاستحالة أن يصير معدوما فى أول زمان وجوده ، فلم يبق إلا أن يكون قادراً على إيجاده .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ تخصيص العام جائز فى الجملة ، وأيضا تخصيص العام جائز بدليل العقل ، لأن قوله (والله على كل شىء قدير) يقتضى أن يكون قادراً على نفسه ثم خص بدليل العقل ، فإن قيل إذا كان اللفظ موضوعا للـكل ثم تبين أنه غير صادق فى الـكل كان هذا كذبا ، وذلك يوجب الطعن فى القرآن ، قلنا : لفظ الـكل كما أنه يستعمل فى المجموع ، فقد يستعمل مجازاً فى الأكثر ،

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ

وإذا كان ذلك مجازاً مشهوراً فى اللغة لم يكن استعمال اللفظ فيه كذباً والله أعلم .

القول فى إقامة الدلالة على التوحيد والنبوة والمعاد

أما التوحيد فقوله تعالى ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ۞ الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله انداداً وأنتم تعلمون ﴾

اعلم أن فى هذه الآيات مسائل :—

﴿ المسألة الأولى ﴾ أن الله تعالى لما قدم أحكام الفرق الثلاثة ، أعنى المؤمنين والكفار والمنافقين . أقبل عليهم بالخطاب ، وهو من باب الالتفات المذكور فى قوله تعالى (إياك نعبد وإياك نستعين) وفيه فوائد . أحدها : أن فيه مزيد هزوتحريك من السامع كما أنك إذا قلت لصاحبك حاكياً عن ثالث : إن فلانا من قصته كيت وكيت ، ثم تخاطب ذلك الثالث فقلت : يافلان من حقك أن تسلك الطريقة الحميدة فى مجارى أمورك ، فهذا الانتقال من الغيبة إلى الحضور يوجب مزيد تحريك لذلك الثالث . وثانيها : كأنه سبحانه وتعالى يقول . جعلت الرسول واسطة بينى وبينك أولا ، ثم الآن أزيد فى إكرامك وتقريبك ، فأخاطبك من غير واسطة ، ليحصل لك مع التنبيه على الأدلة ، شرف المخاطبة والمكالمة . وثالثها : أنه مشعر بأن العبد إذا كان مشتغلا بالعبودية فإنه يكون أبداً فى الترقى ، بدليل أنه فى هذه الآية ، انتقل من الغيبة إلى الحضور . ورابعها : أن الآيات المتقدمة كانت فى حكاية أحوالهم ، وأما هذه الآيات فإنها أمر وتكليف ، ففيه كلفة ومشقة فلابد من راحة تقابل هذه الكلفة ، وتلك الراحة هى أن يرفع ملك الملوك الواسطة من البين ويخاطبهم بذاته ، كما أن العبد إذا ألزم تكليفاً شاقاً فلو شافهه المولى وقال أريد منك أن تفعل كذا فإنه يصير ذلك الشاق لذيذاً لأجل ذلك الخطاب :

﴿ المسألة الثانية ﴾ حكى عن علقمة والحسن أنه قال : كل شىء فى القرآن (يا أيها الناس) فإنه مكى ، وما كان (يا أيها الذين ءامنوا) فبالمدينة ، قال القاضى : هذا الذى ذكروه إن كان الرجوع فيه إلى النقل فمسلم ، وإن كان السبب فيه حصول المؤمنين بالمدينة على الكثرة دون مكة

فهذا ضعيف ، لأنه يجوز أن يخاطب المؤمنين مرة بصفتهم ، ومرة باسم جنسهم ، وقد يؤمر من ليس يؤمن بالعبادة ، كما يؤمر المؤمن بالاستمرار على العبادة والازدياد منها ، فالخطاب فى الجميع ممكن

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إعلم أن الألفاظ فى الأغلب عبارات دالة على أمور هى : إما الألفاظ أو غيرها ، أما الألفاظ فهى : كالاسم والفعل والحرف ، فان هذه الألفاظ الثلاثة يدل كل واحد منها على شىء ، هو فى نفسه لفظ مخصوص ، وغير الألفاظ : فكالحجر والسماء والأرض ، ولفظ النداء لم يجعل دليلا على شىء آخر ، بل هو لفظ يجرى مجرى عمل يعمله عامل لأجل التنبيه . فأما الذين فسروا قولنا « يازيد » بأنادى زيدا ، أو أخاطب زيداً فهو خطأ من وجوه . أحدها : أن قولنا . أنادى زيداً ، خبر يحتمل التصديق والتكذيب ، وقولنا يازيد ، لايحتملها . وثانيها : أن قولنا يازيد ، يقتضى صيرورة زيد منادى فى الحال ، وقولنا أنادى زيدا ، لايقتضى ذلك ، وثالثها : أن قولنا يازيد يقتضى صيرورة زيد مخاطباً بهذا الخطاب وقولنا أنادى زيداً لا يقتضى ذلك لأنه لا يمتنع أن يخبر إنسانا آخر بأنى أنادى زيداً . ورابعها : أن قولنا أنادى زيدا ، إخبار عن النداء ، والاخبار عن النداء غير النداء ، والنداء هو قولنا يازيد ، فاذن قولنا أنادى زيداً ، غير قولنا يازيد ، فثبت بهذه الوجوه فساد هذا القول . ثم ههنا نكتة نذكرها وهى : أن أقوى المراتب الاسم ، وأضعفها الحرف ، فظن قوم أنه لا يأتلف الاسم بالحرف ، وكذا أعظم الموجودات هو الحق سبحانه وتعالى ، وأضعفها البشر (وخلق الانسان ضعيفا) فقالت الملائكة : أى مناسبة بينهما (أتجعل فيها من يفسد فيها) فقيل قد يأتلف الاسم مع الحرف فى حال النداء ، فكذا البشر يصلح لخدمة الرب حال النداء والتضرع (ربنا ظلمنا أنفسنا ، وقال ربكم ادعونى أستجب لكم)

﴿ المسألة الرابعة ﴾ « ياء » حرف وضع فى أصله لنداء البعيد وإن كان لنداء القريب لكن لسبب أمر مهم جدا ، وأما نداء القريب فله : أى والهمزة ، ثم استعمل فى نداء من سها وغفل وإن قرب تنزيلا له منزلة البعيد . فان قيل فلم يقول الداعى يارب يا ألله (وهو أقرب إليه من حبل الوريد) قلنا هو استبعاد لنفسه من مظان الزلفى وما يقربه إلى منازل المقربين هضما لنفسه وإقرارا عليها بالتنقيص حتى يتحقق الاجابة بمقتضى قوله « أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلى » أو لأجل أن إجابة الدعاء من أهم المهمات للداعى

﴿ المسألة الخامسة ﴾ « أى » وصلة إلى نداء مافيه الألف واللام كما أن « ذو » و « الذى » وصلتان إلى الوصف بأسماء الأجناس ووصف المعارف بالجمل ، وهو اسم مبهم يفتقر إلى ما يزيل إبهامه ، فلا بد وأن يردفه اسم جنس ، أو مايجرى مجراه يتصف به حتى يحصل المقصود بالنداء فالذى يعمل فيه حرف النداء هو أى والاسم التابع له صفة كقولك يا زيد الظريف إلا أن أيالا يستقل بنفسه استقلال زيد فلم ينفك عن الصفة وموصوفها وأما كلمة التنبيه المقحمة بين الصفة وموصوفها ففيها فائدتان . الأولى : معاضدة حرف النداء بتأكيد معناه . والثانية : وقوعها عوضا

بما يستحقه أى من الاضافة وإنما كثر فى كتاب الله تعالى النداء على هذه الطريقة لاستقلاله بهذه التأكيدات والمبالغات فان كل ما نادى الله تعالى به عباده من الأوامر والنواهى ، والوعد والوعيد ، واقتصاص أخبار المتقدمين بأمور عظام ، وأشياء يجب على المستمعين أن يتيقظوا لها مع أنهم غافلون عنها ، فلهذا وجب أن ينادوا بالأبلغ الآكد

﴿ المسألة السادسة ﴾ اعلم أن قوله (يا أيها الناس اعبدوا ربكم) يقتضى أن الله تعالى أمر كل الناس بالعبادة فلو خرج البعض عن هذا الخطاب لكان ذلك تخصيصا للعموم . وههنا أبحاث . البحث الأول : أن لفظ الجمع المعرف بلام التعريف يفيد العموم ، والخلاف فيه مع الأشعرى والقاضى أبى بكر وأبى هاشم ، لنا أنه يصح تأكيده بما يفيد العموم كقوله (فسجد الملائكة كلهم أجمعون) ولو لم يكن اللفظ فى أصله للعموم لما كان قوله (كلهم) تأكيدا بل بيانا ولأنه يصح استثناء كل واحد من الناس عنه والاستثناء يخرج ما لولاه لدخل فوجب أن يفيد العموم وتمام تقريره فى أصول الفقه . البحث الثانى : لما ثبت أن قوله تعالى (يا أيها الناس) يتناول جميع الناس الذين كانوا موجودين فى ذلك العصر فهل يتناول الذين سيوجدون بعد ذلك أم لا ؟ والأقرب أنه لا يتناولهم ، لأن قوله (يا أيها الناس) خطاب مشافهة وخطاب المشافهة مع المعدوم لا يجوز ، وأيضا فالذين سيوجدون بعد ذلك ما كانوا موجودين فى تلك الحالة ، وما لا يكون موجودا لا يكون إنسانا وما لا يكون إنسانا لا يدخل تحت قوله (يا أيها الناس) فان قيل : فوجب أن لا يتناول شىء من هذه الخطابات الذين وجدوا بعد ذلك الزمان وأنه باطل قطعا . قلنا : لو لم يوجد دليل منفصل لكان الامر كذلك إلا أنا عرفنا بالتواتر من دين محمد صلى الله عليه وسلم أن تلك الخطابات ثابتة فى حق من سيوجد بعد ذلك إلى قيام الساعة فلهذه الدلالة المنفصلة حكمنا بالعموم . البحث الثالث : قوله (يا أيها الناس اعبدوا ربكم) أمر للكل بالعبادة فهل يفيد أمر الكل بكل عبادة ؟ الحق لا ، لان قوله اعبدوا معناه ادخلوا هذه الماهية فى الوجود ، فاذا أتوا بفرد من أفراد الماهية فى الوجود فقد أدخلوا الماهية فى الوجود لان الفرد من أفراد الماهية مشتمل على الماهية لان هذه العبادة عبارة عن العبادة مع قيد كونها هذه ومتى وجد المركب فقد وجد قيداه ، فالآتى بفرد من أفراد العبادة آت بالعبادة ، والآتى بالعبادة آت بتمام ما اقتضاه قوله (اعبدوا) وإذا كان كذلك وجب خروجه عن العهدة فان أردنا أن نجعله دالا على العموم نقول : الامر بالعبادة لابد وأن يكون لاجل كونها عبادة لان ترتيب الحكم على الوصف مشعر بعلية الوصف ، لاسيما إذا كان الوصف مناسبا للحكم ، وههنا كون العبادة عبادة يناسب الامر بها ، لما أن العبادة عبارة عن تعظيم الله تعالى وإظهار الخضوع له وكل ذلك مناسب فى العقول ، وإذا ثبت أن كونه عبادة علة للأمر بها وجب فى كل عبادة أن يكون مأمورا بها ، لانه أينما حصلت العلة وجب حصول الحكم لا محالة . البحث الرابع : لقائل أن يقول : قوله (يا أيها الناس اعبدوا) لا يتناول الكفار البتة لان الكفار لا يمكن أن

يكونوا مأمورين بالإيمان ، وإذا امتنع ذلك امتنع أن يكونوا مأمورين بالعبادة ، أما أنه لا يمكن أن يكونوا مأمورين بالإيمان فلأن الامر بمعرفة الله تعالى إما أن يتناوله حال كونه غير عارف بالله تعالى أو حال كونه عارفا بالله تعالى ، أما إن تناوله حال كونه غير عارف بالله فيستحيل أن يكون عارفا بأمر الله تعالى لأن العلم بالصفة مع الجهل بالذات محال فلو تناوله الأمر فى هذه الحالة لكان قد تناوله الأمر فى حال يستحيل منه أن يعرف كونه مأموراً بذلك الأمر ، وذلك تكليف مالا يطاق ، وإن تناوله الأمر بالمعرفة حال كونه عارفا بالله فذالك محال ، لأنه أمر بتحصيل الحاصل . وذلك غير ممكن . فثبت أن الكافر يستحيل أن يكون مأمورا بتحصيل المعرفة ، وإذا استحال ذلك استحال أن يكون مأمورا بالعبادة لأنه إما أن يؤمر بالعبادة قبل المعرفة وهو محال لأن عبادة من لا يعرف ممتنعة أو يؤمر بالعبادة بعد المعرفة إلا أن على هذا التقدير يكون الأمر بالعبادة موقوفا على الأمر بالمعرفة فلما كان الأمر بالمعرفة ممتنعا كان الأمر بالعبادة أيضا ممتنعا ، وأيضا يستحيل أن يكون هذا الخطاب مع المؤمنين ، لأنهم يعبدون الله فأمرهم بالعبادة يكون أمرا بتحصيل الحاصل وهو محال . والجواب : من الناس من قال : الأمر بالعبادة مشروط بحصول المعرفه ، كما أن الأمر بالزكاة مشروط بحصول ملك النصاب ، وهؤلاء هم القائلون بأن المعارف ضرورية ، وأما من لم يقل بذلك استدل بهذه الآية على أن المعارف ليست ضرورية فقال : الأمر بالعبادة حاصل ، والعبادة لا تمكن إلا بالمعرفة ، والأمر بالشىء أمر بما هو من ضرورياته ، كما أن الطهارة إذا لم تصح إلا بإحضار الماء كان إحضار الماء واجبا ، والدهرى لا يصح منه تصديق الرسول إلا بتقديم معرفة الله تعالى ، فوجبت ، والمحدث لا تصح منه الصلاة إلا بتقديم الطهارة فوجبت ، والمودع لا يمكنه رد الوديعة إلا بالسعى إليها ، فكان السعى واجبا ، فكذا ههنا يصح أن يكون الكافر مخاطبا بالعبادة وشرط الاتيان بها الاتيان بالإيمان أولا ثم الاتيان بالعبادة بعد ذلك . بقى لهم : الأمر بتحصيل المعرفة محال ، قلنا هذه المسألة مستقصاة فى الأصول والذى نقول ههنا أن هذا الكلام وإن تم فى كل ما يتوقف العلم يكون الله آمرا على العلم به ، فإنه لا يجرى فيما عدا ذلك من الصفات . فلم لا يجوز ورود الأمر بذلك ؟ سلمنا ذلك فلم لا يجوز أن يقال هذا الأمر يتناول المؤمنين ؟ قوله لأنه يصير ذلك أمرا بتحصيل الحاصل وهو محال ، قلنا لما تعذر ذلك فنحمله إما على الامر بالاستمرار على العبادة أو على الامر بالازدياد منها ، ومعلوم أن الزيادة على العبادة عبادة ، فصح تفسير قوله « اعبدوا » بالزيادة فى العبادة . البحث الخامس : قال منكرو التكليف : لا يجوز ورود الامر من الله تعالى بالتكليف لوجوه . أحدها : أن التكليف إما أن يتوجه على العبد حال استواء دواعيه إلى الفعل أو الترك أو حال رجحان أحدهما على الآخر ، فإن كان الأول فهو محال ، لان فى حال الاستواء يمتنع حصول الترجيح لان الاستواء يناقض الترجيح فالجمع بينهما محال والتكليف بالفعل حال استواء الداعيين تكليف بما لا يطاق ، وإن كان الثانى فالراجح واجب الوقوع ؛ لان المرجوح حال ما كان مساويا للراجح كان ممتنع الوقوع ، وإلا فقد

وقع الممكن لاعن مرجح ، وإذا كان حال الاستواء ممتنع الوقوع فبأن يصير حال المرجوحية ممتنع الوقوع أولى وإذا كان المرجوح ممتنع الوقوع كان الراجح واجب الوقوع ضرورة أنه لاخروج عن النقيضين إذا ثبت هذا فالتكليف إن وقع بالراجح كان التكليف تكليفاً بايجاد ما يجب وقوعه ، وإن وقع بالمرجوح كان التكليف تكليفاً بما يمتنع وقوعه ، وكلاهما تكليف مالا يطاق . وثانيها : أن الذى ورد به التكليف إما أن يكون قد علم الله فى الأزل وقوعه ، أو علم أنه لا يقع أولم يعلم لا هذا ولا ذاك ، فإن كان الأول كان واجب الوقوع ممتنع العدم فلا فائدة فى ورود الأمر به ، وإن علم لاوقوعه كان ممتنع الوقوع واجب العدم ، فكان الأمر بايقاعه أمراً بايقاع الممتنع وإن لم يعلم لاهذا ولا ذاك كان ذلك قولا بالجهل على الله تعالى وهو محال ، ولأن بتقدير أن يكون الأمر كذلك فإنه لايتميز المطيع عن العاصى ، وحينئذ لا يكون فى الطاعة فائدة . وثالثها : أن ورود الأمر بالتكاليف إما أن يكون لفائدة أو لا لفائدة ، فإن كان لفائدة فهى إما عائدة إلى المعبود أو إلى العابد أما إلى المعبود فمحال لأنه كامل لذاته . والكامل لذاته لا يكون كاملا بغيره ، ولأنا نعلم بالضرورة أن الاله العالى على الدهر والزمان يستحيل أن ينتفع بركوع العبد وسجوده ، وأما إلى العابد فمحال ؛ لأن جميع الفوائد محصورة فى حصول اللذة ودفع الألم ، وهو سبحانه وتعالى قادر على تحصيل كل ذلك للعبد ابتداء من غير توسط هذه المشاق فيكون توسطها عبثا ، والعبث غير جائز على الحكيم . ورابعها : أن العبد غير موجد لأفعاله لأنه غير عالم بتفاصيلها ومن لايعلم تفاصيل الشىء لا يكون موجداً له وإذا لم يكن العبد موجداً لأفعال نفسه فإن أمره بذلك الفعل حال ماخلقه فيه فقد أمره بتحصيل الحاصل ، وإن أمره به حال مالم يخلقه فيه فقد أمره بالمحال وكل ذلك باطل . وخامسها : أن المقصود من التكاليف إنما هو تطهير القلب على مادلت عليه ظواهر القرآن فلو قدرنا إنسانا مشتغل القلب دائما بالله تعالى وبحيث لو اشتغل بهذه الأفعال الظاهرة لصار ذلك عائقا له عن الاستغراق فى معرفة الله تعالى وجب أن يسقط عنه هذه التكاليف الظاهرة ، فإن الفقهاء والقياسيين قالوا إذا لاح المقصود والحكمة فى التكاليف وجب اتباع الأحكام المعقولة لا اتباع الظواهر . والجواب : عن الشبه الثلاثة الأول من وجهين . الأول : أن أصحاب هذه الشبه أوجبوا بما ذكروه اعتقاد عدم التكاليف فهذا تكليف ينفى التكليف وأنه متناقض . الثانى أن عندنا يحسن من الله تعالى كل شىء سواء كان ذلك تكليف مالا يطاق أوغيره لأنه تعالى خالق مالك ، والمالك لااعتراض عليه فى فعله . البحث السادس : قالوا : الامر بالعبادة وإن كان عاما لكل الناس لكنه مخصوص فى حق من لا يفهم كالصبى والمجنون والغافل والناسى ، وفى حق من لا يقدر لقوله تعالى (لايكلف الله نفساً إلا وسعها)

ومنهم من قال إنه مخصوص فى حق العبيد ، لان الله تعالى أوجب عليهم طاعة مواليهم ، واشتغالهم بطاعة الموالى يمنعهم عن الاشتغال بالعبادة ، والامر الدال على وجوب طاعة المولى

أخص من الأمر الدال على وجوب العبادة والخاص يقدم على العام والكلام فى هذا المعنى مذكور فى أصول الفقه .

﴿ المسألة السابعة ﴾ قال القاضى : الآية تدل على أن سبب وجود العبادة ما بينه من خلقه لنا والانعام علينا . واعلم أن أصحابنا يحتجون بهذه الآية على أن العبد لا يستحق بفعله الثواب لأنه لما كان خلقه إيانا وإنعامه علينا سببا لوجوب العبادة فحينئذ يكون اشتغالنا بالعبادة أداء للواجب ، والانسان لا يستحق بأداء الواجب شيئا فوجب أن لا يستحق العبد على العبادة ثوابا على الله تعالى أما قوله (ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون) ففيه مسائل .

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنه سبحانه لما أمر بعبادة الرب أردفه بما يدل على وجود الصانع وهو خالق المكلفين وخلق من قبلهم ، وهذا يدل على أنه لا طريق إلى معرفة الله تعالى إلا بالنظر والاستدلال وطعن قوم من الحشوية فى هذه الطريقة وقالوا الاشتغال بهذا العلم بدعة ولنا فى إثبات مذهبنا وجوه نقلية وعقلية وههنا ثلاث مقامات . المقام الأول : فى بيان فضل هذا العلم وهو من وجوه . أحدها : أن شرف العلم بشرف المعلوم فمهما كان المعلوم أشرف كان العلم الحاصل به أشرف فلما كان أشرف المعلومات ذات الله تعالى وصفاته وجب أن يكون العلم المتعلق به أشرف العلوم . وثانيها : أن العلم إما أن يكون دينيا أو غير دينى ، ولا شك أن العلم الدينى أشرف من غير الدينى ، وأما العلم الدينى فإما أن يكون هو علم الأصول ، أو ما عداه . أما ماعداه فانه تتوقف صحته على علم الأصول ، لأن المفسر إنما يبحث عن معانى كلام الله تعالى ، وذلك فرع على وجود الصانع المختار المتكلم ، وأما المحدث فانما يبحث عن كلام رسول الله ﷺ وذلك فرع على ثبوت نبوته ﷺ ، والفقيه إنما يبحث عن أحكام الله ، وذلك فرع على التوحيد والنبوة ، فثبت أن هذه العلوم مفتقرة إلى علم الأصول ، والظاهر أن علم الأصول غنى عنها فوجب أن يكون علم الأصول أشرف العلوم . وثالثها أن شرف الشىء قد يظهر بواسطة خساسة ضده ، فكلما كان ضده أخس كان هو أشرف وضد علم الأصول هو الكفر والبدعة ، وهما من أخس الأشياء ، فوجب أن يكون علم الأصول أشرف الأشياء . ورابعها : أن شرف الشىء قد يكون بشرف موضوعه وقد يكون لأجل شدة الحاجة إليه ، وقد يكون لقوة براهينه ، وعلم الأصول مشتمل على الكل وذلك لأن علم الهيئة أشرف من علم الطب نظراً إلى أن موضوع علم الهيئة أشرف من موضوع علم الطب ، وإن كان الطب أشرف منه نظراً إلى أن الحاجة إلى الطب أكثر من الحاجة إلى الهيئة ، وعلم الحساب أشرف منهما نظراً إلى أن براهين علم الحساب أقوى . أما علم الأصول فالمطلوب منه معرفة ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله ، ومعرفة أقسام المعلومات من المعدومات والموجودات ، ولا شك أن ذلك أشرف الامور ، وأما الحاجة إليه فشديدة لان الحاجة إما فى الدين أو فى الدنيا ، أما فى الدين فشديدة لان من عرف هذه الاشياء استوجب الثواب العظيم والتحق بالملائكة ، ومن جهلها

استوجب العقاب العظيم والتحق بالشياطين . واما فى الدنيا فلأن مصالح العالم إنما تنتظم عند الإيمان بالصانع والبعث والحشر ، إذ لو لم يحصل هذا الإيمان لوقع الهرج والمرج فى العالم ، وأماقوة البراهين فبراهين هذا العلم يجب أن تكون مركبة من مقدمات يقينية تركيبا يقينيا وهذا هو النهاية فى القوة فثبت أن هذا العلم مشتمل على جميع جهات الشرف والفضل فوجب أن يكون أشرف العلوم . وخامسها : أن هذا العلم لايتطرق إليه النسخ ولا التغيير ، ولا يختلف باختلاف الامم والنواحى بخلاف سائر العلوم ، فوجب أن يكون أشرف العلوم . وسادسها : أن الآيات المشتملة على مطالب هذا العلم وبراهينها أشرف من الآيات المشتملة على المطالب الفقهية بدليل أنه جاء فى فضيلة (قل هو الله أحد) و (آمن الرسول) وآية الكرسى مالم يجىء مثله فى فضيلة قوله (ويسئلونك عن المحيض) وقوله (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين) وذلك يدل على أن هذا العلم أفضل . وسابعها : أن الآيات الواردة فى الاحكام الشرعية أقل من ستمائة آية ، وأماالبواقى ففى بيان التوحيد والنبوة والرد على عبدة الاوثان وأصناف المشركين ، وأما الآيات الواردة فى القصص فالمقصود منها معرفة حكمة الله تعالى وقدرته على ماقال (لقد كان فى قصصهم عبرة لاولى الالباب) فدل ذلك على أن هذا العلم أفضل ، ونشير إلى معاقد الدلائل : أما الذى يدل على وجود الصانع فالقرآن مملوء منه . أولها . ماذكرهنا من الدلائل الخمسة وهى خلق المكلفين وخلق من قبلهم ، وخلق السماء وخلق الارض ، وخلق الثمرات من الماء النازل من السماء إلى الارض ، وكل ماورد فى القرآن من عجائب السماوات والارض ، فالمقصود منه ذلك ، وأما الذى يدل على الصفات . أما العلم فقوله (إن الله لا يخفى عليه شىء فى الارض ولا فى السماء) ثم أردفه بقوله (هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء) وهذا هو عين دليل المتكلمين فانهم يستدلون بأحكام الافعال واتقانها على علم الصانع ، وههنا استدل الصانع سبحانه بتصوير الصور فى الارحام على كونه عالما بالاشياء ، وقال (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) وهوعين تلك الدلالة وقال (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) وذلك تنبيه على كونه تعالى عالماً بكل المعلومات ، لانه تعالى مخبر عن المغيبات فتقع تلك الاشياء على وفق ذلك الخبر ، فلولا كونه عالماً بالمغيبات والا لما وقع كذلك ، وأما صفة القدرة فكل ماذكر سبحانه من حدوث الثمار المختلفة والحيوانات المختلفة مع استواء الكل فى الطبائع الاربع فذاك يدل على كونه سبحانه قادرا مختارا لا موجبا بالذات ، وأما التنزيه فالذى يدل على أنه ليس بجسم ، ولا فى مكان قوله (قل هو الله أحد) فان المركب مفتقر إلى أجزائه والمحتاج محدث ، وإذا كان أحداً وجب أن لا يكون جسما وإذا لم يكن جسما لم يكن فى المكان ، وأما التوحيد فالذى يدل عليه قوله (لوكان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وقوله (إذاً لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا) وقوله (ولعلا بعضهم على بعض) وأما النبوة فالذى يدل عليها قوله ههنا (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فائتوا بسورة من مثله) وأما المعاد فقوله (قل يحييها الذى أنشأها أول مرة) وأنت لو فتشت علم

الكلام لم تجد فيه إلا تقرير هذه الدلائل والذب عنها ودفع المطاعن والشبهات القادحة فيها ، أفترى أن علم الكلام يذم لاشتماله على هذه الأدلة التى ذكرها الله أو لاشتماله على دفع المطاعن والقوادح عن هذه الأدلة ماأرى أن عاقلا مسلما يقول ذلك ويرضى به . وثانيها : أن الله تعالى حكى الاستدلال بهذه الدلائل عن الملائكة وأكثر الأنبياء أما الملائكة فلأنهم لما قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها كان المراد أن خلق مثل هذا الشىء قبيح ، والحكيم لا يفعل القبيح ، فأجابهم الله تعالى بقوله (إنى أعلم مالا تعلمون) والمراد إنى لما كنت عالما بكل المعلومات كنت قد علمت فى خلقهم وتكوينهم حكمة لا تعلمونها أنتم ، ولا شك أن هذا هو المناظرة ، وأما مناظرة الله تعالى مع ابليس فهى أيضاً ظاهرة وأما الأنبياء عليهم السلام فأولهم آدم عليه السلام وقد أظهر الله تعالى حجته على فضله بأن أظهر علمه على الملائكة وذلك محض الاستدلال ، وأما نوح عليه السلام فقد حكى الله تعالى عن الكفار قولهم (يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا) ومعلوم أن تلك المجادلة ما كانت فى تفاصيل الأحكام الشرعية بل كانت فى التوحيد والنبوة ، فالمجادلة فى نصرة الحق فى هذا العلم هى حرفة الأنبياء ، وأما إبراهيم عليه السلام فالاستقصاء فى شرح أحواله فى هذا الباب يطول وله مقامات . أحدها : مع نفسه وهو قوله (فلما جن عليه الليل رآى كوكباً قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين) وهذا هو طريقة المتكلمين فى الاستدلال بتغيرها على حدوثها ، ثم إن الله تعالى مدحه على ذلك فقال (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه) وثانيها : حاله مع أبيه وهو قوله (ياأبت لم تعبد ما لايسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا) وثالثها : حاله مع قومه تارة بالقول وأخرى بالفعل ، أما بالقول فقوله (ماهذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون) وأما بالفعل فقوله (فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون) . ورابعها : حاله مع ملك زمانه فى قوله (ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت) إلى آخره وكل من سلمت فطرته علم أن علم الكلام ليس إلا تقرير هذه الدلائل ودفع الأسئلة والمعارضات عنها ، فهذا كله بحث إبراهيم عليه السلام فى المبدأ ، وأما بحثه فى المعاد فقال (رب أرنى كيف تحيى الموتى) إلى آخره وأما موسى عليه السلام فانظر إلى مناظرته مع فرعون فى التوحيد والنبوة ، أما التوحيد فاعلم أن موسى عليه السلام إنما يعول فى أكثر الامر على دلائل إبراهيم عليه السلام وذلك لان الله تعالى حكى فى سورة طه (قال فمن ربكما ياموسى قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) وهذا هو الدليل الذى ذكره إبراهيم عليه السلام فى قوله (الذى خلقنى فهو يهدين) وقال فى سورة الشعراء (ربكم ورب آبائكم الأولين) وهذا هو الذى قاله إبرهيم (ربى الذى يحيى ويميت) فلما لم يكتف فرعون بذلك وطالبه بشىء آخر قال موسى (رب المشرق والمغرب) وهذا هو الذى قال إبراهيم عليه السلام (فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) فهذا ينبهك على أن التمسك بهذه الدلائل حرفة هؤلاء المعصومين وأنهم كما استفادوها من عقولهم فقد توارثوها من أسلافهم الطاهرين ، وأما استدلال موسى على النبوة

بالمعجزة فى قوله (أو لو جئتك بشىء مبين) وهذا هو الاستدلال بالمعجزة على الصدق ، وأما محمد عليه الصلاة والسلام فاشتغاله بالدلائل على التوحيد والنبوة والمعاد أظهر من أن يحتاج فيه إلى التطويل ، فان القرآن مملوء منه ولقدكان عليه السلام مبتلى بجميع فرق الكفار فالأول : الدهرية الذين كانوا يقولون : (وما يهلكنا إلا الدهر) والله تعالى أبطل قولهم بأنواع الدلائل . والثانى : الذين ينكرون القادر المختار ، والله تعالى أبطل قولهم بحدوث أنواع النبات وأصناف الحيوانات مع اشتراك الكل فى الطبائع وتأثيرات الأفلاك ، وذلك يدل على وجود القادر . والثالث : الذين أثبتوا شريكا مع الله تعالى ، وذلك الشريك إما أن يكون علويا أو سفليا ، أما الشريك العلوى فمثل من جعل الكواكب مؤثرة فى هذا العالم ، والله تعالى أبطله بدليل الخليل فى قوله (فلما جن عليه الليل) وأما الشريك السفلى فالنصارى قالوا بإلاهية المسيح وعبدة الأوثان قالوا بإلاهية الأوثان ، والله تعالى أكثر من الدلائل على فساد قولهم . الرابع : الذين طعنوا فى النبوة وهم فريقان . أحدهما : الذين طعنوا فى أصل النبوة وهم الذين حكى الله عنهم أنهم قالوا : (أبعث الله بشراً رسولا) . والثانى : الذين سلموا أصل النبوة وطعنوا فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهم اليهود والنصارى ، والقرآن مملوء من الرد عليهم ، ثم إن طعنهم من وجوه تارة بالطعن فى القرآن فأجاب الله بقوله (إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة) وتارة بالتماس سائر المعجزات كقوله (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا) وتارة بأن هذا القرآن نزل نجما نجما وذلك يوجب تطرق التهمة إليه فأجاب الله تعالى عنه بقوله (كذلك لنثبت به فؤادك)

الخامس : الذين نازعوا فى الحشر والنشر ، والله تعالى أورد على صحة ذلك وعلى ابطال قول المنكرين أنواعاً كثيرة من الدلائل . السادس : الذين طعنوا فى التكليف تارة بأنه لا فائدة فيه ، فأجاب الله عنه بقوله (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) وتارة بأن الحق هو الجبر ، وأنه ينافى صحة التكليف ، وأجاب الله تعالى عنه بأنه (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) وإنما اكتفينا فى هذا المقام بهذه الاشارات المختصرة لأن الاستقصاء فيها مذكور فى جملة هذا الكتاب وإذا ثبت أن هذه الحرفة هى حرفة كل الأنبياء والرسل علمنا أن الطاعن فيها إما أن يكون كافرا أو جاهلا . المقام الثانى : فى بيان أن تحصيل هذا العلم من الواجبات ، ويدل عليه المعقول والمنقول . أما المعقول : فهو أنه ليس تقليد البعض أولى من تقليد الباقى ، فاما أن يجوز تقليد الكل فيلزمنا تقليد الكفار ، وإما أن يوجب تقليد البعض دون البعض فيلزم أن يصير الرجل مكلفا بتقليد البعض دون البعض من غير أن يكون له سبيل إلى أنه لم قلد أحدهما دون الآخر ، وإما أن لا يجوز التقليد أصلا وهو المطلوب ، فاذا بطل التقليد لم يبق إلا هذه الطريقة النظرية . وأما المنقول فيدل عليه الآيات والاخبار أما الآيات . فأحدها : قوله (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن) ولا شك أن المراد بقوله بالحكمة أى بالبرهان والحجة ، فكانت الدعوة

بالحجة والبرهان إلى الله تعالى مأموراً بها ، وقوله (وجادلهم بالتى هى أحسن) ليس المراد منه المجادلة فى فروع الشرع لأن من أنكر نبوته فلا فائدة فى الخوض معه فى تفاريع الشرع ، ومن أثبت نبوته فإنه لا يخالفه ، فعلمنا أن هذا الجدال كان فى التوحيد والنبوة . فكان الجدال فيه مأموراً به ثم إنا مأمورون باتباعه عليه السلام لقوله (فاتبعونى يحببكم الله) ولقوله (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) فوجب كوننا مأمورين بذلك الجدال . وثانيها : قوله تعالى (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم) ذم من يجادل فى الله بغير علم وذلك يقتضى أن المجادل بالعلم لا يكون مذموما بل يكون ممدوحا وأيضاً حكى الله تعالى ذلك عن نوح فى قوله (يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا) وثالثها : أن الله تعالى أمر بالنظر فقال (أفلا يتدبرون القرآن ، أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت ، سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ، أولم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ، قل انظروا ماذا فى السماوات والأرض ، أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض) ورابعها : أن الله تعالى ذكر التفكر فى معرض المدح فقال (إن فى ذلك لآيات لأولى الالباب ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الابصار ، إن فى ذلك لآيات لاولى النهى) وأيضا ذم المعرضين فقال (وكأين من آية فى السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون ، لهم قلوب لا يفقهون بها) وخامسها : أنه تعالى ذم التقليد ، فقال حكاية عن الكفار (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) وقال (بل نتبع ماوجدنا عليه آباءنا) وقال (بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) وقال (إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها) وقال عن والد إبراهيم عليه السلام (لئن لم تنته لارجمنك واهجرنى مليا) وكل ذلك يدل على وجوب النظر والاستدلال والتفكر وذم التقليد فمن دعا إلى النظر والاستدلال ، كان على وفق القرآن ودين الانبياء ومن دعا إلى التقليد كان على خلاف القرآن وعلى وفاق دين الكفار. وأما الاخبار ففيها كثرة ، ولنذكر منها وجوها . أحدها : ماروى الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال « جاء رجل من بنى فزارة إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال إن امرأتى وضعت غلاما أسود فقال له هل لك من إبل ، فقال نعم قال فما ألوانها قال حمر قال فهل فيها من أورق ؟ قال نعم . قال فأنى ذلك ، قال عسى أن يكون قد نزعه عرق قال وهذا عسى أن يكون نزعه عرق » واعلم أن هذا هو التمسك بالالزام والقياس . وثانيها : عن أبى هريرة قال قال عليه الصلاة والسلام « قال الله تعالى : كذبنى ابن آدم ولم يكن له أن يكذبنى ، وشتمنى ابن آدم ولم يكن له أن يشتمنى . أما تكذيبه إياى فقوله : لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أول خلقه بأهون على من إعادته ، وأما شتمه إياى فقوله : اتخذ الله ولدا وأنا الله الاحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لى كفواً أحد » فانظر كيف احتج الله تعالى فى المقام لاول بالقدرة على الابتداء ، على القدرة على الاعادة ، وفى المقام الثانى احتج بالاحدية على نفى الجسمية والوالدية والمولودية . وثالثها : روى عبادة بن الصامت أنه عليه السلام قال « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن

كره لقاء الله كره الله لقاءه » فقالت عائشة : يارسول الله إنا نكره الموت فذاك كراهتنا لقاء الله ؟ فقال عليه السلام : لا ولكن المؤمن أحب لقاء الله فأحب الله لقاءه ، والكافر كره لقاء الله فكره الله لقاءه وكل ذلك يدل على أن النظر والفكر فى الدلائل مأمور به . واعلم أن للخصم مقامات . أحدها : أن النظر لا يفيد العلم . وثانيها : أن النظر المفيد للعلم غير مقدور . وثالثها : أنه لا يجوز الاقدام عليه . ورابعها : أن الرسول ماأمر به . وخامسها : أنه بدعة .

﴿ أما المقام الأول ﴾ فاحتج الخصم عليه بأمور . أحدها : انا إذا تفكرنا وحصل لنا عقيب فكرنا اعتقاد فعلمنا بكون ذلك الاعتقاد علما ، إما أن يكون ضرورياً أو نظرياً ، والأول باطل لأن الانسان إذا تأمل فى اعتقاده فى كون ذلك الاعتقاد علماً ، وفى اعتقاده فى أن الواحد نصف الاثنين ، وأن الشمس مضيئة والنار محرقة ، وجد الاول أضعف من الثانى ، وذلك يدل على أن تطرق الضعف إلى الأول والثانى باطل ، لأن الكلام فى ذلك الفكر الثانى كالكلام فى الأول فيلزم التسلسل وهو محال . وثانيها : إنا رأينا عالما من الناس قد تفكروا واجتهدوا وحصل لهم عقيب فكرهم اعتقاد ، وكانوا جازمين بأنه علم ثم ظهر لهم أو لغيرهم أن ذلك كان جهلا فرجعوا عنه وتركوه وإذا شاهدنا ذلك فى الوقت الاول جاز أن يكون الاعتقاد الحاصل ثانيا كذلك ، وعلى هذا الطريق لا يمكن الجزم بصحة شىء من العقائد المستفادة من الفكر والنظر . وثالثها : أن المطلوب إن كان مشعوراً به استحال طلبه ، لان تحصيل الحاصل محال ، وإن كان غير مشعور به كان الذهن غافلا عنه ، والمغفول عنه يستحيل أن يتوجه الطلب إليه . ورابعها أن العلم بكون النظر مفيداً للعلم إما أن يكون ضروريا أو نظرياً فان كان ضرورياً وجب اشتراك العقلاء فيه وليس كذلك . وإن كان نظريا لزم إثبات جنس الشىء بفرد من أفراده وذلك محال لان النزاع لما وقع فى الماهية كان واقعا فى ذلك الفرد أيضا فيلزم إثبات الشىء بنفسه وهو محال لانه من حيث أنه وسيلة إلى الإثبات يجب أن يكون معلوما قبل . ومن حيث أنه مطلوب يجب أن لا يكون معلوما قبل ، فيلزم اجتماع النفى والاثبات وهو محال . وخامسها : أن المقدمة الواحدة لا تنتج بل المنتج مجموع المقدمتين ، لكن حضور المقدمتين دفعة واحدة فى الذهن محال لانا جربنا أنفسنا فوجدنا أنا متى وجهنا الخاطر نحو معلوم استحال فى ذلك الوقت توجيهه نحو معلوم آخر ، وربما سلم بعضهم أن النظر فى الجملة يفيد العلم لكنه يقول النظر فى الإلاهيات لا يفيد واحتج عليه بوجهين . الاول : أن حقيقة الاله غير متصورة وإذا لم تكن الحقيقة متصورة استحال التصديق لا بثبوته ولا بثبوت صفة من صفاته . بيان الاول أن المعلوم عند البشر كون واجب الوجود منزها عن الحيز والجهة ، وكونه موصوفاً بالعلم والقدرة . أما الوجوب والتنزيه فهو قيد سلبى وليست حقيقته نفس هذا السلب . فلم يكن العلم بهذا السلب علماً بحقيقته ، وأما الموصوفية بالعلم والقدرة فهو عبارة عن انتساب ذاته إلى هذه الصفات وليست ذاته نفس هذا الانتساب فالعلم بهذا الانتساب ليس

علما بذاته . بيان الثانى أن التصديق موقوف على التصور ، فاذا فقد التصور امتنع التصديق ، ولا يقال ذاته تعالى وإن لم تكن متصورة بحسب الحقيقة المخصوصة التى له لكنها متصورة بحسب لوازمها ، أعنى أنا نعلم أنه شىء ما ، يلزمه الوجوب والتنزيه والدوام فيحكم على هذا المتصور ، قلنا هذه الأمور المعلومة إما أن يقال انها نفس الذات وهو محال أو أمور خارجه عن الذات فلما لم نعلم الذات لا يمكننا أن نعلم كونها موصوفة بهذه الصفات فان كان التصور الذى هو شرط إسناد هذه الصفات إلى ذاته هو أيضا تصور بحسب صفات آخر ، فحينئذ يكون الكلام فيه كما فى الأول فيلزم التسلسل وهو محال . الوجه الثانى : أن أظهر الأشياء عندنا ذاتنا وحقيقتنا التى إليها نشير بقولنا أنا ثم الناس تحيروا فى ماهية المشار إليه بقول أنا ، فمنهم من يقول هو هذا البنية ، ومنهم من يقول هو المزاج ، ومنهم من يقول بعض الأجزاء الدخلة فى هذه البنية ، ومنهم من يقول شىء لا داخل هذا البدن ولا خارجه ، فاذا كان الحال فى أظهر الأشياء كذلك فما ظنك بأبعد الأشياء مناسبة عنا وعن أحوالنا .

﴿ أما المقام الثانى ﴾ وهو أن النظر المفيد للعلم غير مقدور لنا فقد احتجوا عليه بوجوه أحدها : أن تحصيل التصورات غير مقدور فالتصديقات البديهية غير مقدورة فجميع التصديقات غير مقدورة وإنما قلنا إن التصورات غير مقدورة لأن طالب تحصيلها إن كان عارفا بها استحال منه طلبها لأن تحصيل الحاصل محال ، فان كان غافلا عنها استحال كونه طالبا لها لأن الغافل عن الشىء لا يكون طالبا له . فان قيل لم لا يجوز أن يكون معلوما من وجه ومجهولا من وجه . قلنا لأن الوجه الذى يصدق عليه أنه معلوم غير الوجه الذى يصدق عليه أنه غير معلوم ، وإلا فقد صدق النفى والاثبات على الشىء الواحد وهو محال وحينئذ نقول الوجه المعلوم استحال طلبه لاستحالة تحصيل الحاصل والوجه الذى هو غير معلوم استحال طلبه لأن المغفول عنه لا يكون مطلوبا ، وإنما قلنا أن التصورات لما كانت غير كسبية استحال كون التصديقات البديهية كسبية وذلك لأن عند حضور طرفى الموضوع والمحمول فى الذهن من القضية البديهية إما أن يلزم من مجرد حضورهما جزم الذهن باسناد أحدهما إلى الآخر بالنفى أو الاثبات ، أو لا يلزم ، فان لم يلزم لم تكن القضية بديهية بل كانت مشكوكة . وإن لزم كان التصديق واجب الحصول عند حضور ذينك التصورين وممتنع الحصول عند عدم حضورهما ، وما يكون واجب الدوران نفياً وإثباتا مع مالا يكون مقدورا نفياً وإثباتا وجب أن يكون أيضا كذلك فثبت أن التصديقات البديهية غير كسبية ؛ وإنما قلنا أن هذه التصديقات لما لم تكن كسبية لم يكن شىء من التصديقات كسبياً لأن التصديق الذى لا يكون بديهياً ، لابد وأن يكون نظريا فلا يخلو إما أن يكون واجب اللزوم عند حضور تلك التصديقات البديهية أولا يكون فان لم يكن واجب اللزوم منها لم يلزم من صدق تلك المقدمات صدق ذلك المطلوب ، فلم يكن ذلك استدلالا يقينيا بل إما ظناً أو اعتقاداً

تقليديا ، وإن كان واجبا فكانت تلك النظريات واجبة الدوران نفياً وإثباتاً مع تلك القضايا الضرورية ، فوجب أن لا يكون شيء من تلك النظريات مقدوراً للعبد أصلا . وثانيها : أن الانسان إنما يكون قادرا على إدخال الشيء فى الوجود لو كان يمكنه أن يميز ذلك المطلوب عن غيره والعلم إنما يتميز عن الجهل بكونه مطابقا للمعلوم دون الجهل وإنما يعلم ذلك لو علم المعلوم على ما هو عليه ، فاذن لا يمكنه إيجاد العلم بذلك الشيء إلا إذا كان عالما بذلك الشيء لكن ذلك محال لا ستحالة تحصيل الحاصل ، فوجب أن لا يكون العبد متمكنا من إيجاد العلم ولا من طلبه . وثالثها أن الموجب للنظر ، إما ضرورة العقل ، أو النظر أو السمع . والأول باطل لأن الضرورى لم يشترط العقل فيه ، ووجوب الفكر والنظر ليس كذلك ، بل كثير من العقلاء يستقبحونه ، ويقولون إنه فى الأكثر يفضى بصاحبه إلى الجهل ، فوجب الاحتراز منه ، والثانى أيضاً باطل ، لأنه إذا كان العلم بوجوبه يكون نظرياً ، فحينئذ لا يمكنه العلم بوجوب النظر قبل النظر ، فتكليفه بذلك يكون تكليف ما لا يطاق ، وأما بعد النظر فلا يمكنه النظر ، لأنه لا فائدة فيه ، والثالث باطل ، لأنه قبل النظر لا يكون متمكنا من معرفة وجوب النظر ، وبعد النظر لا يمكنه إيجابه أيضا لعدم الفائدة ، وإذا بطلت الأقسام ثبت نفى الوجوب . المقام الثالث : وهو أن بتقدير كون النظر مفيدا للعلم ومقدوراً للمكلف ، لكنه يقبح من الله أن يأمر المكلف به ، وبيانه من وجوه . أحدها : أن النظر فى أكثر الأمر يفضى بصاحبه إلى الجهل فالمقدم عليه مقدم على أمر يفضى به غالبا إلى الجهل . وما يكون كذلك يكون قبيحا ، فوجب أن يكون الفكر قبيحا ، والله تعالى لا يأمر بالقبيح . وثانيها : أن الواحد منا مع ماهو عليه من النقص وضعف الخاطر ومايعتريه من الشبهات الكثيرة المتعارضة ، لا يجوز أن يعتمد على عقله فى التمييز بين الحق والباطل . فلما رأينا أرباب المذاهب كل واحد منهم يدعى أن الحق معه ، وأن الباطل مع خصمه ثم إذا تركوا التعصب واللجاج وأنصفوا ، وجدوا الكلمات متعارضة ، وذلك يدل على عجز العقل عن إدراك هذه الحقائق . وثالثها : أن مدار الدين لو كان على النظر فى حقائق الدلائل لوجب أن لا يستقر الانسان على الايمان ساعة واحدة ، لان صاحب النظر إذا خطر بباله سؤال على مقدمة من مقدمات دليل الدين ، فقد صار بسبب ذلك السؤال شاكا فى تلك المقدمة ، وإذا صار بعض مقدمات الدليل مشكوكا فيه . صارت النتيجة ظنية . لان المظنون لا يفيد اليقين ، فيلزم أن يخرج الانسان فى كل ساعة عن الدين ، بسبب كل ما يخطر بباله من الاسئلة والمباحث . ورابعها : أنه اشتهر فى الالسنة أن من طلب المال بالكيمياء أفلس ، ومن طلب الدين بالكلام تزندق ، وذلك يدل على أنه لا يجوز فتح الباب فيه : المقام الرابع : أن بتقدير أنه فى نفسه غير قبيح ، ولكننا نقيم الدلالة على أن الله ورسوله ما أمرا بذلك ، والذى يدل عليه أن هذه المطالب لا تخلو ، إما أن يكون العلم بدلائلها علما ضروريا غنيا عن التعلم والاستفادة ، وإما أن لا يكون كذلك ، بل يحتاج فى تحصيلها إلى

التأمل والتدبر والاستفادة ، والأول باطل ، وإلا لوجب أن يحصل ذلك لكل الناس وهو مكابرة ولأنا نجرب أذكى الناس فى هذا العلم فلا يمكنه تحصيله فى السنين المتطاولة بعد الاستعانة بالأستاذ والتصانيف . وإن كان الثانى وجب أن لا يحصل ذلك العلم للأنسان . إلا بعد الممارسة الشديدة والمباحثة الكثيرة ، فلو كان الدين مبنياً عليه ، لوجب أن لا يحكم الرسول بصحة إسلام الرجل إلا بعد أن يسأله عن هذه المسائل ، ويجربه فى معرفة هذه الدلائل على الاستقصاء . ولو فعل الرسول ذلك لا شتهر ولما لم يشتهر بل المشهور المنقول عنه بالتواتر أنه كان يحكم باسلام من يعلم بالضرورة أنه لم يخطر بباله شىء من ذلك ، علمنا أن ذلك غير معتبر فى صحة الدين ، فان قيل : معرفة أصول الدلائل حاصلة لأكثر العقلاء ، إنما المحتاج إلى التدقيق دفع الاسئلة والجواب عن الشبهات وذلك غير معتبر فى صحة أصل الدين ، قلنا هذا ضعيف لان الدليل لا يقبل الزيادة والنقصان البتة ، وذلك لان الدليل إذا كان مبنياً على مقدمات عشرة فان كان الرجل جازما بصحة تلك المقدمات كان عارفاً بالدليل معرفة لا يمكن الزيادة عليها ، لان الزيادة على تلك العشرة إن كان معتبرا فى تحقق ذلك الدليل بطل قولنا إن ذلك الدليل مركب من العشرة فقط . وإلا لم يكن معتبرا لم يكن العلم به علما بزيادة شىء فى الدليل ، بل يكون علما منفصلا . فثبت بهذا أن الدليل لا يقبل الزيادة ولا يقبل النقصان أيضاً ، لان تسعة منها لو كانت يقينية وكانت المقدمة العاشرة ظنية استحال كون المطلوب يقينيا لان المبنى على الظنى أولى أن يكون ظنيا فثبت بهذا أن الدليل لا يقبل الزيادة والنقصان وبطل ببطلانه ذلك السؤال مثاله إذا رآى الانسان حدوث مطر ورعد وبرق بعد أن كان الهواء صافيا قال سبحان الله ، فمن الناس من قال : إن قوله سبحان الله يدل على أنه عرف الله بدليله ، وهذا باطل لانه إنما يكون عارفا بالله إذا عرف بالدليل أن ذلك الحادث لا بد له من مؤثر ثم يعرف بالدليل أنه يستحيل أن يكون المؤثر فيه سوى الله تعالى ، وهذه المقدمة الثانية إنما تستقيم لو عرف بالدليل أنه يستحيل إسناد هذا الحدوث إلى الفلك والنجوم ، والطبيعة والعلة الموجبة . فانه لو لم يعرف بطلان ذلك بالدليل لكان معتقدا لهذه المقدمة الثانية من غير دليل فتكون المقدمة تقليدية ويكون المبنى عليها تقليدا لا يقينا فثبت بهذا فساد ما قلتموه . المقام الخامس : أن نقول الاشتغال بعلم الكلام بدعة ، والدليل عليه القرآن والخبر والاجماع وقول السلف والحكم . أما القرآن فقوله تعالى (ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون) ذم الجدل وقال أيضاً (وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره) قالوا فأمر بالاعراض عنهم عند خوضهم فى آيات الله تعالى وأما الخبر فقوله عليه السلام « تفكروا فى الخلق ولا تفكروا فى الخالق » وقوله عليه السلام « عليكم بدين العجائز » وقوله « إذا ذكر القدر فأمسكوا » وأما الاجماع فهو أن هذا علم لم تتكلم فيه الصحابة فيكون بدعة فيكون حراما ، أما أن الصحابة ما تكلموا فيه فظاهر ، لانه لم ينقل عن أحد منهم أنه نصب نفسه للاستدلال فى

هذه الأشياء ، بل كانوا من أشد الناس إنكاراً على من خاض فيه ، وإذا ثبت هذا ثبت أنه بدعة وكل بدعة حرام بالاتفاق ، وأما الأثر ، قال مالك بن أنس : إياكم والبدع قيل وما البدع يا أبا عبد الله ؟ قال أهل البدع الذين يتكلمون فى أسماء الله وصفاته وكلامه ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون . وسئل سفيان بن عيينة عن الكلام فقال اتبع السنة ودع البدعة . وقال الشافعى رضى الله عنه : لأن يبتلى الله العبد بكل ذنب سوى الشرك خير له من أن يلقاه بشىء من الكلام وقال : لو أوصى رجل بكتبه العلمية لآخر وكان فيها كتب الكلام لم تدخل تلك الكتب فى الوصية وأما الحكم فهو أنه لو أوصى للعلماء لا يدخل المتكلم فيه والله أعلم فهذا مجموع كلام الطاعنين فى النظر والاستدلال . والجواب : أما الشبه التى تمسكوا بها فى أن النظر لا يفيد العلم فهى فاسدة ، لأن الشبه التى ذكروها ليست ضرورية بل نظرية ، فهم أبطلوا كل النظر ببعض أنواعه وهو متناقض ، وأما الشبه التى تمسكوا بها فى أن النظر غير مقدور فهى فاسدة ، لأنهم مختارون فى استخراج تلك الشبه فيبطل قولهم إنها ليست اختيارية ، وأما الشبه التى تمسكوا بها فى أن التعاويل على النظر قبيح فهى متناقضة ، لانه يلزمهم أن يكون إيرادهم لهذه الشبه التى أوردوها قبيحا ، وأما الشبه التى تمسكوا بها فى أن الرسول ما أمر بذلك فهو باطل ، لانا بينا أن الأنبياء بأسرهم ماجاءوا إلا بالامر بالنظر والاستدلال . وأما قوله تعالى (ما ضربوه لك إلا جدلا) فهو محمول على الجدل بالباطل ، توفيقا بينه وبين قوله (وجادلهم بالتى هى أحسن) وأما قوله (وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم) فجوابه أن الخوض ليس هو النظر ، بل الخوض فى الشىء هو اللجاج ، وأما قوله عليه الصلاة والسلام « تفكروا فى الخالق » فذلك إنما أمر به ليستفاد منه معرفة الخالق وهو المطلوب . وأما قوله عليه الصلاة السلام « عليكم بدين العجائز » فليس المراد إلا تفويض الامور كلها إلى الله تعالى والاعتماد فى كل الامور على الله على ما قلنا وأما قوله عليه الصلاة والسلام « إذا ذكر القدر فأمسكوا » فضعيف ، لان النهى الجزئى لا يفيد النهى الكلى . وأما الإجماع فنقول : إن عنيتم أن الصحابة لم يستعملوا الفاظ المتكلمين فمسلم ، لكنه لا يلزم منه القدح فى الكلام ، كما أنهم لم يستعملوا ألفاظ الفقهاء ، ولا يلزم منه القدح فى الفقه البتة ، وإن عنيتم أنهم ماعرفوا الله تعالى ورسوله بالدليل ، فبئس ما قلتم ، وأما تشديد السلف على الكلام فهو محمول على أهل البدعة ، وأما مسألة الوصية فهى معارضة بما أنه لو أوصى لمن كان عارفا بذات الله وصفاته وأفعاله وأنبيائه ورسله لا يدخل فيه الفقيه . ولان مبنى الوصايا على العرف فهذا إتمام هذه المسألة والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أما حقيقة العبادة فذكرناها فى قوله (إياك نعبد) وأما الخلق فحكى الازهرى صاحب التهذيب عن ابن الانبارى أنه التقدير والتسوية ، واحتجوا فيه بالآية والشعر والاستشهاد . أما الآية فقوله تعالى (أحسن الخالقين) أى المقدرين (وتخلقون إفكا) أى

تقدرون كذبا (وإذ تخلق من الطين) أى تقدر . وأما الشعر فقول زهير :

ولأنت تفرى ماخلقت وبعـــض القوم يخلق ثم لايفرى

وقال آخر :

ولا يئط بأيدى الخالقين ولا أيدى الخوالق إلا جيد الادم

وأما الاستشهاد يقـال خلق النعـل إذا قدرها وسواها بالقيـــاس ، ومنـه قول العرب للأحاديث التى لايصـدق بها ، أحاديث الخـلق ، ومنه قوله تعـالى (إن هذا إلا خـلق الأولـين) والخـلاق المقدار من الخير ، وهو خليق أى جدير كأنه الذى منه الخـلاق ، والصخرة الخلقـاء الملساء لأن فى الملاسة استواء ، وفى الخشونة اختلاف ومنه « أخلق الثوب » لأنه إذا بلى صار أملس واستوى نتوه واعوجاجه . فثبت أن الخـلق عبارة عن التقدير والاستواء قال القـاضى عبد الجبار : الخلق فعل بمعنى التقدير واللغة لاتقتضى أن ذلك لايتأتى إلا من الله تعالى بل الـكتاب نطق بخلافه فى قوله (فتبارك الله أحسن الخالقين ، وإذ تخلق من طين كهيئة الطير) لـكنه تعالى لما كان يفعل الأفعال لعلمه بالعواقب وكيفية المصلحة ولا فعل له إلا كذلك لاجرم اختص بهـذا الاسم وقال أستاذه أبو عبد الله البصرى اطـلاق اسم خالق على الله محال لأن التقـدير والتسوية عبارة عن الفـكر والنظر والحسبـان وذلك فى حق الله محال ، وقال جمهور أهل السنة والجمـاعة : الخلق عبارة عن الايجـاد والانشاء واحتجوا عليه بقول المسلمين لاخالق إلا الله ، ولو كان الخلق عبارة عن التقدير لمـا صح ذلك .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اعلم أنه سبحانه أمر بعبادته والأمر بعبادته موقوف على معرفة وجوده ، ولمـا لم يكن العلم بوجوده ضروريا بل استدلاليـا لاجرم أورد ههنـا مايدل على وجوده ، واعلم أننا بينا فى الـكتب العقلية أن الطريق إلى إثباته سبحانه وتعالى إما الامكان ، وإما الحدوث ، وإما مجموعهمـا ، وكل ذلك إما فى الجواهر أو فى الأعراض ، فيكون مجموع الطرق الدالة على وجوده سبحانه وتعالى ستة لامزيد عليها . أحدها : الاستدلال بامكان الذوات ، وإليه الاشارة بقوله تعالى (والله الغنى وأنتم الفقراء) وبقوله حـكاية عن إبراهيم (فانهم عدولى إلا رب العالمين) وبقوله (وأن إلى ربك المنتهى) وقوله (قل الله ثم ذرهم ، ففروا إلى الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب) وثانيها : الاستدلال بامـكان الصفات وإليه الاشارة بقوله (خلق السموات والارض) وبقوله (الذى جعـل لـكم الأرض فراشا والسماء بنـــاء) على ما سيـأتى تقريره . وثالثهـا : الاستدلال بحدوث الأجسـام . وإليـه الاشارة بقول ابراهيم عليـه السـلام (لا أحب الآفلـين) ورابعهـا الاستدلال بحدوث الأعراض ، وهذه الطريقة أقرب الطرق إلى أفهام الخلق ، وذلك محصور فى أمرين : دلائل الأنفس ، ودلائل الآفاق ، والـكتب الالهية فى الا كثر مشتملة على هذين البابين ، والله تعالى جمع ههنا بين هـذين الوجهـين . أما دلائل الانفس ، فهى ان كل أحـد يعلم بالضرورة

أنه ما كان موجودا قبل ذلك وأنه صار الآن موجودا وأن كل ما وجد بعد العدم فلا بد له من موجد وذلك الموجد ليس هو نفسه ولا الأبوان ولا سائر الناس ، لأن عجز الخلق عن مثل هذا التركيب معلوم بالضرورة فلابد من موجد يخالف هذه الموجودات حتى يصح منه إيجاد هذه الأشخاص إلا أن لقائل أن يقول ههنا : لم لا يجوز أن يكون المؤثر طبائع الفصول والأفلاك والنجوم ؟ ولما كان هذا السؤال محتملا ذكر الله تعالى عقيبه ما يدل على افتقار هذه الأشياء إلى المحدث والموجد وهو قوله (الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء) وهو المراد من دلائل الآفاق . ويندرج فيها كل ما يوجد من تغييرات أحوال العالم من الرعد والبرق والرياح والسحاب واختلاف الفصول ، وحاصلها يرجع إلى أن الأجسام الفلكية والاجسام العنصرية مشتركة فى الجسمية ، فاختصاص بعضها ببعض الصفات من المقادير والاشكال والاحياز لا يمكن أن يكون للجسمية ولا لشىء من لوازمها . وإلا وجب اشتراك الكل فى تلك الصفات فلا بد وأن يكون لامر منفصل ، وذلك الامر إن كان جسما عاد البحث فى أنه لم اختص بتلك المؤثرية من بين تلك الاجسام ، وإن لم يكن جسما فإما أن يكون موجباً أو مختاراً . والاول باطل ، وإلا لم يكن اختصاص بعض الاجسام ببعض الصفات أولى من العكس فلابد وأن يكون قادراً ، فثبت بهذه الدلالة افتقار جميع الاجسام إلى مؤثر قادر ليس بجسم ، ولا بجسمانى ، وعند هذا ظهر أن الاستدلال بحدوث الاعراض على وجود الصانع لا يكفى إلا بعد الاستعانة بامكان الاعراض والصفات ، وإذا عرفت هذا فنقول : إن الله تعالى إنما خص هذا النوع من الادلة بالايراد فى أول كتابه لوجهين ، الاول . أن هذا الطريق لما كان أقرب الطرق إلى أفهام الخلق وأشدها التصاقا بالعقول ، وكانت الادلة المذكورة فى القرآن يجب أن تكون أبعدها عن الدقة وأقربها إلى الافهام لينتفع به كل أحد من الخواص والعوام لاجرم ذكر الله تعالى فى أول كتابه ذلك . الثانى : أنه ليس الغرض من الدلائل القرآنية المجادلة . بل الغرض منها تحصيل العقائد الحقة فى القلوب ، وهذا النوع من الدلائل أقوى من سائر الطرق فى هذا الباب ، لان هذا النوع من الدلائل كما يفيد العلم بوجود الخالق فهو يذكر نعم الخالق علينا ، فإن الوجود والحياة من النعم العظيمة علينا ، وتذكير النعم مما يوجب المحبة وترك المنازعة وحصول الانقياد ، فلهذا السبب كان ذكر هذا النوع من الادلة أولى من سائر الانواع . واعلم أن للسلف طرقا لطيفة فى هذا الباب ، أحدها : يروى أن بعض الزنادقة أنكر الصانع عند جعفر الصادق رضى الله عنه . فقال جعفر : هل ركبت البحر ؟ قال نعم . قال هل رأيت اهواله ؟ قال بلى : هاجت يوما رياح هائلة فكسرت السفن وغرقت الملاحين ، فتعلقت أنا ببعض ألواحها ثم ذهب عنى ذلك اللوح فإذا أنا مدفوع فى تلاطم الامواج حتى دفعت إلى الساحل ، فقال جعفر قد كان اعتمادك من قبل على السفينة والملاح ثم على اللوح حتى تنجيك ، فلما ذهبت هذه الاشياء عنك هل اسلمت

نفسك للهلاك أم كنت ترجو السلامة بعد ؟ قال بل رجوت السلامة ، قال ممن كنت ترجوها فسكت الرجل فقال جعفر : إن الصانع هو الذى كنت ترجوه فى ذلك الوقت ، وهو الذى أنجاك من الغرق فأسلم الرجل على يده . وثانيها : جاء فى كتاب ديانات العرب أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعمران بن حصين « كم لك من إله » قال عشرة ، قال فمن لغمك وكربك ودفع الأمر العظيم إذا نزل بك من جملتهم ؟ قال الله ، قال عليه السلام : مالك من إله إلا الله . وثالثها : كان أبو حنيفة رحمه الله سيفاً على الدهرية ، وكانوا ينتهزون الفرصة ليقتلوه فبينما هو يوما فى مسجده قاعد إذ هجم عليه جماعة بسيوف مسلولة وهموا بقتله فقال لهم : أجيبونى عن مسألة ثم افعلوا ما شئتم فقالوا له هات ، فقال ما تقولون فى رجل يقول لكم إنى رأيت سفينة مشحونه بالأحمال مملوءة من الأثقال قد احتوشها فى لجة البحر أمواج متلاطمة ورياح مختلفة وهى من بينها تجرى مستوية ليس لها ملاح يجريها ولا متعهد يدفعها هل يجوز ذلك فى العقل ؟ قالوا لا ، هذا شىء لا يقبله العقل ! فقال حنيفه : يا سبحان الله إذا لم يجز فى العقل سفينة تجرى فى البحر مستوية من غير متعهد ولا مجرى فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها وتغير أعمالها وسعة أطرافها وتباين أكنافها من غير صانع وحافظ ؟ فبكوا جميعاً وقالوا صدقت وأغمدوا سيوفهم وتابوا . ورابعها : سألوا الشافعى رضى الله عنه ما الدليل على وجود الصانع ؟ فقال : ورقة الفرصاد طعمها ولونها وريحها وطبعها واحد عندكم ؟ قالوا نعم ، قال فتأكلها دودة القز فيخرج منها الابريسم ، والنحل فيخرج منها العسل . والشاة فيخرج منها البعر ، ويأكلها الظباء فينعقد فى نوافجها المسك فمن الذى جعل هذه الأشياء كذلك مع أن الطبع واحد ؟ فاستحسنوا منه ذلك وأسلموا على يده وكان عددهم سبعة عشر . وخامسها : سئل أبو حنيفة رضى الله عنه مرة أخرى فتمسك بأن الوالد يريد الذكر فيكون أنثى ، وبالعكس فدل على الصانع . وسادسها : تمسك أحمد بن حنبل رضى الله عنه بقلعة حصينة ملساء لا فرجة فيها ظاهرها كالفضة المذابة وباطنها كالذهب الابريز ، ثم انشقت الجدران وخرج من القلعة حيوان سميع بصير فلا بد من الفاعل ، عنى بالقلعة البيضة وبالحيوان الفرخ . وسابعها : سأل هرون الرشيد مالكا عن ذلك فاستدل باختلاف الأصوات وتردد النغمات وتفاوت اللغات . وثامنها : سئل أبو نواس عنه ، فقال :

تأمل فى نبات الارض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات ... وأزهار كما الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

وتاسعها : سئل أعرابى عن الدليل فقال : البعرة تدل على البعير . والروث على الحمير ، وآثار الاقدام على المسير . فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج . وبحار ذات أمواج ، أما تدل

والأرض ، وهو قوله (وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم) ولهذا الترتيب أسباب . الأول : أن أقرب الأشياء إلى الانسان نفسه ، وعلم الانسان بأحوال نفسه أظهر من علمه بأحوال غيره ، وإذا كان الغرض من الاستدلال افادة العلم ، فكل ما كان أظهر دلالة كان أقوى إفادة ، وكان أولى بالذكر . فلهذا السبب قدم ذكر نفس الانسان ، ثم ثناه بآبائه وأمهاته ثم ثلث بالأرض ، لأن الأرض أقرب إلى الانسان من السماء والانسان أعرف بحال الأرض منه بأحوال السماء ، وإنما قدم ذكر السماء على نزول الماء من السماء وخروج الثمرات بسببه لأن ذلك كالأمر المتولد من السماء والأرض والأثر متأخر عن المؤثر ، فلهذا السبب أخر الله ذكره عن ذكر الأرض والسماء . الثانى : هو أن خلق المكلفين أحياء قادرين أصل لجميع النعم ، وأما خلق الارض والسماء والماء فذاك إنما ينتفع به بشرط حصول الخلق والحياة والقدرة والشهوة ، فلا جرم قدم ذكر الاصول على الفروع . الثالث : أن كل ما فى الأرض والسماء من دلائل الصانع فهو حاصل فى الانسان ، وقد حصل فى الانسان من الدلائل مالم يحصل فيهما ؟ لان الانسان حصل فيه الحياة والقدرة والشهوة والعقل ، وكل ذلك مما لا يقدر عليه أحد سوى الله تعالى . فلما كانت وجوه الدلائل له ههنا أتم كان أولى بالتقديم ، واعلم أنا كما ذكرنا السبب فى الترتيب فلنذكر فى كل واحد من هذه الثلاثة من المنافع .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ اعلم أنه سبحانه وتعالى ذكر ههنا أنه جعل الارض فراشا ، ونظيره قوله (أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا) وقوله (الذى جعل لكم الأرض مهادا) واعلم أن كون الأرض فراشا مشروط بأمور . الشرط الاول : كونها ساكنة ، وذلك لانها لو كانت متحركة لكانت حركتها إما بالاستقامة أو بالاستدارة ، فإن كانت بالاستقامة لما كانت فراشا لنا على الاطلاق لان من طفر من موضع عال كان يجب أن لا يصل إلى الأرض لأن الأرض هاوية ، وذلك الانسان هاو ، والأرض أثقل من الانسان ، والثقيلان إذا نزلا كان أثقلهما أسرعهما والابطأ لا يلحق الأسرع فكان يجب ان لا يصل الانسان إلى الأرض فثبت أنها لو كانت هاوية لما كانت فراشا ، أما لو كانت حركتها بالاستدارة لم يكمل انتفاعنا بها ؛ لأن حركة الأرض مثلا إذا كانت إلى المشرق والانسان يريد أن يتحرك إلى جانب المغرب ولا شك أن حركة الارض أسرع فكان يجب أن يبقى الانسان على مكانه وأنه لا يمكنه الوصول إلى حيث يريد ، فلما أمكنه ذلك علمنا أن الأرض غير متحركة لا بالاستدارة ولا بالاستقامة فهى ساكنة . ثم اختلفوا فى سبب ذلك السكون على وجوه . أحدها : أن الأرض لانهاية لها من جانب السفل ، وإذا كان كذلك لم يكن لها مهبط فلا تنزل وهذا فاسد لما ثبت بالدليل تناهى الأجسام . وثانيها : الذين سلموا تناهى الأجسام قالوا الأرض ليست بكرة بل هى كنصف كرة وحدبتها فوق وسطحها أسفل وذلك السطح موضوع على الماء والهواء ، ومن شأن الثقيل إذا انبسط أن يندغم على الماء والهواء مثل

الرصاصة فانها إذا انبسطت طفت على الماء ، وإن جمعت رسبت وهذا باطل الوجهين . الأول : أن البحث عن سبب وقوف الماء والهواء كالبحث عن سبب وقوف الأرض . الثانى : لم صار ذلك الجانب من الأرض منبسطا حتى وقف على الماء وصار هذا الجانب متحدبا ؟ . وثالثها : الذين قالوا سبب سكون الأرض جذب الفلك لها من كل الجوانب فلم يكن انجذابها إلى بعض الجوانب أولى من بعض فبقيت فى الوسط وهذا باطل لوجهين . الأول : أن الأصغر أسرع انجذابا من الأكبر ، فما بال الذرة لا تنجذب إلى الفلك . الثانى : الأقرب أولى بالانجذاب فالذرة المقذوفة إلى فوق أولى بالانجذاب وكان يجب أن لا تعود . ورابعها : قول من جعل سبب سكونها دفع الفلك لها من كل الجوانب ، كما إذا جعل شىء من التراب فى قنينة ثم أديرت القنينة على قطبها إدارة سريعة ، فانه يقف التراب فى وسط القنينة لتساوى الدفع من كل الجوانب . وهذا أيضا باطل من وجوه خمسة . الأول : الدفع إذا بلغ فى القوة إلى هذا الحد فلم لا يحس به الواحد منا ؟ الثانى : ما بال هذا الدفع لا يجعل حركة السحب والرياح إلى جهة بعينها . الثالث : ما باله لم يجعل انتقالها إلى المغرب أسهل من انتقالها إلى المشرق . الرابع يجب أن يكون الثقيل كلما كان أعظم أن تكون حركته أبطأ ، لأن اندفاع الأعظم من الدافع القاسر ، أبطأ من اندفاع الأصغر . الخامس : يجب أن تكون حركة الثقيل النازل من الابتداء . أسرع من حركته عند الانتهاء ، لانه عند الابتداء ، أبعد من الفلك . وخامسها : أن الأرض بالطبع تطلب وسط الفلك ، وهو قول أرسطاطاليس وجمهور أتباعه ، وهذا أيضا ضعيف ؛ لأن الأجسام متساوية فى الجسمية ، فاختصاص البعض بالصفة التى لأجلها تطلب تلك الحالة لابد وأن يكون جائزا ، فيفتقر فيه إلى الفاعل المختار . وسادسها : قال أبو هاشم : النصف الأسفل من الأرض فيه اعتمادات صاعدة ، والنصف الأعلى فيه اعتمادات هابطة فتدافع الاعتماد ان فلزم الوقوف . والسؤال عليه : أن اختصاص كل واحد من النصفين بصفة مخصوصة لا يمكن إلا بالفاعل المختار . فثبت بما ذكرنا أن سكون الأرض ليس إلا من الله تعالى . وعند هذا نقول : انظر إلى الأرض لتعرف أنها مستقرة بلا علاقة فوقها ولا دعامة تحتها أما أنها لا علاقة فوقها فمشاهد ، على أنها لو كانت معلقة بعلاقة لاحتاجت العلاقة إلى علاقة أخرى لا إلى نهاية ، وبهذا الوجه ثبت أنه لا دعامة تحتها فعلمنا أنه لابد من ممسك يمسكها بقدرته واختياره ولهذا قال الله تعالى (إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده) . الشرط الثانى : فى كون الأرض فراشا لنا أن لا تكون فى غاية الصلابة كالحجر ، فان النوم والمشى عليه مما يؤلم البدن ، وأيضاً فلو كانت الأرض من الذهب مثلا لتعذرت الزراعة عليها ، ولا يمكن اتخاذ الابنية منه لتعذر حفرها وتركيبها كما يراد ؛ وأن لا تكون فى غاية اللين ، كالماء الذى تغوص فيه الرجل : الشرط الثالث : أن لا تكون فى غاية اللطافة والشفافية فان الشفاف لا يستقر النور عليه ، وما كان كذلك فانه لا يتسخن من الكواكب والشمس ، فكان يبرد جدا

فجعل الله كونه أغبر ، ليستقر النور عليه فيتسخن فيصلح أن يكون فراشا للحيوانات . الشرط الرابع : أن تكون بارزة من الماء ، لأن طبع الأرض أن يكون غائصا فى الماء فكان يجب أن تكون البحار محيطة بالأرض ، ولو كانت كذلك لما كانت فراشا لنا ، فقلب الله طبيعة الأرض وأخرج بعض جوانبها من الماء كالجزيرة البارزة حتى صلحت لأن تكون فراشا لنا ، ومن الناس من زعم أن الشرط فى كون الأرض فراشا أن لا تكون كرة ، واستدل بهذه الآية على أن الأرض ليست كرة ، وهذا بعيد جداً ، لأن الكرة إذا عظمت جداً كانت القطعة منها كالسطح فى إمكان الاستقرار عليه ، والذى يزيده تقريرا أن الجبال أوتاد الأرض ثم يمكن الاستقرار عليها ، فهذا أولى والله أعلم

﴿ المسألة الخامسة ﴾ فى سائر منافع الأرض وصفاتها . فالمنفعة الأولى : الأشياء المتولدة فيها من المعادن والنبات والحيوان والآثار العلوية والسفلية لا يعلم تفاصيلها إلا الله تعالى الثانية : أن يتخمر الرطب بها فيحصل التماسك فى أبدان المركبات . الثالثة : اختلاف بقاع الأرض ، فمنها أرض رخوة ، وصلبة ، ورملة ، وسبخة ، وحرة ، وهى قوله تعالى (وفى الأرض قطع متجاورات) وقال (والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذى خبث لايخرج إلا نكدا) الرابعة : اختلاف ألوانها فأحمر ، وأبيض ، وأسود ، ورمادى اللون ، وأغبر ، على ما قال تعالى (ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود) . الخامسة : انصداعها بالنبات ، قال تعالى (والأرض ذات الصدع) . السادسة : كونها خازنة للماء المنزل من السماء وإليه الاشارة بقوله تعالى (وأنزلنا من السماء ماء بقدر فاسكناه فى الارض وإنا على ذهاب به لقادرون) وقوله (قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين) . السابعة : العيون والأنهار العظام التى فيها وإليه الاشارة بقوله (وجعل فيها رواسى وأنهارا) . الثامنة : ما فيها من المعادن والفلزات ، وإليه الاشارة بقوله تعالى (والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون) ثم بين بعد ذلك تمام البيان ، فقال) وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) . التاسعة . الخبء الذى تخرجه الارض من الحب والنوى قال تعالى (إن الله فالق الحب والنوى) وقال (يخرج الخبء فى السماوات والأرض) ثم إن الأرض لها طبع الكرم لانك تدفع إليها حبة واحدة ، وهى تردها عليك سبعمائة (كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبله مائة حبة) . العاشرة : حياتها بعد موتها ؛ قال تعالى (أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا) وقال(وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون) الحادية عشرة : ما عليها من الدواب المختلفة الالوان والصور والخلق ، وإليه الإشارة بقوله (خلق السماوات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة) . والثانية عشر : مافيها من النبات المختلف ألوانه وأنواعه ومنافعه ، وإليه الإشارة بقوله (وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج) فاختلاف ألوانها دلالة ، واختلاف طعومها دلالة ، واختلاف روائحها دلالة ، فمنها قوت البشر ، ومنها قوت البهائم ، كما قال (كلوا

وارعوا أنعامكم) أما مطعوم البشر ، فمنها الطعام ، ومنها الادام ، ومنها الدواء ، ومنها الفاكهة ، ومنها الانواع المختلفة فى الحلاوة والحموضة . قال تعالى (وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين) وأيضاً فمنها كسوة البشر ، لأن الكسوة إما نباتية ، وهى القطن والكتان ، وإما حيوانية وهى الشعر والصوف والإبريسم والجلود ، وهى من الحيوانات التى بثها الله تعالى فى الأرض ، فالمطعوم من الأرض ، والملبوس من الأرض . ثم قال (ويخلق مالا تعلمون) وفيه إشارة إلى منافع كثيرة لا يعلمها إلا الله تعالى . ثم إنه سبحانه وتعالى جعل الأرض ساترة لقبائحك بعد مماتك ، فقال (ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا . منها خلقناكم وفيها نعيدكم) ثم إنه سبحانه وتعالى جمع هذه المنافع العظيمة للسماء والأرض فقال (وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض) . الثالثة عشرة : ما فيها من الاحجار المختلفة ، ففى صغارها ما يصلح للزينة فتجعل فصوصها للخواتم وفى كبارها ما يتخذ للأبنية ، فانظر إلى الحجر الذى تستخرج النار منه مع كثرته ، وانظر إلى الياقوت الاحمر مع عزته . ثم انظر إلى كثرة النفع بذلك الحقير ، وقلة النفع بهذا الشريف . الرابعة عشرة : ما أودع الله تعالى فيها من المعادن الشريفة ، كالذهب والفضة ، ثم تأمل فان البشر استخرجوا الحرف الدقيقة والصنائع الجليلة واستخرجوا السمكة من قعر البحر ، واستنزلوا الطير من أوج الهواء ثم عجزوا عن إيجاد الذهب والفضة ، والسبب فيه أنه لا فائدة فى وجودهما إلا الثمنية ، وهذه الفائدة لا تحصل إلا عند العزة فالقادر على ايجادهما يبطل هذه الحكمة . فلذلك ضرب الله دونهما بابا مسدودا ، إظهار لهذه الحكمة وابقاء لهذه النعمة ، ولذلك فان مالا مضرة على الخلق فيه مكنهم منه فصاروا متمكنين من اتخاذ الشبه من النحاس ، والزجاج من الرمل ، وإذا تأمل العاقل فى هذه اللطائف والعجائب اضطر فى افتقار هذه التدابير إلى صانع حكيم مقتدر عليم سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا . الخامسة عشرة : كثرة ما يوجد على الجبال والاراضى من الاشجار التى تصلح للبناء ، والسقف ، ثم الحطب . وما أشد الحاجة إليه فى الخبز والطبخ قد نبه الله تعالى على دلائل الارض ومنافعها بألفاظ لا يبلغها البلغاء ويعجز عنها الفصحاء فقال (وهو الذى مد الارض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين) وأما الأنهار فمنها العظيمة كالنيل ، وسيحون ، وجيحون ، والفرات ، ومنها الصغار ، وهى كثيرة وكلها تحمل مياها عذبة للسقى والزراعة وسائر الفوائد .

﴿ المسألة السادسة ﴾ فى أن السماء أفضل أم الأرض ؟ قال بعضهم : السماء أفضل لوجوه . أحدها : أن السماء متعبد الملائكة ، وما فيها بقعة عصى الله فيها أحد . وثانيها لما أتى آدم عليه السلام فى الجنة بتلك المعصية قيل له اهبط من الجنة ، وقال الله تعالى لا يسكن فى جوارى من عصانى . وثالثها : قوله تعالى (وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً) وقوله (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا) ولم يذكر فى الارض مثل ذلك . ورابعها : أن فى أكثر الامر ورد ذكر السماء مقدما

على الأرض فى الذكر . وقال آخرون : بل الأرض أفضل لوجوه « ا » أنه تعالى وصف بقاعا من الأرض بالبركة بقوله (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا) « ب » (فى البقعة المباركة من الشجرة) « ج » (إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله) « د » وصف أرض الشام بالبركة فقال (مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها) وخامسها : وصف جملة الأرض بالبركة فقال (قل أئنكم لتكفرون) إلى قوله (وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها) فان قيل : وأى بركة فى الفلوات الخالية والمفاوز المهلكة ؟ قلنا إنها مساكن للوحوش ومرعاها ، ثم إنها مساكن للناس إذا احتاجوا إليها ، فلهذه البركات قال تعالى (وفى الأرض آيات للموقنين) وهذه الآيات وإن كانت حاصلة لغير الموقنين لكن لما لم ينتفع بها إلا الموقنون جعلها آيات للموقنين تشريفا لهم كما قال (هدى للمتقين) وسادسها : أنه سبحانه وتعالى خلق الأنبياء المكرمين من الأرض على ما قال (منها خلقناكم وفيها نعيدكم) ولم يخلق من السموات شيئا لأنه قال (وجعلنا السماء سقفا محفوظا) . وسابعها : أن الله تعالى أكرم نبيه بها فجعل الأرض كلها مساجداً له وجعل ترابها طهورا . أما قوله (السماء بناء) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أنه تعالى ذكر أمر السماوات والأرض فى كتابه فى مواضع ، ولا شك أن إكثار ذكر الله تعالى من ذكر السماوات والأرض يدل على عظم شأنهما ، وعلى أن له سبحانه وتعالى فيهما أسراراً عظيمة ، وحكما بالغة لا يصل إليها أفهام الخلق ولا عقولهم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى فضائل السماء وهى من وجوه . الأول : أن الله تعالى زينها بسبعة أشياء بالمصابيح (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) وبالقمر (وجعل القمر فيهن نورا) وبالشمس (وجعل الشمس سراجا) وبالعرش (رب العرش العظيم) وبالكرسى (وسع كرسيه السموات والأرض) وباللوح (فى لوح محفوظ) وبالقلم (نون والقلم) فهذه سبعة : ثلاثة منها ظاهرة ، وأربعة خفية : ثبتت بالدلائل السمعية من الآيات والأخبار . الثانى : أنه تعالى سمى السموات بأسماء تدل على عظم شأنها : سماء ، وسقفا محفوظا ، وسبعاً طباقا ، وسبعاً شداداً . ثم ذكر عاقبة أمرها فقال (وإذا السماء فرجت ، وإذا السماء كشطت ، يوم نطوى السماء ، يوم تكون السماء كالمهل ، يوم تمور السماء مورا ، فكانت وردة كالدهان) وذكر مبدأها فى آيتين فقال (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) وقال (أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما) فهذا الاستقصاء الشديد فى كيفية حدوثهما وفنائهما يدل على أنه سبحانه خلقهما لحكمة بالغة على ما قال (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا) ، والثالث : أنه تعالى جعل السماء قبلة الدعاء : فالأيدى ترفع اليها ، والوجوه تتوجه نحوها ، وهى منزل الأنوار ومحل الصفاء والاضواء والطهارة والعصمة عن الخلل والفساد . الرابع قال بعضهم السماوات والأرضون على صفتين ، فالسماوات مؤثرة غير متأثرة . والأرضون متأثرة غير مؤثرة

والمؤثر أشرف من القابل ، فلهذا السبب قدم ذكر السماء على الأرض فى الأكثر ، وأيضا فى أكثر الأمر ذكر السموات بلفظ الجمع ، والأرض بلفظ الواحد . فانه لا بد من السموات الكثيرة ليحصل بسببها الاتصالات المختلفة للكواكب وتغير مطارح الشعاعات ، وأما الأرض فقابلة فكانت الأرض الواحدة كافية . الخامس : تفكر فى لون السماء ومافيه من صواب التدبير ، فان هذا اللون أشد الألوان موافقة للبصر وتقوية له ، حتى أن الأطباء يأمرون من أصابه وجع العين بالنظر إلى الزرقة ، فانظر كيف جعل الله تعالى أديم السماء ملونا بهذا اللون الأزرق ، لتنتفع به الابصار الناظرة اليها ، فهو سبحانه وتعالى جعل لونها أنفع الألوان ، وهو المستنير ، وشكلها أفضل الاشكال ، وهو المستدير ، ولهذا قال (أولم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج) يعنى ما فيها من فصول ، ولو كانت سقفا غير محيط بالأرض لكانت الفروج حاصلة ،

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى بيان فضائل السماء وبيان فضائل مافيها ، وهى الشمس والقمر والنجوم أما الشمس فتفكر فى طلوعها وغروبها ، فلولا ذلك لبطل أمر العالم كله ، فكيف كان الناس يسعون فى معايشهم ، ثم المنفعة فى طلوع الشمس ظاهرة ، ولكن تأمل النفع فى غروبها فلولا غروبها لم يكن للناس هدو ولا قرار مع احتياجهم إلى الهدو والقرار لتحصيل الراحة وانبعاث القوة الهاضمة وتنفيذ الغذاء إلى الاعضاء على ما قال تعالى (وهو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا) وأيضا فلولا الغروب لكان الحرص يحملهم على المداومة على العمل على ما قال (وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا) والثالث : أنه لولا الغروب لكانت الأرض تحمى بشروق الشمس عليها حتى يحترق كل ما عليها من حيوان . ويهلك ما عليها من نبات على ما قال (ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً) فصارت الشمس بحكمة الحق سبحانه وتعالى تطلع فى وقت وتغيب فى وقت ، بمنزلة سراج يرفع لأهل بيت بمقدار حاجتهم ثم يرفع عنهم ليستقروا ويستريحوا فصار النور والظلمة على تضادهما متعاونين متظاهرين على ما فيه صلاح العالم هذاكله فى طلوع الشمس وغروبها . أما ارتفاع الشمس وانحطاطها فقد جعله الله تعالى سبباً لا قامة الفصول الاربعة ففى الشتاء تغور الحرارة فى الشجر والنبات فيتولد منه مواد الثمار ويلطف الهواء ويكثر السحاب والمطر ، ويقوى أبدان الحيوانات بسبب احتقان الحرارة الغريزية فى البواطن ، وفى الربيع تتحرك الطبائع وتظهر المواد المتولدة فى الشتاء فيطلع النبات وينور الشجر ويهيج الحيوان للسفاد ، وفى الصيف يحتدم الهواء فتنضج الثمار ، وتنحل فضول الابدان ، ويجف وجه الأرض ، ويتهيأ للبناء والعمارات ، وفى الخريف يظهر اليبس والبرد فتنتقل الأبدان قليلا قليلا إلى الشتاء ، فانه إن وقع الانتقال دفعة واحدة هلكت الابدان وفسدت ، وأما حركة الشمس فتأمل فى منافعها ، فانها لو كانت واقفة فى موضع

واحد لا شتدت السخونة فى ذلك الموضع واشتد البرد فى سائر المواضع ، لكنها تطلع فى أول النهار من المشرق فتقع على ما يحاذيها من وجه المغرب ، ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد جهة حتى تنتهى إلى الغروب فتشرق على الجوانب الشرقية فلا يبقى موضع مكشوف إلا ويأخذ حظا من شعاع الشمس ، وأيضا كأن الله تعالى يقول لو وقفت فى جانب الشرق والغنى قد رفع بناءه على كوة الفقير ، فكان لا يصل النور إلى الفقير ، لكنه تعالى يقول إن كان الغنى منعه نور الشمس فأنا أدير الفلك وأديرها عليه حتى يأخذ الفقير نصيبه . وأما منافع ميلها فى حركتها عن خط الاستواء ، فنقول : لو لم يكن للكواكب حركة فى الميل لكان التأثير مخصوصا ببقعة واحدة فكان سائر الجوانب يخلو عن المنافع الحاصلة منه وكان الذى يقرب منه متشابه الأحوال ، وكانت القوة هناك لكيفية واحدة ، فان كانت حارة أفنت الرطوبات وأحالتها كلها إلى النارية ولم تتكون المتولدات فيكون الموضع المحاذى لممر الكواكب على كيفية ، وخط ما لا يحاذيه على كيفية أخرى وخط متوسط بينهما على كيفية متوسطة فيكون فى موضع شتاء دائم يكون فيه الهواء والعجاجة وفى موضع آخر صيف دائم يوجب الاحتراق ، وفى موضع آخر ربيع أو خريف لا يتم فيه النضج ولو لم يكن عودات متتالية ؛ وكانت الكواكب تتحرك بطيئاً لكان الميل قليل المنفعة وكان التأثير شديد الأفراط ، وكان يعرض قريبا مما لم يكن ميل ، ولو كانت الكواكب أسرع حركة من هذه لما كملت المنافع وماتمت ، فأما إذا كان هناك ميل يحفظ الحركة فى جهة مدة ، ثم تنتقل إلى جهة أخرى بمقدار الحاجة وتبقى فى كل جهة برهة من الدهر تم بذلك تأثيره وكثرت منفعته ، فسبحان الخالق المدبر بالحكمة البالغة والقدرة الغير المتناهية . هذا أما القمر ، وهو المسمى بآية الليل : فاعلم أنه سبحانه وتعالى جعل طلوعه وغيبته مصلحة ، وجعل طلوعه فى وقت مصلحة ، وغروبه فى وقت آخر مصلحة ، أما غروبه ففيه نفع لمن هرب من عدوه فيستره الليل يخفيه فلا يلحقه طالب فينجو ، ولولا الظلام لأدركه العدو ، وهو المراد من قول المتنبى :

وكم لظلام الليل عندى من يد   تخبر أن المانوية تكذب

وأما طلوعه ففيه نفع لمن ضل عنه شىء أخفاه الظلام وأظهره القمر . ومن الحكايات : أن أعرابيا نام عن جمله ليلا ففقده ، فلما طلع القمر وجده فنظر إلى القمر وقال : إن الله صورك ونورك ، وعلى البروج دورك ، فاذا شاء نورك ، وإذا شاء كورك ، فلا أعلم مزيدا أسأله لك ، ولئن أهديت إلى سرورا لقد أهدى الله اليك نورا ، ثم أنشأ يقول :

ماذا أقول وقولى فيك ذو قصر   وقد كفيتنى التفصيل والجملا
إن قلت لازلت مرفوعا فأنت كذا   أو قلت زانك ربى فهو قد فعلا

ولقد كان فى العرب من يذم القمر ويقول : القمر يقرب الأجل ، ويفضح السارق ،

ويدرك الهارب . ويهتك العاشق ، ويبلى الكتان ، ويهرم الشبان ، وينسى ذكر الأحباب ، ويقرب الدين ، ويدنى الحين . وكان فيهم أيضا من يفضل القمر على الشمس من وجوه : أحدها : أن القمر مذكر . والشمس مؤنث لكن المتنبى طعن فيه بقوله :

فما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال

وثانيها : أنهم قالوا : القمران ، فجعلوا الشمس تابعة للقمر ، ومنهم من فضل الشمس على القمر بأن الله تعالى قدمها على القمر فى قوله (والشمس والقمر بحسبان ، والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها) إلا أن هذه الحجة منقوضة بقوله (فمنكم كافر ومنكم مؤمن) وقال (لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة) وقال (خلق الموت والحياة) وقال (إن مع العسر يسرا) وقال (فمنهم ظالم الآية) . أما النجوم : ففيها منافع . المنفعة الأولى : كونها رجوما للشياطين ، والثانية معرفة القبلة بها ، والثالثة أن يهتدى بها المسافر فى البر والبحر ، قال تعالى (وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر) ثم النجوم على ثلاثة أقسام : غاربة لا تطلع كالكواكب الجنوبية ، وطالعة لا تغرب كالشمالية ، ومنها ما يغرب تارة ويطلع أخرى ، وأيضاً منها ثوابت ، ومنها سيارات ، ومنها شرقية ، ومنها غربية والكلام فيها طويل . أما الذى تدعيه الفلاسفة من معرفة الأجرام والأبعاد .

* فدع عنك بحرا ضل فيه السوابح * قال تعالى (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول) وقال (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) وقال (ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب) وقال (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم) فقد عجز الخلق عن معرفة ذواتهم وصفاتهم فكيف يقدرون على معرفة أبعد الأشياء عنهم ، والعرب مع بعدهم عن معرفة الحقائق عرفوا ذلك ، قال قائلهم

وأعرف ما فى اليوم والأمس قبله ولكننى عن علم ما فى غد عمى

وقال لبيد : فوالله ما تدرى الضوارب بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع

﴿ المسألة الرابعة ﴾ فى شرح كون السماء بناء ، قال الجاحظ : إذا تأملت فى هذا العالم وجدته كالبيت المعدفيه كل ما يحتاج إليه ، فالسماء مرفوعة كالسقف ، والأرض ممدودة كالبساط ، والنجوم منورة كالمصابيح والانسان كمالك البيت المتصرف فيه ، وضروب النبات مهيأة لمنافعه وضروب الحيوانات مصرفة فى مصالحه ، فهذه جملة واضحة دالة على أن العالم مخلوق بتدبير كامل وتقدير شامل وحكمة بالغة وقدرة غير متناهية والله أعلم

أما قوله تعالى (وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) فاعلم أن الله تعالى لما خلق الأرض وكانت كالصدف والدرة المودعة فيه آدم وأولاده ، ثم علم الله أصناف حاجاتهم فكأنه قال يا آدم لا أحوجك إلى شىء غير هذه الأرض التى هى لك كالام فقال (أنا صببنا الماء

صبا ثم شققنا الأرض شقاً) فانظر يا عبدى أن أعز الأشياء عندك الذهب والفضة ، ولو أنى خلقت الأرض من الذهب والفضة هل كان يحصل منها هذه المنافع ، ثم إنى جعلت هذه الأشياء فى هذه الدنيا مع أنها سجن ، فكيف الحال فى الجنة ، فالحاصل أن الأرض أمك بل أشفق من الأم ؛ لأن الأم تسقيك لوناً واحداً من اللبن ، والأرض تطعمك كذا وكذا لوناً من الأطعمة ، ثم قال (منها خلقناكم وفيها نعيدكم) معناه نردكم إلى هذه الأم ، وهذا ليس بوعيد ؛ لان المرء لا يوعد بأمه وذلك لان مكانك من الام التى ولدتك أضيق من مكانك من الأرض ، ثم إنك كنت فى بطن الام تسعة أشهر فما مسك جوع ولا عطش ، فكيف إذا دخلت بطن الأم الكبرى ، ولكن الشرط أن تدخل بطن هذه الأم الكبرى ، كما كنت فى بطن الأم الصغرى ؛ لانك حين كنت فى بطن الأم الصغرى ما كانت لك زلة ، فضلا عن أن تكون لك كبيرة ، بل كنت مطيعاً لله بحيث دعاك مرة إلى الخروج إلى الدنيا فخرجت إليها بالرأس طاعة منك لربك ، واليوم يدعوك سبعين مرة إلى الصلاة فلا تجيبه برجلك ، واعلم أنه سبحانه وتعالى لما ذكر الأرض والسماء بين ما بينهما من شبه عقد النكاح بانزال الماء من السماء على الأرض والإخراج به من بطنها أشباه النسل الحاصل من الحيوان ، ومن أنواع الثمار رزقا لبنى آدم ليتفكروا فى أنفسهم وفى أحوال ما فوقهم وما تحتهم، ويعرفوا أن شيئا من هذه الاشياء لا يقدر على تكوينها وتخليقها إلا من كان مخالفاً لها فى الذات والصفات ، وذلك هو الصانع الحكيم سبحانه وتعالى . وههنا سؤالات . السؤال الأول : هل تقولون إن الله تعالى هو الخالق لهذه الثمرات عقيب وصول الماء إليها بمجرى العادة ، أو تقولون إن الله تعالى خلق فى الماء طبيعة مؤثرة ، وفى الأرض طبيعة قابلة ، فاذا اجتمعا حصل الأثر من تلك القوة التى خلقها الله تعالى ؟ والجواب : لا شك أن على كلا القولين لا بد من الصانع الحكيم وأما التفصيل فنقول : لا شك أنه تعالى قادر على خلق هذه الثمار ابتداء من غير هذه الوسائط لان الثمرة لا معنى لها إلا جسم قام به طعم ولون ورائحة ورطوبة ، والجسم قابل لهذه الصفات ، وهذه الصفات مقدورة لله تعالى ابتداء لان المصحح للمقدورية إما الحدوث ، أو الامكان ، وإما هما وعلى التقديرات فانه يلزم أن يكون الله تعالى قادراً على خلق هذه الأعراض فى الجسم ابتداء بدون هذه الوسائط ، ومما يؤكد هذا الدليل العقلى من الدلائل النقلية ما ورد الخبر بأنه تعالى يخترع نعيم أهل الجنة للمثابين من غير هذه الوسائط ، إلا أنا نقول قدرته على خلقها ابتداء لا تنافى قدرته عليها بواسطة خلق هذه القوى المؤثرة والقابلة فى الأجسام ، وظاهر قول المتأخرين من المتكلمين إنكار ذلك ولا بد فيه من دليل . السؤال الثانى : لما كان قادراً على خلق هذه الثمار بدون هذه الوسائط فما الحكمة فى خلقها بهذه الوسائط فى هذه المدة الطويلة ؟ والجواب : يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد . ثم ذكروا من الحكم المفصلة وجوها . أحدها أنه تعالى إنما أجرى العادة بأن لا يفعل ذلك إلا على ترتيب وتدريج ، لان المكلفين إذا تحملوا المشقة فى الحرث والغرس طلباً

للثمرات وكدوا أنفسهم فى ذلك حالا بعد حال علموا أنهم لما احتاجوا إلى تحمل هذه المشاق لطلب هذه المنافع الدنيوية ، فلأن يتحملوا مشاق أقل من المشاق الدنيوية لطلب المنافع الأخروية التى هى أعظم من المنافع الدنيوية كان أولى ، وصار هذا كما قلنا انه تعالى قادر على خلق الشفاء من غير تناول الدواء لكنه أجرى عادته بتوقيفه عليه لأنه إذا تحمل مرارة الأدوية دفعا لضرر المرض ، فلأن يتحمل مشاق التكليف دفعا لضرر العقاب كان أولى وثانيها : أنه تعالى لو خلقها دفعة من غير هذه الوسائط لحصل العلم الضرورى باسنادها إلى القادر الحكيم ، وذلك كالمنافى للتكليف والابتلاء . أما لو خلقها بهذه الوسائط فحينئذ يفتقر المكلف فى اسنادها إلى القادر إلى نظر دقيق ، وفكر غائص فيستوجب الثواب ، ولهذا قيل : لولا الأسباب لما ارتاب مرتاب . وثالثها : أنه ربما كان للملائكة ولأهل الاستبصار عبر فى ذلك وأفكار صائبة . السؤال الثالث : قوله (وأنزل من السماء ماء) يقتضى نزول المطر من السماء وليس الأمر كذلك فان الأمطار إنما تتولد من أبخرة ترتفع من الأرض وتتصاعد إلى الطبقة الباردة من الهواء فتجتمع هناك بسبب البرد وتنزل بعد اجتماعها وذلك هو المطر . والجواب من وجوه . احدها : أن السماء إنما سميت سماء اسموها فكل ما سماك فهو سماء فاذا نزل من السحاب فقد نزل من السماء وثانيها : أن المحرك لا ثارة تلك الأجزاء الرطبة من عمق الأرض الأجزاء الرطبة (أنزل من السماء ماء) وثالثها : أن قول الله هو الصدق وقد أخبر أنه تعالى ينزل المطر من السماء ، فاذا علمنا أنه مع ذلك ينزل من السحاب فيجب أن يقال ينزل من السماء إلى السحاب ، ومن السحاب إلى الأرض . السؤال الرابع : مامعنى من فى قوله (من الثمرات) الجواب فيه وجهان . أحدهما : التبعيض لأن المنكرين أعنى ماء ورزقا يكتنفانه وقد قصد بتنكيرهما معنى البعضية فكأنه قيل وأنزلنا من السماء بعض الماء فأخرجنا به بعض الثمرات ليكون بعض رزقكم . والثانى : أن يكون للبيان كقولك أنفقت من الدراهم إنفاقا ، فان قيل فبم انتصب رزقا ؟ قلنا إن كان من للتبعيض كان انتصابه بأنه مفعول له . وإن كانت مبينة كان مفعولا لأخرج . السؤال الخامس : الثمر المخرج بماء السماء كثير ، فلم قيل الثمرات دون الثمر أو الثمار ؟ الجواب : تنبيها على قلة ثمار الدنيا وإشعاراً بتعظيم أمر الآخرة والله أعلم .

أما قوله تعالى (فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) ففيه سؤالات . السؤال الأول : بم تعلق قوله (فلا تجعلوا) الجواب فيه ثلاثة أوجه . أحدها : أن يتعلق بالأمر ، أى اعبدوا فلا تجعلوا لله أنداداً فان أصل العبادة وأساسها التوحيد . وثانيها : بلعل ، والمعنى خلقكم لكى تتقوا وتخافوا عقابه فلا تشبهوا له نداً فانه من أعظم موجبات العقاب . وثالثها : بقوله (الذى جعل لكم الأرض فراشا) أى هو الذى خلق لكم هذه الدلائل الباهرة فلا تتخذوا له شركاء . السؤال الثانى : ما الند ؟ الجواب : أنه المثل المنازع وناددت الرجل نافرته من ند ندودا إذا نفر كأن كل واحد من الندين يناد صاحبه أى ينافره ويعانده ، فان قيل إنهم لم يقولوا إن الأصنام

تنازع الله . قلنا لما عبدوها وسموها آلهة أشبهت حالهم حال من يعتقد أنها آلهة قادرة على منازعته فقيل لهم ذلك على سبيل التهكم وكما تهكم بلفظ الند شنع عليهم بأنهم جعلوا أنداداً كثيرة لمن لا يصلح أن يكون له ند قط ، وقرأ محمد بن السميفع فلا تجعلوا لله نداً . السؤال الثالث : ما معنى (وأنتم تعلمون) الجواب : معناه إنكم لكمال عقولكم تعلمون أن هذه الأشياء لا يصح جعلها أنداداً لله تعالى ، فلا تقولوا ذلك فان القول القبيح ممن علم قبحه يكون أقبح وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنه ليس فى العالم أحد يثبت لله شريكا يساويه فى الوجود والقدرة والعلم والحكمة ، وهذا مما لم يوجد إلى الآن لكن الثنوية يثبتون إلهين أحدهما حليم يفعل الخير والثانى سفيه يفعل الشر ، وأما اتخاذ معبود سوى الله تعالى ففى الذاهبين إلى ذلك كثرة ، الفريق الأول عبدة الكواكب وهم الصابئة ، فانهم يقولون إن الله تعالى خالق هذه الكواكب ، وهذه الكواكب هى المدبرات لهذا العالم ، قالوا فيجب علينا أن نعبد الكواكب ، والكواكب تعبد الله تعالى . والفريق الثانى : النصارى الذين يعبدون المسيح عليه السلام . والفريق الثالث : عبدة الأوثان ، واعلم أنه لا دين أقدم من دين عبدة الأوثان ، وذلك لأن أقدم الأنبياء الذين نقل الينا تاريخهم هو نوح عليه السلام ، وهو إنما جاء بالرد عليهم على ما أخبر الله تعالى عن قومه فى قوله (وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا) فعلمنا أن هذه المقالة كانت موجودة قبل نوح عليه السلام . وهى باقية إلى الآن بل أكثر أهل العالم مستمرون على هذه المقالة . والدين والمذهب الذى هذا شأنه يستحيل أن يكون بحيث يعرف فساده بالضرورة لكن العلم بأن هذا الحجر المنحوت فى هذه الساعة ليس هو الذى خلقنى وخلق السموات والأرض علم ضرورى فيستحيل إطباق الجمع العظيم عليه ، فوجب أن يكون لعبدة الاوثان غرض آخر سوى ذلك والعلماء ذكروا فيه وجوها . أحدها : ماذكره أبو معشر جعفر ابن محمد المنجم البلخى فى بعض مصنفاته أن كثيرا من أهل الصين والهند كانوا يقولون بالله وملائكته ويعتقدون أن الله تعالى جسم وذو صورة كأحسن ما يكون من الصور ، وهكذا حال الملائكة أيضا فى صورهم الحسنة ، وأنهم كلهم قد احتجبوا عنا بالسماء وأن الواجب عليهم أن يصوغوا تماثيل أنيقة المنظر حسنة الرواء على الهيئة التى كانوا يعتقدونها من صور الاله والملائكة ، فيعكفون على عبادتها قاصدين طلب الزلفى إلى الله تعالى وملائكته فان صح ما ذكره أبو معشر فالسبب فى عبادة الاوثان اعتقاد الشبه . وثانيها : ما ذكره اكثر العلماء وهو أن النــــاس رأوا تغيرات أحوال هذا العالم مربوطة بتغيرات أحوال الكواكب فان بحسب قرب الشمس وبعدها عن سمت الرأس تحدث الفصول المختلفه والاحوال المتباينة ، ثم إنهم رصدوا أحوال سائر الكواكب فاعتقدوا ارتباط السعادة والنحوسة فى الدنيا بكيفية وقوعها فى طوالع الناس فلما اعتقدوا ذلك بالغوا فى تعظيمها ، فمنهم من اعتقد أنها أشياء واجبة الوجود لذواتها وهى التى خلقت هذه العوالم ، ومنهم من اعتقد أنها مخلوقة للاله الأكبر لكنها خالقة لهذا العالم ، فالأولون

اعتقدوا أنها هى الإله فى الحقيقة والفريق الثانى أنها هى الوسائط بين الله تعالى وبين البشر ، فلا جرم اشتغلوا بعبادتها والخضوع لها ، ثم لما رأوا الكواكب مستترة فى أكثر الأوقات عن الأبصار اتخذوا لها أصناما وأقبلوا على عبادتها قاصدين بتلك العبادات تلك الأجرام العالية ، ومتقربين إلى أشباحها الغائبة ، ثم لما طالت المدة ألغوا ذكر الكواكب وتجردوا لعبادة تلك التماثيل ، فهؤلاء فى الحقيقة عبدة الكواكب . وثالثها : أن أصحاب الأحكام كانوا يعينون أوقاتا فى السنين المتطاولة نحو الألف والألفين ويزعمون أن من اتخذ طلسما فى ذلك الوقت على وجه خاص فانه ينتفع به فى أحوال مخصوصة نحو السعادة والخصب ودفع الآفات وكانوا إذا اتخذوا ذلك الطلسم عظموه لاعتقادهم أنهم ينتفعون به فلما بالغوا فى ذلك التعظيم صار ذلك كالعبادة ولما طالت مدة ذلك الفعل نسوا مبدأ الأمر واشتغلوا بعبادتها على الجهالة بأصل الأمر . ورابعها : أنه متى مات منهم رجل كبير يعتقدون فيه أنه مجاب الدعوة ومقبول الشفاعة عند الله تعالى اتخذوا صنما على صورته يعبدونه على اعتقاد أن ذلك الانسان يكون شفيعاً لهم يوم القيامة عند الله تعالى على ما أخبر الله تعالى عنهم بهذه المقالة فى قوله (هؤلاء شفعاؤنا عند الله) وخامسها : لعلهم اتخذوها محاريب لصلواتهم وطاعاتهم ويسجدون إليها لا لها كما أنا نسجد إلى القبلة لا للقبلة ولما استمرت هذه الحالة ظن الجهال من القوم أنه يجب عبادتها . وسادسها : لعلهم كانوا من المجسمة فاعتقدوا جواز حلول الرب فيها فعبدوها على هذا التأويل ، فهذه هى الوجوه التى يمكن حمل هذه المقالة عليها حتى ليصير بحيث يعلم بطلانه بضرورة العقل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فان قال قائل : لما رجع حاصل مذهب عبدة الأوثان إلى هذه الوجوه التى ذكرتموها فمن أين يلزم من اثبات خالق العالم أن لا يجوز عبادة الاوثان ؟ الجواب قلنا : إنه تعالى إنما نبه على كون الأرض والسماء مخلوقتين بما بينا أن الأرض والسماء يشاركون سائر الأجسام فى الجسمية فلا بد وأن يكون اختصاص كل واحد منهما بما اختص به من الأشكال والصفات والأخبار بتخصيص مخصص وبينا أن ذلك المخصص لو كان جسما لافتقر هو أيضا إلى مخصص آخر ، فوجب أن لا يكون جسما ، إذا ثبت هذا فنقول : أما قول من ذهب إلى عبادة الأوثان بناء على اعتقاد الشبه فلما دللنا بهذه الدلالة على نفى الجسمية فقد بطل قوله ، وأما القول الثانى وهو أن هذه الكواكب هى المدبرة لهذا العالم فلما أقمنا الدلالة على أن كل جسم يفتقر فى اتصافه بكل ما اتصف به إلى الفاعل المختار بطل كونها آلهة ، وثبت أنها عبيد لا أرباب ، وأما القول الثالث وهو قول أصحاب الطلسمات فقد بطل أيضا لان تأثير الطلسمات إنما يكون بواسطة قوى الكواكب ، فلما دللنا على حدوث الكواكب ثبت قولنا وبطل قولهم . وأما القول الرابع والخامس فليس فى العقل ما يوجبه أو يحيله ، لكن الشرع لما منع منه وجب الامتناع عنه . وأما القول السادس فهو أيضا بناء على التشبيه فثبت بما قدمنا أن إقامة الدلالة على افتقار

وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ

العالم إلى الصانع المختار المنزه عن الجسمية يبطل القول بعبادة الأوثان على كل التأويلات والله أعلم

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أعلم أن اليونانيين كانوا قبل خروج الإسكندر عمدوا إلى بناء هيا كل لهم معروفة بأسماء القوى الروحانية و الأجرام النيرة واتخذوها معبودا لهم على حدة ، وقد كان هيكل العلة الأولى ـ وهى عندهم الأمر الالهى ـ وهيكل العقل الصريح ، وهيكل السياسة المطلقة . وهيكل النفس والصورة مدورات كلها ، وكان هيكل زحل مسدسا . وهيكل المشترى مثلثا . وهيكل المريخ مستطيلا ، وهيكل الشمس مربعا ، وكان هيكل الزهرة مثلثا فى جوفه مربع وهيكل عطارد مثلثا فى جوفه مستطيل ، وهيكل القمر مثمنا فزعم أصحاب التاريخ أن عمرو بن لحى لما ساد قومه وترأس على طبقاتهم وولى أمر البيت الحرام اتفقت له سفرة إلى البلقاء فرآى قوما يعبدون الأصنام فسألهم عنها فقالوا هذه أرباب نستنصر بها فننصر ، ونستسق بها فنسق . فالتمس اليهم أن يكرموه بواحد منها فأعطوه الصنم المعروف بهبل فسار به إلى مكة ووضعه فى الكعبة ودعا الناس إلى تعظيمه ، وذلك فى أول ملك سابور ذى الأكتاف . واعلم أن من بيوت الأصنام المشهورة « غمدان » الذى بناه الضحاك على اسم الزهرة بمدينة صنعاء وخربه عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه ، ومنها « نوبهار بلخ » الذى بناه منوشهر الملك على اسم القمر ثم كان لقبائل العرب أوثان معروفة مثل « ود » بدومة الجندل لكلب و « سواع » لبنى هذيل و « يغوث » لبنى مذحج و « يعوق » لهمدان و « نسر » بأرض حمير لذى الكلاع و « اللات » بالطائف لثقيف و « مناة » بيثرب للخزرج و « العزى » لكنانة بنواحى مكة و « أساف ونائلة » على الصفا والمروة وكان قصى جد رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهاهم عن عبادتها ويدعوهم إلى عبادة الله تعالى ، وكذلك زيد بن عمرو بن نفيل وهو الذى يقول :

أربا واحـــدا أم ألف رب أدين إذا تقسمت الأمور
تركت اللات والعزى جميعا كذلك يفعل الرجل البصير

الكلام فى النبوة

قوله تعالى: ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾

فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنه سبحانه وتعالى لما أقام الدلائل القاهرة على إثبات الصانع وأبطل القول بالشريك عقبه بما يدل على النبوة ، وذلك يدل على فساد قول التعليمية الذين جعلوا معرفة الله مستفادة من معرفة الرسول ، وقول الحشوية الذين يقولون لا تحصل معرفة الله إلا من القرآن والأخبار ، ولما كانت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم مبنية على كون القرآن معجزا أقام الدلالة على كونه معجزا . واعلم أن كونه معجزاً يمكن بيانه من طريقين . الأول : أن يقال إن هذا القرآن لا يخلو حاله من أحد وجوه ثلاثة : إما أن يكون مساويا لسائر كلام الفصحاء , أو زائدا على سائر كلام الفصحاء بقدر لا ينقض العادة أو زائدا عليه بقدر ينقض ، والقسمان الأولان باطلان فتعين الثالث . وإنما قلنا إنهما باطلان ، لأنه لو كان كذلك لكان من الواجب أن يأتوا بمثل سورة منه إما مجتمعين أو منفردين ، فان وقع التنازع وحصل الخوف من عدم القبول فالشهود والحكام يزيلون الشبهة ، وذلك نهاية فى الاحتجاج لأنهم كانوا فى معرفة اللغة والاطلاع على قوانين الفصاحة فى الغاية . وكانوا فى محبة أبطال أمره فى الغاية حتى بذلوا النفوس والأموال وارتكبوا ضروب المهالك والمحن ، وكانوا فى الحمية والأنفة على حد لا يقبلون الحق فكيف الباطل ، وكل ذلك يوجب الاتيان بما يقدح فى قوله والمعارضة أقوى القوادح . فلما لم يأتوا بها علمنا عجزهم عنها فثبت أن القرآن لا يماثل قولهم ، وأن التفاوت بينه وبين كلامهم ليس تفاوتا معتادا فهو إذن تفاوت ناقض للعادة فوجب أن يكون معجزا ، فهذا هو المراد من تقرير هذه الدلالة فظهر أنه سبحانه كما لم يكتف فى معرفة التوحيد بالتقليد فكذا فى معرفة النبوة لم يكتف بالتقليد : واعلم أنه قد اجتمع فى القرآن وجوه كثيرة تقتضى نقصان فصاحته ، ومع ذلك فانه فى الفصاحة بلغ النهاية التى لا غاية لها وراءها فدل ذلك على كونه معجزا . أحدها : أن فصاحة العرب أكثرها فى وصف مشاهدات مثل وصف بعير او فرس أو جارية أو ملك أو ضربة أو طعنة أو وصف حرب أو وصف غارة وليس فى القرآن من هذه الأشياء شيء فكان يجب أن لا تحصل فيه الألفاظ الفصيحة التى اتفقت العرب عليها فى كلامهم . وثانيها : أنه تعالى راعى فيه طريقة الصدق وتنزه عن الكذب فى جميعه وكل شاعر ترك الكذب والتزم الصدق نزل شعره ولم يكن جيدا ألا ترى أن لبيد بن ربيعة وحسان بن ثابت لما أسلما نزل شعرهما . ولم يكن شعرهما الاسلامى فى الجودة كشعرهما الجاهلى وأن الله تعالى مع ما تنزه عن الكذب والمجازفة جاء بالقرآن فصيحا كما ترى . وثالثها : أن الكلام الفصيح والشعر الفصيح إنما يتفق فى القصيدة فى البيت و البيتين . والباقى لا يكون كذلك ، وليس كذلك القرآن لأنه كله فصيح بحيث يعجز الخلق عنه كما عجزوا عن جملته . ورابعها : أن كل من قال شعرا فصيحاً فى وصف شيء فانه إذا كرره لم يكن كلامه الثانى فى وصف ذلك الشيء بمنزلة كلامه الأول . وفى القرآن التكرار الكثير

ومع ذلك كل واحد منها فى نهاية الفصاحة ولم يظهر التفاوت أصلا . وخامساً : أنه اقتصر على إيجاب العبادات وتحريم القبائح والحث على مكارم الأخلاق وترك الدنيا واختيار الآخرة ، وأمثال هذه الكلمات توجب تقليل الفصاحة . وسادسها : أنهم قالوا إن شعر امرىء القيس يحسن عند الطرب وذكر النساء وصفة الخيل . وشعر النابغة عند الخوف ، وشعر الأعشى عند الطلب ووصف الخمر ، وشعر زهير عند الرغبة والرجاء ، وبالجملة فكل شاعر يحسن كلامه فى فن فانه يضعف كلامه فى غير ذلك الفن ، أما القرآن فانه جاء فصيحا فى كل الفنون على غاية الفصاحة ، ألا ترى أنه سبحانه وتعالى قال فى الترغيب (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) وقال تعالى (وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين) وقال فى الترهيب (أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر الآيات) وقال (أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فاذا هى تمور . أم أمنتم الآية) وقال (وخاب كل جبار عنيد) إلى قوله (ويأتيه الموت من كل مكان) وقال فى الزجر مالا يبلغه وهم البشر وهو قوله (فكلا أخذنا بذنبه) إلى قوله (ومنهم من أغرقنا) وقال فى الوعظ ما لا مزيد عليه (أفرأيت إن متعناهم سنين) وقال فى الإلهيات (الله يعلم ما تحمل كل أنثى ما تغيض الأرحام وما تزداد إلى آخره) . وسابعها : أن القرآن أصل العلوم كلها فعلم الكلام كله فى القرآن ، وعلم الفقه كله مأخوذ من القرآن ، وكذا علم أصول الفقه . وعلم النحو واللغة ، وعلم الزهد فى الدنيا وأخبار الآخرة ، واستعمال مكارم الأخلاق ، ومن تأمل كتابنا فى دلائل الاعجاز علم أن القرآن قد بلغ فى جميع وجوه الفصاحة إلى النهاية القصوى ، الطريق الثانى : أن نقول : القرآن لا يخلوا إما أن يقال إنه كان بالغاً فى الفصاحة إلى حد الإعجاز ، أو لم يكن كذلك فان كان الأول ثبت أنه معجز . وإن كان الثانى كانت المعارضة على هذا التقدير ممكنه فعدم إتيانهم بالمعارضة مع كون المعارضة ممكنة ومع توفر دواعيهم على الاتيان بها أمر خارق العادة فكان ذلك معجزاً فثبت أن القرآن معجز على جميع الوجوه وهذا الطريق عندنا أقرب إلى الصواب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أنما قال (نزلنا) على لفظ التنزيل دون الانزال لان المراد النزول على سبيل التدريج ، وذكر هذا اللفظ هو اللائق بهذا المكان لأنهم كانوا يقولون : لو كان هذا من عند الله ومخالفاً لما يكون من عند الناس لم ينزل هكذا نجوما سورة بعد سورة على حسب النوازل ووقوع الحوادث وعلى سنن ما نرى عليه أهل الخطابة والشعر من وجود مايوجد منهم مفرقا حينا فحينا بحسب ما يظهر من الاحوال المتجددة والحاجات المختلفة فان الشاعر لا يظهر ديوان شعره دفعة والمترسل لا يظهر دايون رسائله وخطبه دفعة فلو أنزله الله تعالى لانزله على خلاف هذه العادة جملة (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) والله سبحانه وتعالى ذكر ههنا ما يدل على أن القرآن معجز مع ما يزيل هذه الشبهة وتقريره أن هذا القرآن النازل على هذا التدريج إما أن يكون من جنس مقدور البشر أولا يكون ، فان كان

الأول وجب إتيانهم بمثله أو بما يقرب منه على التدريج ، وإن كان الثانى ثبت أنه مع نزوله على التدريج معجز وقرىء « على عبادنا » يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم وامته .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ السورة هى طائفة من القرآن ، وواوها إن كانت أصلا فإما أن تسمى بسور المدينة وهو حائطها لأنها طائفة من القرآن محدودة كالبلد المسور أو لأنها محتوية على فنون من العلم كاحتواء سور المدينة على ما فيها ، وإما أن تسمى بالسورة التى هى الرتبة لأن السورة بمنزلة المنازل والمراتب يترقى فيها القارىء وهى أيضا فى أنفسها طوال وأوساط وقصار . أو لرفعة شأنها وجلالة محلها فى الدين ، وإن جعلت واوها منقلبة عن همزة فلأنها قطعة وطائفة من القرآن كالسورة التى هى البقية من الشىء والفضلة منه . فإن قيل فما فائدة تقطيع القرآن سورا قلنا من وجوه . أحدها : مالأجله بوب المصنفون كتبهم أبوابا وفصولا . وثانيها : أن الجنس إذا حصل تحته أنواع كان أفراد كل نوع عن صاحبه أحسن . وثالثها : أن القارىء إذا ختم سورة أو بابا من الكتاب ثم أخذا فى آخر كان أنشط له وأثبت على التحصيل منه لو استمر على الكتاب بطوله ، ومثله المسافر إذا علم أنه قطع ميلا او طوى فرسخا نفس ذلك عنه ونشطه للسير . ورابعها : أن الحافظ إذا حفظ السورة اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها فيجل فى نفسه ذلك ويغتبط به ، ومن ثم كانت القراءة فى الصلاة بسورة تامة أفضل .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (فأتوا بسورة من مثله) يدل على أن القرآن وما هو عليه من كونه سورا هو على حد ما أنزله الله تعالى بخلاف قول كثير من أهل الحديث : أنه نظم على هذا الترتيب فى أيام عثمان فلذلك صح التحدى مرة بسورة ومرة بكل القرآن .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ اعلم أن التحدى بالقرآن جاء على وجوه . أحدها : قوله (فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى) . وثانيها : قوله (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) . وثالثها : قوله (فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ورابعها : قوله (فأتوا بسورة من مثله) ونظير هذا كمن يتحدى صاحبه بتصنيفه فيقول ائتنى بمثله ، ائتنى بنصفه ، ائتنى بربعه ، ائتنى بمسألة منه ، فإن هذا هو النهاية فى التحدى وإزالة العذر فإن قيل قوله (فأتوا بسورة من مثله) يتناول سورة الكوثر ، وسورة العصر وسورة قل يا أيها الكافرون ، ونحن نعلم بالضرورة أن الاتيان بمثله أو بما يقرب منه ممكن فإن قلتم إن الاتيان بأمثال هذه السور خارج عن مقدور البشر كان ذلك مكابرة والإقدام على أمثال هذه المكابرات مما يطرق التهمة إلى الدين ، قلنا فلهذا السبب اخترنا الطريق الثانى ، وقلنا إن بلغت هذه السورة فى الفصاحة إلى حد الاعجاز فقد حصل المقصود ، وإن لم يكن الأمر كذلك كان امتناعهم عن المعارضة مع شدة دواعيهم إلى توهين أمره معجزا . فعلى هذين التقديرين يحصل المعجز .

﴿ المسألة السادسة ﴾ الضمير فى قوله (من مثله) إلى ماذا يعود وفيه وجهان . أحدهما . أنه عائد إلى « ما » فى قوله (مما نزلنا على عبدنا) أى فأتوا بسورة مما هو على صفته فى الفصاحة وحسن النظم والثانى : أنه عائد إلى « عبدنا » أى فأتوا ممن هو على حاله من كونه بشرا أميا لم يقرأ الكتب ولم يأخذ من العلماء ، والأول مروى عن عمر وابن مسعود . وابن عباس والحسن وأكثر المحققين ، ويدل على الترجيح له وجوه . أحدها : أن ذلك مطابق لسائر الآيات الواردة فى باب التحدى لاسيما ما ذكره فى يونس (فأتوا بسورة مثله) . وثانيها : أن البحث إنما وقع فى المنزل لأنه قال (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا) فوجب صرف الضمير إليه ، ألا ترى أن المعنى وإن ارتبتم فى أن القرآن منزل من عند الله فهاتوا شيئاً مما يماثله وقضية الترتيب لو كان الضمير مردودا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقال : وإن ارتبتم فى أن محمد منزل عليه فهاتوا قرآنا من مثله . وثالثها : أن الضمير لو كان عائدا إلى القرآن لاقتضى كونهم عاجزين عن الإتيان بمثله سواء اجتمعوا أوا نفردوا وسواء كانوا أميين أوكانوا عالمين محصلين ، أما لو كان عائدا إلى محمد صلى الله عليه وسلم فذلك لا يقتضى إلا كون أحدهم من الأميين عاجزين عنه لأنه لا يكون مثل محمد إلا الشخص الواحد الأمى فأما لو اجتمعوا وكانوا قارئين لم يكونوا مثل محمد ، لأن الجماعة لاتماثل الواحد ، والقارىء لا يكون مثل الأمى ، ولا شك أن الاعجاز على الوجه الأول أقوى . ورابعها : أنا لو صرفنا الضمير إلى القرآن فكونه معجزا إنما يحصل لكمال حاله فى الفصاحة أما لو صرفناه إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، فكونه معجزا إنما يكمل بتقرير كمال حاله فى كونه أمياً بعيداً عن العلم . وهذا وإن كان معجزاً أيضاً إلا أنه لما كان لايتم إلا بتقرير نوع من النقصان فى حق محمد عليه السلام كان الأول أولى . وخامسها : أنا لو صرفنا الضمير إلى محمد عليه السلام لكان ذلك يوهم أن صدور مثله القرآن ممن لم يكن مثل محمد فى كونه أمياً ممكن . ولو صرفناه إلى القرآن لدل ذلك على أن صدور مثل من الأمى وغير الأمى ممتنع فكان هذا أولى

﴿ المسألة السابعة ﴾ فى المراد من الشهداء وجهان . الأول : المراد من ادعوا فيه الالهية وهى الأوثان ، فكأنه قيل لهم إن كان الأمر كما تقولون من أنها تستحق العبادة لما أنها تنفع وتضر فقد دفعتم فى منازعة محمد صلى الله عليه وسلم إلى فاقة شديدة وحاجة عظيمة فى التخلص عنها فتعجلوا الاستعانة بها وإلا فاعلموا أنكم مبطلون فى ادعاء كونها آلهة وأنها تنفع وتضر ، فيكون فى الكلام محاجة من وجهين . أحدهما : فى إبطال كونها آلهة . والثانى فى إبطال ماأنكروه من إعجاز القرآن وأنه من قبله . الثانى : المراد من الشهداء أكابرهم أو من يوافقهم فى إنكار أمر محمد عليه السلام ، والمعنى وادعوا أكابركم ورؤساءكم ليعينوكم على المعارضة وليحكموا لكم وعليكم فيما يمكن ويتعذر . فإن قيل هل يمكن حمل اللفظ عليهما معاً وبتقدير التعذر فأيهما أولى ؟ قلنا أما الأول فممكن لان الشهداء جمع شهيد بمعنى الحاضر أو القائم بالشهادة فيمكن جعله مجازا عن

المعين والناصر ، وأوثانهم وأكابرهم مشتركة فى أنهم كانوا يعتقدون فيهم كونهم أنصارا لهم وأعوانا ، وإذا حملنا اللفظ على هذا المفهوم المشترك دخل الكل فيه وأما الثانى فنقول : الأولى حمله على الأكابر ، وذلك لأن لفظ الشهداء لا يطلق ظاهرا إلا على من يصح أن يشاهد ويشهد فيتحمل بالمشاهدة ويؤدى الشهادة ، وذلك لا يتحقق إلا فى حق رأسائهم ، أما إذا حملناه على الأوثان لزم المجاز ، فى اطلاق لفظ الشهداء على الأوثان أو يقال : المراد وادعوا من تزعمون أنهم شهداؤكم ، والاضمار خلاف الأصل ، أما إذا حملناه على الوجه الأول صح الكلام ، لأنه يصير كأنه قال : وادعوا من يشهد بعضكم لبعض لا تفاقكم على هذا الانكار . فان المتفقين على المذهب يشهد بعضهم لبعض لمكان الموافقة فصحت الاضافة فى قوله شهداءكم ، ولانه كان فى العرب أكابر يشهدون على المتنازعين فى الفصاحة بأن أيهما أعلى درجة من الآخر ، وإذا ثبت ذلك ظهر أن حمل الكلام على الحقيقة أولى من حمله على المجاز .

﴿ المسألة الثامنة ﴾ أما (دون) فهو أدنى مكان من الشيء ومنه الشيء الدون ، وهو الحقير الدنى ، ودون الكتب إذا جمعها لان جمع الشيء أدناه بعضه من بعض ويقال : هذا دون ذاك إذاكان أحط منه قليلا ، ودونك هذا ، أصله خذه من دونك أى من أدنى مكان منك فاختصر ثم استعير هذا اللفظ للتفاوت فى الاحوال ، فقيل زيد دون عمرو فى الشرف والعلم ، ثم اتسع فيه فاستعمل فى كل ما يجاوز حداً إلى حد ، قال الله تعالى (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين) أى لا يتجاوزون ولاية المؤمنين إلى ولاية الكافرين فان قيل فما متعلق من دون الله قلنا فيه وجهان . أحدهما : أن متعلقه « شهداءكم » وهذا فيه احتمالان . الاول : المعنى ادعوا الذين اتخذتموهم آلهة من دون الله وزعمتم أنهم يشهدون لكم يوم القيامة أنكم على الحق ، وفى أمرهم أن يستظهروا بالجماد الذى لا ينطق فى معارضة القرآن المعجز بفصاحته غاية التهكم بهم . والثانى : ادعوا شهداءكم من دون الله أى من دون أوليائه ومن غير المؤمنين ليشهدوا لكم أنكم أتيتم بمثله ، وهذا من المساهلة والاشعار بأن شهداءهم وهم فرسان الفصاحة تأبى عليهم الطبائع السليمة أن يرضوا لانفسهم بالشهادة الكاذبة وثانيهما : أن متعلقه هو الدعاء ، والمعنى ادعوا من دون الله شهداءكم ، يعنى لا تستشهدوا بالله ولا تقولوا الله يشهد أن ما ندعيه حق ، كما يقول العاجز عن إقامة البينة على صحة دعواه ، وادعوا الشهداء من الناس الذين شهادتهم بينة تصحح بها الدعاوى عند الحكام ، وهذا تعجيز لهم وبيان لا نقطاعهم ، وأنه لم يبق لهم متشبث عن قولهم : الله يشهد إنا لصادقون .

﴿ المسألة التاسعة ﴾ قال القاضى هذا التحدى يبطل القول بالجبر من وجوه . أحدها : أنه مبنى على تعذر مثله ممن يصح الفعل منه ، فمن ينفى كون العبد فاعلا لم يمكنه إثبات التحدى أصلا وفى هذا إبطال الاستدلال بالمعجز . وثانيها : أن تعذره على قولهم يكون لفقد القدرة

الموجبة ويستوى فى ذلك ما يكون معجزا . وما لا يكون فلا يصح معنى التحدى على قولهم وثالثها : أن ما يضاف إلى العبد فالله تعالى هو الخالق له فتحديه تعالى لهم يعود فى التحقيق إلى أنه متحد لنفسه وهو قادر على مثله من غير شك فيجب أن لا يثبت الاعجاز على هذا القول ورابعها : أن المعجز إنما يدل بما فيه من نقض العادة ، فاذا كان قولهم : إن المعتاد أيضاً ليس بفعل لم يثبت هذا الفرق فلا يصح الاستدلال بالمعجز . وخامسها : أن الرسول صلى الله عليه وسلم يحتج بأنه تعالى خصه بذلك تصديقا له فيما ادعاه ولو لم يكن ذلك من قبله تعالى لم يكن داخلا فى الاعجاز . وعلى قولهم بالجبر لا يصح هذا الفرق ، لأن المعتاد وغير المعتاد لا يكون إلا من قبله ، والجواب . أن المطلوب من التحدى إما أن يأتى الخصم بالمتحدى به قصداً أو أن يقع ذلك منه اتفاقا ، والثانى باطل ، لأن الاتفاقيات لا تكون فى وسعه ، فثبت الأول وإذا كان كذلك ثبت أن أتيانه بالتحدى موقوف على أن يحصل فى قلبه قصد اليه ، فذلك القصد إن كان منه لزم التسلسل وهو محال ، وإن كان من الله تعالى فحينئذ يعود الجبر ويلزمه كل ما أورده علينا فيبطل كل ما قال .

أما قوله تعالى ﴿ فان لم تفعلوا ولن تفعلوا ﴾ فاعلم أن هذه الآية دالة على المعجز من وجوه أربعة أحدها : أنا نعلم بالتواتر أن العرب كانوا فى غاية العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وفى غاية الحرص على أبطال أمره ، لأن مفارقة الأوطان والعشيرة وبذل النفوس والمهج من أقوى ما يدل على ذلك ، فاذا انضاف اليه مثل هذا التقريع وهو قوله تعالى (فان لم تفعلوا ولن تفعلوا) فلو كان فى وسعهم وإمكانهم الاتيان بمثل القرآن أو بمثل سورة منه لأتوا به ، فحيث ما أتوا به ظهر المعجز . وثانيها : وهو أنه عليه السلام وإن كان متهما عندهم فيما يتصل بالنبوة فقد كان معلوم الحال فى وفور العقل والفضل والمعرفة بالعواقب ، فلو تطرقت التهمة إلى ما ادعاه من النبوة لما استجاز أن يتحداهم ويبلغ فى التحدى إلى نهايته ، بل كان يكون وجلا خائفاً مما يتوقعه من فضيحة يعود وبالها على جميع أموره ، حاشاه من ذلك صلى الله عليه وسلم ، فلولا معرفته بالاضطرار من حالهم أنهم عاجزون عن المعارضة لما جوز من نفسه أن يحملهم على المعارضة بأبلغ الطرق . وثالثها : أنه عليه السلام لو لم يكن قاطعاً بصحة نبوته لما قطع فى الخبر بأنهم لا يأتون بمثله ، لأنه إذا لم يكن قاطعاً بصحة نبوته كان يجوز خلافه ، وبتقدير وقوع خلافه يظهر كذبه ، فالمبطل المزور البتة لا يقطع فى الكلام . ولا يجزم به ، فلما جزم دل على أنه عليه الصلاة والسلام كان قاطعا فى أمره ، ورابعها : أنه وجد مخبر هذا الخبر على ذلك الوجه لأن من أيامه عليه الصلاة والسلام إلى عصرنا هذا لم يخل وقت من الأوقات ممن يعادى الدين والإسلام وتشتد دواعيه فى الوقيعة فيه . ثم إنه مع هذا الحرص الشديد لم توجد المعارضة قط ، فهذه الوجوه الاربعة فى الدلالة على المعجز مما تشتمل عليها هذه الآية ، وذلك يدل

على فساد قول الجهال الذين يقولون إن كتاب الله لا يشتمل على الحجة والاستدلال ، وههنا سؤالات . السؤال الأول ، انتفاء إتيانهم بالسورة واجب ، فهلا جيء باذا الذى للوجوب دون « إن » الذى للشك الجواب فيه وجهان : أحدهما أن يساق القول معهم على حسب حسبانهم ، فانهم كانوا بعد غير جازمين بالعجز عن المعارضة لاتكالهم على فصاحتهم واقتدارهم على الكلام . الثانى : أن يتهكم بهم كما يقول الموصوف بالقوة الواثق من نفسه بالغلبة على من يقاومه : إن غلبتك ، وهو يعلم أنه غالبه تهكما به . السؤال الثانى : لم قال (فان لم تفعلوا) ولم يقل فان لم تأتوا به؟ الجواب : لأن هذا أخصر من أن يقال فان لم تأتوا بسورة من مثله وان تأتوا بسورة من مثله . السؤال الثالث : (ولن تفعلوا) ما محلها ؟ الجواب لامحل لها لأنها جملة اعتراضية . السؤال الرابع : ماحقيقة لن فى باب النفى ؟ الجواب : لا ولن أختان فى نفى المستقبل إلا أن فى «لن» توكيدا وتشديداً تقول لصاحبك : لا أقيم غدا عندك ، فان أنكر عليك قلت لن أقيم غدا . ثم فيه ثلاثة أقوال . أحدها . أصله لاأن، وهو قول الخليل . وثانيها : لا ، أبدلت ألفها نوناً ، وهو قول الفراء . وثالثها : حرف نصب لتأكيد نفى المستقبل وهو قول سيبويه، وإحدى الروايتين عن الخليل . السؤال الخامس : مامعنى اشتراطه فى اتقاء النار انتفاء إتيانهم بسورة من مثله ؟ الجواب : إذا ظهر عجزهم عن المعارضة صح عندهم صدق رسول الله ﷺ ، وإذا صح ذلك ثم لزموا العناد استوجبوا العقاب بالنار ، فاتقاء النار يوجب ترك العناد ، فأقيم المؤثر مقام الأثر ، وجعل قوله (فاتقوا النار) قائما مقام قوله فاتركوا العناد ، وهذا هو الايجاز الذى هو أحد أبواب البلاغة وفيه تهويل لشأن العناد : لانابة اتقاء النار منابه متبعاً ذلك بتهويل صفة النار . السؤال السادس : ما الوقود ؟ الجواب : هو ما يوقد به النار وأما المصدر فمضمون وقد جاء فيه الفتح ، قال سيبويه : وسمعنا من العرب من يقول وقدنا النار وقوداً عالياً ، ثم قال والوقود أكثر ، والوقود الحطب وقرأ عيسى بن عمر بالضم تسمية بالمصدر كما يقال فلان فخر قومه وزين بلده . السؤال السابع : صلة الذى يجب أن تكون قضية معلومة فكيف علم أولئك أن نار الآخرة توقد بالناس والحجارة ؟ الجواب : لا يمنع أن يتقدم لهم بذلك سماع من أهل الكتاب ، أو سمعوه من رسول الله ﷺ أو سمعوا من قبل هذه الآية قوله فى سورة التحريم (ناراً وقودها الناس والحجارة) . السؤال الثامن : فلم جاءت النار الموصوفة بهذه الجملة منكرة فى سورة التحريم وههنا معرفة ؟ الجواب : تلك الآية نزلت بمكة فعرفوا منها نارا موصوفة بهذه الصفة ثم نزلت هذه بالمدينة مستندة إلى ما عرفوه أولا . السؤال التاسع : ما معنى قوله (وقودها الناس والحجارة) الجواب : أنها نار ممتازة من النيران بأنها لا تتقد إلا بالناس والحجارة ، وذلك يدل على قوتها من وجهين . الأول : أن سائر النيران إذا أريد إحراق الناس بها أو إحماء الحجارة أوقدت أولا بوقود ثم طرح فيها ما يراد إحراقه أو إحماؤه ، وتلك أعاذنا الله منها برحمته الواسعة توقد بنفس ماتحرق . الثانى : أنهـا لا فراط حرها تتقد فى الحجر .

وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَٰجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ

السؤال العاشر : لم قرن الناس بالحجارة وجعلت الحجارة معهم وقودا ؟ الجواب : لأنهم قرنوا بها أنفسهم فى الدنيا حيث نحتوها أصناما وجعلوها لله أنداداً وعبدوها من دونه قال تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) وهذه الآية مفسرة لها فقوله (إنكم وما تعبدون من دون الله) فى معنى الناس والحجارة وحصب جهنم فى معنى وقودها ولما اعتقد الكفار فى حجارتهم المعبودة من دون الله أنها الشفعاء والشهداء الذين يستشفعون بهم ويستدفعون المضار عن أنفسهم تمسكا بهم ، وجعلها الله عذابهم فقرنهم بها محماة فى نار جهنم إبلاغا وإغرابا فى تحسرهم ، ونحوه مايفعله بالكافرين الذين جعلوا ذهبهم وفضتهم عدة وذخيرة فشحوا بها ومنعوها من الحقوق حيث يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، وقيل هى حجارة الكبريت ، وهو تخصيص بغير دليل ، بل فيه مايدل على فساده ، وذلك لأن الغرض ههنا تعظيم صفة هذه النار والايقاد بحجارة الكبريت أمر معتاد فلا يدل الايقاد بها على قوة النار ، أما لو حملناه على سائر الأحجار دل ذلك على عظم أمر النار فان سائر الأحجار تطفأ بها النيران فكأنه قال تلك النيران بلغت لقوتها أن تتعلق فى أول أمرها بالحجارة التى هى مطفئة لنيران الدنيا ، أما قوله (أعدت للكافرين) فانه يدل على أن هذه النار الموصوفة معدة للكافرين ، وليس فيه ما يدل على أن هناك نيراناً أخرى غير موصوفة بهذه الصفات معدة لفساق أهل الصلاة .

الكلام فى المعاد

قوله تعالى ﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون ﴾

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما تكلم فى التوحيد والنبوة تكلم بعدهما فى المعاد وبين عقاب الكافر وثواب المطيع ومن عادة الله تعالى أنه إذا ذكر آية فى الوعيد أن يعقبها بآية فى الوعد وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن مسألة الحشر والنشر من المسائل المعتبرة فى صحة الدين والبحث

عن هذه المسألة إما أن يقع عن إمكانها أو عن وقوعها . أما الامكان فيجوز إثباته تارة بالعقل ، وبالنقل أخرى ، وأما الوقوع فلا سبيل إليه إلا بالنقل ، وإن الله ذكر هاتين المسألتين فى كتابه وبين الحق فيهما من وجوه . الوجه الأول : ان كثيرا ماحكى عن المنكرين إنكار الحشر والنشر ، ثم إنه تعالى حكم بأنه واقع كائن من غير ذكر الدليل فيه ، وإنما جاز ذلك لأن كل مالايتوقف صحة نبوة الرسول ﷺ عليه أمكن إثباته بالدليل النقلى ، وهذه المسألة كذلك فجاز إثباتها بالنقل ، مثاله ماحكم ههنا بالنار للكفار ، والجنة للابرار ، وما أقام عليه دليلا بل اكتفى بالدعوى ، وأما فى إثبات الصانع وإثبات النبوة فلم يكتف فيه بالدعوى بل ذكر فيه الدليل ، وسبب الفرق ما ذكرناه وقال فى سورة النحل (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لايبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لايعلمون) وقال فى سورة التغابن (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم) . الوجه الثانى أنه تعالى أثبت إمكان الحشر والنشر بناء على أنه تعالى قادر على أمور تشبه الحشر والنشر ، وقد قرر الله تعالى هذه الطريقة على وجوه ، فأجمعها ما جاء فى سورة الواقعة فإنه تعالى ذكر فيها حكاية عن أصحاب الشمال أنهم كانوا يقولون أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون أوآباؤنا الأولون ، فأجابهم الله تعالى بقوله (قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم) ثم إنه تعالى احتج على إمكانه بأمور أربعة . أولها : قوله (أفرأيتم ماتمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون) وجه الاستدلال بذلك أن المنى إنما يحصل من فضلة الهضم الرابع وهو كالطل المنبث فى آفاق أطراف الأعضاء ولهذا تشترك الأعضاء فى الالتذاذ بالوقاع بحصول الانحلال عنها كلها ، ثم ان الله تعالى سلط قوة الشهوة على البقية حتى أنها تجمع تلك الأجزاء الطلية ، فالحاصل أن تلك الاجزاء كانت متفرقة جداً ، أولا فى أطراف العالم ، ثم أنه تعالى جمعها فى بدن ذلك الحيوان ، ثم إنها كانت متفرقة فى أطراف بدن ذلك الحيوان فجمعها الله سبحانه وتعالى فى أوعية المنى ، ثم إنه تعالى أخرجها ماء دافقاً إلى قرار الرحم فإذا كانت هذه الاجزاء متفرقة فجمعها وكون منها ذلك الشخص ، فإذا افترقت بالموت مرة أخرى فكيف يمتنع عليه جمعها مرة أخرى ؟ فهذا تقرير هذه الحجة ، وإن الله تعالى ذكرها فى مواضع من كتابه ، منها فى سورة الحج (يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب) إلى قوله (وترى الأرض هامدة) ثم قال (ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحي الموتى وأنه على كل شيء قدير وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور) وقال فى سورة قد أفلح المؤمنون بعد ذكر مراتب الخلقة (ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون) وقال فى سورة لاأقسم (ألم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى) وقال فى سورة الطارق (فلينظر الانسان مم خلق ؟ خلق من ماء دافق يخرج) إلى قوله (إنه على رجعه لقادر) . وثانيها قوله (أفرأيتم ماتحرثون أأنتم تزرعونه) إلى قوله (بل نحن محرومون) وجه الاستدلال به أن الحب وأقسامه

من مطول مشقوق وغير مشقوق، كالأرز والشعير، ومدور ومثلث ومربع، وغير ذلك على اختلاف أشكاله إذا وقع فى الأرض الندية واستولى عليه الماء والتراب، فالنظر العقلى يقتضى أن يتعفن ويفسد، لأن أحدهما يكفى فى حصول العفونة، ففيهما جميعاً أولى، ثم إنه لا يفسد بل يبقى محفوظاً، ثم إذا ازدادت الرطوبة تنفلق الحبة فلقتين فيخرج منها ورقتان، وأما المطول فيظهر فى رأسه ثقب وتظهر الورقة الطويلة كما فى الزرع، وأما النوى فما فيه من الصلابة العظيمة التى بسببها يعجز عن فلقه أكثر الناس إذا وقع فى الأرض الندية ينفلق باذن الله، ونواة التمر تنفلق من نقرة على ظهرها ويصير مجموع النواة من نصفين يخرج من أحد النصفين الجزء الصاعد، ومن الثانى الجزء الهابط، أما الصاعد فيصعد، وأما الهابط فيغوص فى أعماق الأرض، والحاصل أنه يخرج من النواة الصغيرة شجرتان إحداهما خفيف صاعد. والأخرى ثقيل هابط مع اتحاد العنصر واتحاد طبع النواة والماء والهواء والتربة أفلا يدل ذلك على قدرة كاملة وحكمة شاملة فهذا القادر كيف يعجز عن جمع الأجزاء وتركيب الاعضاء. ونظيره قوله تعالى فى الحج (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت) وثالثها : قوله تعالى (أفرأيتم الماء الذى تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ؟) وتقديره أن الماء جسم ثقيل بالطبع، وإصعاد الثقيل أمر على خلاف الطبع، فلابد من قادر قاهر يقهر الطبع ويبطل الخاصية ويصعد ما من شأنه الهبوط والنزول. وثانيها : أن تلك الذرات المائية اجتمعت بعد تفرقها. وثالثها : تسييرها بالرياح ورابعها : إنزالها فى مظان الحاجة والارض الجرز، وكل ذلك يدل على جواز الحشر. أما صعود الثقيل فلأنه قلب الطبيعة، فإذا جاز ذلك فلم لا يجوز أن يظهر الحياة والرطوبة من حساوة التراب والماء ؟ والثانى : لما قدر على جمع تلك الذرات المائية بعد تفرقها فلم لا يجوز جمع الاجزاء الترابية بعد تفرقها ؟ والثالث : تسيير الرياح فاذا قدر على تحريك الرياح التى تضم بعض تلك الاجزاء المتجانسة إلى بعض فلم لا يجوز ههنا ؟ والرابع : أنه تعالى أنشأ السحاب لحاجة الناس إليه فههنا الحاجة إلى إنشاء المكلفين مرة أخرى ليصلوا إلى ما استحقوه من الثواب والعقاب أولى واعلم أن الله تعالى عبر عن هذه الدلالة فى موضع آخر من كتابه فقال فى الاعراف لما ذكر دلالة التوحيد (إن ربكم الله الذى) إلى قوله (قريب من المحسنين) ثم ذكر دليل الحشر فقال (وهو الذى يرسل الرياح) إلى قوله (كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون) ورابعها : قوله (أفرأيتم النار التى تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون) وجه الاستدلال أن النار صاعدة والشجرة هابطة، وأيضاً النار لطيفة، والشجرة كثيفة. وأيضاً النار نورانية والشجرة ظلمانية، والنار حارة يابسة والشجرة باردة رطبة، فاذا أمسك الله تعالى فى داخل تلك الشجرة الاجزاء النورانية النارية فقد جمع بقدرته بين هذه الاشياء المتنافرة، فاذا لم يعجز عن ذلك فكيف يعجز عن تركيب الحيوانات وتأليفها ؟ والله تعالى ذكر هذه الدلالة فى سورة يس فقال (الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً)

واعلم أنه تعالى ذكر فى هذه السورة أمر الماء والنار وذكر فى النمل أمر الهواء بقوله (أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر) إلى قوله (أمن يبدأ الخلق ثم يعيده (وذكر الأرض فى الحج فى قوله (وترى الأرض هامدة) فكأنه سبحانه وتعالى بين أن العناصر الأربعة على جميع أحوالها شاهدة بامكان الحشر والنشر . النوع الثانى : من الدلائل الدالة على امكان الحشر : هو أنه تعالى يقول : لما كنت قادراً على الايجاد أولا فلأن أكون قادراً على الاعادة أولى . وهذه الدلالة تقريرها فى العقل ظاهر ، وأنه تعالى ذكرها فى مواضع من كتابه ، منها فى البقرة (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون) ومنها قوله فى سبحان الذى (وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً قل كونوا حجارة) إلى قوله (قل الذى فطركم أول مرة) ومنها فى العنكبوت (أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده) ومنها قوله فى الروم (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى) ومنها فى يس (قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ، النوع الثالث : الاستدلال باقتداره على السموات على اقتداره على الحشر . وذلك فى آيات منها فى سورة سبحان (أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم) وقال فى يس (أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم) وقال فى الأحقاف أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى إنه على كل شىء قدير) ومنها فى سورة ق (أئذ متنا وكنا ترابا) إلى قوله (رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج) ثم قال (أفعيينا بالخلق الأول بل هم فى لبس من خلق جديد) النوع الرابع : الاستدلال على وقوع الحشر بأنه لابد من إثابة المحسن وتعذيب العاصى وتمييز أحدهما من الآخر بآيات ، منها فى يونس (إليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقا إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزى الذين آمنو اوعملوا الصالحات بالقسط) ومنها فى طه (إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى) ومنها فى ص (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار . أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) النوع الخامس : الاستدلال باحياء الموتى فى الدنيا على صحة الحشر والنشر فنها خلقه آدم عليه الصلاة والسلام ابتداء ومنها قصة البقرة وهى قوله (فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحى الله الموتى) ومنها قصة إبراهيم عليه السلام (رب أرنى كيف تحيى الموتى) ومنها قوله (أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها) ومنها قصة يحى وعيسى عليهما السلام فانه تعالى استدل على إمكانهما بعين ما استدل به على جواز الحشر حيث قال (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً) ومنها فى قصة أصحاب الكهف ولذلك قال (لتعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها) ومنها قصة أيوب عليه السلام وهى قوله (وآتيناه أهله) يدل على

أنه تعالى أحياهم بعد أن ماتوا ومنها ما أظهر الله تعالى على يد عيسى عليه السلام من أحياء الموتى حيث قال (ويحيى الموتى) وقال (وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذنى فتنفخ فيها فتكون طيراً باذنى) ومنها قوله (أولا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا) فهذا هو الاشارة إلى أصول الدلائل التى ذكرها الله تعالى فى كتابه على صحة القول بالحشر ، وسيأتى الاستقصاء فى تفسير كل آية من هذه الآيات عند الوصول إليها إن شاء الله تعالى ، ثم إنه تعالى نص فى القرآن على أن منكر الحشر والنشر كافر ، والدليل عليه قوله (ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيراً منها منقلبا قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب) ووجه إلزام الكفر أن دخول هذا الشيء فى الوجود ممكن الوجود فى نفسه ، إذ لو كان ممتنع الوجود لما وجد فى المرة الأولى فحيث وجد فى المرة الأولى علمنا أنه ممكن الوجود فى ذاته ، فلو لم يصح ذلك من الله تعالى لدل ذلك إما على عجزه حيث لم يقدر على إيجاد ما هو جائز الوجود فى نفسه ، أو على جهله حيث تعذر عليه تمييز أجزاء بدن كل واحد من المكلفين عن أجزاء بدن المكلف الآخر ، ومع القول بالعجز والجهل لا يصح إثبات النبوة فكان ذلك موجباً للكفر قطعاً والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ هذه الآيات صريحة فى كون الجنة والنار مخلوقتين ، أما النار فلأنه تعالى قال فى صفتها (أعدت للكافرين) فهذا صريحة فى أنها مخلوقة وأما الجنة فلأنه تعالى قال فى آية أخرى (أعدت للمتقين) ولأنه تعالى قال ههنا (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار) وهذا إخبار عن وقوع هذا الملك وحصوله وحصول الملك فى الحال يقتضى حصول المملوك فى الحال فدل على أن الجنة والنار مخلوقتان .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اعلم أن مجامع اللذات إما المسكن أو المطعم أو المنكح فوصف الله تعالى المسكن بقوله (جنات تجرى من تحتها الأنهار) والمطعم بقوله (كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذى رزقنا من قبل) والمنكح بقوله (ولهم فيها أزواج مطهرة) ثم إن هذه الأشياء إذا حصلت وقارنها خوف الزوال كان التنعم منغصا فبين تعالى أن هذا الخوف زائل عنهم فقال (وهم فيها خالدون) فصارت الآية دالة على كمال التنعم والسرر . ولنتكلم الآن فى ألفاظ الآية .

أما قوله تعالى ﴿ وبشر الذين آمنوا ﴾ ففيه سؤالات . الأول : علام عطف هذا الأمر ؟ والجواب من وجوه . أحدها : أنه ليس الذى اعتمد بالعطف هو الأمر حتى يطلب له مشا كل من أمر أو نهى يعطف عليه . إنما المعتمد بالعطف هو جملة وصف ثواب المؤمنين فهى معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين كما تقول : زيد يعاقب بالقيد والضرب ، وبشر عمرا بالعفو والاطلاق . وثانيها : أنه معطوف على قوله (فاتقوا) كما تقول يا بنى تميم احذروا عقوبة ماجنيتم

وبشر يافلان بنى أسد باحسانى إليهم . وثالثها : قرأ زيد بن على (وبشر) على لفظ المبنى للمفعول عطفا على أعدت . السؤال الثانى . من المأمور بقوله وبشر ؟ والجواب يجوز أن يكون رسول الله ﷺ وأن يكون كل أحد كما قال عليه الصلاة والسلام « بشر المشائين إلى المساجد فى الظلم بالنور التام يوم القيامة » لم يأمر بذلك واحد بعينه ، وإنما كل أحد مأمور به ، وهذا الوجه أحسن وأجزل ، لأنه يؤذن بأن هذا الأمر لعظمته وفخامته حقيق بأن يبشر به كل من قدر على البشارة به . السؤال الثالث ، ماالبشارة ؟ الجواب : أنها الخبر الذى يظهر السرور ، ولهذا قال الفقهاء إذا قال لعبيده : أيكم بشرنى بقدوم فلان فهو حر فبشروه فرادى عتق أولهم ، لأنه هو الذى أفاد خبره السرور ولو قال مكان بشرنى أخبرنى عتقوا جميعاً لانهم جميعاً أخبروه ، ومنه البشرة لظاهر الجلد ، وتباشير الصبح ما ظهر من أوائل ضوئه ، وأما (فبشرهم بعذاب أليم) فمن الكلام الذى يقصد به الاستهزاء الزائد فى غيظ المستهزأ به كما يقول الرجل لعدوه أبشر بقتل ذريتك ونهب مالك . أما قوله ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ ففيه مسائل : —

﴿ المسألة الأولى ﴾ هذه الآية تدل على أن الأعمال غير داخلة فى مسمى الإيمان لانه لما ذكر الإيمان ثم عطف عليه العمل الصالح وجب التغاير وإلا لزم التكرار وهو خلاف الأصل

﴿ المسألة الثانية ﴾ من الناس من أجرى هذه الآية على ظاهرها فقال : كل من أتى بالإيمان والاعمال الصالحة فله الجنة . فاذا قيل له ماقولك فيمن أتى بالإيمان والاعمال الصالحة ثم كفر قال إن هذا ممتنع لان فعل الإيمان والطاعة ، يوجب استحقاق الثواب الدائم ، وفعل الكفر استحقاق العقاب الدائم ، والجمع بينهما محال ، والقول أيضاً بالتحابط محال فلم يبق إلا أن يقال هذا الفرض الذى فرضتموه ممتنع ، وإنما قلنا إن القول بالتحابط محال لوجوه ، أحدها : أن الاستحقاقين إما أن يتضادا أولا يتضادا فان تضادا كان طريان الطارىء مشروطا بزوال الباقى ، فلو كان زوال الباقى معللا بطريان الطارىء لزم الدور وهو محال . وثانيها : أن المنافاة حاصلة من الجانبين فليس زوال الباقى لطريان الطارىء أولى من اندفاع الطارىء بقيام الباقى ، فاما أن يوجداً معا وهو محال أو يتدافعا فحينئذ يبطل القول بالمحابطة ، وثالثها : أن الاستحقاقين إما أن يتساويا أو كان المقدم أكثر أو أقل ، فان تعادلا مثل أن يقال كان قد حصل استحقاق عشرة أجزاء من الثواب فطرأ استحقاق عشرة أجزاء من العقاب فنقول : استحقاق كل واحد من أجزاء العقاب مستقل بازالة كل واحد من أجزاء استحقاق الثواب . وإذا كان كذلك لم يكن تأثير هذا الجزء فى إزالة هذا الجزء أولى من تأثيره فى أزالة ذلك الجزء ومن تأثير جزء آخر فى إزالته ، فاما أن يكون كل واحد من هذه الاجزاء الطارئه مؤثراً فى إزالة كل واحد من الاجزاء المتقدمة فيلزم أن يكون لكل واحد من العلل معلولات كثيرة ولكل واحد من المعلولات علل كثيرة

مستقلة ، وكل ذلك محال ، وإما أن يختص كل واحد من الأجزاء الطارئة بواحد من الباقى من غير مخصص فذلك محال لامتناع ترجح أحد طرفى الممكن على الآخر لا لمرجح ، وأما إن كان المقدم أكثر فالطارىء لا يزيل إلا بعض أجزاء الباقى ، فلم يكن بعض أجزاء الباقى أن يزول به أولى من سائر الأجزاء فاما أن يزول الكل وهو محال ، لأن الزائل لايزول إلا بالناقص . أو يتعين البعض للزوال من غير مخصص ، وهو محال ، أولا يزول شىء منها وهو المطلوب ، وأيضاً فهذا الطارىء إذا أزال بعض أجزاء الباقى فاما أن يبقى الطارىء ، أويزول . أما القول ببقاء الطارىء فلم يقل به أحد من العقلاء . وأما القول بزواله فباطل ، لأنه إما أن يكون تأثير كل واحد منهما فى إزالة الآخر معاً أو على الترتيب ، والأول باطل لأن المزيل لابد وأن يكون موجودا حال الازالة ، فلو وجد الزوالان معاً لوجد المزيلان معاً ، فيلزم أن يوجدا حال ما عدما وهو محال وإن كان على الترتيب فالمغلوب يستحيل أن ينقلب غالبا ، وأما إن كان المتقدم أقل فاما أن يكون المؤثر فى زواله بعض أجزاء الطارىء ، وذلك محال لأن جميع أجزائه صالح للازالة ، واختصاص البعض بذلك ترجيح من غير مرجح وهو محال ، وإما أن يصير الكل مؤثراً فى الازالة فيلزم أن يجتمع على المعلول الواحد علل مستقلة وذلك محال ، فقد ثبت بهذه الوجوه العقلية فساد القول بالاحباط ، وعند هذا تعين فى الجواب قولان . الأول : قول من اعتبر الموافاة ، وهو أن شرط حصول الإيمان أن لايموت على الكفر فلومات على الكفر علمنا أن ما أتى به أولا كان كفراً وهذا قول ظاهر السقوط ، الثانى : أن العبد لايستحق على الطاعة ثوابا ولا على المعصية عقابا استحقاقا عقليا واجبا ، وهو قول أهل السنة واختيارنا ، وبه يحصل الخلاص من هذه الظلمات

﴿ المسألة الثالثة ﴾ احتجت المعتزلة على أن الطاعة توجب الثواب فان فى حال مابشرهم بأن لهم جنات لم يحصل ذلك لهم على طريق الوقوع ، ولما لم يمكن حمل الآية عليه وجب حملها على استحقاق الوقوع لأنه يجوز التعبير بالوقوع عن استحقاق الوقوع مجازا

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الجنة : البستان من النخل والشجر المتكاثف المظلل بالتفاف أغصانه والتركيب دائر على معنى الستر وكأنها لتكاثفها وتظليلها سميت بالجنة التى هى المرة من مصدر جنه إذا ستره كأنهاسترة واحدة لفرط التفافها وسميت دار الثواب جنة لما فيها من الجنان ، فان قيل لم نكرت الجنات وعرفت الأنهار ؟ الجواب : أما الأول فلأن الجنة اسم لدار الثواب كلها وهى مشتملة على جنات كثيرة مرتبة مراتب على حسب استحقاقات العاملين لكل طبقة منهم جنات من تلك الجنات ، وأما تعريف الانهار فالمراد به الجنس كما يقال لفلان بستان فيه الماء الجاري والتين والعنب يشير إلى الاجناس التى فى علم المخاطب ، أو يشار باللام إلى الانهار المذكورة فى قوله (فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه) وأما قوله ﴿ كلما رزقوا ﴾ فهذا لايخلو إما أن يكون صفة ثانية لجنات . أو خبر مبتدأ محذوف ، أوجملة مستأنفة لانه لما

قيل : إن لهم جنات لم يخل قلب السامع أن يقع فيه أن ثمار تلك الجنات أشباه ثمار الدنيا أم لا ؟ وههنا سؤالات . السؤال الأول : ما وقع من ثمرة ؟ الجواب فيه وجهان . الأول : هو كقولك كلما أكلت من بستانك من الرمان شيئا حمدتك فموقع من ثمرة موقع قولك من الرمان فمن الأولى والثانية كلتاهما لا بتداء الغاية ، لأن الرزق قد ابتدأ من الجنات والرزق من الجنات قد ابتدأ من ثمرة وليس المراد بالثمرة التفاحة الواحدة أو الرمانة الفردة على هذا التفسير ، وإنما المراد النوع من أنواع الثمار . الثانى : وهو أن يكون من ثمرة بيانا على منهاج قولك رأيت منك أسدا تريد أنت أسد ، وعلى هذا يصح أن يراد بالثمرة النوع من الثمرة أو الحبة الواحدة . السؤال الثانى : كيف يصح أن يقولوا هذا الذى رزقنا الآن هو الذى رزقنا من قبل ، الجواب : لما اتحد فى الماهية وإن تغاير بالعدد صح أن يقال هذا هو ذاك أى بحسب الماهية فان الوحدة النوعية لا تنافيها الكثرة بالشخص ولذلك إذا اشتدت مشابهة الابن بالأب قالوا إنه الأب . السؤال الثالث : الآية تدل على أنهم شبهوا رزقهم الذى يأتيهم فى الجنة برزق آخر جاءهم قبل ذلك ، فالمشبه به أهو من أرزاق الدنيا ، أم من أرزاق الجنة ؟ والجواب فيه وجهان . الأول : أنه من أرزاق الدنيا ، ويدل عليه وجهان ، الأول : أن الإنسان بالمألوف آنس وإلى المعهود أميل ، فاذا رأى ما لم يألفه نفر عنه طبعه ثم إذا ظفر بشىء من جنس ما سلف له به عهد ثم وجده أشرف مما ألفه أولا عظم ابتهاجه وفرحه به ، فأهل الجنة إذ أبصروا الرمانة فى الدنيا ثم أبصروها فى الآخرة ووجدوا رمانة الجنة أطيب وأشرف من رمانة الدنيا كان فرحهم بها أشد من فرحهم بشىء مما شاهدوه فى الدنيا ، والدليل الثانى : أن قوله (كلما رزقوا منها) يتناول جميع المرات فيتناول المرة الأولى فلهم فى المرة الأولى من أرزاق الجنة شىء لابد وأن يقولوا هذا الذى رزقنا من قبل ، ولا يكون قبل المرة الأولى شىء من أرزاق الجنة حتى يشبه ذلك به فوجب حمله على أرزاق الدنيا ، القول الثانى : أن المشبه به رزق الجنة أيضا والمراد تشابه أرزاقهم ثم اختلفوا فيما حصلت المشابهة فيه على وجهين . الأول : المراد تساوى ثوابهم فى كل الأوقات فى القدر والدرجة حتى لا يزيد ولا ينقص . الثانى : المراد تشابهها فى المنظر فيكون الثانى كأنه الأول على ماروى عن الحسن ثم هؤلاء مختلفون فمنهم من يقول الاشتباه كما يقع فى المنظر يقع فى المطعم ، فان الرجل إذا التذ بشىء وأعجب به لا تتعلق به نفسه إلا بمثله ، فاذا جاء ما يشبه الأول من كل الوجوه كان ذلك نهاية اللذة ومنهم من يقول إنه وإن حصل الاشتباه فى اللون لكنها تكون مختلفة فى الطعم ، قال الحسن يؤتى أحدهم بالصحفة فيأكل منها ثم يؤتى بالأخرى فيقول هذا الذى أتينا به من قبل ، فيقول الملك كل ، فاللون واحد والطعم مختلف ، وفى الآية قول ثالث على لسان أهل المعرفة ، وهو أن كمال السعادة ليس إلا فى معرفة ذات الله تعالى : ومعرفة صفاته ومعرفة أفعاله من الملائكة الكروبية والملائكة الروحانية وطبقات الأرواح وعالم السموات وبالجملة يجب أن يصير روح الانسان

كالمرآة المحاذية لعالم القدس ثم ان هذه المعارف تحصل فى الدنيا ولا يحصل بها كال الالتذاذ والابتهاج ، لما أن العلائق البدنية تعوق عن ظهور تلك السعادات واللذات ، فاذا زال هذا العائق حصلت السعادة العظيمة والغبطة الكبرى ، فالحاصل أن كل سعادة روحانية يجدها الانسان بعد الموت فانه يقول هذه هى التى كانت حاصلة لى حين كنت فى الدنيا وذلك إشارة إلى أن الكمالات النفسانية الحاصلة فى الآخرة هى التى كانت حاصلة فى الدنيا إلا أنها فى الدنيا ما أفادت اللذة والبهجة والسرور وفى الآخرة أفادت هذه الأشياء لزوال العائق . أما قوله ﴿ وأتوا به متشابها ﴾ ففيه سؤالان . السؤال الأول : إلام يرجع الضمير فى قولة (وأتوا به) ؟ الجواب : إن قلنا المشبه به هو رزق الدنيا فالى الشىء المرزوق فى الدنيا والآخرة يعنى أتوا بذلك النوع متشابها يشبه الحاصل منه فى الآخرة ماكان حاصلا منه فى الدنيا ، وإن قلنا المشبه به هو رزق الجنه أيضا ، فالى الشىء المرزوق فى الجنة ، يعنى أتوا بذلك النوع فى الجنة بحيث يشبه بعضه بعضا . السؤال الثانى : كيف موقع قوله (وأتوا به متشابها) من نظم الكلام ؟ والجواب : أن الله تعالى لما حكى عن أهل الجنة ادعاء تشابه الأرزاق فى قوله (قالوا هذا الذى رزقنا من قبل) فالله تعالى صدقهم فى تلك الدعوة بقوله) وأتوا به متشابها) أما قوله (ولهم فيها أزواج مطهرة) فالمراد طهارة أبدانهن من الحيض والاستحاضة وجميع الاقذار وطهارة أزواجهن من جميع الخصال الذميمة ، ولا سيما ما يختص بالنساء ، وإنما حملنا اللفظ على الكل لاشتراك القسمين فى قدر مشترك ، قال اهل الاشارة . وهذا يدل على أنه لابد من التنبيه لمسائل . أحدها : أن المرأة إذا حاضت فالله تعالى منعك عن مباشرتها قال الله تعالى (قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض) فاذا منعك عن مقاربتها لما عليها من النجاسة التى هى معذورة فيها فاذا كانت الأزواج اللواتى فى الجنة مطهرات فلأن يمنعك عنهن حال كونك ملوثا بنجاسات المعاصى مع أنك غير معذور فيها كان أولى . وثانيها : أن من قضى شهوته من الحلال فانه يمنع الدخول فى المسجد الذى يدخل فيه كل بر وفاجر ، فمن قضى شهوته من الحرام كيف يمكن من دخول الجنة التى لا يسكنها إلا المطهرون ولذلك فان آدم لما أتى بالزلة أخرج منها . وثالثها : من كان على ثوبه ذرة من النجاسة لاتصح صلاته عند الشافعى رضى الله عنه ، فمن كان على قلبه من نجاسات المعاصى أعظم من الدنيا كيف تقبل صلاته وهمنا سؤالان الأول : هلا جاءت الصفة مجموعة كالموصوف ؟ الجواب : هما لغتان فصيحتان يقال النساء فعلن والنساء فعلت . ومنه بيت الحماسة :

وإذا العذارى بالدخان تقنعت واستعملت نصب القدور فملت

والمعنى وجماعة أزواج مطهرة ، وقرأ زيد بن على : مطهرات وقرأ عبيد بن عمير : مطهرة يعنى متطهرة . السؤال الثانى : هلا قيل طاهرة ؟ الجواب : فى المطهرة إشعار بأن مطهراً طهرهن وليس ذلك إلا الله تعالى ، وذلك يفيد فخامة أمر أهل الثواب كأنه قيل إن الله تعالى هو الذى زينهن

إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ . الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ

لأهل الثواب . أما قوله (وهم فيها خالدون) فقالت المعتزلة الخلد ههنا هو الثبات اللازم والبقاء الدائم الذى لا ينقطع واحتجوا عليه بالآية والشعر ، أما الآية فقوله (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون) فنفى الخلد عن البشر مع أنه تعالى أعطى بعضهم العمر الطويل ، والمنفى غير المثبت ، فالخلد هو البقاء الدائم وأما الشعر فقول امرىء القيس :

وهل يعمن إلا سعيد مخلد قليل هموم مايبيت بأوجال

وقال أصحابنا : الخلد هو الثبات الطويل سواء دام أو لم يدم واحتجوا فيه بالآية والعرف أما الآية فقوله تعالى (خالدين فيها أبدا) ولو كان التأبيد داخلا فى مفهوم الخلد لكان ذلك تكرارا وأما العرف فيقال حبس فلان فلانا حبسا مخلدا ولأنه يكتب فى صكوك الأوقاف وقف فلان وقفاً مخلداً فهذا هو الكلام فى أن هذا اللفظ هل يدل على دوام الثواب أم لا ؟ وقال آخرون العقل يدل على دوامه لأنه لو لم يجب دوامه لجوزوا انقطاعه فكان خوف الانقطاع ينغص عليهم تلك النعمة لأن النعمة كلما كانت أعظم كان خوف انقطاعها أعظم وقعاً فى القلب وذلك يقتضى أن لا ينفك أهل الثواب البتة من الغم والحسرة والله تعالى أعلم

قوله تعالى ﴿ إن الله لايستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدى به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين . الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين بالدليل كون القرآن معجزاً أورد ههنا شبهة أوردها الكفار قدحا فى ذلك وأجاب عنها وتقرير الشبهة أنه جاء فى القرآن ذكر النحل والذباب والعنكبوت والنمل وهذه الأشياء لايليق ذكرها بكلام الفصحاء فاشتمال القرآن عليها يقدح فى فصاحته فضلا عن

كونه معجزاً ، فأجاب الله تعالى عنه بأن صغر هذه الأشياء لا يقدح فى الفصاحة إذا كان ذكرها مشتملا على حكم بالغة ، فهذا هو الاشارة إلى كيفية تعلق هذه الآية بما قبلها ثم فى هذه الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ عن ابن عباس أنه لما نزل (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له) فطعن فى أصنامهم ثم شبه عبادتها ببيت العنكبوت قالت اليهود أى قدر الذباب والعنكبوت حتى يضرب الله المثل بهما فنزلت هذه الآية . والقول الثانى : أن المنافقين طعنوا فى ضرب الامثال بالنار والظلمات والرعد والبرق فى قوله (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا) والقول الثالث : أن هذا الطعن كان من المشركين قال القفال : الكل محتمل ههنا ، أما اليهود فلأنه قيل فى آخر الآية (وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه) وهذا صفة اليهود ، لأن الخطاب بالوفاء بالعهد فيما بعد إنما هو لبنى إسرائيل وأما الكفار والمنافقون فقد ذكروا فى سورة المدثر (وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء الآية) فأما الذين فى قلوبهم مرض هم المنافقون ، والذين كفروا يحتمل المشركين لأن السورة مكية فقد جمع الفريقان ههنا . إذا ثبت هذا فنقول . احتمال الكل ههنا قائم لأن الكافرين والمنافقين واليهود كانوا متوافقين فى إيذاء رسول الله ﷺ وقد مضى من أول السورة إلى هذا الموضع ذكر اليهود ، وذكر المنافقين ، وذكر المشركين . وكلهم من الذين كفروا ثم قال القفال : وقد يجوز أن ينزل ذلك ابتداء من غير سبب لأن معناه فى نفسه مفيد

﴿ المسألة الثانية ﴾ اعلم أن الحياء تغير وانكسار يعترى الانسان من خوف ما يعاب به ويذم واشتقاقه من الحياة يقال حيي الرجل كما يقال نسى وخشى وشظى الفرس إذا اعتلت هذه الأعضاء . جعل الحيي لما يعتريه الانكسار والتغير منكسر القوة منغص الحياة ، كما قالوا فلان هلك حياء من كذا ، ومات حياء ، ورأيت الهلاك فى وجهه من شدة الحياء ، وذاب حياء ، وإذا ثبت هذا استحال الحياء على الله تعالى لانه تغير يلحق البدن ، وذلك لا يعقل إلا فى حق الجسم ، ولكنه وارد فى الاحاديث . روى سلمان عن رسول الله ﷺ أنه قال « إن الله تعالى حيي كريم يستحيي إذا رفع العبد إليه يديه أن يردهما صفرا حتى يضع فيهما خيرا » وإذا كان كذلك وجب تأويله وفيه وجهان . الأول وهو القانون فى أمثال هذه الأشياء ؛ أن كل صفة ثبتت للعبد مما يختص بالأجسام فاذا وصف الله تعالى بذلك فذلك محمول على نهايات الأعراض لا على بدايات الأعراض مثاله أن الحياء حالة تحصل للانسان لكن لها مبدأ ومنتهى ، أما المبدأ فهو التغير الجسمانى الذى يلحق الانسان من خوف أن ينسب إلى القبيح ، وأما النهاية فهو أن يترك الانسان ذلك الفعل ، فاذا ورد الحياء فى حق الله تعالى فليس المراد منه ذلك الخوف الذى هو مبدأ الحياء ومقدمته ، بل ترك الفعل الذى هو منتهاه وغايته ، وكذلك الغضب له علامة ومقدمة وهى غليان دم القلب ، وشهوة الانتقام وله غاية وهو انزال العقاب بالمغضوب عليه ، فاذا وصفنا الله تعالى

بالغضب فليس المراد ذلك المبدأ أعنى شهوة الانتقام وغليان دم القلب ، بل المراد تلك النهاية وهو أنزل العقاب ، فهذا هو القانون الكلى فى هذا الباب . الثانى : يجوز أن تقع هذه العبارة فى كلام الكفرة فقالوا أما يستحى رب محمد أن يضرب مثلا بالذباب والعنكبوت ، فجاء هذا الكلام على سبيل إطباق الجواب على السؤال ، وهذا فن بديع من الكلام ، ثم قال القاضى ما لا يجوز على الله من هذا الجنس إثباتا فيجب أن لا يطلق على طريقة النفى أيضا عليه . وإنما يقال إنه لا يوصف به فاما ان يقال لا يستحى ويطلق عليه ذلك فمحال ، لأنه يوهم نفى مايجوز عليه وما ذكره الله تعالى من كتابه فى قوله (لا تأخذه سنة ولا نوم) وقوله (لم يلد ولم يولد) فهو بصورة النفى وليس بنفى على الحقيقة وكذلك قوله (ما اتخذ الله من ولد) وكذلك قولك (وهو يطعم ولا يطعم) وليس كل ماورد فى القرآن إطلاقه جائزا أن يطلق فى المخاطبة فلا يجوز أن يطلق ذلك إلا مع بيان أن ذلك محال ، ولقائل أن يقول : لاشك فى أن هذه الصفات منفية عن الله سبحانه فكان الإخبار عن انتفائها صدقا فوجب أن يجوز بقى أن يقال أن الاخبار عن انتفائها يدل على صحتها عليه فنقول : هذه الدلالة ممنوعة وذلك لأن تخصيص هذا النفى بالذكر لا يدل على ثبوت غيره بل لو قرن باللفظ ما يدل على انتفاء الصحة أيضا كان ذلك أحسن من حيث أنه يكون مبالغة فى البيان وليس إذا كان غيره أحسن أن يكون ذلك قبيحا .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اعلم أن ضرب الأمثال من الأمور المستحسنة فى العقول ويدل عليه وجوه . أحدها : إطباق العرب والعجم على ذلك أما العرب فذلك مشهور عندهم وقد تمثلوا بأحقر الأشياء ، فقالوا فى التمثيل بالذرة : أجمع من ذرة ، وأضبط من ذرة ، وأخفى من الذرة وفى التمثيل بالذباب : أجرأ من الذباب ، وأخطأ من الذباب . وأطيش من الذباب ، وأشبه من الذباب بالذباب ، وألح من الذباب . وفى التمثيل بالقراد ، أسمع من قراد . وأصغر من قراد . وأعلق من قراد . وأغم من قراد ، وأدب من قراد ، وقالوا فى الجراد : أطير من جرادة ، وأحطم من جرادة ، وأفسد من جرادة . وأصفى من لعاب الجراد ، وفى الفراشة : أضعف من فراشة ، وأطيش من فراشة ، وأجهل من فراشة ، وفى البعوضة . أضعف من بعوضة ، وأعز من مخ البعوضة ، وكلفنى مخ البعوضة ، فى مثل تكليف مالا يطاق : وأما العجم فيدل عليه كتاب كليلة ودمنة وأمثاله ، وفى بعضها : قالت البعوضة ، وقد وقعت على نخلة عالية وأرادت أن تطير عنها ، ياهذه استمسكى فانى أريد أن أطير ، فقالت النخلة والله ماشعرت بوقوعك فكيف أشعر بطيرانك ، وثانيها : أنه ضرب الأمثال فى إنجيل عيسى عليه السلام بالأشياء المستحقرة ، قال : مثل ملكوت السماء كمثل رجل زرع فى قريته حنطة جيدة نقية ، فلما نام الناس جاء عدوه فزرع الزوان بين الحنطة ، فلما نبت الزرع وأثمر العشب غلب عليه الزوان ، فقال عبيد الزارع ، ياسيدنا أليس حنطة جيدة نقية زرعت فى قريتك ؟ قال بلى . قالوا فمن أين هذا الزوان ؟ قال لعلكم إن ذهبتم أن تقلعوا الزوان فتقلعوا معه الحنطة فدعوهما يتربيان،

جميعا حتى الحصاد فأمر الحصادين أن يلتقطوا الزوان من الحنطة وأن يربطوه حزما ثم يحرقوه بالنار ويجمعوا الحنطة إلى الخزائن . وأفسر لكم ذلك الرجل الذى زرع الحنطة الجيدة هو أبو البشر ، والقرية هى العالم ، والحنطة الجيدة النقية هو نحن أبناء الملكوت الذى يعملون بطاعة الله تعالى ، والعدو الذى زرع الزوان هو إبليس ، والزوان هو المعاصى التى يزرعها إبليس وأصحابه ، والحصادون هم الملائكة يتركون الناس حتى تدنوا آجالهم فيحصدون أهل الخير إلى ملكوت الله ، وأهل الشر إلى الهاوية وكما أن الزوان يلتقط ويحرق بالنار كذلك رسل الله وملائكته يلتقطون من ملكوته المتكاسلين ، وجميع عمال الأثم فيلقونهم فى أتون الهاوية فيكون هنا لك البكاء ، وصريف الأسنان ، ويكون الأبرار هنالك فى ملكوت ربهم ، من كانت له أذن تسمع فليسمع ، وأضرب لكم مثلا آخر يشبه ملكوت السماء : لو أن رجلا أخذ حبة من خردل وهى أصغر الحبوب وزرعها فى قريته ، فلما نبتت عظمت حتى صارت كأعظم شجرة من البقول وجاء طير من السماء فعشش فى فروعها فكذلك الهدى من دعا اليه ضاعف الله أجره وعظمة ورفع ذكره ، ونجى من اقتدى به ، وقال لا تكونوا كمنخل يخرج منه الدقيق الطيب ويمسك النخالة ، وكذلك أنتم تخرج الحكمة من أفواهكم وتبقون الغل فى صدوركم ، وقال : قلوبكم كالحصاة التى لا تنضجها النار ولا يلينها الماء ولا تنسفها الرياح ، وقال لا تدخروا ذخائركم حيث السوس والأرضة فتفسدها ، ولا فى البرية حيث السموم واللصوص فتحرقها السموم وتسرقها اللصوص ولكن ادخروا ذخائركم عند الله وقال : نحفر فنجد دواب عليها لباسها وهناك رزقها وهن لا يزرعن ولا يحصدن ومنهن من هو فى جوف الحجر الأصم أو فى جوف العود ، من يأتيهن بلباسهن وأرزاقهن إلا الله ؟ أفلا تعقلون ، وقال : لا تثيروا الزنابير فتلدغكم ولا تخاطبوا السفهاء فيشتموكم ، فظهر أن الله تعالى ضرب الأمثال بهذه الأشياء الحقيرة وأما العقل فلأن من طبع الخيال المحاكاة والتشبه فاذا ذكر المعنى وحده أدركه العقل ولكن مع منازعة الخيال ، وإذا ذكر معه الشبه أدركه العقل مع معاونة الخيال ، ولاشك أن الثانى يكون أكمل وأيضا فنحن نرى أن الانسان يذكر معنى ولا يلوح له كما ينبغى فاذا ذكر المثال اتضح وصار مبينا مكشوفا ، وإن كان التمثيل يفيد زيادة البيان والوضوح ، وجب ذكره فى الكتاب الذى لا يراد منه إلا الايضاح والبيان ، أما قولهم : ضرب الأمثال بهذه الأشياء الحقيرة لا يليق بالله تعالى ، قلنا هذا جهل ، لأنه تعالى هو الذى خلق الصغير والكبير وحكمه فى كل ما خلق وبرأ عام لأنه قد أحكم جميعه ، وليس الصغير أخف عليه من الكبير والعظيم أصعب من الصغير ، وإذا كان الكل بمنزلة واحدة لم يكن الكبير أولى أن يضرب به مثلا لعباده من الصغير بل المعتبر فيه ما يليق بالقصة ، فاذا كان الأليق بها الذباب والعنكبوت يضرب المثل بهما لا بالفيل والجمل ، فاذا أراد تعالى أن يقبح عبادتهم الأصنام وعدولهم عن عبادة الرحمن صلح أن يضرب المثل

بالذباب ، ليبين أن قدر مضرتها لا يندفع بهذه الأصنام ، ويضرب المثل لبيت العنكبوت ليبين أن عبادتها أوهن وأضعف من ذلك وفى مثل ذلك كل ما كان المضروب به المثل أضعف كان المثل أقوى وأوضح .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال الأصم « ما » فى قوله مثلا ماصلة زائدة كقوله (فبما رحمة من الله) وقال أبو مسلم معاذ الله أن يكون فى القرآن زيادة ولغو والأصح قول أبى مسلم لأن الله تعالى وصف القرآن بكونه هدى وبيانا وكونه لغوا ينافى ذلك ، وفى بعوضة قراءتان . احداهما : النصب وفى لفظة ما على هذه القراءة وجهان . الأول : أنها مبنية وهى التى إذا قرنت باسم نكرة أبهمته إبهاما وزادته شيوعا وبعدا عن الخصوصية . بيانه أن الرجل إذا قال لصاحبه أعطنى كتابا أنظر فيه فأعطاه بعض الكتب صح له أن يقول أردت كتابا آخر ولم أرد هذا ولو قاله مع مالم يصح له ذلك لأن تقدير الكلام أعطنى كتابا أى كتاب كان . الثانى : أنها نكرة قام تفسيرها باسم الجنس مقام الصفة ، أما على قراءة الرفع ففيها وجهان . الأول : أنها موصولة صلتها الجملة لأن التقدير هو بعوضة فحذف المبتدأ كما حذف فى (تماماً على الذى أحسن) . الثانى : أن تكون استفهامية فانه لما قال (إن الله لايستحيي أن يضرب مثلا) كأنه قال بعده ما بعوضة فما فوقها حتى يضرب المثل به ، بل له أن يمثل بما هو أقل من ذلك كثيرا كما يقال فلان لا يبالى بما وهب ، مادينار وديناران ، أى يهب ماهو أكثر من ذلك بكثير

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال صاحب الكشاف : ضرب المثل اعتماده وتكوينه من ضرب اللبن وضرب الخاتم

﴿ المسألة السادسة ﴾ انتصب بعوضة بأنه عطف بيان لمثلا أو مفعول ليضرب ومثلا حال من النكرة مقدم عليه أو ثانى مفعولين ليضرب مضمنا معنى يجعل ، وهذا إذا كانت ما صلة أو ابهامية ، فان كانت مفسرة ببعوضة فهى تابعة لما هى تفسير له ، والمفسر والمفسر معاً لمجموعهما عطف بيان أو مفعول ، ومثلاحال مقدمة ، وأما رفعها فبكونها خبر مبتدأ ،أما إذا كانت ما موصولة أو موصوفة أو استفهامية فأمرها ظاهر ، فاذا كانت إبهامية فهى على الجواب كأن قائلا قال ماهو فقيل بعوضة

﴿ المسألة السابعة ﴾ قال صاحب الكشاف : اشتقاق البعوض من البعض وهو القطع كالبضع والعضب يقال بعضه البعوض ومنه بعض الشىء لأنه قطعة منه والبعوض فى أصله صفة على فعول كالقطوع فغلبت اسميته ، وعن بعضهم اشتقاقه من بعض الشىء سمى به لقلة جرمه وصغره ولأن بعض الشىء قليل بالقياس إلى كله ، والوجه القوى هو الأول ، قال وهو من عجائب خلق الله تعالى فانه صغير جداً وخرطومه فى غاية الصغر ثم انه مع ذلك مجوف ثم ذلك الخرطوم مع فرط صغره وكونه مجوفا يغوص فى جلد الفيل والجاموس على ثخانته كما يضرب الرجل إصبعه فى الخبيص ،

وذلك لما ركب الله فى رأس خرطومه من السم

﴿ المسألة الثامنة ﴾ فى قوله (فما فوقها) وجهان . أحدهما : أن يكون المراد فما هو أعظم منها فى الجثة كالذباب والعنكبوت والحمار والكلب ، فإن القوم أنكروا تمثيل الله تعالى بكل هذه الأشياء . والثانى : أراد بما فوقها فى الصغر أى بما هو أصغر منها والمحققون مالوا إلى هذا القول لوجوه . أحدها : أن المقصد من هذا التمثيل تحقير الأوثان ، وكلما كان المشبه به أشد حقارة كان المقصود فى هذا الباب أكمل حصولا . وثانيها أن الغرض ههنا بيان أن الله تعالى لا يمتنع من التمثيل بالشيء الحقير ، وفى مثل هذا الموضع يجب أن يكون المذكور ثانيا أشد حقارة من الأول يقال إن فلانا يتحمل الذل فى اكتساب الدينار ، وفى اكتساب مافوقه ، يعنى فى القلة لأن تحمل الذل فى اكتساب أقل من الدينار أشد من تحمله فى اكتساب الدينار . وثالثها : أن الشيء كلما كان أصغر كان الاطلاع على أسراره أصعب ، فإذا كان فى نهاية الصغر لم يحط به إلا علم الله تعالى ، فكان التمثيل به أقوى فى الدلالة على كمال الحكمة من التمثيل بالشيء الكبير ، واحتج الأولون بوجهين . الأول : بأن لفظ « فوق » يدل على العلو ، فإذا قيل هذا فوق ذاك ، فإنما معناه أنه أكبر منه ويروى أن رجلا مدح علياً رضى الله عنه والرجل متهم فيه ، فقال على : إنا دون ماتقول وفوق مافى نفسك ، أراد بهذا أعلى مما فى نفسك . الثانى . كيف يضرب المثل بما دون البعوضة وهى النهاية فى الصغر ؟ والجواب عن الأول : إن كل شيء كان ثبوت صفة فيه أقوى من ثبوتها فى شيء آخر كان ذلك الأقوى فوق الأضعف فى تلك الصفة يقال إن فلانا فوق فلان فى اللؤم والدناءة . أى هو أكثر لؤماً ودناءة منه ، وكذا إذا قيل هذا فوق ذلك فى الصغر وجب أن يكون أكثر صغراً منه ، والجواب عن الثانى أن جناح البعوضة أقل منها وقد ضربه رسول الله ﷺ مثلا للدنيا

﴿ المسألة التاسعة ﴾ « أما » حرف فيه معنى الشرط ، ولذلك يجاب بالفاء وهذا يفيد التأكيد تقول زيد ذاهب فإذا قصدت توكيد ذلك وأنه لا محالة ذاهب قلت أما زيد فذاهب ، إذا ثبت هذا فنقول : إيراد الجملتين مصدرتين به أحماد عظيم لأمر المؤمنين واعتداد بعلمهم أنه الحق وذم عظيم للكافرين على ما قالوه وذكروه

﴿ المسألة العاشرة ﴾ « الحق » الثابت الذى لا يسوغ إنكاره يقال حق الأمر إذا ثبت ووجب وحقت كلمة ربك ، وثوب محقق محكم النسج

﴿ المسألة الحادية عشرة ﴾ « ماذا » فيه وجهان أن يكون ذا اسماً موصولا بمعنى الذى فيكون كلمتين وأن يكون ذا مركبة مع ما مجعولين اسما واحدا فيكون كلمة واحدة فهو على الوجهين : الأول مرفوع المحل على الابتداء وخبره ذا مع صلته ، وعلى الثانى منصوب المحل فى حكم ما وحده كما لو قلت ما أراد الله

﴿ المسألة الثانية عشرة ﴾ الارادة ماهية يجدها العاقل من نفسه ويدرك التفرقة البديهية بينها وبين علمه وقدرته وألمه ولذته . وإذا كان الأمر كذلك لم يكن تصورماهيتها محتاجا إلى التعريف، وقال المتكلمون إنها صفة تقتضى رجحان أحد طرفى الجائز على الآخر لافى الوقوع بل فى الايقاع، واحترزنا بهذا القيد الأخير عن القدرة ، واختلفوا فى كونه تعالى مريدا مع اتفاق المسلمين على اطلاق هذا اللفظ على الله تعالى فقال النجارية إنه معنى سلبى ومعناه أنه غير مغلوب ولا مستكره ، ومنهم من قال إنه أمر ثبوتى وهؤلاء اختلفوا فقال الجاحظ والكعبى وأبو الحسن البصرى : معناه علمه تعالى باشتماله الفعل على المصلحة أو المفسدة ، ويسمون هذا العلم بالداعى أو الصارف، وقال أصحابنا وأبو على وأبو هاشم وأتباعهما إنه صفة زائدة على العلم ثم القسمة فى تلك الصفة إما أن تكون ذاتية وهو القول الثانى للنجارية ، وإما أن تكون معنوية ، وذلك المعنى إما أن يكون قديما وهو قول الأشعرية أو محدثا وذلك المحدث إما أن يكون قائما بالله تعالى ، وهو قول الكرامية ، أو قائما بجسم آخر وهذا القول لم يقل به أحد ، أو يكون موجوداً لافى محل ، وهو قول أبى على وأبى هاشم وأتباعهما .

﴿ المسألة الثالثة عشرة ﴾ الضمير فى « أنه الحق » للمثل أو لأن يضرب ، وفى قولهم ماذا أراد الله بهذا استحقار كما قالت عائشة رضى الله عنها فى عبد الله بن عمرو بن العاص : يا عجبا لابن عمرو هذا

﴿ المسألة الرابعة عشرة ﴾ « مثلا » نصب على التمييز كقولك لمن أجاب بجواب غث ماذا أردت بهذا ؟ جوابا ولمن حمل سلاحا رديئاً كيف تنتفع بهذا سلاحا أو على الحال كقوله (هذه ناقة الله لكم آية) .

﴿ المسألة الخامسة عشرة ﴾ اعلم أن الله سبحانه وتعالى لما حكى عنهم كفرهم واستحقارهم كلام الله بقوله (ماذا أراد الله بهذا مثلا) أجاب عنه بقوله (يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً) ونريد أن نتكلم ههنا فى الهداية والاضلال ليكون هذا الموضع كالأصل الذى يرجع اليه فى كل ما يجىء فى هذا المعنى من الآيات فنتكلم أولا فى الاضلال فنقول : إن الهمزة تارة تجىء لنقل الفعل من غير المتعدى إلى المتعدى كقولك خرج فإنه غير متعد ، فإذا قلت أخرج فقد جعلته متعديا وقد تجىء انقل الفعل من المتعدى إلى غير المتعدى كقولك كببته فأ كب ، وقد تجىء لمجرد الوجدان . حكى عن عمرو بن معديكرب أنه قال لبنى سليم : قاتلنا كم فما أجبنا كم ، وهاجينا كم فما أفحمنا كم ، وسألنا كم فما أبخلنا كم . أى فما وجدنا كم جبناء ولا مفحمين ولا بخلاء . ويقال أتيت أرض فلان فأعمرتها أى وجدتها عامرة قال المخبل :

تمنى حصين أن يسود خزاعة فأمسى حصين قد أذل وأقهرا

أى وجد ذليلا مقهوراً ، ولقائل أن يقول لم لا يجوز أن يقال الهمزة لا تفيد إلا نقل الفعل

من غير المتعدى إلى المتعدى فأما قوله : كببته فأكب ، فلعل المراد كببته فأكب نفسه على وجهه فيكون قد ذكر الفعل مع حذف المفعولين وهذا ليس بعزيز . وأما قوله . قاتلنا كم فما أجبنا كم ، فالمراد ما أثر قتالنا فى صيرورتكم جبناء . وما أثر هجاؤنا لكم فى صيرورتكم مفحمين ، وكذا القول فى البواقى ، وهذا القول الذى قلناه أولى دفعا للاشتراك . إذا ثبت هذا فنقول قولنا أضله الله لا يمكن حمله إلا على وجهين ، أحدهما أنه صيره ضالا ، والثانى أنه وجده ضالا أما التقدير الأول وهو أنه صيره ضالا فليس فى اللفظ دلالة على أنه تعالى صيره ضالا عما ذا وفيه وجهان . أحدهما : أنه صيره ضالا عن الدين . والثانى : أنه صيره ضالا عن الجنة ، أما الأول وهو أنه تعالى صيره ضالا عن الدين فاعلم أن معنى الاضلال عن الدين فى اللغة هو الدعاء إلى ترك الدين وتقبيحه فى عينه وهذا هو الاضلال الذى أضافه الله تعالى إلى إبليس فقال (إنه عدو مضل مبين) وقال (ولأضلنهم ولأمنينهم) و (قال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا) وقال (فزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل) ، (وقال الشيطان إلى قوله (وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى) وأيضا أضاف الله تعالى هذا الاضلال إلى فرعون فقال (وأضل فرعون قومه وما هدى) واعلم أن الأمة مجمعة على أن الاضلال بهذا المعنى لايجوز على الله تعالى لأنه تعالى مادعا إلى الكفر وما رغب فيه بل نهى عنه وزجر وتوعد بالعقاب عليه ، وإذا كان المعنى الأصلى للاضلال فى اللغة ليس إلا هذا وهذا المعنى منفى بالاجماع ثبت انعقاد الاجماع على أنه لايجوز اجراء هذا اللفظ على ظاهره . وعند هذا افتقر أهل الجبر والقدر إلى التأويل أما أهل الجبر فقد حملوه على أنه تعالى خلق الضلال والكفر فيهم وصدهم عن الإيمان وحال بينهم وبينه ، وربما قالوا هذا هو حقيقة اللفظ فى أصل اللغة ، لأن الاضلال عبارة عن جعل الشيء ضالا كما أن الاخراج والادخال عبارة عن جعل الشيء خارجا وداخلا ، وقالت المعتزلة هذا التأويل غير جائز لا بحسب الأوضاع اللغوية ولا بحسب الدلائل العقلية ، أما الأوضاع اللغوية فبيانه من وجوه . أحدها : أنه لا يصح من طريق اللغة أن يقال لمن منع غيره من سلوك الطريق كرها وجبرا أنه أضله بل يقال منعه منه وصرفه عنه وإنما يقولون إنه أضله عن الطريق إذا لبس عليه وأورد من الشبهة ما يلبس عليه الطريق فلا يهتدى له . وثانيها أنه تعالى وصف إبليس وفرعون بكونهما مضللين ، مع أن فرعون وإبليس ما كانا خالقين للضلال فى قلوب المستجيبين لهما بالاتفاق ، وأما عند الجبرية فلأن العبد لا يقدر على الايجاد ، وأما عند القدرية فلأن العبد لا يقدر على هذا النوع من الايجاد ، فلما حصل اسم المضل حقيقة مع نفى الخالقية بالاتفاق ، علمنا أن اسم المضل غير موضوع فى اللغة لخالق الضلال : وثالثها أن الاضلال فى مقابلة الهداية فكما صح أن يقال هديته فما اهتدى وجب صحة أن يقال أضللته فما ضل ، وإذا كان كذلك استحال حمل الاضلال على خلق الضلال . وأما بحسب الدلائل العقلية

فمن وجوه . أحدها : أنه تعالى لو خلق الضلال فى العبد ثم كلفه بالإيمان لكان قد كلفه بالجمع بين الضدين وهو سفه وظلم ، وقال تعالى (وما ربك بظلام للعبيد) وقال (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) وقال (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) وثانيها : لو كان تعالى خالقا للجهل وملبسا على المكلفين لما كان مبينا لما كلف العبد به ، وقد أجمعت الأمة على كونه تعالى مبينا . وثالثها : أنه تعالى لو خلق فيهم الضلال وصدهم عن الإيمان لم يكن لانزال الكتب عليهم وبعثة الرسل إليهم فائدة لأن الشىء الذى لا يكون ممكن الحصول كان السعى فى تحصيله عبثاً وسفها . ورابعها : أنه على مضادة كبيرة من الآيات نحو قوله (فما لهم لا يؤمنون فما لهم عن التذكرة معرضين ، وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا) فبين أنه لا مانع لهم من الايمان البتة ، وإنما امتنعوا لأجل إنكارهم بعثة الرسل من البشر وقال (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم) وقال (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم) وقال (أنى تصرفون) وقال (أنى تؤفكون) فلو كان الله تعالى قد أضلهم عن الدين وصرفهم عن الإيمان لكانت هذه الآيات باطلة . وخامسها : أنه تعالى ذم إبليس وحزبه ومن سلك سبيله فى إضلال الناس عن الدين وصرفهم عن الحق وأمر عباده ورسوله بالاستعاذة منهم بقوله تعالى (قل أعوذ برب الناس) إلى قوله (من شر الوسواس) و (قل أعوذ برب الفلق ، وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين ، فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم فلو كان الله تعالى يضل عباده عن الدين كما تضل الشياطين لا ستحق من المذمة مثل ما استحقوه ولوجب الاستعاذة منه كما وجب منهم ، ولوجب أن يتخذوه عدواً من حيث أضل أكثر خلقه كما وجب اتخاذ إبليس عدواً لأجل ذلك . قالوا بل خصيصية الله تعالى فى ذلك أكثر إذ تضليل إبليس سواء وجوده وعدمه فيما يرجع إلى حصول الضلال بخلاف تضليل الله فانه هو المؤثر فى الضلال فيلزم من هذا تنزيه إبليس عن جميع القبائح وإحالتها كلها على الله تعالى فيكون الذم منقطعا بالكلية عن إبليس وعائدا إلى الله سبحانه وتعالى عن قول الظالمين . وسادسها : أنه تعالى أضاف الاضلال عن الدين إلى غيره وذمهم لأجل ذلك ، فقال (وأضل فرعون قومه وما هدى ، وأضلهم السامرى . وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) وقوله تعالى حاكياً عن إبليس (ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم) فهؤلاء إما أن يكونوا قد أضلوا غيرهم عن الدين فى الحقيقة أو يكون الله هو الذى أضلهم أو حصل الاضلال بالله وبهم على سبيل الشركة فان كان الله تعالى قد أضلهم عن الدين دون هؤلاء فهو سبحانه وتعالى قد تقول عليهم إذ قد رماهم بدائه وعابهم بما فيه وذمهم بما لم يفعلوه ، والله متعال عن ذلك وإن كان الله تعالى مشاركا لهم فى ذلك فكيف يجوز أن يذمهم على فعل هو شريك فيه ومساولهم فيه وإذا فسد الوجهان صح أن لا يضاف خلق الضلال إلى الله

تعالى . وسابعها : أنه تعالى ذكر أكثر الآيات التى فيها ذكر الضلال منسوبا إلى العصاة على ماقال (وما يضل به إلا الفاسقين) . ويضل الله الظالمين ، إن الله لايهدى القوم الكافرين ، كذلك يضل الله من هومسرف مرتاب ، كذلك يضل الله من هومسرف كذاب) فلوكان المرادبالضلال المضاف إليه تعالى هو ماهم فيه كان كذلك إثباتا للثابت وهذا محال . وثامنها : أنه تعالى نفى إلهية الأشياء التى كانوا يعبدونها من حيث أنهم لا يهدون إلى الحق قال (أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدى إلا أن يهدى) فنفى ربوبية تلك الأشياء من حيث أنها لا تهدى وأوجب ربوبية نفسه من حيث أنه سبحانه وتعالى يهدى فلو كان سبحانه وتعالى يضل عن الحق لكان قد ساواهم فى الضلال وفيما لأجله نهى عن اتباعهم ، بل كان قد أربى عليهم ، لأن الأوثان كما أنها لا تهدى فهى لا تضل ، وهو سبحانه وتعالى مع أنه إله يهدى فهو يضل . وتاسعها : أنه تعالى يذكر هذا الضلال جزاء لهم على سوء صنيعهم وعقوبة عليه ، فلوكان المراد ماهم عليه من الضلال كان ذلك عقوبة وتهديداً بأمرهم له ملابسون ، وعليه مقبولون ، وبه ملتذون ومغتبطون ، ولو جاز ذلك لجازت العقوبة بالزنا على الزنا وبشرب الخمر على شرب الخمر ، وهذا لا يجوز . وعاشرها : أن قوله تعالى (وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه) صريح فى أنه تعالى إنما يفعل به هذا الاضلال بعد أن صار هو من الفاسقين الناقضين لعهد الله باختيار نفسه ، فدل ذلك على أن هذا الاضلال الذى يحصل بعد صيرورته فاسقاً وناقضاً للعهد مغاير لفسقه ونقضه ؛ وحادى عاشرها : أنه تعالى فسر الاضلال المنسوب إليه فى كتابه ، إما بكونه ابتلاء وامتحانا ، أو بكونه عقوبة ونكالا ، فقال فى الابتلاء (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا) أى امتحانا إلى أن قال (كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء) فبين أن إضلاله للعبد يكون على هذا الوجه من إنزاله آية متشابهة أو فعلا متشابها لا يعرف حقيقة الغرض فيه ، والضال به هو الذى لا يقف على المقصود ولا يتفكر فى وجه الحكمة فيه بل يتمسك بالشبهات فى تقرير المجمل الباطل كما قال تعالى (فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) وأما العقوبة والنكال فكقوله (إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون) إلى أن قال (كذلك يضل الله الكافرين) فبين أن إضلاله لا يعدوا أحد هذين الوجهين وإذا كان الاضلال مفسرا بأحد هذين الوجهين وجب أن لا يكون مفسرا بغيرهما دفعاً للاشتراك ، فثبت أنه لا يجوز حمل الاضلال على خلق الكفر والضلال وإذا ثبت ذلك فنقول بينا أن الاضلال فى أصل اللغة الدعاء إلى الباطل والترغيب فيه والسعى فى إخفاء مقابحه وذلك لا يجوز على الله تعالى فوجب المصير إلى التأويل ، والتأويل الذى ذهبت الجبرية إليه قد أبطلناه فوجب المصير إلى وجوه أخر من التأويلات . أحدها : أن الرجل إذا ضل باختياره عند حصول شيء من غير أن يكون لذلك الشيء أثر في إضلاله فيقال لذلك الشيء إنه أضله قال تعالى فى

حق الأصنام (رب إنهن أضللن كثيراً من الناس) أى ضلوا بهن ، وقال (ولا يغوث ويعوق ونسراً وقد أضلوا كثيرا) أى ضل كثير من الناس بهم وقال (وليزيدن كثيرا منهم ماأنزل إليك من ربك طغيانا وكفراً) وقال (فلم يزدهم دعائى إلا فرارا) أى لم يزدادوا بدعائى لهم إلا فراراً وقال (فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكرى) وهم لم ينسوهم فى الحقيقة بل كانوا يذكرونهم الله ويدعونهم إليه ولكن لما كان اشتغالهم بالسخرية منهم سبباً لنسيانهم أضيف الانساء إليهم وقال فى براءة (وإذا ماأنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا ، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون ، وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم) فأخبر سبحانه أن نزول السورة المشتملة على الشرائع يعرف أحوالهم فمنهم من يصلح عليها فيزداد بها إيمانا ، ومنهم من يفسد عليها فيزداد بها كفرا . فاذن أضيفت الزيادة فى الإيمان والزيادة فى الكفر إلى السورة ، إذ كانوا إنما صلحوا عند نزولها وفسدوا كذلك أيضاً ، فكذا أضيف الهدى والاضلال إلى الله تعالى إذا كان إحداثهما عند ضربه تعالى الأمثال لهم وقال فى سورة المدثر (وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا) فأخبر تعالى أن ذكره لعدة خزنة النار امتحان منه لعباده ليتميز المخلص من المرتاب فآلت العاقبة إلى أن صلح عليها المؤمنون وفسد الكافرون وأضاف زيادة الإيمان وضدها إلى الممتحنين فقال ليزداد وليقول ثم قال بعد قوله (ماذا أراد الله بهذا مثلا ، كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء) فأضاف إلى نفسه إضلالهم وهداهم بعد أن أضاف إليهم الأمرين معاً ، فبين تعالى أن الاضلال مفسر بهذا الامتحان ويقال فى العرف أيضاً . أمرضنى الحب أى مرضت به : ويقال قد أفسدت فلانة فلانا وهى لم تعلم به ، وقال الشاعر : دع عنك لومى فإن اللوم إغراء

أى يغرى الملوم باللوم ، والاضلال على هذا المعنى يجوز أن يضاف إلى الله تعالى على معنى أن الكافرين ضلوا بسبب الآيات المشتملة على الامتحانات ففى هذه الآية الكفار لما قالوا : ما الحاجة إلى الأمثال وما الفائدة فيها واشتد عليهم هذا الامتحان حسنت هذه الاضافة . وثانيها : أن الاضلال هو التسمية بالضلال فيقال أضله أى سماه ضالا وحكم عليه به وأكفر فلان فلانا إذا سماه كافراً وأنشدوا بيت الكميت :

وطائفة قد أكفرونى بحبكم وطائفة قالوا مسىء ومذنب

وقال طرفة :

وما زال شربى الراح حتى أضلنى صديقى وحتى ساءنى بعض ذلكا

أراد سمانى ضالا وهذا الوجه مما ذهب إليه قطرب وكثير من المعتزلة ، ومن أهل اللغة من أنكره وقال إنما يقال ضللته تضليلا إذا سميته ضالا ، وكذلك فسقته وفجرته إذا سميته فاجرا فاسقاً ، وأجيب عنه بأنه متى صيره فى نفسه ضالا لزمه أن يصير محكوما عليه بالضلال فهذا الحكم

من لوازم ذلك التصيير ، واطلاق اسم الملزوم على اللازم مجاز مشهور وأنه مستعمل أيضا لأن الرجل إذا قال لآخر : فلان ضال جاز أن يقال له لم جعلته ضالا ويكون المعنى لم سميته بذلك ولم حكمت به عليه فعلى هذا الوجه حملوا الاضلال على الحكم والتسمية . وثالثها : أن يكون الاضلال هو التخلية وترك المنع بالقهر والجبر ، فيقال أضله إذا خلاه وضلاله قالوا ومن مجازه قولهم : أفسد فلان ابنه وأهلكه ودمر عليه إذا لم يتعهده بالتأديب ، ومثله قول العرجي :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

ويقال لمن ترك سيفه فى الأرض الندية حتى فسد وصدىء : أفسدت سيفك وأصدأته . ورابعها : الضلال والاضلال هو العذاب والتعذيب بدليل قوله تعالى (إن المجرمين فى ضلال وسعر يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر) فوصفهم الله تعالى بأنهم يوم القيامة فى ضلال وذلك لا يكون إلا عذابهم وقال تعالى (إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم ثم فى النار يسجرون ثم قيل لهم أينما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً كذلك يضل الله الكافرين) فسر ذلك الضلال بالعذاب . وخامسها : أن يحمل الاضلال على الاهلاك والابطال كقوله (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم) قيل أبطلها وأهلكها ومن مجازه قولهم : ضل الماء فى اللبن إذا صار مستهلكا فيه ويقال أضللته أنا إذا فعلت ذلك به فأهلكته وصيرته كالمعدوم ومنه يقال أضل القوم ميتهم إذا واروه فى قبره فأخفوه حتى صار لا يرى ، قال النابغة :

وآب مضلوه بعين جلية وغودر بالجولان حزم ونائل

وقال تعالى (وقالوا أئذا ضللنا فى الأرض أئنا لفى خلق جديد) أى أئذا اندفنا فيها فخفيت أشخاصنا فيحتمل على هذا المعنى يضل الله انسانا أى يهلكه ويعدمه فتجوز إضافة الاضلال إليه تعالى على هذا الوجه ، فهذه الوجوه الخمسة إذا حملنا الاضلال على الاضلال عن الدين . وسادسها : أن يحمل الاضلال على الاضلال عن الجنة ، قالت المعتزلة : وهذا فى الحقيقة ليس تأويلا بل حملا للفظ على ظاهره فإن الآية تدل على أنه تعالى يضلهم وليس فيها دلالة على أنه عما ذا يضلهم ، فنحن نحملها على أنه تعالى يضلهم عن طريق الجنة ثم حملوا كل ما فى القرآن من هذا الجنس على هذا المحمل وهو اختيار الجبائى قال تعالى (كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير) أى يضله عن الجنة وثوابها . هذا كله إذا حملنا الهمزة فى الاضلال على التعدية . وسابعها : أن نحمل الهمزة لا على التعدية بل على الوجدان على ما تقدم فى أول هذه المسألة بيانه فيقال أضل فلان بعيره أى ضل عنه فمعنى إضلال الله تعالى لهم أنه تعالى وجدهم ضالين . وثامنها : أن يكون قوله تعالى (يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا) من تمام قول الكفار فإنهم قالوا ماذا أراد الله بهذا المثل الذى لا يظهر وجه الفائدة فيه ثم قالوا يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا ذكروه على

سبيل التهكم فهذا من قول الكفار ثم قال تعالى جوابا لهم (وما يضل به إلا الفاسقين) أى ما أضل به إلا الفاسق . هذا مجموع كلام المعتزلة ، وقالت الجبرية لقد سمعنا كلامكم واعترفنا لكم بجودة الايراد وحسن الترتيب وقوة الكلام ولكن ماذا نعمل ولكم أعداء ثلاثة يشوشون عليكم هذه الوجوه الحسنة والدلائل اللطيفة أحدها : مسألة الداعى وهى أن القادر على العلم والجهل والاهداء والاضلال لم فعل أحدهما دون الآخر ؟ وثانيها : مسألة العلم على ما سبق تقريرها فى قوله تعالى (ختم الله على قلوبهم) وما رأينا لكم فى دفع هذين الكلامين كلاما محيلا قويا ونحن لا شك نعلم أنه لا يخفى عليكم مع ما معكم من الذكاء الضعف عن تلك الاجوبة التى تكلموا بها فكما أنصفنا واعترافنا لكم بحسن الكلام الذى ذكرتموه فأنصفوا ايضا واعترفوا بأنه لا وجه لكم عن هذين الوجهين فان التعامى والتغافل لا يليق بالعقلاء . وثالثها : أن فعل العبد لو كان بايجاده لما حصل إلا الذى قصد ايجاده لكن احداً لا يريد إلا تحصيل العلم والاهتداء ، ويحترز كل الاحتراز عن الجهل والضلال فكيف يحصل الجهل والاضلال للعبد مع أنه ما قصد إلا تحصيل العلم والاهتداء ؟ فان قيل إنه اشتبه عليه الكفر بالايمان والعلم بالجهل فظن فى الجهل أنه علم فقصد إيقاعه فلذلك حصل له الجهل قلنا ظنه فى الجهل أنه علم ظن خطأ فان كان اختاره أولا فقد اختار الجهل والخطأ لنفسه وذلك غير ممكن وإن قلنا إنه اشتبه عليه ذلك بسبب ظن آخر متقدم عليه لزم أن يكون قبل كل ظن ظن لا إلى نهاية وهو محـــال . ورابعها : أن التصورات غير كسبية والتصديقات البديهية غير كسبية والتصديقات بأسرها غير كسبية فهذه مقدمات ثلاثة .

﴿ المقدمة الأولى ﴾ فى بيان أن التصورات غير كسبية ، وذلك لأن من يحاول اكتسابها فأما أن يكون متصوراً لها أولا يكون متصوراً لها فان كان متصوراً لها استحال أن يطلب تحصيل تصورها لأن تحصيل الحاصل محال ، وإن لم يكن متصوراً لها كان ذهنه غافلا عنها والغافل عن الشىء يستحيل أن يكون طالبه

﴿ المقدمة الثانية ﴾ فى بيان ان التصديقات البديهية غير كسبية لأن حصول طرفى التصديق إما أن يكون كافياً فى جزم الذهن بذلك التصديق أولا يكون كافياً فان كان الأول كان ذلك التصديق دائراً مع ذينك التصورين على سبيل الوجوب نفياً وإثباتا وما كان كذلك لم يكن مقدوراً ، وإن كان الثانى لم يكن التصديق بديهياً بل متوقفا فيه

﴿ المقدمة الثالثة ﴾ فى بيان أن التصديقات بأسرها غير كسبية وذلك لأن هذه النظريات إن كانت واجبة اللزوم عن تلك البديهيات التى هى غير مقدورة كانت تلك النظريات أيضا غير مقدورة . وإن لم تكن واجبة اللزوم عن تلك البديهيات لم يمكن الاستدلال بتلك البديهيات على تلك النظريات ، فلم تكن تلك الاعتقادات الحاصلة فى تلك النظريات علوما ، بل لا تكون إلا اعتقادا حاصلا للمقلد وليس كلامنا فيه ، فثبت أن كلامكم فى عدم إسناد الاهتداء والضلال إلى الله

تعالى معارض بهذه الوجوه العقلية القاطعة التي لا جواب عنها . ولنتكلم الآن فيما ذكروه من التأويلات . أما التأويل الأول فساقط لأن إنزال هذه المتشابهات هل لها أثر في تحريك الدواعي أو ليس لها أثر في ذلك ؟ فان كان الأول وجب على قولكم أن يقبح لوجهين . الأول : أنا قد دللنا في تفسير قوله (ختم الله على قلوبهم) على أنه متى حصل الرجحان فلا بد وأن يحصل الوجوب وأنه ليس بين الاستواء وبين الوجوب المانع من النقيض واسطه ، فاذا أثر انزال هذه المتشابهات في الترجيح وثبت أنه متى حصل الترجيح فقد حصل الوجوب فحينئذ جاء الجبر وبطل ماقلتموه . الثاني : هب أنه لا ينتهي إلى حد الوجوب إلا أن المكلف ينبغي أن يكون مزاح العذر والعلة وانزال هذه المتشابهات عليه مع أن لها أثرا في ترجيح جانب الضلال على جانب الاهتداء كالعذر للمكلف في عدم الاقدام على الطاعة فوجب أن يقبح ذلك من الله تعالى ، وأما إن لم يكن لذلك أثر في إقدامهم على ترجيح جانب الضلال على جانب الاهتداء كانت نسبة هذه المتشابهات إلى ضلالهم كصرير الباب ونعيق الغراب فكما أن ضلالهم لا ينسب إلى هذه الأمور الأجنبية كذلك وجب أن لا ينسب إلى هذه المتشابهات بوجه ما ، وحينئذ يبطل تأويلهم ، أما التأويل الثاني وهو التسمية والحكم فهو وإن كان في غاية البعد لكن الاشكال معه باق لأنه إذا سماه الله بذلك وحكم به عليه فلو لم يأت المكلف به لا نقلب خبر الله الصدق كذباً وعلمه جهلا ، وكل ذلك محال والمفضي إلى المحال محال ، فكان عدم إتيان المكلف به محالا وإتيانه به واجبا وهذا عين الجبر الذي تفرون منه وأنه ملاقيكم لا محالة ، وههنا ينتهي البحث إلى الجوابين المشهورين لهما في هذا المقام وكل عاقل يعلم ببديهة عقله سقوط ذلك ، وأما التأويل الثالث وهو التخلية وترك المنع فهذا إنما يسمى إضلالا إذا كان الأولى والأحسن بالوالد أن يمنعه عن ذلك فأما إذا كان الولد بحيث لو منعه والده عن ذلك لوقع في مفسدة أعظم من تلك المفسدة الأولى لم يقل أحد أنه أفسد ولده وأضله ، وههنا الأمر بخلاف ذلك لأنه تعالى لو منع المكلف جبراً عن هذه المفسدة لزمت مفسدة أخرى أعظم من الأولى ، فكيف يقال إنه تعالى أفسد المكلف وأضله بمعنى أنه مامنعه عن الضلال مع أنه لو منعه لكانت تلك المفسدة أعظم وأما التأويل الرابع فقد اعتراض القفال عليه فقال لا نسلم بأن الضلال جاء بمعنى العذاب أما قوله تعالى (إن المجرمين في ضلال وسعر) فيمكن أن يكون المراد في ضلال عن الحق في الدنيا وفي سعر : أي في عذاب جهنم في الآخرة ويكون قوله (يوم يسحبون) من صلة سعر وأما قوله تعالى (إذ الأغلال في أعناقهم) إلى قوله (كذلك يضل الله الكافرين) فمعنى قوله ضلوا عنا أي بطلوا فلم ينتفع بهم في هـــذا اليوم الذي كنا نرجو شفاعتهم فيه ثم قوله (كذلك يضل الله الكافرين) قد يكون على معنى كذلك يضل الله أعمالهم أي يحبطها يوم القيامة ، ويحتمل كذلك يخذلهم الله تعالى في الدنيا فلا يوفقهم لقبول الحق إذ ألفوا الباطل وأعرضوا عن التدبر ، فاذا خذلهم الله تعالى وأتوا يوم القيامة فقد بطلت أعمالهم التي كانوا يرجون الانتفاع بها في الدنيا ، وأما

التأويل الخامس وهو الاهلاك فغير لائق بهذا الموضع لأن قوله تعالى (ويهدى به كثيرا) يمنع من حمل الاضلال على الاهلاك . وأما التأويل السادس : وهو أنه يضله عن طريق الجنة فضعيف لأنه تعالى قال (يضل به) أى يضل بسبب استماع هذه الآيات والاضلال عن طريق الجنة ليس بسبب استماع هذه الآيات بل بسبب إقدامه على القبائح فكيف يجوز حمله عليه . وأما التأويل السابع : وهو أن قوله (يضله) أى يجده ضالا قد بينا أن إثبات هذه اللغة لا دليل عليه وأيضا فلأنه عدى الاضلال بحرف الباء فقال (يضل به) والاضلال بمعنى الوجدان لا يكون معدى بحرف الباء . وأما التأويل الثامن فهو فى هذه الآية يوجب تفكيك النظم لأنه إلى قوله يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا من كلام الكفار ثم قوله (وما يضل به إلا الفاسقين) كلام الله تعالى من غير فصل بينهما بل مع حرف العطف وهو الواو . ثم هب أنه ههنا كذلك لكنه فى سورة المدثر وهو قوله (كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء) لاشك أنه قول الله تعالى فهذا هو الكلام فى الاضلال

أما الهدى فقد جاء على وجوه أحدها : الدلالة والبيان قال تعالى (أو لم يهد لهم كم أهلكنا) وقال (فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى) وهذا إنما يصح لو كان الهدى عبارة عن البيان وقال (إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى) وقال (إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً) أى سواء شكر أو كفر فالهداية قد جاءته فى الحالتين وقال (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) وقال (ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذى أحسن وتفصيلا لكل شيء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون) وهذا لا يقال للمؤمن وقال تعالى حكاية عن خصوم داود عليه السلام (ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط) أى ارشدنا وقال (إن الذين ارتدوا على ادبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم) وقال (أن تقول نفس ياحسرتى على ما فرطت فى جنب الله) إلى قوله (أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين) إلى قوله (بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت) فأخبر أنه قد هدى الكافر بما جاءه من الآيات وقال (أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة) وهذه مخاطبة للكافرين . وثانيها : قالوا فى قوله (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) أى لتدعو وقوله (ولكل قوم هاد) أى داع يدعوهم إلى ضلال أو هدى . وثالثها : التوفيق من الله بالألطاف المشروطة بالإيمان يؤتيها المؤمنين جزاء على إيمانهم ومعونة عليه وعلى الازدياد من طاعته ، فهذا ثواب لهم وبازائه ضده للكافرين وهو أن يسلبهم ذلك فيكون مع أنه تعالى ما هداهم يكون قد أضلهم ، والدليل على هذا الوجه قوله تعالى (والذين اهتدوا زادهم هدى ، ويزيد الله الذين اهتدوا هدى ، والله لا يهدى القوم الظالمين ، يثبت الله

الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ، كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لايهدى القوم الظالمين) فأخبر أنه لا يهديهم وأنهم قد جاءهم البينات ، فهذا الهدى غير البيان لا محالة ، وقال تعالى (ومن يؤمن بالله يهد قلبه أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه) . ورابعها : الهدى إلى طريق الجنة قال تعالى (فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيما) وقال (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور باذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) وقال (والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة) والهداية بعد القتل لا تكون إلا إلى الجنة ، وقال تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار) وهذا تأويل الجبائى ، وخامسها : الهدى بمعنى التقديم يقال هدى فلان فلانا أى قدمه أمامه ، وأصل هدى من هداية الطريق ؛ لأن الدليل يتقدم المدلول ، وتقول العرب أقبلت هوادى الخيل . أى متقدماتها ويقال للعنق هادى وهوادى الخيل أعناقها لأنها تتقدمها ، وسادسها : يهدى أى يحكم بأن المؤمن مهتد وتسميته بذلك لأن حقيقة قول القائل هداه جعله مهتديا ، وهذا اللفظ قد يطلق على الحكم والتسمية قال تعالى (ماجعل الله من بحيرة) أى ماحكم ولا شرع ، وقال (إن الهدى هدى الله) معناه أن الهدى ماحكم الله بأنه هدى وقال (من يهد الله فهو المهتد) أى من حكم الله عليه بالهدى فهو المستحق لأن يسمى مهتديا فهذه هى الوجوه التى ذكرها المعتزلة : وقد تكلمنا عليها فيما تقدم فى باب الاضلال . قالت الجبرية : وههنا وجه آخر وهو أن يكون الهدى بمعنى خلق الهداية والعلم ، قال الله تعالى (والله يدعوا إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) قالت القدرية هذا غير جائز لوجوه . أحدها : أنه لايصح فى اللغة أن يقال لمن حمل غيره على سلوك الطريق كرها وجبراً أنه هداه إليه وإنما يقال رده إلى الطريق المستقيم وحمله عليه وجره إليه فأما أن يقال إنه هداه إليه فلا ، وثانيها : لو حصل ذلك بخلق الله تعالى لبطل الأمر والنهى والمدح والذم والثواب والعقاب ، فإن قيل هب أنه خلق الله تعالى إلا أنه كسب العبد قلنا هذا الكسب مدفوع من وجهين . الأول : أن وقوع هذه الحركة إما أن يكون بتخليق الله تعالى أو لا يكون بتخليقه ، فإن كان بتخليقه ، فمتى خلقه الله تعالى استحال من العبد أن يمتنع منه ، ومتى لم يخلقه استحال من العبد الاتيان به ، فحينئذ تتوجه الاشكالات المذكورة وإن لم يكن بتخليق الله تعالى بل من العبد فهذا هو القول بالاعتزال ، الثانى : أنه لو كان خلقا لله تعالى وكسباً للعبد لم يخل من أحد وجوه ثلاثة ، إما أن يكون الله يخلقه أولا ثم يكتسبه العبد أو يكتسبه العبد أولا ثم يخلقه الله تعالى . أو يقع الأمران معاً ، فإن خلقه الله تعالى كان العبد مجبوراً على اكتسابه فيعود الالزام ، وإن اكتسبه العبد أولا فالله مجبور على

خلقه ، وإن وقعا معا وجب أن لا يحصل هذا الأمر إلا بعد اتفاقهما لكن هذا الاتفاق غير معلوم لنا فوجب أن لا يحصل هذا الاتفاق ، وأيضا فهذا الاتفاق وجب أن لا يحصل إلا باتفاق آخر ، لأنه من كسبه وفعله ، وذلك يؤدى إلى مالا نهاية له من الاتفاق وهو محال هذا مجموع كلام المعتزلة قالت الجبرية : إنا قد دللنا بالدلائل العقلية التى لا تقبل الاحتمال ، والتأويل على أن خالق هذه الأفعال هو الله تعالى ، إما بواسطة أو بغير واسطة ، والوجوه التى تمسكتم بها وجوه نقلية قابلة للاحتمال والقاطع لا يعارضه المحتمل فوجب المصير إلى ماقلناه وبالله التوفيق

﴿ المسألة السادسة عشرة ﴾ لقائل أن يقول لم وصف المهديون بالكثرة والقلة صفتهم لقوله (وقليل من عبادى الشكور ، وقليل ماهم) والحديث « الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة » وحديث (الناس أخبر قله) ، والجواب : أهل الهدى كثير فى أنفسهم وحيث يوصفون بالقلة إنما يوصفون بها بالقياس إلى أهل الضلال ، وأيضاً فإن القليل من المهديين كثير فى الحقيقة وإن قلوا فى الصورة فسموا بالكثير ذهابا إلى الحقيقة .

﴿ المسألة السابعة عشرة ﴾ قال الفراء : الفاسق أصله من قولهم فسقت الرطبة من قشرها أى خرجت ، فكأن الفاسق هو الخارج عن الطاعة ، وتسمى الفأرة فويسقة لخروجها لأجل المضرة ، واختلف أهل القبلة فى أنه هل هو مؤمن أو كافر ، فعند أصحابنا أنه مؤمن ، وعند الخوارج أنه كافر ، وعند المعتزلة أنه لا مؤمن ولا كافر ، واحتج المخالف بقوله تعالى (بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان) وقال (إن المنافقين هم الفاسقون) وقال (حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان) وهذه المسألة طويلة مذكورة فى علم الكلام .

﴿ المسألة الثامنة عشرة ﴾ اختلفوا فى المراد من قوله تعالى (الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه) وذكروا وجوها . أحدها : أن المراد بهذا الميثاق حججه القائمة على عباده الدالة لهم على صحة توحيده وصدق رسله ، فكان ذلك ميثاقا وعهداً على التمسك بالتوحيد إذا كان يلزم بهذه الحجج ماذكرنا من التمسك بالتوحيد وغيره ، ولذلك صح قوله (وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم) ، وثانيها : يحتمل أن يعنى به مادل عليه بقوله (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير مازادهم إلا نفوراً) فلما لم يفعلوا ماحلفوا عليه وصفهم بنقض عهده وميثاقه ، والتأويل الأول يمكن فيه العموم فى كل من ضل وكفر ، والثانى : لا يمكن إلا فيمن اختص بهذا القسم ، إذا ثبت هذا ظهر رجحان التأويل الأول على الثانى من وجهين . الأول : أن على التقدير الأول يمكن إجراء الآية على عمومها ، وعلى الثانى يلزم التخصيص ، الثانى أن على التقدير الأول يلزمهم الذم لأنهم نقضوا عهداً أبرمه الله وأحكمه بما أنزل من الأدلة التى كررها عليهم فى الأنفس والآفاق وأوضحها وأزال التلبيس عنها ، ولما أودع فى العقول من دلائلها وبعث الأنبياء وأنزل الكتب مؤكداً لها : وأما على التقدير الثانى

فإنه يلزمهم الذم لأجل أنهم تركوا شيئاً هم بأنفسهم التزموه ومعلوم أن ترتيب الذم على الوجه الأول أولى ، وثالثها : قال القفال : يحتمل أن يكون المقصود بالآية قوما من أهل الكتاب قدأخذ عليهم العهد والميثاق فى الكتب المنزلة على أنبيائهم بتصديق محمد ﷺ وبين لهم أمره وأمر أمته فنقضوا ذلك وأعرضوا عنه وجحدوا نبوته . ورابعا : قال بعضهم : إنه عنى به ميثاقا أخذه من الناس وهم على صورة الذر وأخرجهم من صلب آدم كذلك ، وهو معنى قوله تعالى (وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى) قال المتكلمون هذا ساقط لأنه تعالى لايحتج على العباد بعهد وميثاق لايشعرون به كما لا يؤاخذهم بما ذهب علمه عن قلبهم بالسهو والنسيان فكيف يجوز أن يعيبهم بذلك؟ وخامسها : عهد الله إلى خلقه ثلاثة عهود . العهد الأول : الذى أخذه على جميع ذرية آدم وهو الاقرار بربوبيته وهو قوله (وإذ أخذ ربك) وعهد خص به النبيين أن يبلغوا الرسالة ويقيموا الدين ولايتفرقوا فيه وهو قوله (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم) وعهد خص به العلماء ، وهو قوله (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه) قال صاحب الكشاف : الضمير فى ميثاقه للعهد وهو ماوثقوا به عهد الله من قبوله ويجوز أن يكون بمعنى توثيقه كما أن الميعاد والميلاد بمعنى الوعد والولادة ، ويجوز أن يرجع الضمير إلى الله تعالى من بعد ما وثق به عهده من آياته وكتبه ورسله

﴿المسألة التاسعة عشرة﴾ اختلفوا فى المراد من قوله تعالى (ويقطعون ماأمر الله به أن يوصل) فذكروا وجوها أحدها : أراد به قطيعة الرحم وحقوق القرابات التى أمر الله بوصلها وهو كقوله تعالى (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا ارحامكم) وفيه إشارة إلى أنهم قطعوا مابينهم وبين النبى ﷺ من القرابة ، وعلى هذا التأويل تكون الآية خاصة . وثانيها : أن الله تعالى أمرهم أن يصلوا حبلهم بحبل المؤمنين فهم انقطعوا عن المؤمنين واتصلوا بالكفار فذاك هو المراد من قوله (ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) . وثالثها : أنهم نهوا عن التنازع وإثارة الفتن وهم كانوا مشتغلين بذلك

﴿المسألة العشرون﴾ أما قوله تعالى (ويفسدون فى الأرض) فالأظهر أن يراد به الفساد الذى يتعدى دون مايقف عليهم . والأظهر أن المراد منه الصد عن طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام لأن تمام الصلاح فى الأرض بالطاعة لأن بالتزام الشرائع يلتزم الانسان كل ما لزمه ، ويترك التعدى إلى الغير ، ومنه زوال التظالم وفى زواله العدل الذى قامت به السموات والأرض ، قال تعالى فيما حكى عن فرعون أنه قال (إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد) ثم إنه سبحانه وتعالى أخبر أن من فعل هذه الأفاعيل خاسر فقال (أولئك هم الخاسرون) وفى هذا الخسران وجوه ، أحدها : أنهم خسروا نعيم الجنة لأنه لا أحد إلا وله فى الجنة أهل ومنزل ، فإن أطاع الله وجده ، وإن عصاه ورثه المؤمنون ، فذلك قوله تعالى (أولئك

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) وقال (إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة) وثانيها : أنهم خسروا حسناتهم التى عملوها لأنهم أحبطوها بكفرهم فلم يحصل لهم منها خير ولا ثواب ، والآية فى اليهود ولهم أعمال فى شريعتهم ، وفى المنافقين وهم يعملون فى الظاهر مايعمله المخلصون فحبط ذلك كله ، وثالثها : أنهم إنما أصروا على الكفر خوفا من أن تفوتهم اللذات العاجلة ، ثم إنها تفوتهم إما عند ما يصير الرسول ﷺ مأذونا فى الجهاد أو عند موتهم ، وقال القفال رحمه الله تعالى : وبالجملة أن الخاسر اسم عام يقع على كل من عمل عملا لايجزى عليه فيقال له خاسر ، كالرجل الذى إذا تعنى وتصرف فى أمر فلم يحصل منه على نفع قيل له خاب وخسر لأنه كمن أعطى شيئاً ولم يأخذ بازائه مايقوم مقامه ، فسمى الكفار الذين يعملون بمعاصى الله خاسرين قال تعالى (إن الانسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وقال (قل هل أنبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا) والله اعلم

قوله تعالى ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ﴾

إعلم أنه سبحانه وتعالى لما تكلم فى دلائل التوحيد والنبوة والمعاد إلى هذا الموضع فمن هذا الموضع إلى قوله (يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) فى شرح النعم التى عمت جميع المكلفين وهى أربعة ، أولها : نعمة الاحياء وهى المذكورة فى هذه الآية . واعلم أن قوله (كيف تكفرون بالله) وإن كان بصورة الاستخبار فالمراد به التبكيت والتعنيف ، لأن عظم النعمة يقتضى عظم معصية المنعم ، يبين ذلك أن الوالد كلما عظمت نعمته على الولد بأن رباه وعلمه وخرجه وموله وعرضه للأمور الحسان ، كانت معصيته لأبيه أعظم ، فبين سبحانه وتعالى بذلك عظم ما أقدموا عليه من الكفر ، بأن ذكرهم نعمه العظيمة عليهم ليزجرهم بذلك عما أقدموا عليه من التمسك بالكفر ويبعثهم على اكتساب الإيمان ، فذكر تعالى من نعمه ماهو الأصل فى النعم وهو الاحياء ، فهذا هو المقصود الكلى . فإن قيل لم كان العطف الأول بالفاء والبواقى بثم ؟ قلنا لأن الاحياء الأول قد يعقب الموت بغير تراخ ، وأما الموت فقد تراخى عن الاحياء والاحياء الثانى كذلك متراخ عن الموت إن أريد به النشور تراخياً ظاهراً ، وههنا مسائل .

﴿ المسألة الأولى ﴾ قالت المعتزلة : هذه الآية تدل على أن الكفر من قبل العباد من وجوه أحدها : أنه تعالى لو كان هو الخالق للكفر فيهم لما جاز أن يقول (كيف تكفرون بالله)

موبخا لهم ، كما لا يجوز أن يقول كيف تسودون وتبيضون وتصحون وتسقمون لما كان ذلك أجمع من خلقه فيهم . وثانيها : إذا كان خلقهم أولا للشقاء والنار وما أراد بخلقهم إلا الكفر وإرادة الوقوع فى النار ، فكيف يصح أن يقول موبخا لهم كيف تكفرون ؟ . وثالثها : أنه كيف يعقل من الحكيم أن يقول لهم (كيف تكفرون بالله) حال ما يخلق الكفر فيهم ويقول (وما منع الناس أن يؤمنوا) حال ما منعهم عن الإيمان ويقول (فما لهم لا يؤمنون . فما لهم عن التذكرة معرضين) وهو يخلق فيهم الاعراض ويقول (أنى تؤفكون . فأنى تصرفون) ويخلق فيهم الافك والصرف ومثل هذا الكلام بأن يعد من السخرية أولى من أن يذكر فى باب الزام الحجة على العباد . ورابعها : أن الله تعالى إذا قال للعبيد (كيف تكفرون بالله) فهل ذكر هذا الكلام توجيها للحجة على العبد وطلبا للجواب منه أوليس كذلك ؟ فإن لم يكن لطلب هذا المعنى لم يكن فى ذكره فائدة فكان هذا الخطاب عبثا ، وإن ذكره لتوجيه الحجة على العبد ، فللعبد أن يقول حصل فى حقى أمور كثيرة موجبة للكفر . فالأول : أنك علمت بالكفر منى والعلم بالكفر يوجب الكفر . والثانى : أنك أردت الكفر منى وهذه الارادة موجبة له . والثالث : أنك خلقت الكفر فى وأنا لا أقدر على إزالة فعلك . والرابع : أنك خلقت فى قدرة موجبة للكفر . والخامس : أنك خلقت فى إرادة موجبة للكفر . والسادس : أنك خلقت فى قدرة موجبة للارادة الموجبة للكفر ثم لما حصلت هذه الأسباب الستة فى حصول الكفر والإيمان يوقف على حصول هذه الأسباب الستة فى طرف الإيمان وهى بأسرها كانت مفقودة ، فقد حصل لعدم الإيمان اثنا عشر سببا كل واحد منها مستقل بالمنع من الإيمان ، ومع قيام هذه الأسباب الكثيرة كيف يعقل أن يقال كيف تكفرون بالله ؟ وخامسها : أنه تعالى قال لرسوله قل لهم كيف تكفرون بالله الذى أنعم عليكم بهذه النعمة العظيمة أعنى نعمة الحياة وعلى قول أهل الجبر لا نعمة له تعالى على الكافر ، وذلك لأن عندهم كل ما فعله الله تعالى بالكافر فإنما فعله ليستدرجه إلى الكفر ويحرقه بالنار ، فأى نعمة تكون لله على العبد على هذا التقدير وهل يكون ذلك إلا بمنزلة من قدم إلى غيره صحفة فالوذج مسموم فإن ظاهره وإن كان لذيذاً ويعد نعمة لكن لما كان باطنه مهلكا فإن أحدا لا يعده نعمة ، ومعلوم أن العذاب الدائم أشد ضرراً من ذلك السم فلا يكون لله تعالى نعمة على الكافر ، فكيف يأمر رسوله بأن يقول لهم كيف تكفرون بمن أنعم عليكم بهذه النعم العظيمة ، والجواب : أن هذه الوجوه عند البحث يرجع حاصلها إلى التمسك بطريقة المدح والذم والأمر والنهى والثواب والعقاب . فنحن أيضا نقابلها بالكلام المعتمد فى هذه الشبهة ، وهو أن الله سبحانه وتعالى علم أنه لا يكون ، فلو وجد لانقلب علمه جهلا وهو محال ومستلزم المحال محال ، فوقوعه محال مع أنه قال (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحيا كم) وأيضاً فالقدرة على الكفر إن كانت صالحة للايمان امتنع كونها مصدرا للايمان على التعيين إلا لمرجح ، وذلك المرجح إن كان من العبد عاد السؤال ، وإن

كان من الله فما لم يحصل ذلك المرجح من الله امتنع حصول الكفر ، وإذا حصل ذلك المرجح وجب ، وعلى هذا كيف لا يعقل قوله (كيف تكفرون بالله) واعلم أن المعتزلى إذا طول كلامه وفرع وجوهه فى المدح والذم فعليك بمقابلتها بهذين الوجهين فانهما يهدمان جميع كلامه ويشوشان كل شبهاته وبالله التوفيق

﴿ المسألة الثانية ﴾ اتفقوا على أن قوله (وكنتم أمواتا) المراد به وكنتم ترابا ونطفاً ، لأن ابتداء خلق آدم من التراب وخلق سائر المكلفين من أولاده إلا عيسى عليه السلام من النطف ، لكنهم اختلفوا فى أن إطلاق اسم الميت على الجماد حقيقة أو مجاز والأكثرون على أنه مجاز لأنه شبه الموات بالميت وليس أحدهما من الآخر بسبيل لأن الميت ما يحل به الموت ولا بد وأن يكون بصفة من يجوز أن يكون حياً فى العادة فيكون اللحمية والرطوبة وقال الأولون هو حقيقة فيه وهو مروى عن قتادة ، قال كانوا أمواتا فى أصلاب آبائهم فأحياهم الله تعالى ثم أخرجهم ثم أماتهم الموتة التى لا بد منها ، ثم أحياهم بعد الموت . فهما حياتان وموتتان واحتجوا بقوله (خلق الموت والحياة) والموت المقدم على الحياة هو كونه مواتا فدل على أن إطلاق الميت على الموات ثابت على سبيل الحقيقة والأول هو الأقرب ، لأنه يقال فى الجماد إنه موات وليس بميت فيشبه أن يكون استعمال أحدهما فى الآخر على سبيل التشبيه قال القفال : وهو كقوله تعالى (هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكوراً) فبين سبحانه وتعالى أن الانسان كان لا شىء يذكر فجعله الله حيا وجعله سميعا بصيراً ومجازه من قولهم فلان ميت الذكر . وهذا أمر ميت ، وهذه سلعة ميتة ، إذا لم يكن لها طالب ولا ذاكر قال المخبل السعدى :

وأحييت لى ذكرى وما كان خاملا ولكن بعض الذكر أنبه من بعض

فكذا معنى الآية (وكنتم أمواتا) أى خاملين ولا ذكر لكم لأنكم لم تكونوا شيئاً (فأحياكم) أى فجعلكم خلقا سميعا بصيرا

﴿ المسألة الثالثة ﴾ احتج قوم بهذه الآية على بطلان عذاب القبر ، قالوا لأنه تعالى بين أنه يحييهم مرة فى الدنيا وأخرى فى الآخرة ولم يذكر حياة القبر ويؤكده قوله (ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون) ولم يذكر حياة فيما بين هاتين الحالتين ، قالوا ولا يجوز الاستدلال بقوله تعالى (قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) لأنه قول الكفار ، ولأن كثيرا من الناس أثبتوا حياة الذر فى صلب آدم عليه السلام حين استخرجهم وقال (ألست بربكم) وعلى هـــذا التقدير حصل حياتان وموتتان من غير حاجة إلى إثبات حياة فى القبر ، فالجواب لم يلزم من عدم الذكر فى هذه الآية أن لا تكون حاصلة ، وأيضا فلقائل أن يقول : إن الله تعالى ذكر حياة القبر فى هذه الآية . لأن قوله ثم يحييكم ليس هو الحياة الدائمة وإلا لما صح أن يقول (ثم إليه ترجعون) لأن كلمة ثم تقتضى التراخى ، والرجوع إلى الله تعالى حاصل عقب الحياة

الدائمة من غير تراخ فلو جعلنا الآية من هذا الوجه دليلا على حياة القبر كان قريبا .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال الحسن رحمه الله قوله (كيف تكفرون بالله) يعنى به العامة ، وأما بعض الناس فقد أماتهم ثلاث مرات نحو ما حكى فى قوله (أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها) إلى قوله (فأماته الله مائة عام ثم بعثه) وكقوله (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم) وكقوله (فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ثم بعثنا كم من بعد موتكم) وكقوله (فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى) وكقوله) وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها) وكقوله فى قصة أيوب عليه السلام (وآتيناه أهله ومثلهم معهم) فان الله تعالى رد عليه أهله بعد ما أماتهم

﴿ المسألة الخامسة ﴾ تمسك المجسمة بقوله تعالى (ثم إليه ترجعون) على أنه تعالى فى مكان وهذا ضعيف ، والمراد أنهم إلى حكمة يرجعون لأنه تعالى يبعث من فى القبور ويجمعهم فى المحشر وذلك هو الرجوع إلى الله تعالى وإنما وصف بذلك لأنه رجوع إلى حيث لا يتولى الحكم غيره كقولهم رجع أمره إلى الأمير ، أى إلى حيث لا يحكم غيره

﴿ المسألة السادسة ﴾ هذه الآية دالة على أمور . الأول : أنها دالة على أنه لا يقدر على الاحياء والاماتة إلا الله تعالى فيبطل به قول أهل الطبائع من أن المؤثر فى الحياة والموت كذا وكذا من الأفلاك والكواكب والأركان والمزاجات كما حكى عن قوم فى قوله (إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) الثانى : أنها تدل على صحة الحشر والنشر مع التنبيه على الدليل العقلى الدال عليه ، لأنه تعالى بين أنه أحيا هذه الأشياء بعد موتها فى المرة الأولى فوجب أن يصح ذلك فى المرة الثانية ، الثالث : أنها تدل على التكليف والترغيب والترهيب . الرابع : أنها دالة على الجبر والقدر كما تقدم بيانه ، الخامس : أنها دالة على وجوب الزهد فى الدنيا لأنه قال (فأحيا كم ثم يميتكم ثم يحييكم) فبين أنه لابد من الموت ثم بين أنه لا يترك على هذا الموت . بل لابد من الرجوع إليه أما أنه لابد من الموت ، فقد بين سبحانه وتعالى انه بعد ما كان نطفة فإن الله احياه وصوره احسن صورة وجعله بشر سوياً وأكمل عقله وصيره بصيرا بأنواع المنافع والمضار وملكه الأموال والأولاد والدور والقصور ، ثم إنه تعالى يزيل كل ذلك عنه بأن يميته ويصيره بحيث لا يملك شيئا ولا يبقى منه فى الدنيا خبر ولا اثر ويبقى مدة طويلة فى اللحود كما قال تعالى (ومن ورائهم برزخ) ينادى فلا يجيب ويستنطق فلا يتكلم ثم لا يزوره الأقربون ، بل ينساه الأهل والبنون . كما قال يحي بن معاذ الرازى :

يمر أقاربى بحذاء قبرى ... كأن أقاربى لم يعرفونى

وقال ايضاً : إلهى كأنى بنفسى وقد اضجعوها فى حفرتها ، وانصرف المشيعون عن تشييعها ، وبكى الغريب عليها لغربتها ، وناداها من شفير القبر ذو مودتها ، ورحمتها الأعادى عند جزعتها ،

هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّيهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ

ولم يخف على الناظرين عجز حيلتها ، فما رجائى إلا أن تقول : ما تقول ملائكتى انظروا إلى فريد قد نأى عنه الأقربون ، ووحيد قد جفاه المحبون ، أصبح منى قريبا وفى اللحد غريبا ، وكان لى فى الدنيا داعيا ومجيبا ، ولاحسانى إليه عند وصوله إلى هذا البيت راجياً ، فأحسن إلى هناك ياقديم الاحسان ، وحقق رجائى فيك ياواسع الغفران . وأما أنه لابد من الرجوع إلى الله فلأن سبحانه يأمر بأن ينفخ فى الصور (فصعق من فى السموات ومن فى الأرض ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) وقال (يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون) ثم يعرضون على الله كما قال (وعرضوا على ربك صفا) فيقومون خاشعين خاضعين كما قال (وخشعت الأصوات الرحمن) وقال بعضهم : إلهنا إذا قمنا من ثرى الأجداث مغبرة رؤوسنا ، ومن شدة الخوف شاحبة وجوهنا ، ومن هول القيامة مطرقة رؤوسنا . وجائعة لطول القيامة بطوننا ، وبادية لأهل الموقف سوآتنا ، وموقرة من ثقل الأوزار ظهورنا ، وبقينا متحيرين فى أمورنا نادمين على ذنوبنا ، فلا تضعف المصائب باعراضك عنا ، ووسع رحمتك وغفرانك لنا ، ياعظيم الرحمة ياواسع المغفرة

قوله تعالى ﴿ هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسويهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم ﴾

إعلم أن هذا هو النعمة الثانية التى عمت المكلفين بأسرهم وما أحسن مارعى الله سبحانه وتعالى هذا الترتيب فإن الانتفاع بالأرض والسماء إنما يكون بعد حصول الحياة فلهذا ذكر الله أمر الحياة أولا ثم أتبعه بذكر السماء والأرض ، أما قوله (خلق) فقد مر تفسيره فى قوله (اعبدوا ربكم الذى خلقكم) وأما قوله (لكم) فهو يدل على أن المذكور بعد قوله خلق لأجل انتفاعنا فى الدين والدنيا ، أما فى الدنيا فليصلح ابداننا ولنتقوى به على الطاعات وأما فى الدين فللاستدلال بهذه الأشياء والاعتبار بها وجمع بقوله (ما فى الأرض جميعاً) جميع المنافع ، فمنها مايتصل بالحيوان والنبات والمعادن والجبال ومنها ما يتصل بضروب الحرف والأمور التى استنبطها العقلاء . وبين تعالى أن كل ذلك إنما خلقها كى ينتفع بها كما قال (وسخر لكم مافى السموات وما فى الأرض) فكأنه سبحانه وتعالى قال كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحيا كم وكيف تكفرون بالله وقد خلق لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً أو يقال كيف تكفرون بقدرة الله على الاعادة وقد أحيا كم بعد موتكم ولأنه خلق لكم ما فى الأرض

جميعاً فكيف يعجز عن إعادتكم ثم إنه تعالى ذكر تفاصيل هذه المنافع فى سور مختلفة كما قال (إنا صببنا الماء صبا) وقال فى أول سورة أتى أمر الله (والأنعام خلقها لكم) إلى آخره وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال أصحابنا : إنه سبحانه وتعالى لا يفعل فعلا لغرض لأنه لو كان كذلك كان مستكملا بذلك الغرض والمستكمل بغيره ناقص بذاته وذلك على الله تعالى محال فإن قيل : فعله تعالى معلل بغرض غير عائد إليه بل إلى غيره ، قلنا : عود ذلك الغرض إلى ذلك الغير هل هو أولى لله تعالى من عود ذلك الغرض إليه أوليس أولى ؟ فإن كان أولى فهو تعالى قد انتفع بذلك الفعل فيعود المحذور المذكور وإن كان الثانى لم يكن تحصيل ذلك الغرض المذكور لذلك الغير غرضا لله تعالى فلا يكون مؤثراً فيه . وثانيها : أن من فعل فعلا لغرض كان عاجزاً عن تحصيل ذلك الغرض إلا بواسطة ذلك الفعل والعجز على الله تعالى محال . وثالثها : أنه تعالى لو فعل فعلا لغرض لكان ذلك الغرض إن كان قديما لزم قدم الفعل وإن كان محدثا كان فعله لذلك الغرض لغرض آخر ويلزم التسلسل وهو محال . ورابعها : أنه تعالى لو كان يفعل لغرض لكان ذلك الغرض هو رعاية مصلحة المكلفين ولو توقفت فاعليته على ذلك لما فعل ما كان مفسدة فى حقهم لكنه قد فعل ذلك حيث كلف من علم أنه لا يؤمن ثم إنهم تكلموا فى اللام فى قوله تعالى (خلق لكم ما فى الأرض جميعاً) وفى قوله (إلا ليعبدون) فقالوا انه تعالى لما فعل ما لو فعله غيره لكان فعله لذلك الشىء لأجل الغرض لاجرم أطلق الله عليه لفظ الغرض بسبب هذه المشابهة

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج أهل الاباحة بقوله تعالى (خلق لكم ما فى الأرض جميعاً) على أنه تعالى خلق الكل للكل فلا يكون لأحد اختصاص بشىء أصلا وهو ضعيف لأنه تعالى قابل الكل بالكل ، فيقتضى مقابلة الفرد بالفرد ، والتعيين يستفاد من دليل منفصل والفقهاء رحمهم الله استدلوا به على أن الأصل فى المنافع الاباحة وقد بيناه فى أصول الفقه

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قيل إنها تدل على حرمة أكل الطين لأنه تعالى خلق لنا ما فى الأرض دون نفس الأرض ، ولقائل أن يقول فى جملة الأرض ما يطلق عليه أنه فى الأرض فيكون جامعاً للوصفين ، ولا شك أن المعادن داخلة فى ذلك وكذلك عروق الأرض وما يجرى مجرى بعض لها ولأن تخصيص الشىء بالذكر لا يدل على نفى الحكم عما عداه

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (خلق لكم ما فى الأرض جميعاً) يقتضى أنه لا تصح الحاجة على الله تعالى وإلا لكان قد فعل هذه الأشياء لنفسه أيضاً لا لغيره ، وأما قوله تعالى ﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الاستواء فى كلام العرب قد يكون بمعنى الانتصاب وضده الاعوجاج ولما كان ذلك من صفات الأجسام ، فالله تعالى يجب أن يكون منزها عن ذلك ولأن فى الآية ما يدل على فساده لأن قوله (ثم استوى) يقتضى التراخى ولو كان المراد من هذا الاستواء العلو

بالمكان لكان ذلك العلو حاصلا أولا ولو كان حاصلا أولا لما كان متأخراً عن خلق مافى الأرض لكن قوله (ثم استوى) يقتضى التراخى ، ولما ثبت هذا وجب ، التأويل وتقريره أن الاستواء هو الاستقامة يقال استوى العود إذا قام واعتدل ثم قيل استوى إليه كالسهم المرسل إذا قصده قصداً مستوياً من غير أن يلتفت إلى شىء آخر ومنه استعير قوله (ثم استوى إلى السماء) أى خلق بعد الأرض السماء ولم يجعل بينهما زمانا ولم يقصد شيئاً آخر بعد خلقه الأرض

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء) مفسر بقوله (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين) بمعنى تقدير الأرض فى يومين وتقدير الأقوات فى يومين آخرين كما يقول القائل من الكوفة إلى المدينة عشرون يوما ، وإلى مكة ثلاثون يوما يريد أن جميع ذلك هو هذا القدر ثم استوى إلى السماء فى يومين آخرين ومجموع ذلك ستة أيام على ما قال (خلق السموات والأرض فى ستة أيام)

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال بعض الملحدة هذه الآية تدل على أن خلق الأرض قبل خلق السماء وكذا قوله (أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين) إلى قوله تعالى (ثم استوى إلى السماء) وقال فى سورة النازعات (أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها) وهذا يقتضى أن يكون خلق الأرض بعد السماء وذكر العلماء فى الجواب عنه وجوها . أحدها : يجوز أن يكون خلق الأرض قبل خلق السماء إلا أنه ما دحاها حتى خلق السماء لأن التدحية هى البسط ولقائل أن يقول هذا أمر مشكل من وجهين . الأول أن الأرض جسم عظيم فامتنع انفكاك خلقها عن التدحية وإذا كانت التدحية متأخرة عن خلق السماء كان خلقها أيضاً لا محالة متأخراً عن خلق السماء ، الثانى : أن قوله تعالى (خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء) يدل على أن خلق الأرض وخلق كل ما فيها متقدم على خلق السماء لكن خلق الأشياء فى الأرض لا يمكن إلا إذا كانت مدحوة فهذه الآية تقتضى تقدم كونها مدحوة قبل خلق السماء وحينئذ يتحقق التناقض . والجواب : أن قوله تعالى (والأرض بعد ذلك دحاها) يقتضى تقديم خلق السماء على الأرض ولا يقتضى أن تكون تسوية : السماء مقدمة على خلق الأرض ، وعلى هذا التقدير يزول التناقض ، ولقائل أن يقول : قوله تعالى (أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها) يقتضى أن يكون خلق السماء وتسويتها مقدم على تدحية الأرض ولكن تدحية الأرض ملازمة لخلق ذات الأرض فان ذات السماء وتسويتها متقدمة على ذات الأرض وحينئذ يعود السؤال ، وثالثها : وهو الجواب الصحيح أن قوله « ثم » ليس للترتيب ههنا وإنما هو على جهة تعديد النعم ، مثاله قول الرجل لغيره :

أليس قد أعطيتك النعم العظيمة ثم رفعت قدرك ثم دفعت الخصوم عنك ، ولعل بعض ما أخره فى الذكر قد تقدم فكذا ههنا والله أعلم

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الضمير فى فسواهن ضمير مبهم ، وسبع سموات تفسير له كقوله ربه رجلا وفائدته أن المبهم إذا تبين كان أفخم وأعظم من أن يبين أولا لأنه إذا أبهم تشوفت النفوس إلى الاطلاع عليه وفى البيان بعد ذلك شفاء لها بعد التشوف ، وقيل الضمير راجع إلى السماء ، والسماء فى معنى الجنس وقيل جمع سماءة ، والوجه العربى هو الأول ومعنى تسويتهن تعديل خلقهن وإخلاؤه من العوج والفطور وإتمام خلقهن

﴿ المسألة الخامسة ﴾ إعلم أن القرآن ههنا قد دل على وجود سبع سموات ، وقال أصحاب الهيئة أقربها إلينا كرة القمر ، وفوقها كرة عطارد ، ثم كرة الزهرة ، ثم كرة الشمس . ثم كرة المريخ ، ثم كرة المشترى ، ثم كرة زحل ، قالوا ولا طريق إلى معرفة هذا الترتيب إلا من وجهين : الأول : الستر وذلك أن الكوكب الأسفل إذا مر بين أبصارنا وبين الكوكب الأعلى فانهما يصيران ككوكب واحد ويتميز الساتر عن المستور بكونه الغالب كحمرة المريخ وصفرة عطارد ، وبياض الزهرة ، وزرقة المشترى ، وكدورة زحل كما أن القدماء وجدوا القمر يكسف الكواكب الستة . وكوكب عطارد يكسف الزهرة ، والزهرة تكسف المريخ ، وهذا الترتيب على هذا الطريق يدل على كون الشمس فوق القمر لانكسافها به ولكن لا يدل على كونها تحت سائر الكواكب أو فوقها لأنها لا تنكسف بشىء منها لاضمحلال سائر الكواكب عند طلوعها فعند هذا ذكروا طريقين أحدهما : ذكر بعضهم أنه رأى الزهرة كشامة فى صحيفة الشمس ، وهذا ضعيف لأن منهم من زعم أن فى وجه الشمس شامة كما أنه حصل فى وجه القمر المحو ، الثانى : اختلاف المنظر فانه محسوس للقمر وعطارد والزهرة وغير محسوس للمريخ والمشترى وزحل ، وأما فى حق الشمس فانه قليل جداً فوجب أن تكون الشمس متوسطة بين القسمين هذا ماقاله الأكثرون إلا أن أبا الريحان قال فى تلخيصه لفصول الفرغانى : إن اختلاف المنظر لا يحس إلا فى القمر فبطلت هذه الوجوه وبقى موضع الشمس مشكوكا . واعلم أن أصحاب الارصاد وأرباب الهيئة زعموا أن الافلاك تسعة ، فالسبعة هى هذه التى ذكرناها والفلك الثامن هو الذى حصلت هذه الكواكب الثابتة فيه ، وأما الفلك التاسع فهو الفلك الأعظم وهو يتحرك فى كل يوم وليلة دورة واحدة بالتقريب ، واحتجوا على إثبات الفلك الثامن بأنا وجدنا لهذه الكواكب الثابتة حركات بطيئة وثبت أن الكواكب لا تتحرك إلا بحركة فلكها والافلاك الحاملة لهذه السيارات تتحرك حركات سريعة فلا بد من جسم آخر يتحرك حركة بطيئة ويكون هو الحامل لهذه الثوابت ، وهذه الدلالة ضعيفة من وجوه . أولها : لم لايجوز أن يقال الكواكب تتحرك بأنفسها من غير أن تكون مركوزة فى جسم آخر وهذا الاحتمال لا يفسد إلا بافساد المختار

ودونه خرط القتاد . وثانيها : سلمنا ذلك لكن لم لايجوز أن يقال إن هذه الكواكب مركوزة فى ممثلات السيارات والسيارات مركوزة فى حواملها ، وعند ذلك لايحتاج إلى إثبات الفلك الثامن . وثالثها : لم لايجوز أن يكون ذلك الفلك تحت فلك القمر فيكون تحت كرات السيارات لافوقها فإن قيل إنا نرى هذه السيارات تكسف هذه الثوابت والكاسف تحت المكسوف لامحالة قلنا هذه السيارات إنما تكسف الثوابت القريبة من المنطقة فأما الثوابت القريبة من القطبين فلا ، فلم لايجوز أن يقال هذه الثوابت القريبة من المنطقة مركوزة فى الفلك الثامن الذى هوفوق كرة زحل وهذه الثوابت القريبة من القطبين التى لايمكن انكسافها بالسيارات مركوزة فى كرة أخرى تحت كرة القمر وهذا الاحتمال لادافع له ، ثم نقول هب أنكم أثبتم هذه الافلاك التسعة فما الذى دلكم على نفى الفلك العاشر ، أقصى ما فى الباب أن الرصد مادل إلا على هذا القدر إلا أن عدم الدليل لايدل على عدم المدلول ، والذى يحقق ذلك أنه قال بعض المحققين منهم : إنه ما تبين لى إلى الآن أن كرة الثوابت كرة واحدة أو كرات منطو بعضها على بعض وأقول هذا الاحتمال واقع ، لأن الذى يستدل به على وحدة كرة الثوابت ليس إلا أن يقال إن حركاتها متشابهة ومتى كان الأمر كذلك كانت مركوزة فى كرة واحدة وكلتا المقدمتين غير يقينيتين . أما الأولى : فلأن حركاتها وإن كانت فى الحس واحدة ولكن لعلها لا تكون فى الحقيقة واحدة ، لأنا لو قدرنا أن واحداً منها يتمم الدورة فى ستة وثلاثين ألف سنة . والآخر يتمم الدورة فى مثل هذه المدة بنقصان سنة واحدة فإذا وزعنا ذلك النقصان على هذه السنين كان الذى هو حصة السنة الواحدة ثلاثة عشر جزءا من ألف ومائتى جزء من واحد ، وهذا القدر مما لايحس به بل العشر سنين والمائة والألف مما لا يحس به البتة ، وإذا كان ذلك محتملا سقط القطع البتة عن استواء حركات الثوابت . وأما الثانية : فلأن استواء حركات الثوابت فى مقادير حركاتها لايوجب كونها بأسرها مركوزة فى كرة واحدة لاحتمال كونها مركوزة فى كرات متباينة وإن كانت مشتركة فى مقادير حركاتها وهذا كما يقولون فى ممثلات أكثرا الكواكب فإنها فى حركاتها مساوية لفلك الثوابت فكذا ههنا . وأقول إن هذا الاحتمال الذى ذكره هذا القائل غير مختص بفلك الثوابت فلعل الجرم المتحرك بالحركة اليومية ليس جرما واحدا بل أجراما كثيرة إما مختلفة الحركات لكن بتفاوت قليل لاتفى بادرا كها أعمارنا وأرصادنا وإما متساوية على الاطلاق ولكن تساويها لايوجب وحدتها ، ومن أصحاب الهيئة من قطع باثبات أفلاك أخر غير هذه التسعة فإن من الناس من أثبت كرة فوق كرة الثوابت وتحت الفلك الأعظم واستدل عليه من وجوه ، الأول : أن الراصدين للميل الأعظم وجدوه مختلف المقدار فكل من كان رصده أقدم وجد مقدار الميل أعظم فإن بطليموس وجده « لح يا » (١) ثم وجد فى زمان المأمون « كح له » ثم وجد بعد

(١) يريد بعبارة (لح يا) أى عددها بالجمل يساوى ٥٤٩ وبعبارة (كح له) أن عددها بالجمل ٦٣ وهما زاويتا الميل . وذهب المحدثون من الجغرافيين إلى أنه ٢٧ر٥ .

المأمون قد تناقص بدقيقة وذلك يقتضى أن من شأن المنطقتين أن يقل ميلهما تارة ويكثر أخرى وهذا إنما يمكن إذا كان بين كرة الكل وكرة الثوابت كرة أخرى يدور قطباها حول قطبى كرة الكل وتكون كرة الثوابت يدور قطباها حول قطبى تلك الكرة فيعرض لقطبها تارة أن يصير إلى جانب الشمال منخفضا وتارة إلى جانب الجنوب مرتفعا فيلزم من ذلك أن ينطبق معدل النهار على منطقة البروج ، وأن ينفصل عنه تارة أخرى إلى الجنوب عند ما يرتفع قطب فلك الثوابت إلى الجنوب ، وتارة إلى الشمال . كما هو الآن . الثانى : أن أصحاب الأرصاد اضطربوا اضطراباً شديداً فى مقدار سير الشمس على ما هو مشروح فى كتب النجوم حتى أن بطليموس حكى عن أبرخيس أنه كان شاكا فى أن هذه العودة تكون فى أزمنة متساوية أو مختلفة وأنه يقول فى بعض أقاويله : إنها مختلفة ، وفى بعضها : إنها متساوية ثم ان الناس ذكروا فى سبب اختلافه قولين . أحدهما : قول من يجعل أوج الشمس متحركا فإنه زعم أن الاختلاف الذى يلحق حركة الشمس من هذه الجهة يختلف عند نقطة الاعتدال لاختلاف بعدها عن الأوج فيختلف زمان سير الشمس من أجله . الثانى : قول أهل الهند والصين وبابل وأكثر قدماء الروم ومصر والشام : إن السبب فيه انتقال فلك البروج وارتفاع قطبه وانحطاطه ، وحكى عن أبرخيس أنه كان يعتقد هذا الرأى وذكر برباريا. الاسكندرانى أن أصحاب الطلسمات كانوا يعتقدون ذلك وأن نقطة فلك البروج تتقدم عن موضعها وتتأخر ثمان درجات وقالوا إن ابتداء الحركة من « كب » درجة من الحوت إلى أول الحمل واعلم أن هذا الخبط مما ينبهك على أنه لا سبيل للعقول البشرية إلى إدراك هذه الأشياء وأنه لا يحيط بها إلا علم فاطرها وخالقها فوجب الاقتصار فيه على الدلائل السمعية ، فإن قال قائل فهل يدل التنصيص على سبع سموات على نفى العدد الزائد ؟ قلنا الحق أن تخصيص العدد بالذكر لا يدل على نفى الزائد

﴿ المسألة السادسة ﴾ قوله تعالى (وهو بكل شىء عليم) يدل على أنه سبحانه وتعالى لا يمكن أن يكون خالقا للأرض وما فيها وللسموات وما فيها من العجائب والغرائب إلا إذا كان عالما بها محيطا بجزئياتها وكلياتها ، وذلك يدل على أمور . أحدها : فساد قول الفلاسفة الذين قالوا إنه لا يعلم الجزئيات وصحة قول المتكلمين ، وذلك لأن المتكلمين استدلوا على علم الله تعالى بالجزئيات بأن قالوا : إن الله تعالى فاعل لهذه الأجسام على سبيل الاحكام والاتقان وكل فاعل على هذا الوجه فإن لابد وأن يكون عالما بما فعله وهذه الدلالة بعينها ذكرها الله تعالى فى هذا الموضع لأنه ذكر خلق السموات والأرض ثم فرع على ذلك كونه عالما ، فثبت بهذا أن قول المتكلمين فى هذا المذهب وفى هذا الاستدلال مطابق للقرآن . وثانيها : فساد قول المعتزلة وذلك لأنه سبحانه وتعالى بين أن الخالق للشىء على سبيل التقدير والتحديد لابد وأن يكون عالما به وبتفاصيله لأن خالقه قد خصه بقدر دون قدر والتخصيص بقدر معين لابد وأن يكون بارادة وإلا فقد حصل الرجحان من غير مرجح والارادة مشروطة بالعلم فثبت أن خالق

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ

الشيء لا بدوان يكون عالما به على سبيل التفصيل . فلو كان العبد موجداً لأفعال نفسه لكان عالما بها وبتفاصيلها فى العدد والكمية والكيفية فلما لم يحصل هذا العلم علمنا أنه غير موجد نفسه . وثالثها : قالت المعتزلة : إذا جمعت بين هذه الآية وبين قوله (وفوق كل ذى علم عليم) ظهر أنه تعالى عالم بذاته ، والجواب : قوله تعالى (وفوق كل ذى علم عليم) عام وقوله (أنزله بعلمه) خاص والخاص مقدم على العام . والله تعالى أعلم

قوله تعالى ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون ﴾

اعلم أن هذه الآية دالة على كيفية خلقة آدم عليه السلام وعلى كيفية تعظيم الله تعالى إياه فيكون ذلك إنعاما عاما على جميع بنى آدم فيكون هذا هو النعمة الثالثة من تلك النعم العامة التى أوردها فى هذا الموضع ثم فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى إذ قولان . أحدهما : أنه صلة زائدة إلا أن العرب يعتادون التكلم بها والقرآن نزل بلغة العرب . الثانى : وهو الحق أنه ليس فى القرآن ما لا معنى له وهو نصب باضمار اذكر ، والمعنى اذكر لهم قال ربك للملائكة فأضمر هذا لأمرين . أحدهما : أن المعنى معروف . والثانى : أن الله تعالى قد كشف ذلك فى كثير من المواضع كقوله (واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف) وقال (واذكر عبدنا داود ، واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون إذ أرسلنا إليهم اثنين) والقرآن كله كالكلمة الواحدة ولا يبعد أن تكون هذه المواضع المصرحة نزلت قبل هذه السورة فلا جرم ترك ذلك ههنا اكتفاء بذلك المصرح . قال صاحب الكشاف : ويجوز أن ينتصب « إذ » بقالوا

﴿ المسألة الثانية ﴾ الملك أصله من الرسالة ، يقال ألكنى إليه أى أرسلنى إليه والمألكة والألوكة الرسالة وأصله الهمزة من « ملأكة » حذفت الهمزة وألقيت حركتها على ما قبلها طلبا للخفة لكثرة استعمالها ، قال صاحب الكشاف : الملائك جمع ملأك على الأصل كالشمائل فى جمع شمأل وإلحاق التاء لتأنيث الجمع

(المسألة الثالثة) من الناس من قال : الكلام فى الملائكة ينبغى أن يكون مقدما على الكلام فى الأنبياء لوجهين . الأول : أن الله تعالى قدم ذكر الإيمان بالملائكة على ذكر الإيمان بالرسل فى قوله (والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله) ولقد قال عليه السلام « ابدؤا بما بدأ الله به » الثانى : أن الملك واسطة بين الله وبين الرسول فى تبليغ الوحى والشريعة فكان مقدما على الرسول ، ومن الناس من قال : الكلام فى النبوات مقدم على الكلام فى الملائكة لأنه لا طريق لنا إلى معرفة وجود الملائكة بالعقل بل بالسمع ، فكان الكلام فى النبوات أصلا للكلام فى الملائكة فلا جرم وجب تقديم الكلام فى النبوات ، والأولى أن يقال الملك قبل النبى بالشرف والعلية وبعده فى عقولنا وأذهاننا بحسب وصولنا إليها بأفكارنا . واعلم أنه لا خلاف بين العقلاء فى أن شرف الرتبة للعالم العلوى هو وجود الملائكة فيه كما أن شرف الرتبة للعالم السفلى هو وجود الانسان فيه إلا أن الناس اختلفوا فى ماهية الملائكة وحقيقتهم وطريق ضبط المذاهب أن يقال : الملائكة لا بد وأن تكون ذوات قائمة بأنفسها ثم إن تلك الذوات إما أن تكون متحيزة أو لا تكون ، أما الأول : وهو أن تكون الملائكة ذوات متحيزة فهنا أقوال . أحدها : أنها أجسام لطيفة هوائية تقدر على التشكل بأشكال مختلفة مسكنها السموات ، وهذا قول أكثر المسلمين . وثانيها : قول طوائف من عبدة الأوثان وهو أن الملائكة هى الحقيقة فى هذه الكواكب الموصوفة بالاسعاد والانحاس فانها بزعمهم أحياء ناطقة ، وأن المسعدات منها ملائكة الرحمة والمنحسات منها ملائكة العذاب ، وثالثها : قول معظم المجوس والثنوية وهو أن هذا العالم مركب من أصلين أزليين وهما النور والظلمة ، وهما فى الحقيقة جوهران شفافان مختاران قادران متضادا النفس والصورة مختلفا الفعل والتدبير ، فجوهر النور فاضل خير نقى طيب الريح كريم النفس يسر ولا يضر ، وينفع ولا يمنع ، ويحيى ولا يبلى وجوهر الظلمة على ضد ذلك . ثم إن جوهر النور لم يزل يولد الأولياء وهم الملائكة لا على سبيل التناكح بل على سبيل تولد الحكمة من الحكيم والضوء من المضىء . وجوهر الظلمة لم يزل يولد الأعداء وهم الشياطين على سبيل تولد السفه من السفيه لا على سبيل التناكح فهذه أقوال من جعل الملائكة أشياء متحيزة جسمانية . القول الثانى : أن الملائكة ذوات قائمة بانفسها وليست بمتحيزة ولا بأجسام فهنا قولان . أحدهما ، قول طوائف من النصارى وهو أن الملائكة فى الحقيقة هى الأنفس الناطقة المفارقة لأبدانها على نعت الصفاء والخيرية وذلك لان هذه النفوس المفارقة إن كانت صافية خالصة فهى الملائكة ، وإن كانت خبيثة كدرة فهى الشياطين . وثانيهما : قول الفلاسفة : وهو أنها جواهر قائمة بأنفسها وليست بمتحيزة البتة ، وأنها بالماهية مخالفة لأنواع النفوس الناطقة البشرية وأنها أكمل قوة منها وأكثر علما منها ، وأنها للنفوس البشرية جارية مجرى الشمس بالنسبة إلى الأضواء ، ثم إن هذه الجواهر على قسمين ، منها ما هى بالنسبة إلى أجرام الأفلاك والكواكب

كنفوسنا الناطقة بالنسبة إلى ابداننا، ومنها ماهى لا على شىء من تدبير الأفلاك بل هى مستغرقة فى معرفة الله ومحبته ومشتغلة بطاعته، وهذا القسم هم الملائكة المقربون ونسبتهم إلى الملائكة الذين يدبرون السموات كنسبة أولئك المدبرين إلى نفوسنا الناطقة. فهذان القسمان قد اتفقت الفلاسفة على إثباتهما، ومنهم من أثبت أنواعا أخر من الملائكة وهى الملائكة الأرضية المدبرة لأحوال هذا العالم السفلى، ثم إن المدبرات لهذا العالم إن كانت خيرة فهم الملائكة وإن كانت شريرة فهم الشياطين، فهذا تفصيل مذاهب الناس فى الملائكة واختلاف أهل العلم فى أنه هل يمكن الحكم بوجودها من حيث العقل أولا سبيل إلى إثباتها إلا بالسمع؟ أما الفلاسفة فقد اتفقوا على أن فى العقل دلائل تدل على وجود الملائكة، ولنا معهم فى تلك الدلائل أبحاث دقيقة عميقة، ومن الناس من ذكر فى ذلك وجوها عقلية اقناعية ولنشر إليها. أحدها: أن المراد من الملك الحى الناطق الذى لا يكون ميتا، فنقول القسمة العقلية تقتضى وجود أقسام ثلاثة فإن الحى إما أن يكون ناطقا وميتا معاً وهو الانسان، أو يكون ميتا ولا يكون ناطقا وهو البهائم، أو يكون ناطقا ولا يكون ميتا وهو الملك، ولاشك أن أخس المراتب هو الميت غير الناطق، وأوسطها الناطق الميت، وأشرفها الناطق الذى ليس بميت، فإذا اقتضت الحكمة الالهية إيجاد أخس المراتب وأوسطها، فلأن تقتضى إيجاد أشرف المراتب وأعلاها كان ذلك أولى، وثانيا: أن الفطرة تشهد بأن عالم السموات أشرف من هذا العالم السفلى وتشهد بأن الحياة والعقل والنطق أشرف من أضدادها ومقابلتها فيبعد فى العقل أن تحصل الحياة والعقل والنطق فى هذا العالم الكدر الظلمانى، ولا تحصل البتة فى ذلك العالم الذى هو عالم الضوء والنور والشرف. وثالثها: أن أصحاب المجاهدات أثبتوها من جهة المشاهدة والمكاشفة، وأصحاب الحاجات والضرورات أثبتوها من جهة أخرى وهى مايشاهد من عجائب آثارها فى الهداية إلى المعالجات النادرة الغريبة. وتركيب المعجونات واستخراج صنعة الترياقات، ومما يدل على ذلك حال الرؤيا الصادقة، فهذه وجوه إقناعية بالنسبة إلى من سمعها ولم يمارسها، وقطعية بالنسبة إلى من جربها وشاهدها واطلع على أسرارها، وأما الدلائل النقلية فلا نزاع البتة بين الأنبياء عليهم السلام فى إثبات الملائكة، بل ذلك كالأمر المجمع عليه بينهم والله أعلم

﴿ المسألة الرابعة ﴾ فى شرح كثرتهم: قال عليه الصلاة والسلام « أطت السماء وحق لها أن تئط مافيها موضع قدم إلا وفيه ملك ساجد أو راكع » وروى أن بنى آدم عشر الجن، والجن وبنو آدم عشر حيوانات البر، وهؤلاء كلهم عشر الطيور، وهؤلاء كلهم عشر حيوانات البحر، وهؤلاء كلهم عشر ملائكة الأرض الموكلين بها، وكل هؤلاء عشر ملائكة سماء الدنيا، وكل هؤلاء عشر ملائكة السماء الثانية، وعلى هذا الترتيب إلى ملائكة السماء السابعة ثم الكل فى مقابلة ملائكة الكرسى نزر قليل، ثم كل هؤلاء عشر ملائكة السرادق الواحد من سرادقات

العرش التى عددها ستمائة ألف ، طول كل سرادق وعرضه وسمكه إذا قوبلت به السموات والأرضون وما فيها وما بينها فانها كلها تكون شيئا يسيراً وقدرا صغيراً ، وما من مقدار موضع قدم إلا وفيه ملك ساجد أو راكع أو قائم ، لهم زجل بالتسبيح والتقديس ، ثم كل هؤلاء فى مقابلة الملائكة الذين يحومون حول العرش كالقطرة فى البحر ولا يعلم عددهم إلا الله . ثم مع هؤلاء ملائكة اللوح الذين هم أشياع إسرافيل عليه السلام . والملائكة الذين هم جنود جبريل عليه السلام . وهم كلهم سامعون مطيعون لا يفترون مشتغلون بعبادته سبحانه وتعالى . رطاب الألسن بذكره وتعظيمه يتسابقون فى ذلك مذ خلقهم ، لايستكبرون عن عبادته آناء الليل والنهار ولا يسأمون ، لا يحصى أجناسهم ولامدة أعمارهم ولا كيفية عبادتهم إلى الله تعالى ، وهذا تحقيق حقيقة ملكوته جل جلاله على ماقال (وما يعلم جنود ربك إلا هو) . وأقول رأيت فى بعض كتب التذكير أنه عليه الصلاة والسلام حين عرج به رأى ملائكة فى موضع بمنزلة سوق بعضهم يمشى تجاه بعض فسأل رسول الله ﷺ أيهم إلى أين يذهبون . فقال جبريل عليه السلام . لا أدرى إلا أنى أراهم مذ خلقت ولا أرى واحداً منهم قد رأيته قبل ذلك ثم سألوا واحداً منهم وقيل له مذ كم خلقت ؟ فقال لا أدرى غير أن الله تعالى يخلق كوكبا فى كل أربعمائة ألف سنة فخلق مثل ذلك الكوكب منذ خلقنى أربعمائة ألف مرة ، فسبحانه من إله ما أعظم قدرته وما أجل كماله . واعلم أن الله سبحانه وتعالى ذكر فى القرآن أصنافهم وأوصافهم . أما الأصناف فأحدها: حملة العرش وهو قوله (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ، وثانيها : الحافون حول العرش على ما قال سبحانه (وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم) وثالثها : أكابر الملائكة فمنهم جبريل وميكائيل صلوات الله عليهما لقوله تعالى (من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين) ثم إنه سبحانه وتعالى وصف جبريل عليه السلام بأمور . الأول : أنه صاحب الوحى إلى الأنبياء قال تعالى (نزل به الروح الأمين على قلبك) الثانى : أنه تعالى ذكره قبل سائر الملائكة فى القرآن (قل من كان عدوا لجبريل) ولأن جبريل صاحب الوحى والعلم ، وميكائيل صاحب الأرزاق والأغذية ، والعلم الذى هو الغذاء الروحانى أشرف من الغذاء الجسمانى فوجب أن يكون جبريل عليه السلام اشرف من ميكائيل الثالث : أنه تعالى جعله ثانى نفسه (فان الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين) . الرابع : سماه روح القدس قال فى حق عيسى عليه السلام (إذ أيدتك بروح القدس) الخامس : ينصر أولياء الله ويقهر أعداءه مع ألف من الملائكة مسومين ، السادس : أنه تعالى مدحه بصفات ست فى قوله (إنه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين) فرسالته أنه رسول الله ﷺ إلى جميع الأنبياء ، فجميع الأنبياء والرسل أمته وكرمه على ربه أنه جعله واسطة بينه وبين أشرف عباده وهم الأنبياء ، وقوته أنه رفع مدائن قوم لوط إلى السماء وقلبها ، ومكانته عند الله أنه

جعله ثانى نفسه فى قوله تعالى (فان الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين) وكونه مطاعا أنه إمام الملائكة ومقتداهم ، وأما كونه أمينا فهو قوله (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين) ومن جملة أكابر الملائكة إسرافيل وعزرائيل صلوات الله عليهما وقد ثبت وجودهما بالأخبار وثبت بالخبر أن عزرائيل هو ملك الموت على ما قال تعالى (قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم) وأما قوله (حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا) فذلك يدل على وجود ملائكة موكلين بقبض الأرواح ويجوز أن يكون ملك الموت رئيس جماعة وكلوا على قبض الأرواح قال تعالى (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم). وأما إسرافيل عليه السلام فقد دلت الأخبار على أنه صاحب الصور على ما قال تعالى ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون) . ورابعها : ملائكة الجنة قال تعالى (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) . وخامسها : ملائكة النار قال تعالى (عليها تسعة عشر) وقوله تعالى (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة) ورئيسهم مالك ، وهو قوله تعالى (ونادوا يامالك ليقض علينا ربك) وأسماء جملتهم الزبانية قال تعالى (فليدع ناديه سندع الزبانية) وسادسها : الموكلون ببنى آدم لقوله تعالى (عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) وقوله تعالى (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) وقوله تعالى (وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة) . وسابعها : كتبة الأعمال وهو قوله تعالى (وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون) . وثامنها : الموكلون بأحوال هذا العالم وهم المرادون بقوله تعالى (والصافات صفا) وبقوله (والذاريات ذرواً) إلى قوله (فالمقسمات أمرا) وبقوله (والنازعات غرقا) . وعن ابن عباس قال : إن لله ملائكة سوى الحفظة يكتبون مايسقط من ورق الأشجار ، فاذا أصاب أحدكم حرجة بأرض فلاة فليناد : أعينوا عباد الله يرحمكم الله . وأما أوصاف الملائكة فمن وجوه . أحدها : أن الملائكة رسل الله ، قال تعالى (جاعل الملائكة رسلا) أما قوله تعالى (الله يصطفى من الملائكة رسلا) فهذا يدل على أن بعض الملائكة هم الرسل فقط ، وجوابه أن من للتبيين لا للتبعيض . وثانيها : قربهم من الله تعالى ، وذلك يمتنع أن يكون بالمكان والجهة فلم يبق إلا أن يكون ذلك القرب هو القرب بالشرف وهو المراد من قوله (ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته) وقوله (بل عباد مكرمون) وقوله (يسبحون الليل والنهار لا يفترون وثالثها : وصف طاعاتهم وذلك من وجوه . الأول : قوله تعالى حكاية عنهم (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) وقال فى موضع آخر (وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون) والله تعالى ما كذبهم فى ذلك فثبت بها مواظبتهم على العبادة . الثانى : مبادرتهم إلى امتثال أمر الله تعظيما له وهو قوله (فسجد الملائكة كلهم أجمعون) . الثالث : أنهم لا يفعلون شيئا إلا بوحيه وأمره وهو قوله

(لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) . ورابعها : وصف قدرتهم وذلك من وجوه . الأول : أن حملة العرش وهم ثمانية يحملون العرش والكرسى ثم إن الكرسى الذى هو أصغر من العرش أعظم من جملة السموات السبع لقوله (وسع كرسيه السموات والأرض) فانظر إلى نهاية قدرتهم وقوتهم . الثانى : أن علو العرش شىء لا يحيط به الوهم ويدل عليه قوله (تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) ثم إنهم لشدة قدرتهم ينزلون منه فى لحظة واحدة . الثالث : قوله تعالى (ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون) فصاحب الصور يبلغ فى القوة إلى حيث أن بنفخة واحدة منه يصعق من فى السموات والأرض ، وبالنفخة الثانية منه يعودون أحياء . فاعرف منه عظم هذه القوة . والرابع : أن جبريل عليه السلام بلغ فى قوته إلى أن قلع جبال آل لوط وبلادهم دفعة واحدة ، وخامسها : وصف خوفهم ويدل عليه وجوه . الأول : أنهم مع كثرة عباداتهم وعدم إقدامهم على الزلات البتة يكونون خائفين وجلين حتى كأن عباداتهم معاصى قال تعالى (يخافون ربهم من فوقهم) وقال (وهم من خشيته مشفقون) . الثانى : قوله تعالى (حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير) روى فى التفسير أن الله تعالى إذا تكلم بالوحى سمعه أهل السموات مثل صوت السلسلة على الصفوان ففزعوا فاذا انقضى الوحى قال بعضهم لبعض ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير ، الثالث : روى البيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس قال بينما رسول الله ﷺ بناحية ومعه جبريل إذ انشق أفق السماء فأقبل جبريل يتضاءل ويدخل بعضه فى بعض ويدنوا من الأرض فاذا ملك قد مثل بين يدى رسول الله ﷺ فقال يا محمد إن ربك يقرئك السلام ويخيرك بين أن تكون نبيا ملكا وبين أن تكون نبيا عبداً ، قال عليه السلام : فأشار إلى جبريل بيده أن تواضع فعرفت أنه لى ناصح فقلت عبداً نبياً فعرج ذلك الملك إلى السماء فقلت يا جبريل قد كنت أردت أن أسألك عن هذا فرأيت من حالك ما شغلنى عن المسألة فمن هذا يا جبريل فقال هذا إسرافيل خلقه الله يوم خلقه بين يديه صافا قدميه لا يرفع طرفه وبين الرب وبينه سبعون نورا ما منها نور يدنو منه إلا احترق وبين يديه اللوح المحفوظ فاذا أذن الله له فى شىء من السماء أو من الأرض ارتفع ذلك اللوح بقرب جبينه فينظر فيه فان كان من عملى أمرنى به وإن كان من عمل ميكائيل أمره به وإن كان من عمل ملك الموت أمره به قلت ياجبريل على أى شىء أنت قال على الرياح والجنود قلت على أى شىء ميكائيل قال على النبات . قلت على أى شىء ملك الموت قال على قبض الأنفس وماظننت أنه هبط إلا لقيام الساعة وما ذاك الذى رأيت منى إلا خوفا من قيام الساعة . واعلم أنه ليس بعد كلام الله وكلام رسوله كلام فى وصف الملائكة أعلى وأجل من كلام أمير المؤمنين على عليه السلام ، قال فى بعض خطبه : ثم فتق ما بين السموات العلى فملأهن أطواراً من ملائكة فمنهم سجود لا يركعون

وركوع لا ينتصبون وصافون لا يتزايلون ومسبحون لا يسأمون لا يغشاهم نوم العيون ولا سهو العقول ولا فترة الأبدان ولا غفلة النسيان ومنهم أمناء على وحيه وألسنة إلى رسله ومختلفون بقضائه وأمره ومنهم الحفظة لعباده والسدنة لأبواب جنانه ومنهم الثابتة فى الأرضين السفلى أقدامهم والمارقة من السماء العليا أعناقهم والخارجة من الأقطار أركانهم والمناسبة لقوائم العرش أكتافهم ناكسة دونه أبصارهم متلفعون بأجنحتهم مضروبة بينهم وبين من دونهم حجب العزة وأستار القدرة لا يتوهمون ربهم بالتصوير ولا يجرون عليه صفات المصنوعين ولا يحدونه بالأماكن ولا يشيرون إليه بالنظائر .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ اختلفوا فى أن المراد من قوله (وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة) كل الملائكة أو بعضهم فروى الضحاك عن ابن عباس أنه سبحانه وتعالى إنما قال هذا القول للملائكة الذين كانوا محاربين مع إبليس لأن الله تعالى لما أسكن الجن الأرض فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء وقتل بعضهم بعضاً بعث الله إبليس فى جند من الملائكة فقتلهم إبليس بعسكره حتى أخرجوهم من الأرض وألحقوهم بجزائر البحر فقال تعالى لهم (إنى جاعل فى الأرض خليفة) وقال الأكثرون من الصحابة والتابعين أنه تعالى قال ذلك لجماعة الملائكة من غير تخصيص لأن لفظ الملائكة يفيد العموم فيكون التخصيص خلاف الأصل

﴿ المسألة السادسة ﴾ جاعل من جعل الذى له مفعولان دخل على المبتدأ والخبر وهما قوله (فى الأرض خليفة) فكانا مفعولين ومعناه مصير فى الأرض خليفة

﴿ المسألة السابعة ﴾ الظاهر أن الأرض التى فى الآية جميع الأرض من المشرق إلى المغرب وروى عبد الرحمن بن سابط عن النبى ﷺ أنه قال : دحيت الأرض من مكة وكانت الملائكة تطوف بالبيت وهم أول من طاف به وهو فى الأرض التى قال الله تعالى (إنى جاعل فى الأرض خليفة) والأول أقرب إلى الظاهر

﴿ المسألة الثامنة ﴾ الخليفة من يخلف غيره ويقوم مقامه قال الله تعالى (ثم جعلناكم خلائف فى الأرض . واذكروا إذ جعلكم خلفاء) فأما أن المراد بالخليفة من ؟ ففيه قولان . أحدهما : أنه آدم عليه السلام . وقوله (أتجعل فيها من يفسد فيها) المراد ذريته لا هو ، والثانى : أنه ولد آدم ، أما الذين قالوا المراد آدم عليه السلام فقد اختلفوا فى أنه تعالى لم سماه خليفة وذكروا فيه وجهين ، الأول : بأنه تعالى لما نفى الجن من الأرض وأسكن آدم الأرض كان آدم عليه السلام خليفة لأولئك الجن الذين تقدموه . يروى ذلك عن ابن عباس . الثانى : إنما سماه الله خليفة لأنه يخلف الله فى الحكم بين المكلفين من خلقه وهو المروى عن ابن مسعود وابن عباس والسدى وهذا الرأى متأكد بقوله (إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق) أما الذين قالوا المراد ولد آدم فقالوا إنما سماهم خليفة لأنهم يخلف بعضهم بعضا وهو

قول الحسن ويؤكده قوله (وهو الذى جعلكم خلائف الأرض) والخليفة اسم يصلح للواحد والجمع كما يصلح للذكر والأنثى وقرىء خليقة بالقاف . فان قيل ما الفائدة فى أن قال الله تعالى للملائكة (إنى جاعل فى الأرض خليفة) مع أنه منزه عن الحاجة إلى المشورة والجواب من وجهين . الأول : أنه تعالى علم أنهم إذا اطلعوا على ذلك السر أوردوا عليه ذلك السؤال فكانت المصلحة تقتضى إحاطتهم بذلك الجواب فعرفهم هذه الواقعة لكى يوردوا ذلك السؤال ويسمعوا ذلك الجواب . الوجه الثانى : أنه تعالى علم عباده المشاورة . وأما قوله تعالى (قالوا أتجعل فيها) إلى آخر الآية ، ففيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ الجمهور الأعظم من علماء الدين اتفقوا على عصمة كل الملائكة عن جميع الذنوب ومن الحشوية من خالف فى ذلك ولنا وجوه . الأول : قوله تعالى (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) إلا أن هذه الآية مختصة بملائكة النار فاذا أردنا الدلالة العامة تمسكنا بقوله تعالى (يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون) فقوله ويفعلون ما يؤمرون يتناول جميع فعل المأمورات وترك المنهيات لان المنهى عن الشىء مأمور بتركه . فان قيل ما الدليل على أن قوله ويفعلون ما يؤمرون يفيد العموم قلنا لانه لا شىء من المأمورات إلا ويصح الاستثناء منه والاستثناء يخرج من الكلام مالولاه لدخل على ما بيناه فى أصول الفقه . والثانى : قوله تعالى (بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) فهذا صريح فى براءتهم عن المعاصى وكونهم متوقفين فى كل الأمور إلا بمقتضى الأمر والوحى . والثالث : أنه تعالى حكى عنهم أنهم طعنوا فى البشر بالمعصية ولو كانوا من العصاة لما حسن منهم ذلك الطعن الرابع : أنه تعالى حكى عنهم أنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون ومن كان كذلك امتنع صدور المعصية منه واحتج المخالف بوجوه . الأول : أنه تعالى حكى عنهم أنهم قالوا (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) وهذا يقتضى صدور الذنب عنهم ويدل على ذلك وجوه ، أحدها : أن قولهم : أتجعل فيها . هذا اعتراض على الله تعالى وذلك من أعظم الذنوب . وثانيها : أنهم طعنوا فى بنى آدم بالفساد والقتل وذلك غيبة والغيبة من كبائر الذنوب . وثالثها : أنهم بعد أن طعنوا فى بنى آدم مدحوا أنفسهم بقولهم (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) وأنهم قالوا (وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون) وهذا للحصر فكأنهم نفوا كون غيرهم كذلك وهذا يشبه العجب والغيبة وهو من الذنوب المهلكة قال عليه السلام . ثلاث مهلكات ، وذكر فيها أعجاب المرء بنفسه . وقال تعالى (فلا تزكوا أنفسكم) . ورابعها : أن قولهم لا علم لنا إلا ما علمتنا يشبه الاعتذار فلولا تقدم الذنب وإلا لما اشتغلوا بالعذر . وخامسها أن قوله (أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين) يدل على أنهم كانوا كاذبين فيما قالوه أولا . وسادسها : أن قوله (ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) يدل على

أن الملائكة ما كانوا عالمين بذلك قبل هذه الواقعة وأنهم كانوا شاكين فى كون الله تعالى عالما بكل المعلومات ، وسابعها : أن علمهم يفسدون ويسفكون الدماء ، إما أن يكون قد حصل بالوحى إليهم فى ذلك أو قالوه استنباطا والأول بعيد لأنه إذا أوحى الله تعالى ذلك إليهم لم يكن لاعادة ذلك الكلام فائدة فثبت أنهم قالوه عن الاستنباط والظن والقدح فى الغير على سبيل الظن غير جائز لقوله تعالى (ولا تقف ما ليس لك به علم) وقال (إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً) وثامنها : روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : إن الله سبحانه وتعالى قال للملائكة الذين كانوا جند إبليس فى محاربة الجن (إنى جاعل فى الأرض خليفة) فقالت الملائكة مجيبين له سبحانه (أتجعل فيها من يفسد فيها) ثم علموا غضب الله عليهم (فقالوا سبحانك لاعلم لنا) وروى عن الجن وقتادة أن الله تعالى لما أخذ فى خلق آدم همست الملائكة فيما بينهم وقالوا ليخلق ربنا ما شاء أن يخلق فلن يخلق خلقا إلا كنا أعظم منه وأكرم عليه فلما خلق آدم عليه السلام وفضله عليهم (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين) فى أنى لا أخلق خلقا إلا وأنتم أفضل منه ففزع القوم عند ذلك إلى التوبة و (قالوا سبحانك لاعلم لنا) وفى بعض الروايات أنهم لما قالوا أتجعل فيها ، أرسل الله عليهم ناراً فأحرقتهم . الشبهة الثانية : تمسكوا بقصة هاروت وماروت وزعموا أنهما كانا ملكين من الملائكة وأنهما لما نظرا إلى ما يصنع أهل الأرض من المعاصى أنكرا ذلك وأكبراه ودعوا على أهل الأرض فأوحى الله تعالى إليهما إنى لو ابتليتكما بما ابتليت به بنى آدم من الشهوات لعصيتمانى فقالا يارب لو ابتليتنا لم نفعل فجربنا فأهبطهما إلى الأرض وابتلاهما الله بشهوات بنى آدم فمكثا فى الأرض وأمر الله الكوكب المسمى بالزهرة والملك الموكل به فهبطا إلى الأرض فجعلت الزهرة فى صورة امرأة والملك فى صورة رجل ثم إن الزهرة اتخذت منزلا وزينت نفسها ودعتهما إلى نفسها ونصب الملك نفسه فى منزلها فى مثال صنم فأقبلا إلى منزلها ودعواها إلى الفاحشة فأبت عليهما إلا أن يشربا خمراً فقالا لا نشرب الخمر ثم غلبت الشهوة عليهما فشربا ثم دعواها إلى ذلك فقالت بقيت خصلة لست أمكنكما من نفسى حتى تفعلاها قالا وما هى ؟ قالت تسجدان لهذا الصنم ، فقالا لا نشرك بالله ، ثم غلبت الشهوة عليهما فقالا نفعل ثم نستغفر فسجدا للصنم فارتفعت الزهرة وملكها إلى موضعهما من السماء فعرفا حينئذ أنه إنما أصابهما ذلك بسبب تعيير بنى آدم وفى رواية أخرى أن الزهرة كانت فاجرة من أهل الأرض وإنما واقعاها بعد أن شربا الخمر وقتلا النفس وسجداً للصنم وعلماها الاسم الأعظم الذى كانا به يعرجان إلى السماء فتكلمت المرأة بذلك الاسم وعرجت إلى السماء فمسخها الله تعالى وصيرها هذا الكوكب المسمى بالزهرة ثم إن الله تعالى عرف هاروت وماروت قبيح ما فيه وقعا ثم خيرهما بين عذاب الآخرة آجلا وبين عذاب الدنيا عاجلا فاختارا عذاب الدنيا فجعلهما ببابل منكوسين فى بئر إلى

يوم القيامة وهما يعلمان الناس السحر ويدعوان إليه ولا يراهما أحد إلا من ذهب إلى ذلك الموضع لتعلم السحر خاصة وتعلقوا فى ذلك بقوله تعالى (واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان) الشبهة الثالثة : أن إبليس كان من الملائكة المقربين ثم أنه عصى الله تعالى وكفر وذلك يدل على صدور المعصية من جنس الملائكة . الشبهة الرابعة : قوله تعالى (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة) قالوا فدل هذا على أن الملائكة يعذبون لأن أصحاب النار لايكونون إلا ممن يعذب فيها كما قال (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) والجواب عن الشبهة الأولى أن نقول : أما الوجه الأول وهو قولهم أنهم اعترضوا على الله تعالى وهذا من أعظم الذنوب فنقول إنه ليس غرضهم من ذلك السؤال تنبيه الله على شيء كان غافلا عنه ، فان من اعتقد ذلك فى الله فهو كافر ، ولا الانكار على الله تعالى فى فعل فعله ، بل المقصود من ذلك السؤال أمور . أحدها : أن الانسان إذا كان قاطعاً بحكمة غيره ثم رأى أن ذلك الغير يفعل فعلا لا يقف على وجه الحكمة فيه فيقول له أتفعل هذا ! كأنه يتعجب من كمال حكمته وعلمه ، ويقول إعطاء هذه النعم لمن يفسد من الأمور التى لاتهتدى العقول فيها إلى وجه الحكمة فاذا كنت تفعلها وأعلم أنك لا تفعلها إلا لوجه دقيق وسر غامض أنت مطلع عليه فما أعظم حكمتك وأجل علمك فالحاصل أن قوله (أتجعل فيها من يفسد فيها) كأنه تعجب من كمال علم الله تعالى وأحاطة حكمته بما خفى على كل العقلاء . وثانيها : أن إيراد الاشكال طلبا للجواب غير محذور فكأنهم قالوا إلهنا أنت الحكيم الذى لا يفعل السفه البتة ونحن نرى فى العرف أن تمكين السفيه من السفه سفه فاذا خلقت قوما يفسدون ويقتلون وأنت مع علمك أن حالهم كذلك خلقتهم ومكنتهم وما منعتهم عن ذلك فهذا يوهم السفه وأنت الحكيم المطلق فكيف يمكن الجمع بين الأمرين فكأن الملائكة أوردوا هذا السؤال طلبا للجواب ، وهذا جواب المعتزلة قالوا وهذا يدل على أن الملائكة لم يجوزوا صدور القبيح من الله تعالى وكانوا على مذهب أهل العدل قالوا والذى يؤكد هذا الجواب وجهان : أحدهما : أنهم أضافوا الفساد وسفك الدماء إلى المخلوقين لا إلى الخالق . والثانى : أنهم قالوا (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) لأن التسبيح تنزيه ذاته عن صفة الأجسام والتقديس تنزيه أفعاله عن صفة الذم ونعت السفه ، وثالثها : أن الشرور وإن كانت حاصلة فى تركيب هذا العالم السفلى إلا أنها من لوازم الخيرات الحاصلة فيه وخيراتها غالبة على شرورها وترك الخير الكثير لأجل الشر القليل شر كثير فالملائكة ذكروا تلك الشرور ، فأجابهم الله تعالى بقوله (إنى أعلم ما لا تعلمون) يعنى أن الخيرات الحاصلة من أجل تراكيب العالم السفلى أكثر من الشرور الحاصلة فيها والحكمة تقتضى إيجاد ما هذا شأنه لا تركه وهذا جواب الحكماء . ورابعها : أن سؤالهم كان على وجه المبالغة فى إعظام الله تعالى فان العبد المخلص لشدة حبه لمولاه يكره أن يكون له عبد يعصيه . وخامسها : أن قول الملائكة (أتجعل فيها من يفسد فيها) مسألة منهم

أن يجعل الأرض أو بعضها لهم إن كان ذلك صلاحا فكأنهم قالوا يا إلهنا اجعل الأرض لنا لا لهم كما قال موسى عليه السلام (أتهلكنا بما فعل السفهاء منا) والمعنى لا تهلكنا فقال تعالى (إنى أعلم مالا تعلمون) من صلاحكم وصلاح هؤلاء الذين أجعلهم فى الأرض فبين بذلك أنه اختار لهم السماء خاصة ولهؤلاء الأرض خاصة لعلمه بصلاح ذلك فى أديانهم ليرضى كل فريق بما اختاره الله له . وسادسها : أنهم طلبوا الحكمة التى لأجلها خلقهم مع هذا الفساد والقتل ، وسابعها : قال القفال يحتمل أن الله تعالى لما أخبرهم أنه يجعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها ، أى ستفعل ذلك فهو إيجاب خرج مخرج الاستفهام قال جرير :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

أى أنتم كذلك . ولو كان استفهاما لم يكن مدحا ، ثم قالت الملائكة إنك تفعل ذلك ونحن مع هذا نسبح بحمدك ونقدس لما أنا نعلم أنك لا تفعل إلا الصواب والحكمة فلما قالوا ذلك قال الله تعالى لهم (إنى أعلم ما لا تعلمون) كأنه قال والله أعلم نعم ما فعلتم حيث لم تجعلوا ذلك قادحا فى حكمتى فانى أعلم ما لا تعلمون فأنتم علمتم ظاهرهم وهو الفساد والقتل وما علمتم باطنهم وأنا أعلم ظاهرهم وباطنهم فأعلم من بواطنهم أسراراً خفية وحكما بالغة تقتضى خلقهم وإيجادهم . أما الوجه الثانى وهو أنهم ذكروا بنى آدم بما لا ينبغى وهو الغيبة ، فالجواب أن محل الاشكال فى خلق بنى آدم إقدامهم على الفساد والقتل ، ومن أراد إيراد السؤال وجب أن يتعرض لمحل الاشكال لا لغيره فلهذا السبب ذكروا من بنى آدم هاتين الصفتين وما ذكروا منهم عبادتهم وتوحيدهم لان ذلك ليس محل الاشكال . أما الوجه الثالث : وهو أنهم مدحوا أنفسهم وذلك يوجب العجب وتزكية النفس . فالجواب : أن مدح النفس غير ممنوع منه مطلقا لقوله (وأما بنعمة ربك فحدث) وأيضا فيحتمل أن يكون قولهم (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) ليس المراد مدح النفس . بل المراد بيان أن هذا السؤال ما أوردناه لنقدح به فى حكمتك يارب فانا نسبح بحمدك ونعترف لك بالالهية والحكمة فكأن الغرض من ذلك بيان أنهم ما أوردوا السؤال للطعن فى الحكمة والالهية . بل لطلب وجه الحكمة على سبيل التفصيل ، أما الوجه الرابع : وهو أن قولهم (لا علم لنا إلا ما علمتنا) يشبه الاعتذار فلا بد من سبق الذنب ، قلنا نحن نسلم أن الأولى للملائكة أن لا يوردوا ذلك السؤال ، فلما تركوا هذا الأولى كان ذلك الاعتذار اعتذارا من ترك الأولى فان قيل أليس أنه تعالى قال (لا يسبقونه بالقول) فهذا السؤال وجب أن يكون باذن الله تعالى ، وإذا كانوا مأذونين فى هذا السؤال فكيف اعتذروا عنه ؟ قلنا العام قد يتطرق إليه التخصيص . أما الوجه الخامس وهو أن إخبار الملائكة عن الفساد وسفك الدماء ، إما أن يكون حصل عن الوحى أو قالوه استنباطاً وظنا ، قلنا اختلف العلماء فيه ، فمنهم من قال : إنهم ذكروا ذلك ظنا ثم ذكروا فيه وجهين . الأول : وهو مروى عن ابن عباس والكلبى أنهم قاسوه

على حال الجن الذين كانوا قبل آدم عليه السلام فى الأرض . الثانى : أنهم عرفوا خلقته وعرفوا أنه مركب من هذه الأخلاط الأربعة فلا بد وأن تتركب فيه الشهوة والغضب فيتولد الفساد عن الشهوة وسفك الدماء عن الغضب . ومنهم من قال إنهم قالوا ذلك على اليقين وهو مروى عن ابن مسعود وناس من الصحابة ثم ذكروا فيه وجوها . أحدها : أنه تعالى لما قال للملائكة (إنى جاعل فى الأرض خليفة) قالوا ربنا وما يكون ذلك الخليفة ؟ قال يكون له ذرية يفسدون فى الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضا ، فعند ذلك قالوا : ربنا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، وثانيها : أنه تعالى كان قد أعلم الملائكة أنه إذا كان فى الأرض خلق عظيم أفسدوا فيها وسفكوا الدماء . وثالثها : قال ابن زيد لما خلق الله تعالى النار خافت الملائكة خوفا شديداً فقالوا ربنا لمن خلقت هذه النار ؟ قال لمن عصانى من خلقى ولم يكن لله يومئذ خلق إلا الملائكة ولم يكن فى الأرض خلق البتة فلما قال (إنى جاعل فى الأرض خليفة) عرفوا أن المعصية تظهر منهم . ورابعها : لما كتب القلم فى اللوح ماهو كائن إلى يوم القيامة فلعلهم طالعوا اللوح فعرفوا ذلك . وخامسها : إذا كان معنى الخليفة من يكون نائبا لله تعالى فى الحكم والقضاء ، والاحتجاج إلى الحاكم والقاضى إنما يكون عند التنازع والتظالم كان الاخبار عن وجود الخليفة اخباراً عن وقوع الفساد والشر بطريق الالتزام قال أهل التحقيق والقول بأنه كان هذا الاخبار عن مجرد الظن باطل لأنه قدح فى الغير بما لا يأمن أن يكون كاذباً فيه ، وذلك ينافى العصمة والطهارة . أما الوجه السادس . هو الاخبار التى ذكروها فهى من باب أخبار الآحاد فلا تعارض الدلائل التى ذكرناها

أما الشبهة الثانية وهى قصة هاروت وماروت ، فالجواب عنها أن القصة التى ذكروها باطلة من وجوه . أحدها : أنهم ذكروا فى القصة أن الله تعالى قال لهما لو ابتليتكما بما ابتليت به بنى آدم لعصيتمانى فقالا لو فعلت ذلك بنا يارب لما عصيناك ، وهذا منهم تكذيب لله تعالى وتجهيل له وذلك من صريح الكفر ، والحشوية سلموا أنهما كانا قبل الهبوط إلى الارض معصومين ، وثانيها : فى القصة أنهما خيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة وذلك فاسد بل كان الأولى أن يخيرا بين التوبة وبين العذاب والله تعالى خير بينهما من أشرك به طول عمره وبالغ فى إيذاء أنبيائه . وثالثها : فى القصة أنهما يعلمان السحر حال كونهما معذبين ويدعوان إليه وهما معاقبان على المعصية . ورابعها أن المرأة الفاجرة كيف يعقل أنها لما فجرت صعدت إلى السماء وجعلها الله تعالى كوكبا مضيئا وعظم قدره بحيث أقسم به حيث قال (فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس فهذه القصة قصة ركيكة يشهد كل عقل سليم بنهاية ركاكتها ، وأما الكلام فى تعليم السحر فسيأتى فى تفسير تلك الآية فى موضعها إن شاء الله تعالى

وأما الشبهة الثالثة : فسنتكلم فى بيان أن إبليس ما كان من الملائكة

وأما الشبهة الرابعة : وهى قوله (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة) فهذا لا يدل على كونهم معذبين فى النار وقوله (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) لا يدل أيضاً على كونهم معذبين بالنار بمجرد هذه الآية بل إنما عرف ذلك بدليل آخر فقوله (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة) يريد به خزنة النار والمتصرفين فيها والمدبرين لأمرها والله أعلم

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا فى أن الملائكة هل هم قادرون على المعاصى والشرور أم لا ؟ فقال جمهور الفلاسفة وكثير من أهل الجبر : إنهم خيرات محض ولا قدرة لهم البتة على الشرور والفساد وقال جمهور المعتزلة وكثير من الفقهاء : إنهم قادرون على الأمرين واحتجوا على ذلك بوجوه : أحدها : أن قولهم (أتجعل فيها من يفسد فيها) إما أن يكون معصية أو ترك الأولى وعلى التقديرين فالمقصود حاصل ، وثانيها : قوله تعالى (ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم) وذلك يقتضى كونهم مزجورين ممنوعين وقال أيضاً (لا يستكبرون عن عبادته) والمدح بترك الاستكبار إنما يجوز لو كان قادرا على فعل الاستكبار . وثالثها : أنهم لو لم يكونوا قادرين على ترك الخيرات لما كانوا ممدوحين بفعلها لأن الملجأ إلى الشىء ومن لا يقدر على ترك الشىء لايكون ممدوحا بفعل ذلك الشىء ، ولقد استدل بهذا بعض المعتزلة فقلت له أليس أن الثواب والعوض واجبان على الله تعالى ، ومعنى كونه واجباً عليه أنه لو تركه للزم من تركه إما الجهل وإما الحاجة وهما محالان والمفضى إلى المحال محال ، فيكون ذلك الترك محالا من الله تعالى ، وإذا كان الترك محالا كان الفعل واجبا فيكون الله تعالى فاعلا للثواب والعوض واجب وتركه محال مع أنه تعالى ممدوح على فعل ذلك ، فثبت أن امتناع الترك لا يقدح فى حصول المدح فانقطع وما قدر على الجواب .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الواو فى (ونحن) للحال كما تقول أتحسن إلى فلان وأنا أحق بالاحسان والتسبيح تبعيد الله تعالى من السوء وكذا التقديس ، من سبح فى الماء وقدس فى الأرض إذا ذهب فيها وأبعد ، واعلم أن التبعيد إن أريد به التبعيد عن السوء فهو التسبيح وإن أريد به التبعيد عن الخيرات فهو اللعن . فنقول التبعيد عن السوء يدخل فيه التبعيد عن السوء فى الذات والصفات والأفعال ، أما فى الذات فأن لاتكون محلا للامكان فان منع السوء وإمكانه هو العدم ونفى الامكان يستلزم نفى الكثرة ، ونفيها يستلزم نفى الجسمية والعرضية ونفى الضد والند ، وحصول الوحدة المطلقة والوجوب الذاتى وأما فى الصفات فأن يكون منزها عن الجهل فيكون محيطاً بكل المعلومات وقادرا على كل المقدورات وتكون صفاته منزهة عن التغييرات ، وأما فى الأفعال فأن لا تكون أفعاله لجلب المنافع ودفع المضار وأن لا يستكمل بشىء منها ولا ينتقص بعدم شىء منها فيكون مستغنياً عن كل الموجودات والمعدومات مستولياً بالاعدام والايجاد على كل الموجودات والمعدومات ، وقال أهل التذكير : التسبيح جاء تارة فى القرآن بمعنى

التنزيه وأخرى بمعنى التعجب . أما الأول فجاء على وجوه « ا » أنا المنزه عن النظير والشريك ، هو الله الواحد القهار « ب » أنا المدبر للسموات والأرض سبحان رب السموات والأرض « ج » أنا المدبر لكل العالمين سبحان الله رب العالمين « د » أنا المنزه عن قول الظالمين سبحان ربك رب العزة عما يصفون (ه) أنا المستغنى عن الكل سبحانه هو الغنى « و » أنا السلطان الذى كل شىء سوائى فهو تحت قهرى وتسخيرى فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء « ز » أنا العالم بكل شىء ، سبحان الله عما يصفون عالم الغيب « ح » أنا المنزه عن الصاحبة والولد سبحانه أنى يكون له ولد « ط » أنا المنزة عن وصفهم وقولهم ، سبحانه وتعالى عما يشركون ، عما يقولون ، عما يصفون ، أما التعجب فكذلك « ا » أنا الذى سخرت البهائم القوية للبشر الضعيف ، سبحان الذى سخر لنا هذا « ب » أنا الذى خلقت العالم وكنت منزها عن التعب والنصب ، سبحانه إذا قضى أمرا « ج » أنا الذى أعلم لا بتعليم المعلمين ولا بارشاد المرشدين ، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا « د » أنا الذى أزيل معصية سبعين سنة بتوبة ساعة فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس ، ثم يقول إن أردت رضوان الله فسبح ، وسبحوه بكرة وأصيلا . وإن أردت الفرج من البلاء فسبح لا إله أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، وإن أردت رضا الحق فسبح ، ومن الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى ، وإن أردت الخلاص من النار فسبح ، سبحانك فقنا عذاب النار ، أيها العبد واظب على تسبيحى فسبحان الله فسبح وسبحوه فان لم تفعل تسبيحى فالضرر عائد إليك ، لأن لى من يسبحنى ، ومنهم حملة العرش (فان استكبروا فالذين عند ربك يسبحون) ومنهم المقربون (قالوا سبحانك أنت ولينا) ومنهم سائر الملائكة (قالوا سبحانك ما كان ينبغى لنا) ومنهم الأنبياء كما قال ذو النون (لا إله إلا أنت سبحانك) وقال موسى (سبحانك إنى تبت إليك) والصحابة يسبحون فى قوله (سبحانك فقنا عذاب النار) والكل يسبحون ومنهم الحشرات والدواب والذرات (وإن من شىء إلا يسبح بحمده) وكذا الحجر والمدر والرمال والجبال والليل والنهار والظلمات والأنوار والجنة والنار والزمان والمكان والعناصر والأركان والأرواح والأجسام على ما قال (سبح لله ما فى السموات) ثم يقول أيها العبد : أنا الغنى عن تسبيح هذه الأشياء ، وهذه الأشياء ليست من الأحياء فلا حاجة بها إلى ثواب هذا التسبيح فقد صار ثواب هذه التسبيحات ضائعا وذلك لا يليق بى (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا) لكنى أوصل ثواب هذه الأشياء إليك ليعرف كل أحد أن من اجتهد فى خدمتى أجعل كل العالم فى خدمته . والنكتة الأخرى اذكرنى بالعبودية لتنتفع به لا أنا (سبحان ربك رب العزة) فانك إذا ذكرتنى بالتسبيح طهرتك عن المعاصى (وسبحوه بكرة وأصيلا) أقرضنى (وأقرضوا الله قرضاً حسنا) وإن كنت أنا الغنى حتى أرد الواحد عليك عشرة (من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسنا فيضاعفه له) كن معينا لى وإن كنت غنيا عن إعانتك

(ولله جنود السموات والأرض) وأيضاً فلا حاجة بى إلى العسكر (ولو يشاء الله لانتصر منهم) لكنك إذا نصرتنى نصرتك (إن تنصروا الله ينصركم) كن مواظبا على ذكرى (واذكروا الله فى أيام معدودات) ولا حاجة بى إلى ذكرك لأن الكل يذكرونى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) لكنك إذا ذكرتنى ذكرتك (فاذكرونى أذكركم) اخدمنى (يا أيها الناس اعبدوا ربكم) لا لأنى أحتاج إلى خدمتك فانى أنا الملك (ولله ملك السموات والأرض . ولله يسجد من فى السموات والأرض) ولكن انصرف إلى خدمتى هذه الأيام القليلة لتنال الراحات الكثيرة (قل الله ثم ذرهم)

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (بحمدك) قال صاحب الكشاف بحمدك فى موضع الحال . أى نسبح لك حامدين لك ومتلبسين بحمدك ، وأما المعنى ففيه وجهان ، الأول : أنا إذا سبحناك فنحمدك سبحانك يعنى ليس تسبيحنا تسبيحا من غير استحقاق بل تستحق بحمدك وجلالك هذا التسبيح الثانى : أنا نسبحك بحمدك فانه لولا إنعامك علينا بالتوفيق لم نتمكن من ذلك كما قال دواد عليه السلام : يارب كيف أقدر أن أشكرك وأنا لا أصل إلى شكر نعمتك إلا بنعمتك ، فأوحى الله تعالى إليه « الآن قد شكرتنى حيث عرفت أن كل ذلك منى » واختلف العلماء فى المراد من هذا التسبيح فروى أن أبا ذر دخل بالغداة على رسول الله ﷺ أو بالعكس ، فقال يارسول الله بأبى أنت وأمى : أى الكلام أحب إلى الله قال ما اصطفاه الله لملائكته (سبحان الله وبحمده رواه مسلم وروى سعيد بن جبير قال « كان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى فمر رجل من المسلمين على رجل من المنافقين فقال له رسول الله يصلى وانت جالس لاتصلى فقال له امض إلى عملك إن كان لك عمل ، فقال ما أظن إلا سيمر بك من ينكر عليك فمر عليه عمر بن الخطاب قال يافلان إن رسول الله يصلى وأنت جالس ، فقال له مثلها فوثب عليه فضربه ، وقال هذا من عملى ثم دخل المسجد وصلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما فرغ رسول الله من صلاته قام إليه عمر فقال يا نبى الله مررت آنفاً على فلان وأنت تصلى وهو جالس فقلت له : نبى الله يصلى وأنت جالس فقال لى مر إلى عملك فقال عليه الصلاة والسلام هلا ضربت عنقه ، فقام عمر مسرعا ليلحقه فيقتله فقال له النبى ﷺ يا عمر ارجع فان غضبك عز ورضاك حكم إن لله فى السموات ملائكة له غنى بصلاتهم عن صلاة فلان ، فقال عمر يارسول الله وما صلاتهم ، فلم يرد عليه شيئاً فأتاه جبريل فقال يانبى الله سألك عمر عن صلاة أهل السماء قال نعم قال أقرئه منى السلام وأخبره بأن أهل سماء الدنيا سجود إلى يوم القيامة يقولون : سبحان ذى الملك والملكوت ، وأهل السماء الثانية قيام إلى يوم القيامة يقولون : سبحان ذى العزة والجبروت ، وأهل السماء الثالثة ركوع إلى يوم القيامة يقولون ، سبحان الحى الذى لا يموت ، فهذا هو تسبيح الملائكة »

القول الثانى : أن المراد بقوله (نسبح) أى نصلى والتسبيح هو الصلاة ، وهو قول ابن عباس وابن مسعود

﴿ المسألة الخامسة ﴾ التقديس التطهير ، ومنه الأرض المقدسة ثم اختلفوا على وجوه . أحدها : نطهرك أى نصفك بما يليق بك من العلو والعزة ، وثانيها : قول مجاهد نطهر أنفسنا من ذنوبنا وخطايانا ابتغاء لمرضاتك . وثالثها ، قول أبى مسلم نطهر أفعالنا من ذنوبنا حتى تكون خالصة لك . ورابعها : نطهر قلوبنا عن الالتفات إلى غيرك حتى تصير مستغرقة فى أنوار معرفتك قالت المعتزلة هذه الآية تدل على العدل من وجوه . أحدها : قولهم (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) أضافوا هذه الأفعال إلى أنفسهم فلو كانت أفعالا لله تعالى لما حسن التمدح بذلك ولا فضل لذلك على سفك الدماء إذ كل ذلك من فعل الله تعالى . وثانيها : لو كان الفساد والقتل فعلا لله تعالى لكان يجب أن يكون الجواب أن يقول إنى مالك أفعل ما أشاء . وثالثها : أن قوله (أعلم مالا تعلمون) يقتضى التبرى من الفساد والقتل لكن التبرى من فعل نفسه محال . ورابعها : إذا كان لا فاحشة ولا قبح ولا جور ولا ظلم ولا فساد إلا بصنعه وخلقه ومشيئته فكيف يصح التنزيه والتقديس ؟ وخامسها : أن قوله (أعلم مالا تعلمون) يدل على مذهب العدل لأنه لو كان خالقاً للكفر لكان خلقهم لذلك الكفر فكان ينبغى أن يكون الجواب نعم خلقهم ليفسدوا وليقتلوا . فلما لم يرض بهذا الجواب سقط هذا المذهب . وسادسها : لو كان الفساد والقتل ، من فعل الله تعالى لكان ذلك جاريا مجرى ألوانهم وأجسامهم وكما لا يصح التعجب من هذه الأشياء فكذا من الفساد والقتل والجواب عن هذه الوجوه المعارضة بمسألة الداعى والعلم والله أعلم .

﴿ المسألة السادسة ﴾ إن قيل قوله (إنى أعلم مالا تعلمون) كيف يصلح أن يكون جوابا عن السؤال الذى ذكروه قلنا قد ذكرنا أن السؤال يحتمل وجوها ، أحدها : أنه للتعجب فيكون قوله (أعلم مالا تعلمون) جوابا له من حيث إنه قال تعالى لا تتعجبوا من أن يكون فيهم من يفسد ويقتل فانى أعلم مع هذا بأن فيهم جمعاً من الصالحين والمتقين وأنتم لا تعلمون . وثانيها : أنه للغم فيكون الجواب لا تغتموا بسبب وجود المفسدين فانى أعلم أيضا أن فيهم جمعا من المتقين ، ومن لو أقسم على لأبره . وثالثها : أنه طلب الحكمة فجوابه أن مصلحتكم فيه أن تعرفوا وجه الحكمة فيه على الاجمال دون التفصيل . بل ربما كان ذلك التفصيل مفسدة لكم ورابعها : أنه التماس لأن يتركهم فى الأرض وجوابه إنى أعلم أن مصلحتكم أن تكونوا فى السماء لا فى الأرض ، وفيه وجه خامس : وهو أنهم لما قالوا (نسبح بحمدك ونقدس لك) قال تعالى (إنى أعلم مالا تعلمون) وهو أن معكم إبليس وأن فى قلبه حسداً وكبراً ونفاقاً . ووجه سادس : وهو أنى أعلم مالا تعلمون فانكم لما وصفتم أنفسكم بهذه المدائح فقد استعظمتم أنفسكم فكأنكم أنتم بهذا الكلام فى تسبيح أنفسكم لا فى تسبيحى ولكن اصبروا حتى يظهر البشر فيتضرعون إلى الله بقولهم (ربنا ظلمنا أنفسنا) وبقوله (والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى) وبقوله (وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين) .

وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ

قوله تعالى ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ﴾

اعلم أن الملائكة لما سألوا عن وجه الحكمة فى خلق آدم وذريته وإسكانه تعالى إياهم فى الأرض وأخبر الله تعالى عن وجه الحكمة فى ذلك على سبيل الأجمال بقوله تعالى (إنى أعلم مالا تعلمون) أراد تعالى أن يزيدهم بيانا وأن يفصل لهم ذلك المجمل ، فبين تعالى لهم من فضل آدم عليه السلام مالم يكن من ذلك معلوما لهم ، وذلك بأن علم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم عليهم ليظهر بذلك كمال فضله وقصورهم عنه فى العلم فيتأكد ذلك الجواب الاجمالى بهذا الجواب التفصيلى وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الأشعرى والجبائى والكعبى : اللغات كلها توقيفية . بمعنى أن الله تعالى خلق علما ضروريا بتلك الألفاظ وتلك المعانى ، وبأن تلك الألفاظ موضوعة لتلك المعانى . واحتجوا عليه بقوله تعالى (وعلم آدم الأسماء كلها) والكلام على التمسك بهذه الآية سؤالا وجوابا ذكرناه فى أصول الفقه . وقال أبو هاشم : إنه لابد من تقدم لغة اصطلاحية واحتج على أنه لابد وأن يكون الوضع مسبوقا بالاصطلاح بأمور . أحدها : أنه لو حصل العلم الضرورى بأنه تعالى وضع هذه اللفظة لهذا المعنى لكان ذلك العلم إما أن يحصل للعاقل أو لغير العاقل ، لاجائز أن يحصل للعاقل لأنه لو حصل العلم الضرورى بأنه تعالى وضع ذلك اللفظ لذلك المعنى لصارت صفة الله تعالى معلومة بالضرورة مع أن ذاته معلومة بالاستدلال وذلك محال ولا جائز أن يحصل لغير العاقل لأنه يبعد فى العقول أن يحصل العلم بهذه اللغات مع ما فيها من الحكم العجيبة لغير العاقل ، فثبت أن القول بالتوقيف فاسد . وثانيها : أنه تعالى خاطب الملائكة وذلك يوجب تقدم لغة على ذلك التكلم . وثالثها : أن قوله (وعلم آدم الأسماء كلها) يقتضى إضافة التعليم إلى الأسماء . وذلك يقتضى فى تلك الأسماء أنها كانت أسماء قبل ذلك التعليم ، وإذا كان كذلك كانت اللغات حاصلة قبل ذلك التعليم . ورابعها : أن آدم عليه السلام لما تحدى الملائكة بعلم الأسماء فلابد وأن تعلم الملائكة كونه صادقا فى تعيين تلك الأسماء لتلك المسميات ، وإلا لم يحصل العلم بصدقه ، وذلك يقتضى أن يكون وضع تلك الأسماء لتلك المسميات متقدما على ذلك التعليم . والجواب عن الأول : لم لا يجوز أن يقال بخلق العلم الضرورى بأن واضعاً وضع هذه الأسماء لهذه المسميات من غير تعيين أن ذلك الواضع هو الله تعالى أو الناس ؟ وعلى هذا لا يلزم أن تصير الصفة معلومة بالضرورة حال كون الذات معلومة بالدليل . سلمنا أنه تعالى

ما خلق هذا العلم فى العاقل ، فلم لا يجوز أن يقال : إنه تعالى خلقه فى غير العاقل والتعويل على الاستعباد فى هذا المقام مستبعد . وعن الثانى : لم لا يجوز أن يقال خاطب الملائكة بطريق آخر بالكتابة وغيرها . وعن الثالث : لاشك أن إرادة الله تعالى وضع تلك الألفاظ لتلك المعانى سابقة على التعليم فكفى ذلك فى إضافة التعليم إلى الأسماء ، وعن الرابع : ما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى والله تعالى أعلم

﴿ المسألة الثانية ﴾ من الناس من قال قوله (وعلم آدم الأسماء كلها) أى علمه صفات الأشياء ونعوتها وخواصها والدليل عليه أن الاسم اشتقاقه إما من السمة أو من السمو ، فإن كان من السمة كان الاسم هو العلامة وصفات الأشياء ونعوتها وخواصها دالة على ماهياتها ؛ فصح أن يكون المراد من الأسماء : الصفات ، وإن كان من السمو فكذلك لأن دليل الشىء كالمرتفع على ذلك الشىء فان العلم بالدليل حاصل قبل العلم بالمدلول ، فكان الدليل أسمى فى الحقيقة ، فثبت أنه لا امتناع فى اللغة أن يكون المراد من الاسم الصفة ، بقى أن أهل النحو خصصوا لفظ الاسم بالألفاظ المخصوصة ، ولكن ذلك عرف حادث لا اعتبار به ، وإذا ثبت أن هذا التفسير ممكن بحسب اللغة وجب أن يكون هو المراد لا غيره ، لوجوه ، أحدها : أن الفضيلة فى معرفة حقائق الأشياء أكثر من الفضيلة فى معرفة أسمائها ، وحمل الكلام المذكور لاظهار الفضيلة على ما يوجب مزيد الفضيلة ، أولى من حمله على ما ليس كذلك ، وثانيها : أن التحدى إنما يجوز ويحسن بما يتمكن السامع من مثله فى الجملة ، فان من كان عالما باللغة والفصاحة ، يحسن أن يقول له غيره على سبيل التحدى : ائت بكلام مثل كلامى فى الفصاحة ، أما العربى فلا يحسن منه أن يقول الزنجى فى معرض التحدى : تكلم بلغتى ، وذلك لأن العقل لا طريق له إلى معرفة اللغات البتة : بل ذلك لا يحصل إلا بالتعليم ، فان حصل التعليم ، حصل العلم به وإلا فلا ، أما العلم بحقائق الأشياء ، فالعقل متمكن من تحصيله فصح وقوع التحدى فيه . القول الثانى : وهو المشهور أن المراد أسماء كل ما خلق الله من أجناس المحدثات من جميع اللغات المختلفة التى يتكلم بها ولد آدم اليوم من العربية والفارسة والرومية وغيرها ، وكان ولد آدم عليه السلام يتكلمون بهذه اللغات فلما مات آدم وتفرق ولده فى نواحى العالم تكلم كل واحد منهم بلغة معينة من تلك اللغات ، فغلب عليه ذلك اللسان ، فلما طالت المدة ومات منهم قرن بعد قرن نسوا سائر اللغات ، فهذا هو السبب فى تغير الألسنة فى ولد آدم عليه السلام . قال أهل المعانى : قوله تعالى (وعلم آدم الأسماء) لابد فيه من إضمار ، فيحتمل أن يكون المراد وعلم آدم أسماء المسميات ، ويحتمل أن يكون المراد وعلم آدم مسميات الأسماء ، قالوا لكن الأول أولى لقوله تعالى (أنبئونى بأسماء هؤلاء) وقوله تعالى (فلما أنبأهم بأسمائهم) ولم يقل أنبئونى بهؤلاء وأنبأهم بهم ، فان قيل : فلما علمه الله تعالى أنواع جميع المسميات ، وكان فى المسميات ما لا يكون عاقلا ، فلم قال عرضهم ولم يقل عرضها ؟ قلنا لأنه لما

كان فى جملتها الملائكة والانس والجن وهم العقلاء ، فغلب الأكمل ، لأنه جرت عادة العرب بتغليب الكامل على الناقص كلما غلبوا .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ من الناس من تمسك بقوله تعالى (أنبئونى بأسماء هؤلاء) على جواز تكليف ما لا يطاق وهو ضعيف ، لأنه تعالى إنما استنبأهم مع علمه تعالى بعجزهم على سبيل التبكيت ويدل على ذلك قوله تعالى (إن كنتم صادقين)

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قالت المعتزلة : إن ماظهر من آدم عليه السلام من علمه بالأسماء معجزة دالة على نبوته عليه السلام فى ذلك الوقت ، والأقرب انه كان مبعوثاً إلى حواء. ولا يبعد أيضا أن يكون مبعوثا إلى من توجه التحدى إليهم من الملائكة لأن جميعهم وإن كانوا رسلا فقد يجوز الارسال إلى الرسول كبعثة إبراهيم عليه السلام إلى لوط عليه السلام واحتجوا عليه بأن حصول ذلك العلم له ناقض للعادة فوجب أن يكون معجزا ، وإذا ثبت كونه معجزا ثبت كونه رسولا فى ذلك الوقت ، ولقائل أن يقول لانسلم أن ذلك العلم ناقض للعادة لان حصول العلم باللغة لمن علمه الله تعالى وعدم حصوله لمن لم يعلمه الله ليس بناقض للعادة . وأيضا فاما أن يقال : الملائكة علموا كون تلك الاسماء موضوعة لتلك المسميات أو ما علموا ذلك فان علموا ذلك فقد قدروا على أن يذكروا أسماء تلك المسميات فحينئذ تحصل المعارضة ولا تظهر المزية والفضيلة ، وإن لم يعلموا ذلك فكيف عرفوا أن آدم عليه السلام أصاب فيما ذكر من كون كل واحد من تلك الالفاظ إسماللكل واحدمن تلك المسميات ، واعلم أنه يمكن دفع هذا السؤال من وجهين . الأول ربما كان لكل صنف من أصناف الملائكة لغة من هذه اللغات . وكان كل صنف جاهلا بلغة الصنف الآخر ثم إن جميع أصناف الملائكة حضروا وأن آدم عليه السلام عد عليهم جميع تلك اللغات بأسرها فعرف كل صنف إصابته فى تلك اللغة خاصة فعرفوا بهذا الطريق صدقه إلا أنهم بأسرهم عجزوا عن معرفة تلك اللغات بأسرها فكان ذلك معجزا . الثانى : لا يمتنع أن يقال إنه تعالى عرفهم قبل أن سمعوا من آدم عليه السلام تلك الأسماء ما استدلوا به على صدق آدم فلما سمعوا منه عليه السلام تلك الأسماء عرفوا صدقه فيها فعرفوا كونه معجزاً ، سلمنا أنه ظهر عليه فعل خارق للعادة فلم لا يجوز أن يكون ذلك من باب الكرامات أو من باب الارهاص وهما عندنا جائزان وحينئذ يصير الكلام فى هذه المسألة فرعا على الكلام فيهما واحتج من قطع بأنه عليه السلام ما كان نبيا فى ذلك الوقت بوجوه . أحدها : أنه لوكان نبياً فى ذلك الزمان لكان قد صدرت المعصية عنه بعد النبوة . وذلك غير جائز ، فوجب أن لا يكون نبياً فى ذلك الزمان ، أما الملازمة فلأن صدور الزلة عنه كان بعد هذه الواقعة بالاتفاق وتلك الزلة من باب الكبائر على ما سيأتى شرحه إن شاء الله تعالى والاقدام على الكبيرة يوجب استحقاق الطرد والتحقير واللعن وكل ذلك على الانبياء غير جائزفيجب أن يقال وقعت تلك الواقعة قبل النبوة .

وثانيها : لو كان رسولا فى ذلك الوقت لكان إما أن يكون مبعوثا إلى أحد أو لا يكون فان كان مبعوثا إلى أحد ، فاما أن يكون مبعوثا إلى الملائكة أو الانس أو الجن والأول باطل لأن الملائكة عند المعتزله أفضل من البشر ولا يجوز جعل الأدون رسولا إلى الأشرف لأن الرسول والأمة تبع ، وجعل الأدون متبوع الأشرف خلاف الأصل وأيضا فالمرء إلى قبول القول ممن هو من جنسه أمكن ولهذا قال تعالى (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا) ولا جائز أن يكون مبعوثا إلى البشر ، لأنه ما كان هناك أحد من البشر إلا حواء ، وأن حواء إنما عرفت التكليف لا بواسطة آدم لقوله تعالى (ولا تقربا هذه الشجرة) شافههما بهذا التكليف وماجعل آدم واسطة ولا جائز أن يكون مبعوثاً إلى الجن لأنه ماكان فى السماء أحد من الجن ولا جائز أيضا أن يكون مبعوثا إلى أحد لأن المقصود من جعله رسولا التبليغ فحيث لا مبلغ لم يكن فى جعله رسولا فائدة وهذا الوجه ليس فى غاية القوة . وثالثها : قوله تعالى (ثم اجتباه ربه) فهذه الآية دلت على أنه تعالى إنما اجتباه بعد الزلة فوجب أن يقال إنه قبل الزلة ماكان مجتبى ، وإذا لم يكن ذلك الوقت مجتبى وجب أن لا يكون رسولا لأن الرسالة والاجتباء متلازمان لأن الاجتباء لا معنى له إلا التخصيص بأنواع التشريفات وكل من جعله الله رسولا فقد خصه بذلك لقوله تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته)

﴿ المسألة الخامسة ﴾ ذكروا فى قوله (إن كنتم صادقين) وجوها . أحدها : معناه أعلمونى أسماء هؤلاء إن علمتم أنكم تكونون صادقين فى ذلك الاعلام . وثانيها : معناه أخبرونى ولا تقولوا إلا حقاً وصدقا فيكون الغرض منه التوكيد لما نبههم عليه من القصور والعجز ، لأنه متى تمكن فى أنفسهم العلم بأنهم إن اخبروا لم يكونوا صادقين ولا لهم اليه سبيل علموا أن ذلك متعذر عليهم . وثالثها : إن كنتم صادقين فى قولكم أنه لا شىء مما يتعبد به الخلق إلا وانتم تصلحون وتقومون به وهو قول ابن عباس وابن مسعود . ورابعها : إن كنتم صادقين فى قولكم إنى لم أخلق خلقا إلا كنتم أعلم منه فأخبرونى بأسماء هؤلاء .

﴿ المسألة السادسة ﴾ هذه الآية دالة على فضل العلم فانه سبحانه ما أظهر كمال حكمته فى خلقة آدم عليه السلام إلا بأن أظهر علمه فلوكان فى الامكان وجود شىء من العلم أشرف من العلم لكان من الواجب إظهار فضله بذلك الشىء . لا بالعلم ، واعلم أنه يدل على فضيله العلم الكتاب والسنة والمنقول ، أما الكتاب فوجوه ، الأول : أن الله تعالى سمى العلم بالحكمة ثم إنه تعالى عظم أمر الحكمة وذلك يدل على عظم شأن العلم ، بيان أنه تعالى سمى العلم بالحكمة ما يروى عن مقاتل : أنه قال : تفسير الحكمة فى القرآن على أربعة أوجه ، أحدها : مواعظ القرآن قال فى البقرة (وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة) يعنى مواعظ القرآن وفى النساء (وأنزل عليكم الكتاب والحكمة) يعنى المواعظ ومثلها فى آل عمران . وثانيها : الحكمة بمعنى الفهم والعلم قوله تعالى

(وآتيناه الحكم صبياً) وفى لقمان (ولقد آتينا لقمان الحكمة) يعنى الفهم والعلم وفى الأنعام (أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم) وثالثها : الحكمة بمعنى النبوة فى النساء (فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة) يعنى النبوة وفى ص (وآتيناه الحكمة) يعنى النبوة وفى البقرة (وآتاه الله الملك والحكمة) . ورابعها : القرآن فى النحل (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة) وفى البقرة (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيرا) وجميع هذه الوجوه عند التحقيق ترجع إلى العلم ثم تفكر أن الله تعالى ما أعطى من العلم إلا القليل قال (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) وسمى الدنيا بأسرها قليلا (قل متاع الدنيا قليل) فما سماه قليلا لا يمكننا أن ندرك كميته فما ظنك بما سماه كثيرا . ثم البرهان العقلى على قلة الدنيا وكثرة الحكمة أن الدنيا متناهى القدر متناهى العدد متناهى المدة . والعلم لا نهاية لقدره ، وعدده ومدته ولا للسعادات الحاصلة منه ، وذلك ينبهك على فضيلة العلم . الثانى : قوله تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وقد فرق بين سبع نفر فى كتابه فرق بين الخبيث والطيب فقال (قل هل يستوى الخبيث والطيب) يعنى الحلال والحرام ، وفرق بين الأعمى والبصير فقال (قل هل يستوى الأعمى والبصير) وفرق بين النور والظلمة فقال (أم هل تستوى الظلمات والنور) وفرق بين الجنة والنار وبين الظل والحرور ، وإذا تأملت وجدت كل ذلك مأخوذا من الفرق بين العالم والجاهل . الثالث : قوله (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) والمراد من أولى الأمر العلماء فى أصح الأقوال لأن الملوك يجب عليهم طاعة العلماء . ولا ينعكس ، ثم انظر إلى هذه المرتبة فانه تعالى ذكر العالم فى موضعين من كتابه فى المرتبة الثانية قال (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم) ، وقال (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) ثم انه سبحانه وتعالى زاد فى الاكرام فجعلهم فى المرتبة الأولى فى آيتين فقال تعالى (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم) وقال (قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب) الرابع : (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) واعلم أنه تعالى ذكر الدرجات لأربعة أصناف . أولها : للمؤمنين من أهل بدر قال (إنما المؤمنين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) إلى قوله (لهم درجات عند ربهم) والثانية : للمجاهدين قال (وفضل الله المجاهدين على القاعدين) والثالثة : للصالحين قال (ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى) . الرابعة : للعلماء . قال : (والذين أوتوا العلم درجات) والله فضل أهل بدر على غيرهم من المؤمنين بدرجات وفضل المجاهدين على القاعدين بدرجات وفضل الصالحين على هؤلاء بدرجات ثم فضل العلماء على جميع الأصناف بدرجات ، فوجب أن يكون العلماء افضل الناس . الخامس : قوله تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) فان الله تعالى وصف العلماء فى كتابه بخمس مناقب ، أحدها : الإيمان (والراسخون فى العلم يقولون آمنا به) وثانيها : التوحيد والشهادة (شهد الله) إلى قوله (وأولوا العلم) وثالثها :

البكاء (ويخرون للأذقان يبكون) . ورابعها : الخشوع (إن الذين أوتوا العلم من قبله) الآية .
وخامسها : الخشية (إنما يخشى الله من عباده العلماء) أما الأخبار فوجوه . أحدها : روى ثابت
عن أنس قال قال رسول الله ﷺ « من أحب أن ينظر إلى عتقاء الله من النار فلينظر إلى المتعلمين
فو الذى نفسى بيده ما من متعلم يختلف إلى باب عالم إلا كتب الله له بكل قدم عبادة سنة وبنى له
بكل قدم مدينة فى الجنة ويمشى على الأرض والأرض تستغفر له ويمسى ويصبح مغفوراً له
وشهدت الملائكة لهم بأنهم عتقاء الله من النار » وثانيها : عن أنس قال قال عليه السلام « من
طلب العلم لغير الله لم يخرج من الدنيا حتى يأتى عليه العلم فيكون لله ومن طلب العلم لله فهو
كالصائم نهاره وكالقائم ليله وإن باباً من العلم يتعلمه الرجل خير من أن يكون له أبو قبيس ذهبا
فينفقه فى سبيل الله » . وثالثها : عن الحسن مرفوعا « من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيى به
الاسلام كان بينه وبين الأنبياء درجة واحدة فى الجنة » ورابعها : أبو موسى الأشعرى مرفوعا
« يبعث الله العباد يوم القيامة ثم يميز العلماء فيقول : يامعشر العلماء إنى لم أضع نورى فيكم إلا
لعلمى بكم ولم أضع علمى فيكم لأعذبكم انطلقوا فقد غفرت لكم » . وخامسها : قال عليه السلام
« معلم الخير إذا مات بكى عليه طير السماء ودواب الأرض وحيتان البحور » وسادسها :
أبو هريرة مرفوعا « من صلى خلف عالم من العلماء فكأنما صلى خلف نبى من الأنبياء » . وسابعها
ابن عمر مرفوعا « فضل العالم على العابد بسبعين درجه بين كل درجة عدو الفرس سبعين عاما ،
وذلك أن الشيطان يضع البدعة للناس فيبصرها العالم فيزيلها والعابد يقبل على عبادته لا يتوجه ولا
يتعرف لها » . وثامنها : الحسن مرفوعا قال عليه السلام « رحمة الله على خلفائى فقيل من خلفاؤك
يارسول الله ؟ قال الذين يحيون سنتى ويعلمونها عباد الله » وتاسعها : قال عليه السلام « من خرج
يطلب بابا من العلم ليرد به باطلا إلى حق أو ضلالا إلى هدى كان عمله كعبادة أربعين عاما » .
وعاشرها : قال عليه السلام لعلى حين بعثه إلى اليمن « لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك
مما تطلع عليه الشمس أو تغرب » الحادى عشر : ابن مسعود مرفوعا « من طلب العلم ليحدث
به الناس ابتغاء وجه الله أعطاه أجر سبعين نبياً » . الثانى عشر : عامر الجهنى مرفوعا « يؤتى بمداد
طالب العلم ودم الشهيد يوم القيامة لا يفضل أحدهما على الآخر » وفى رواية فيرجح مداد العلماء .
الثالث عشر : أبو واقد الليثى : أنه عليه السلام بينما هو جالس والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر أما
أحدهم فرأى فرجة فى الحلقة فجلس إليها ، وأما الآخر فجلس خلفهم ، وأما الثالث فانه رجع وفر
فلما فرغ عليه السلام من كلامه قال : أخبركم عن النفر الثلاثة . أما الأول : فآوى إلى الله فآواه
الله ، وأما الثانى فاستحيا من الله فاستحيا الله منه ، وأما الثالث فأعرض عن الله فأعرض الله عنه »
رواه مسلم ، وأما الآثار فمن وجوه « ا » العالم أرأف بالتلميذ من الأب والأم لأن الآباء
والأمهات يحفظونه من نار الدنيا وآفاتها والعلماء يحفظونه من نار الآخرة وشدائدها « ب » قيل

لابن مسعود بم وجدت هذا العلم : قال بلسان سؤول ، وقلب عقول « ج » قال بعضهم سل مسألة الحمقى ، واحفظ حفظ الأكياس « د » مصعب بن الزبير قال لابنه : يابنى تعلم العلم فان كان لك مال كان العلم لك جمالا وإن لم يكن لك مالكان العلم لك مالا « ه » قال على بن أبى طالب : لاخير فى الصمت عن العلم كما لاخير فى الكلام عن الجهل « و » قال بعض المحققين : العلماء ثلاثة عالم بالله غير عالم بأمر الله ، وعالم بأمر الله غير عالم بالله ، وعالم بالله وبأمر الله . أما الأول : فهو عبد قد استولت المعرفة الالهية على قلبه فصار مستغرقا بمشاهدة نور الجلال وصفحات الكبرياء فلا يتفرغ لتعلم علم الأحكام إلا مالا بد منه . الثانى : هو الذى يكون عالما بأمر الله وغير عالم بالله وهو الذى عرف الحلال والحرام وحقائق الأحكام لكنه لايعرف أسرار جلال الله . أما العالم بالله وبأحكام الله فهو جالس على الحد المشترك بين عالم المعقولات وعالم المحسوسات فهو تارة مع الله بالحب له ، وتارة مع الخلق بالشفقة والرحمة ، فاذا رجع من ربه إلى الخلق صار معهم كواحد منهم كأنه لايعرف الله وإذا خلا بربه مشتغلا بذكره وخدمته فكأنه لايعرف الخلق فهذا سبيل المرسلين والصديقين وهذا هو المراد بقوله عليه السلام « سائل العلماء وخالط الحكماء وجالس الكبراء » فالمراد من قوله عليه السلام : سائل العلماء أى العلماء بأمر الله غير العالمين بالله فأمر بمساءلتهم عند الحاجة إلى الله استفتاء منهم ، وأما الحكماء فهم العالمون بالله الذين لا يعلمون أوامر الله فأمر بمخالطتهم وأما الكبراء فهم العالمون بالله وبأحكام الله فأمر بمجالستهم لأن فى تلك المجالسة منافع الدنيا والآخرة ، ثم قال شقيق البلخى : لكل واحد من هؤلاء الثلاثة ثلاث علامات أما العالم بأمر الله فله ثلاث علامات أن يكون ذاكرا باللسان دون القلب ، وأن يكون خائفا من الخلق دون الرب ، وأن يستحيى من الناس فى الظاهر ولايستحيى من الله فى السر ، وأما العالم بالله فانه يكون ذاكرا خائفا مستحييا . أما الذكر فذكر القلب لا ذكر اللسان ، وأما الخوف فخوف الرياء لا خوف المعصية ، وأما الحياء فحياء ما يخطر على القلب لاحياء الظاهر ، وأما العالم بالله وبأمر الله فله ستة أشياء الثلاثة التى ذكرناها للعالم بالله فقط مع ثلاثة أخرى كونه جالسا على الحد المشترك بين عالم الغيب وعالم الشهادة ، وكونه معلما للقسمين الأولين ، وكونه بحيث يحتاج الفريقان الأولان إليه وهو يستغنى عنهما . ثم قال : مثل العالم بالله وبأمر الله كمثل الشمس لايزيد ولا ينقص ، ومثل العالم بالله فقط كمثل القمر يكمل تارة وينقص تارة أخرى ، ومثل العالم بأمر الله فقط كمثل السراج يحرق نفسه ويضىء لغيره « ز » قال فتح الموصلى : أليس المريض إذا امتنع عنه الطعام والشراب والدواء يموت ؟ فكذا القلب إذا امتنع عنه العلم والفكر والحكمة يموت « ح » قال شقيق البلخى : الناس يقومون من مجلسى على ثلاثة أصناف : كافر محض ، ومنافق محض ، ومؤمن محض ، وذلك لأنى أفسر القرآن فأقول عن الله وعن الرسول فمن لايصدقنى فهو كافر محض ، ومن ضاق قلبه منه فهو منافق محض ، ومن ندم على ماصنع

وعزم على أن لايذنب كان مؤمنا محضا . وقال أيضا : ثلاثة من النوم يبغضها الله تعالى . وثلاثة من الضحك : النوم بعد صلاة الفجر وقبل صلاة العتمة . والنوم فى الصلاة ، والنوم عند مجلس الذكر ، والضحك خلف الجنازة ، والضحك فى المقابر ، والضحك فى مجلس الذكر « ط » قال بعضهم فى قوله تعالى (فاحتمل السيل زبداً رابياً) السيل ههنا العلم ، شبهه الله تعالى بالماء لخمس خصال ، أحدها : كما أن المطر ينزل من السماء كذلك العلم ينزل من السماء . والثانى : كما أن إصلاح الأرض بالمطر فاصلاح الخلق بالعلم ، الثالث : كما أن الزرع والنبات لايخرج بغير المطر كذلك الأعمال والطاعات لاتخرج بغير العلم . والرابع : كما أن المطر فرع الرعد والبرق كذلك العلم فانه فرع الوعد والوعيد . الخامس : كما أن المطر نافع وضار ، كذلك العلم نافع وضار : نافع لمن عمل به ضار لمن لم يعمل به « ى » كم من مذكر بالله ناس لله ، وكم من مخوف بالله ، جرىء على الله ، وكم من مقرب إلى الله بعيد عن الله ، وكم من داع إلى الله فار من الله ، وكم من تال كتاب الله منسلخ عن آيات الله « يا » الدنيا بستان زينت بخمسة أشياء : علم العلماء وعدل الأمراء وعبادة العباد وأمانة التجار ونصيحة المحترفين . فجاء إبليس بخمسة أعلام فأقامها بجنب هذه الخمس جاء بالحسد فركزه فى جنب العلم ، وجاء بالجور فركزه بجنب العدل ، وجاء بالرياء فركزه بجنب العبادة ، وجاء بالخيانة فركزها بجنب الأمانة ، وجاء بالغش فركزه بجنب النصيحة « يب » فضل الحسن البصرى على التابعين بخمسة أشياء . أولها : لم يأمر أحداً بشىء حتى عمله ، والثانى لم ينه أحداً عن شىء حتى انتهى عنه ، والثالث : كل من طلب منه شيئاً مما رزقه الله تعالى لم يبخل به من العلم والمال . والرابع : كان يستغنى بعلمه عن الناس ، والخامس : كانت سريرته وعلانيته سواء . « يج » إذا أردت أن تعلم أن علمك ينفعك أم لا فاطلب من نفسك خمس خصال : حب الفقر لقلة المؤنة ، وحب الطاعة طلبا للثواب ، وحب الزهد فى الدنيا طلبا للفراغ ، وحب الحكمة طلباً لإصلاح القلب ، وحب الخلوة طلبا لمناجاة الرب « يد » اطلب خمسة فى خمسة ، الأول : اطلب العز فى التواضع لا فى المال والعشيرة . والثانى : اطلب الغنى فى القناعة لا فى الكثرة ، والثالث : اطلب الأمن فى الجنة لا فى الدنيا . والرابع : اطلب الراحة فى القلة لا فى الكثرة . والخامس : اطلب منفعة العلم فى العمل لا فى كثرة الرواية « يه » قال ابن المبارك ماجاء فساد هذه الأمة إلا من قبل الخواص وهم خمسة : العلماء ، والغزاة ، والزهاد ، و التجار ، والولاة . أما العلماء فهم ورثة الأنبياء ، وأما الزهاد فعماد أهل الأرض ، وأما الغزاة فجند الله فى الأرض ، وأما التجار فأمناء الله فى أرضه ، وأما الولاة فهم الرعاة فاذا كان العالم للدين واضعاً وللمال رافعاً فبمن يقتدى الجاهل ، وإذا كان الزاهد فى الدنيا راغباً فبمن يقتدى التائب ، وإذا كان الغازى طامعاً مرائيا فكيف يظفر بالعدو . وإذا كان التاجر خائنا فكيف تحصل الأمانة ، وإذا كان الراعى ذئباً فكيف تحصل الرعاية « يو » قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : العلم أفضل من

المال بسبعة أوجه ، أولها : العلم ميراث الأنبياء ، والمال ميراث الفراعنة . الثانى : العلم لا ينقص بالنفقة والمال ينقص ، والثالث : يحتاج المال إلى الحافظ والعلم يحفظ صاحبه . والرابع إذا مات الرجل يبقى ماله والعلم يدخل مع صاحبه قبره . والخامس : المال يحصل المؤمن والكافر والعلم لا يحصل إلا المؤمن ، والسادس : جميع الناس يحتاجون إلى صاحب العلم فى أمر دينهم ولا يحتاجون إلى صاحب المال . السابع : العلم يقوى الرجل على المرور على الصراط والمال يمنعه « يز » قال الفقيه أبو الليث : ان من يجلس عند العالم ولا يقدر أن يحفظ من ذلك العلم شيئا فله سبع كرامات أولها : ينال فضل المتعلمين . والثانى : مادام جالسا عنده كان محبوسا عن الذنوب . والثالث : إذا خرج من منزله طلبا للعلم نزلت الرحمة عليه . والرابع : إذا جلس فى حلقة العلم فاذا نزلت الرحمة عليهم حصل له منها نصيب . والخامس : ما دام يكون فى الاستماع ، تكتب له طاعة . والسادس : إذا استمع ولم يفهم ضاق قلبه لحرمانه عن إدراك العلم فيصير ذلك الغم وسيلة له إلى حضرة الله تعالى لقوله عز وجل « أنا عند المنكسرة قلوبهم لأجلى » والسابع : يرى إعزاز المسلمين للعالم وإذلالهم للفساق فيرد قلبه عن الفسق ويميل طبعه إلى العلم فلهذا أمر عليه الصلاة والسلام بمجالسة الصالحين « يح » قيل من العلماء من يضن بعلمه ولا يحب أن يوجد عند غيره فذاك فى الدرك الأول من النار ، ومن العلماء من يكون فى علمه بمنزلة السلطان فان رد عليه شىء من حقه غضب ، فذاك فى الدرك الثانى من النار ، ومن العلماء من يجعل حديثه وغرائب علمه لأهل الشرف واليسار ولا يرى الفقراء له أهلا ، فذاك فى الدرك الثالث من النار ، ومن العلماء من كان معجبا بنفسه إن وعظ عنف وإن وعظ أنف فذاك فى الدرك الرابع من النار . ومن العلماء من ينصب نفسه للفتيا فيفتى خطأ فذاك فى الدرك الخامس من النار ، ومن العلماء من يتعلم كلام المبطلين فيمزجه بالدين فهو فى الدرك السادس من النار ، ومن العلماء من يطلب العلم لوجوه الناس فذاك فى الدرك السابع من النار « يط » قال الفقيه أبو الليث : من جلس مع ثمانية أصناف من الناس زاده الله ثمانية أشياء . من جلس مع الأغنياء زاده الله حب الدنيا والرغبة فيها ومن جلس مع الفقراء جعل الله له الشكر والرضا بقسمة الله ، ومن جلس مع السلطان زاده الله القسوة والكبر ، ومن جلس مع النساء زاده الله الجهل والشهوة . ومن جلس مع الصبيان ازداد من اللهو والمزاح ، ومن جلس مع الفساق ازداد من الجرأة على الذنوب وتسويف التوبة ، ومن جلس مع الصالحين ازداد رغبة فى الطاعات ، ومن جلس مع العلماء ازداد العلم والورع « ى » ان الله علم سبعة نفر سبعة أشياء « ا » علم آدم الأسماء (وعلم آدم الأسماء كلها) « ب » علم الخضر الفراسة (وعلمناه من لدنا علما) « ج » وعلم يوسف علم التعبير (رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث) « د » علم داود صنعة الدرع (وعلمناه صنعة لبوس لكم) « ه » علم سليمان منطق الطير (يا أيها الناس علمنا منطق الطير) « و » علم عيسى عليه السلام علم التوراة

والانجيل (ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل) « ز » وعلم محمداً ﷺ الشرع والتوحيد (وعلمك ما لم تكن تعلم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، الرحمن علم القرآن) فعلم آدم كان سببا له فى حصول السجدة والتحية ، وعلم الخضر كان سببا لأن وجد تلميذاً مثل موسى ويوشع عليهما السلام ، وعلم يوسف كان سبباً لوجدان الأهل والمملكة ، وعلم داود كان سبباً لوجدان الرياسة والدرجة ، وعلم سليمان كان سببا لوجدان بلقيس والغلبة ، وعلم عيسى كان سبباً لزوال التهمة عن أمه وعلم محمد ﷺ كان سببا لوجود الشفاعة ، ثم نقول من علم أسماء المخلوقات وجد التحية من الملائكة فمن علم ذات الخالق وصفاته أما يجد تحية الملائكة ؟ بل يجد تحية الرب (سلام قولا من رب رحيم) والخضر وجد بعلم الفراسة صحبة موسى ، فيا أمة الحبيب بعلم الحقيقة كيف لا تجدون صحبة محمد ﷺ (فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين) ويوسف بتأويل الرؤيا نجا من حبس الدنيا ، فمن كان عالما بتأويل كتاب الله كيف لا ينجو من حبس الشهوات (ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) وأيضا فان يوسف عليه السلام ذكر منة الله على نفسه حيث قال :) وعلمتنى من تأويل الأحاديث) . فأنت ياعالم أما تذكر منة الله على نفسك حيث علمك تفسير كتابه فأى نعمة أجل مما أعطاك الله حيث جعلك مفسراً لكلامه وسمياً لنفسه ووارثا لنبيه وداعيا لخلقه وواعظا لعباده وسراجا لأهل بلاده وقائدا للخلق إلى جنته وثوابه وزاجرا لهم عن ناره وعقابه ، كما جاء فى الحديث : العلماء سادة والفقهاء قادة ومجالستهم زيادة « كا » المؤمن لا يرغب فى طلب العلم حتى يرى ست خصال من نفسه . أحدها : أن يقول إن الله أمرنى بأداء الفرائض وأنا لا أقدر على أدائها إلا بالعلم . الثانية : أن يقول نهانى عن المعاصى وأنا لا أقدر على اجتنابها إلا بالعلم . الثالثة : أنه تعالى أوجب على شكر نعمه ولا أقدر عليه إلا بالعلم . والرابعة : أمرنى بانصاف الخلق وأنا لا أقدر أن أنصفهم إلا بالعلم . والخامسة : أن الله أمرنى بالصبر على بلائه ولا أقدر عليه إلا بالعلم والسادسة : إن الله أمرنى بالعداوة مع الشيطان ولا أقدر عليها إلا بالعلم « كب » طريق الجنة فى أيدى أربعة : العالم والزاهد والعابد والمجاهد ، فالزاهد إذا كان صادقا فى دعواه يرزقه الله الأمن ، والعابد إذا كان صادقا فى دعواه يرزقه الله الخوف ، والمجاهد إذا كان صادقا فى دعواه يرزقه الله الثناء والحمد ، والعالم إذا كان صادقا فى دعواه يرزقه الله الحكمة « كج » اطلب أربعة من أربعة : من الموضع السلامة ، ومن الصاحب الكرامة ، ومن المال الفراغة(١) ، ومن العلم المنفعة ، فاذا لم تجد من الموضع السلامة فالسجن خير منه ، وإذا لم تجد من صاحبك الكرامة فالكلب خير منه ، وإذا لم تجد من مالك الفراغة فالمدر خير منه ، وإذا لم تجد من العلم المنفعة فالموت خير منه « كد » لا تتم أربعة أشياء إلا بأربعة أشياء : لا يتم الدين إلا بالتقوى ، ولا يتم القول إلا بالفعل ، ولا تتم

(١) هكذا فى الاصول ولعله يريد بالفراغه أن الانسان إذا أصاب من المال كفاية تفرغ إلى تحصيل العلم وأقبل على الطاعة . ولكنى لم أسمع الفراغة . وذلك يجعلنى أميل إلى أنها محرفة عن القناعة ، وفى الحق ان المرء إذا لم يقنع ويكتف بما عنده من مال لم يقنعه شىء ، وهذا معنى حديث « لو كان لابن آدم واد من ذهب لتمنى أن يكون له ثان وثالث ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب » (عبدالله الصاوى)

المروءة إلا بالتواضع . ولا يتم العلم إلا بالعمل ، فالدين بلا تقوى على الخطر ، والقول بلا فعل كالهدر ، والمروءة بلا تواضع كشجر بلا ثمر ، والعلم بلا عمل كغيث بلا مطر « كه » قال على بن أبى طالب رضى الله عنه لجابر بن عبد الله الأنصارى : قوام الدنيا بأربعة بعالم يعمل بعلمه ، وجاهل لا يستنكف من تعلمه ، وغنى لا يبخل بماله ، وفقير لا يبيع آخرته بدنياه ، فاذا لم يعمل العالم بعلمه استنكف الجاهل من تعلمه وإذا بخل الغنى بمعروفه باع الفقير آخرته بدنياه فالويل لهم والثبور سبعين مرة « كو » قال الخليل : الرجال أربعة رجل يدرى ويدرى أنه يدرى فهو عالم فاتبعوه ، ورجل يدرى ولا يدرى أنه يدرى فهو نائم فأيقظوه . ورجل لا يدرى ويدرى أنه لا يدرى فهو مسترشد فأرشدوه ، ورجل لا يدرى ولا يدرى أنه لا يدرى فهو شيطان فاجتنبوه « كز » أربعة لا ينبغى للشريف أن يأنف منها وإن كان أميراً : قيامه من مجلسه لأبيه ، وخدمته لضيفه ، وخدمته للعالم الذى يتعلم منه ، والسؤال عما لا يعلم ممن هو أعلم منه « كح » إذا اشتغل العلماء بجمع الحلال صار العوام آكلين للشبهات ، وإذا صار العالم آكلا للشبهات صار العامى آكلا للحرام ، وإذا صار العالم آكلا للحرام صار العامى كافرا يعنى إذا استحلوا . أما الوجوه العقلية فأمور . أحدها : أن الأمور على أربعة أقسام ، قسم يرضاه العقل ولا ترضاه الشهوة . وقسم ترضاه الشهوة ولا يرضاه العقل ، وقسم يرضاه العقل والشهوة معا ، وقسم لا يرضاه العقل ولا ترضاه الشهوة . أما الأول فهو الأمراض والمكاره فى الدنيا ، وأما الثانى فهو المعاصى أجمع ، وأما الثالث : فهو العلم ، وأما الرابع : فهو الجهل فينزل العلم من الجهل منزلة الجنة من النار ، فكما أن العقل والشهوة لا يرضيان بالنار فكذلك لا يرضيان بالجهل وكما أنهما يرضيان بالجنة فكذا يرضيان بالعلم فمن رضى بالجهل فقد رضى بنار حاضرة ، ومن اشتغل بالعلم فقد خاض فى جنة حاضرة ، فكل من اختار العلم يقال له تعودت المقام فى الجنة فادخل الجنة ، ومن اكتفى بالجهل يقال له تعودت النار فادخل النار ، والذى يدل على أن العلم جنة والجهل نار أن كمال اللذة فى إدراك المحبوب وكمال الألم فى البعد عن المحبوب ، والجراحة إنما تؤلم لأنها تبعد جزءا من البدن عن جزء محبوب من تلك الأجزاء وهو الاجتماع فلما اقتضت الجراحة إزالة ذلك الاجتماع فقد اقتضت إزالة المحبوب وبعده ، فلاجرم كان ذلك مؤلما والاحراق بالنار إنما كان أشد إيلاما من الجرح لأن الجرح لا يفيد إلا تبعيد جزء معين عن جزء معين ، أما النار فانها تغوص فى جميع الأجزاء فاقتضت تبعيد جميع الأجزاء بعضها عن بعض ، فلما كانت التفريقات فى الاحراق أشد كان الألم هناك أصعب ، أما اللذة فهى عبارة عن إدراك المحبوب ، فلذة الأكل عبارة عن إدراك تلك الطعوم الموافقة للبدن ، وكذلك لذة النظر إنما تحصل لأن القوة الباصرة مشتاقة إلى إدراك المرئيات ، فلا جرم كان ذلك الادراك لذة لها فقد ظهر بهذا أن اللذة عبارة عن إدراك المحبوب ، والألم عبارة عن إدراك المكروه وإذا عرفت هذا فنقول :

كلما كان الادراك أغوص وأشد والمدرك أشرف وأكمل ، والمدرك أنقى وأبقى . وجب أن تكون اللذة أشرف وأكمل . ولاشك أن محل العلم هو الروح وهو أشرف من البدن ولا شك أن الادراك العقلي أغوص وأشرف على ماسيجيء بيانه فى تفسير قوله (الله نور السموات والأرض) وأما المعلوم فلا شك أنه أشرف لأنه هو الله رب العالمين وجميع مخلوقاته من الملائكة والأفلاك والعناصر والجمادات والنبات والحيوانات وجميع أحكامه وأوامره وتكاليفه وأى معلوم أشرف من ذلك فثبت أنه لا كمال ولا لذة فوق كمال العلم ولذته ولا شقاوة ولا نقصان فوق شقاوة الجهل ونقصانه ، ومما يدل على ما قلناه أنه إذا سئل الواحد منا عن مسألة علمية فان علمها وقدر على الجواب والصواب فيها فرح بذلك وابتهج به ، وان جهلها نكس رأسه حياء من ذلك ، وذلك يدل على أن اللذة الحاصلة بالعلم أكمل اللذات ، والشقاء الحاصل بالجهل أكمل أنواع الشقاء ، واعلم أن ههنا وجوها أخر من النصوص تدل على فضيلة العلم نسينا إيرادها قبل ذلك فلا بأس أن نذكرها ههنا . الوجه الأول : أن أول ما نزل قوله تعالى (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم : الذى علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم) فقيل فيه إنه لا بد من رعاية التناسب بين الآيات فأى مناسبة بين قوله (خلق الانسان من علق) وبين قوله (اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم) فأجيب عنه بأن وجه المناسبة أنه تعالى ذكر أول حال الانسان وهو كونه علقة . مع أنها أخس الأشياء وآخر حاله وهى صيرورته عالما وهو أجل المراتب كأنه تعالى قال كنت أنت فى أول حالك فى تلك الدرجة التى هى غاية الخساسة فصرت فى آخر حالك فى هذه الدرجة التى هى الغاية فى الشرف ، وهذا إنما يتم لو كان العلم أشرف المراتب اذلو كان غيره أشرف لكان ذكر ذلك الشيء فى هذا المقام أولى . الثانى : أنه قال (اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم) وقد ثبت فى أصول الفقه أن ترتيب الحكم على الوصف مشعر بكون الوصف علة فهذا يدل على أنه سبحانه وتعالى إنما استحق الوصف بالأكرمية لأنه أعطى العلم فلولا أن العلم أشرف من غيره وإلا لما كانت إفادته أشرف من إفادة غيره : الثالث : قوله سبحانه (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وهذه الآية فيها وجوه من الدلائل على فضل العلم ، أحدها : دلالتها على أمم من أهل الجنة وذلك لأن العلماء من أهل الخشية ؛ ومن كان من أهل الخشية كان من أهل الجنة فالعلماء من أهل الجنة فبيان أن العلماء من أهل الخشية قوله تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وبيان أن أهل الخشية من أهل الجنة قوله تعالى (جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار) إلى قوله تعالى (ذلك لمن خشى ربه) ويدل عليه أيضا قوله تعالى (ولمن خاف مقام ربه جنتان) ويدل عليه أيضا قوله تعالى « وعزتى وجلالى لا أجمع على عبدى خوفين ولا أجمع له أمنين فاذا أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة وإذا خافنى فى الدنيا أمنته يوم القيامة » واعلم أنه يمكن إثبات مقدمتى هذه

الدلالة بالعقل ، أما بيان أن العـــالم بالله يجب أن يخشاه ، فذلك لأن من لم يكن عالما بالشيء استحال أن يكون خائفا منه ، ثم إن العلم بالذات لا يكفى فى الخوف ، بل لا بد له من العلم بأمور ثلاثة . منها : العلم بالقدرة ، لأن الملك عالم باطلاع رعيته على أفعاله القبيحة ، لكنه لا يخافهم لعلمه بأنهم لا يقدرون على دفعها . ومنها : العلم بكونه عالما . لأن السارق من مال السلطان يعلم قدرته ، ولكنه يعلم أنه غير عالم بسرقته فلا يخافه . ومنها العلم بكونه حكيما . فإن المسخر عند السلطان عالم بكون السلطان قادراً على منعه عالما بقبائح افعاله ، لكنه يعلم أنه قد يرضى بما لا ينبغى فلا يحصل الخوف ؛ أما لو علم اطلاع السلطان على قبائح أفعاله وعلم قدرته على منعه وعلم أنه حكيم لا يرضى بسفاهته : صارت هذه العلوم الثلاثة موجبة لحصول الخوف فى قلبه ، فثبت أن خوف العبد من الله لا يحصل إلى إذا علم بكونه تعالى عالما بجميع المعلومات ، قادراً على كل المقدورات ، غير راض بالمنكرات والمحرمات ، فثبت أن الخوف من لوازم العلم بالله ، وإنما قلنا : أن الخوف سبب الفوز بالجنة ، وذلك لأنه إذا سنح للعبد لذة عاجلة وكانت تلك اللذة على خلاف أمر الله ، وفعل ذلك الشيء يكون مشتملا على منفعة ومضرة ، فصريح العقل حاكم بترجيح الجانب الراجح على الجانب المرجوح ، فاذا علم بنور الايمان أن اللذة العاجلة حقيرة فى مقابلة الألم الآجل ، صار ذلك الأيمان سببا لفراره عن تلك اللذة العاجلة ، وذلك هو الخشية ، وإذا صار تاركا للمحظور فاعلا للواجب كان من أهل الثواب ، فقد ثبت بالشواهد النقلية والعقلية أن العالم بالله خائف والخائف من أهل الجنة . وثانيها : أن ظاهر الآية يدل على أنه ليس للجنة أهل إلا العلماء ، وذلك لأن كلمة إنما للحصر ، فهذا يدل على أن خشية الله لا تحصل إلا للعلماء . والآية الثانية وهى قوله (ذلك لمن خشى ربه) دالة على أن الجنة لأهل الخشية وكونها لأهل الخشية ينافى كونها لغيرهم ، فدل مجموع الآيتين على أنه ليس للجنة أهل إلا العلماء واعلم أن هذه الآية فيها تخويف شديد ، وذلك لأنه ثبت أن الخشية من الله تعالى من لوازم العلم بالله ، فعند عدم الخشية يلزم عدم العلم بالله . وهذه الدقيقة تنبهك على أن العلم الذى هو سبب القرب من الله تعالى هو الذى يورث الخشية . وأن أنواع المجادلات وإن دقت وغمضت إذا خلت عن إفادة الخشية كانت من العلم المذموم . وثالثها : قرىء (إنما يخشى الله من عباده العلماء) برفع الأول ونصب الثانى ، ومعنى هذه القراءة : أنه تعالى لو جازت الخشية عليه ؛ لما خشى العلماء ، لأنهم هم الذين يميزون بين ما يجوز وبين مالا يجوز . وأما الجاهل الذى لا يميز بين هذين البابين فأى مبالاة به وأى التفات إليه ، ففى هذه القراءة نهاية المنصب للعلماء والتعظيم . الرابع : قوله تعالى (وقل رب زدنى علما) . وفيه أدل دليل على نفاسة العلم وعلو مرتبته وفرط محبة الله تعـــالى إياه ، حيث أمر نبيه بالازدياد منه خاصة دون غيره . وقال قتادة : لو اكتفى أحد من العلم لاكتفى نبى الله موسى عليه السلام ولم يقل (هل أتبعك على أن تعلمنى

مما علمت رشداً) . الخامس : كان لسليمان عليه السلام من ملك الدنيا ما كان حتى أنه (قال رب هب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى) ثم إنه لم يفتخر بالمملكة وافتخر بالعلم حيث قال (يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء) فافتخر بكونه عالما بمنطق الطير فاذا حسن من سليمان أن يفتخر بذلك العلم فلأن يحسن بالمؤمن أن يفتخر بمعرفة رب العالمين كان أحسن ولأنه قدم ذلك على قوله (وأوتينا من كل شىء) وأيضا فانه تعالى لما ذكر كمال حالهم قدم العلم أولا وقال (وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث) إلى قوله (وكلا آتينا حكما وعلما) ثم إنه تعالى ذكر بعد ذلك ما يتعلق بأحوال الدنيا فدل على أن العلم أشرف . السادس قال بعضهم الهدهد مع أنه فى نهاية الضعف ومع أنه كان فى موقف المعاتبة قال لسليمان (أحطت بما لم تحط به) فلو لا أن العلم أشرف الأشياء وإلا فمن اين للهدهد أن يتكلم فى مجلس سليمان بمثل هذا الكلام ولذلك يرى الرجل الساقط إذا تعلم العلم صار نافذ القول عند السلاطين وما ذاك إلا ببركة العلم ، السابع : قال عليه الصلاة والسلام « تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة » وفى التفضيل وجهان . أحدها : أن التفكر يوصلك إلى الله تعالى والعبادة توصلك إلى ثواب الله تعالى والذى يوصلك إلى الله خير مما يوصلك إلى غير الله . والثانى أن التفكر عمل القلب والطاعة عمل الجوارح ، والقلب أشرف من الجوارح فكان عمل القلب أشرف من عمل الجوارح والذى يؤكد هذا الوجه قوله تعالى (وأقم الصلاة لذكرى) جعل الصلاة وسيلة إلى ذكر القلب والمقصود أشرف من الوسيلة فدل ذلك على أن العلم أشرف من غيره . الثامن : قال تعالى (وعلمك مالم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما) فسمى العلم عظيما وسمى الحكمة خيرا كثيرا فالحكمة هى العلم وقال أيضا (الرحمن علم القرآن) فجعل هذه النعمة مقدمة على جميع النعم ، فدل على أنه أفضل من غيره . التاسع : ان سائر كتب الله ناطقة بفضل العلم . أما التوراة فقال تعالى لموسى عليه السلام (عظم الحكمة فانى لا أجعل الحكمة فى قلب عبد إلا وأردت أن أغفر له فتعلمها ثم اعمل بها ثم ابذلها كى تنال بها كرامتى فى الدنيا والآخرة » وأما الزبور فقال سبحانه وتعالى « ياداود قل لأحبار بنى اسرئيل ورهبانهم حادثوا من الناس الأتقياء فان لم تجدوا فيهم تقياً فحادثوا العلماء فان لم تجدوا عالما فحادثوا العقلاء فان التقى والعلم والعقل ثلاث مراتب ما جعلت واحدة منهن فى أحد من خلقى وأنا أريد إهلاكه » وأقول إنما قدم الله تعالى التقى على العلم لأن التقى لا يوجد بدون العلم كما بينا أن الخشية لا تحصل إلا مع العلم والموصوف بالأمرين أشرف من الموصوف بأمر واحد ، وهذا السر أيضا قدم العالم على العاقل لأن العالم لا بد وأن يكون عاقلا ، أما العاقل فقد لا يكون عالما فالعقل كالبذر والعلم كالشجرة والتقوى كالثمر . وأما الانجيل قال الله تعالى فى السورة السابعة عشر منه(ويل لمن سمع بالعلم فلم يطلبه كيف يحشر مع الجهال إلى النار اطلبوا العلم وتعلموه فان العلم إن لم يسعدكم لم يشقكم

وإن لم يرفعكم لم يضعكم وإن لم يغنكم لم يفقركم وإن لم ينفعكم لم يضركم ولا تقولوا نخاف أن نعلم فلا نعمل ولكن قولوا نرجوا أن نعلم فنعمل » والعلم شفيع لصاحبه وحق على الله تعالى أن لايخزيه ، إن الله تعالى يقول يوم القيامة : « يامعاشر العلماء ماظنكم بربكم ؟ يقولون . ظننا أن يرحمنا ويغفر لنا ، فيقول : فأنى قد فعلت ، إنى قد استودعتكم حكمتى لا لشر أردته بكم ، بل لخير أردته بكم ، فادخلوا فى صالح عبادى إلى جنتى برحمتى » وقال مقاتل بن سليمان وجدت فى الانجيل . أن الله تعالى قال لعيسى بن مريم عليهما السلام : ياعيسى عظم العلماء واعرف فضلهم لأنى فضلتهم على جميع خلقى إلا النبيين والمرسلين كفضل الشمس على الكواكب . وكفضل الآخرة على الدنيا ، وكفضلى على كل شىء . أما الأخبار : « ا » عن عبد الله بن عمر قال قال عليه الصلاة والسلام يقول الله تعالى للعلماء « إنى لم أضع علمى فيكم وأنا أريد أن أعذبكم ادخلوا الجنة على ما كان منكم » « ب » قال أبو هريرة وابن عباس : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة بليغة قبل وفاته وهى آخر خطبة خطبها بالمدينة فقال « من تعلم العلم وتواضع فى العلم وعلمه عباد الله يريد ما عند الله . لم يكن فى الجنة أفضل ثوابا منه ولا أعظم منزلة ، ولم يكن فى الجنة منزلة ولا درجة رفيعة نفيسة إلا كان له فيها أوفر النصيب وأشرف المنازل » . « ج » ابن عمر مرفوعا إذا كان يوم القيامة صفت منابر من ذهب عليها قباب من فضة منضدة بالدر والياقوت والزمرد جلالها السندس والاستبرق ، ثم ينادى منادى الرحمن : أين من حمل إلى أمة محمد علما يريد به وجه الله : اجلسوا على هذه المنابر . فلا خوف عليكم حتى تدخلوا الجنة . « د » عن عيسى ابن مريم عليهما السلام : ان أمة محمد عليه الصلاة والسلام علماء حكماء كأنهم من الفقه أنبياء ، يرضون من الله باليسير من الرزق ، ويرضى الله منهم باليسير من العمل ، ويدخلون الجنة بلا إله إلا الله « هـ » قال عليه السلام « من اغبرت قدماه فى طلب العلم ، حرم الله جسده على النار ، واستغفر له ملكاه وإن مات فى طلبه مات شهيداً ، وكان قبره روضة من رياض الجنة ، ويوسع له فى قبره مد بصره ، وينور على جيرانه أربعين قبراً عن يمينه . وأربعين قبراً عن يساره ، وأربعين عن خلفه ، وأربعين أمامه ، ونوم العالم عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، ونفسه صدقة ، وكل قطرة نزلت من عينيه تطفىء بحرا من جهنم فمن أهان العالم فقد أهان العلم ، ومن أهان العلم فقد أهان النبى ، ومن أهان النبى فقد أهان جبريل ومن أهان جبريل أهان الله . ومن أهان الله أهانه الله يوم القيامة » « و » قال عليه الصلاة والسلام : « ألا أخبركم بأجود الأجواد . قالوا نعم يا رسول الله . قال الله تعالى : أجود الأجواد وأنا أجود ولد آدم ، وأجودهم من بعدى رجل عالم ينشر علمه فيبعث يوم القيامة أمة وحده ورجل جاهد فى سبيل الله حتى يقتل » . « ز » عن أبى هريرة مرفوعا « من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا ، نفس الله عنه كربة من كرب الآخرة ، ومن يسر على معسر . يسر

الله عليه فى الدنيا والآخرة ، والله تعالى فى عون العبد ، ما دام العبد فى عون أخيه ، ومن سلك طريقا يبتغى به علما سهل الله له طريقا إلى الجنة وما اجتمع قوم فى مسجد من مساجد الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفت بهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده » رواه مسلم فى الصحيح « ح » قال عليه الصلاة والسلام « يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء » . قال الراوى : فأعظم مرتبة هى واسطة بين النبوة والشهادة « ط » معاذ بن جبل قال عليه الصلاة والسلام « تعلموا العلم فان تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه صدقة ، وبذله لأهله قربة ، لأنه معالم الحلال والحرام ومنار سبل الجنة والأنيس من الوحشة والصاحب فى الوحدة والمحدث فى الخلوة والدليل على السراء والضراء والسلاح على الأعداء ، والدين عند الأختلاف يرفع الله به أقواما فيجعلهم فى الخير قادة هداة يهتدى بهم ، وأئمة فى الخير يقتفى بآثارهم ويقتدى بأفعالهم ، وينتهى إلى آرائهم . ترغب الملائكة فى خلقتهم وبأجنحتها تمسحهم وفى صلاتها تستغفر لهم حتى كل رطب ويابس وحيتان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه والسماء ونجومها . لأن العلم حياة القلوب من العمى ونور الأبصار من الظلمة وقوة الأبدان من الضعف يبلغ بالبعيد منازل الأحرار ومجالس الملوك والدرجات العلى فى الدنيا والآخرة والتفكر فيه يعدل بالصيام ومدارسته بالقيام به يطاع الله ويعبد وبه يمجد ويوحد وبه توصل الأرحام وبه يعرف الحلال والحرام « ى » أبو هريرة قال عليه الصلاة والسلام « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعوا له بالخير » « يا » قال عليه الصلاة والسلام « إذا سألتم الحوائج فاسألوها الناس قيل يارسول الله ومن الناس ؟ قال أهل القرآن قيل ثم من ؟ قال أهل العلم قيل ثم من ؟ قال الصباح الوجوه » قال الراوى والمراد بأهل القرآن من يحفظ معانيه « يب » قال عليه الصلاة والسلام « من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله فى أرضه وخليفة كتابه وخليفة رسوله والدنيا سم الله القتال لعباده فخذوا منها بقدر السم فى الأدوية لعلكم تنجون » قال الراوى والعلماء داخلون فيه لأنهم يقولون هذا حرام فاجتنبوه وهذا حلال فخذوه « يج » فى الخبر : العالم نبى لم يوح إليه « يد » قال عليه الصلاة والسلام « كن عالما ، أو متعلماً ، أو مستمعاً ، أو محبا ، ولا تكن الخامس فتهلك » قال الراوى : وجه التوفيق بين هذه الرواية وبين الرواية الأخرى وهى قوله عليه الصلاة والسلام « الناس رجلان عالم ومتعلم وسائر الناس همج لا خير فيهم » إن المستمع والمحب بمنزلة المتعلم وما أحسن قول بعض الأعراب لولده : كن سبعاً خالساً أو ذئبا خانساً أو كلبا حارسا ، وإياك وأن تكون إنسانا ناقصاً ، « يه » قال عليه الصلاة والسلام « من اتكأ على يده عالم كتب الله له بكل خطوة عتق رقبة ومن قبل رأس عالم كتب الله له بكل شعرة حسنة » « يو » قال عليه الصلاة والسلام برواية أبى هريرة « بكت السموات

السبع ومن فيهن ومن عليهن والأرضون السبع ومن فيهن ومن عليهن لعزيز ذل وغنى افتقر وعالم يلعب به الجهال » « يز » وقال عليه السلام « حملة القرآن عرفاء أهل الجنة والشهداء قواد أهل الجنة والأنبياء سادة أهل الجنة » « يح » وقال عليه السلام « العلماء مفاتيح الجنة وخلفاء الأنبياء » قال الراوى الانسان لا يكون مفتاحا إنما المعنى أن عندهم من العلم مفتاح الجنان والدليل عليه أن من رأى فى النوم أن بيده مفاتيح الجنة فانه يؤتى علما فى الدين . « يط » وقال عليه الصلاة والسلام « إن لله تعالى فى كل يوم وليلة ألف رحمة على جميع خلقه الغافلين والبالغين وغير البالغين ، فتسعمائة وتسعة وتسعون رحمة للعلماء وطالبى العلم والمسلمين ، والرحمة الواحدة لسائر الناس » . « ك » وقال عليه الصلاة والسلام « قلت ياجبريل أى الأعمال أفضل لأمتى ؟ قال العلم ، قلت ثم أى ؟ قال النظر إلى العالم ، قلت ثم أى ؟ قال زيارة العالم ، ثم قال ومن كسب العلم لله وأراد به صلاح نفسه وصلاح المسلمين ، ولم يرد به عرضا من الدنيا ، فأنا كفيله بالجنة » « كا » وقال عليه الصلاة والسلام « عشرة تستجاب لهم الدعوة العالم والمتعلم وصاحب حسن الخلق والمريض واليتيم والغازى والحاج والناصح للمسلمين والولد المطيع لأبويه والمرأة المطيعة لزوجها » « كب » « سئل النبى ﷺ ما العلم ؟ فقال دليل العمل قيل فما العقل ؟ قال قائد الخير ، قيل فما الهوى ؟ قال مركب المعاصى : قيل فما المال ؟ قال رداء المتكبرين ، قيل فما الدنيا ؟ قال سوق الآخرة » . « كج » أنه عليه الصلاة والسلام كان يحدث إنسانا فأوحى الله إليه أنه لم يبق من عمر هذا الرجل الذى تحدثه إلا ساعة ، وكان هذا وقت العصر ، فأخبره الرسول بذلك فاضطرب الرجل وقال : يا رسول الله دلنى على أوثق عمل لى فى هذه الساعة ، قال اشتغل بالتعلم فاشتغل بالتعلم ، وقبض قبل المغرب ، قال الراوى : فلو كان شىء أفضل من العلم ، لأمره النبى ﷺ به فى ذلك الوقت . « كد » قال عليه الصلاة والسلام « الناس كلهم موتى إلا العالمون » والخبر مشهور « كه » عن أنس قال عليه الصلاة والسلام « سبعة للعبد تجرى بعد موته : من علم علما أو أجرى نهراً أو حفر بئرا أو بنى مسجدا أو ورث مصحفا أو ترك ولدا صالحا يدعوا له بالخير أو صدقة تجرى له بعد موته » فقدم عليه الصلاة والسلام التعليم على جميع الانتفاعات لأنه روحانى والروحانى أبقى من الجسمانيات « كو » قال عليه الصلاة والسلام « لا تجالسوا العلماء إلا إذا دعوكم من خمس إلى خمس : من الشك إلى اليقين ومن الكبر إلى التواضع ومن العداوة إلى النصيحة ومن الرياء إلى الاخلاص ومن الرغبة إلى الزهد » « كز » أوصى النبى ﷺ إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه فقال ياعلى احفظ التوحيد فانه رأس مالى والزم العمل فانه حرفتى ، وأقم الصلاة فانها قرة عينى ، واذكر الرب فانه بصيرة فؤادى ، واستعمل العلم فانه ميراثى « كح » أبو كبشة الأنصارى قال ضرب لنا رسول الله ﷺ مثل الدنيا مثل أربعة رهط رجل آتاه الله علما وآتاه مالا فهو يعمل بعلمه فى ماله ، ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالا فيقول لو أن الله تعالى آتانى مثل ما أوتى فلان لفعلت فيه مثل ما يفعل فلان فهما فى الأجر سواء . ورجل آتاه الله مالا

ولم يؤته علما فهو يمنعه من الحق وينفقه فى الباطل ، ورجل لم يؤته الله علما ولم يؤته مالا فيقول : لو أن الله تعالى آتانى مثل ما أوتى فلان لفعلت فيه مثل ما يفعل فلان فهما فى الوزر سواء .

﴿ الآثار ﴾ « ا » كميل بن زياد قال أخذ على بن أبى طالب رضى الله عنه بيدى فأخرجنى إلى الجبانة فلما أصحر تنفس الصعداء ثم قال يا كميل بن زياد إن هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها فاحفظ ما أقول لك : الناس ثلاثة عالم ربانى ومتعلم على سبيل نجاة وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا إلى ركن وثيق ، يا كميل العلم خير من المال ، والعلم يحرسك وأنت تحرس المال والمال تنقصه النفقة ، والعلم يزكوا بالانفاق ، وصنيع المال يزول بزواله ، يا كميل معرفة العلم زين يزان به يكتسب به الانسان الطاعة فى حياته ، وجميل الأحدوثة بعد وفاته ، والعلم حاكم ، والمال محكوم عليه « ب » عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أن الرجل ليخرج من منزله وعليه من الذنوب مثل جبل تهامة فاذا سمع العلم وخاف واسترجع على ذنوبه انصرف إلى منزله وليس عليه ذنب فلا تفارقوا مجالس العلماء فان الله لم يخلق تربة على وجه الأرض أكرم من مجالس العلماء « ج » عن ابن عباس خير سليمان بين الملك والمال وبين العلم فاختار العلم فأعطى العلم والملك معا « د » سليمان لم يحتج إلى الهدهد إلا لعلمه لما روى عن نافع بن الأزرق قال لابن عباس كيف اختار سليمان الهدهد لطلب الماء قال ابن عباس لأن الأرض كالزجاجة يرى باطنها من ظاهرها فقال نافع فكيف بأوقات الفخ يغطى له بأصبع من تراب فلا يراه بل يقع فيه فقال ابن عباس إذا جاء القدر عمى البصر (ه) قال أبو سعيد الخدرى تقسم الجنة على عشرة آلاف جزء تسعة آلاف وتسعمائة وتسعة وتسعون منها للذين عقلوا عن الله أمره فكان هذا ثوابهم على قدر ما قسم الله لهم من العقول يقتسمون المنازل فيها وجزء للمؤمنين الضعفاء الفقراء الصالحين « و » قال ابن عباس لولده يابنى عليك بالأدب فانه دليل على المروءة وأنس فى الوحشة وصاحب فى الغربة وقرين فى الحضر وصدر فى المجلس ووسيلة عند انقضاء الوسائل وغنى عند العدم ورفعة للخسيس وكمال للشريف وجلالة للملك « ز » عن الحسن البصرى : صرير قلم العلماء تسبيح وكتابة العلم والنظر فيه عبادة وإذا أصاب من ذلك المداد ثوبه فكأنما أصابه دم الشهداء وإذا قطر منها على الأرض تلألأ نوره ، وإذا قام من قبره نظر إليه أهل الجمع فيقال هذا عبد من عباد الله أكرمه الله وحشر مع الأنبياء عليهم السلام « ح » فى كتاب كليلة ودمنة : أحق من لا يستخف بحقوقهم ثلاثة : العالم والسلطان والاخوان فان من استخف بالعالم أهلك دينه ومن استخف بالسلطان أهلك دنياه ومن استخف بالاخوان أهلك مروءته « ط » قال سقراط من فضيلة العلم أنك لا تقدر على أن يخدمك فيه أحد كما تجد من يخدمك فى سائر الأشياء بل تخدمه بنفسك ولا يقدر أحد على سلبه عنك « ى » قيل لبعض الحكماء لا تنظر فأغمض عينيه ، فقيل لا تسمع فسد أذنيه ، فقيل لا تتكلم فوضع يده على فيه ، فقيل له لا تعلم فقال لا أقدر عليه « يا » إذا كان السارق عالما لا تقطع يده لأنه يقول كان المال وديعة لى وكذا

الشارب يقول حسبته خلا وكذا الزانى يقول تزوجتها فانه لا يحد « يب » قال بعضهم أحيوا قلوب إخوانكم ببصائر بيانكم كما تحيون الموات بالنبات والنواة ، فان نفساً تبعد من الشهوات والشبهات أفضل من أرض تصلح للنبات . قال الشاعر :

وفى الجهل قبل الموت موت لأهله ... وأجسامهم قبل القبور قبور

وإن امرأ لم يحى بالعلم ميت ... وليس له حتى النشور نشور

﴿ وأما النكت ﴾ فمن وجوه « ا » المعصيه عند الجهل لا يرجى زوالها وعند الشهوة يرجى زوالها ، انظر إلى زلة آدم فانه بعلمه استغفر والشيطان غوى وبقى فى غيه أبداً لأن ذلك كان بسبب الجهل « ب » إن يوسف عليه السلام لما صار ملكا احتاج إلى وزير فسأل ربه عن ذلك فقال له جبريل إن ربك يقول لا تختر إلا فلاناً فرآه يوسف فى أسوإ الأحوال فقال لجبريل إنه كيف يصلح لهذا العمل مع سوء حاله فقال جبريل إن ربك عينه لذلك لأنه كان ذب عنك حيث قال (إن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين) والنكتة أن الذى ذب عن يوسف عليه السلام استحق الشركة فى مملكته فمن ذب عن الدين القويم بالبرهان المستقيم كيف لا يستحق من الله الاحسان والتحسين «ج» أراد واحد خدمة ملك فقال الملك اذهب وتعلم حتى تصلح لخدمتى فلما شرع فى التعلم وذاق لذة العلم بعث الملك إليه وقال اترك التعلم فقد صرت أهلا لخدمتى فقال كنت أهلا لخدمتك حين لم ترنى أهلا لخدمتك وحين رأيتنى أهلا لخدمتك رأيت نفسى أهلا لخدمة الله تعالى وذلك أنى كنت أظن أن الباب بابك لجهلى والآن علمت أن الباب باب الرب « د » تحصيل العلم إنما يصعب عليك لفرط حبك الدنيا لأنه تعالى أعطاك سواد العين وسويداء القلب ولا شك أن السواد أكبر من السويداء فى اللفظ لأن السويداء تصغير السواد ثم إذا وضعت على سواد عينك جزءا من الدنيا لا ترى شيئا فكيف إذا وضعت على السويداء كل الدنيا كيف ترى بقلبك شيئا « ه » قال حكيم : القلب ميت وحياته بالعالم والعلم ميت وحياته بالطلب والطلب ضعيف وقوته بالمدارسة فاذا قوى بالمدارسة فهو محتجب وإظهاره بالمناظرة وإذا ظهر بالمناظرة فهو عقيم ونتاجه بالعمل فاذا زوج العلم بالعمل توالد وتناسل ملكا أبديا لا آخر له « و » (قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم) إلى قوله (وهم لا يشعرون) كانت رياسة تلك النملة على غيرها لم تكن إلا بسبب أنها علمت مسألة واحدة وهى قوله تعالى (وهم لا يشعرون) كأنها قالت إن سليمان معصوم والمعصوم لا يجوز منه إيذاء البرىء عن الجرم ولكنه لو حطمكم فانما يصدر ذلك منه على سبيل السهو لأنه لا يعلم حالكم فقوله تعالى (وهم لا يشعرون) إشارة إلى تنزيه الأنبياء عليهم السلام عن المعصية فتلك النملة لما علمت هذه المسألة الواحدة استحقت الرياسة التامة فمن علم حقائق الأشياء من الموجودات والمعدومات كيف لا يستوجب الرياسة فى الدنيا والدين « ز » الكلب إذا تعلم وأرسله المالك على اسم الله تعالى صار صيده النجس طاهراً والنكتة أن

العلم هناك انضم إلى الكلب فصار النجس ببركة العلم طاهرا ، فههنا النفس والروح طاهرتان فى أصل الفطرة إلا أنهما تلوثتا بأقذار المعصية ثم انضم اليهما العلم بالله وبصفاته فنرجوا من عميم لطفه أن يقلب النجس طاهراً ههنا والمردود مقبولا « ح » القلب رئيس الاعضاء ثم تلك الرياسة ليست للقوة فان العظم أقوى منه ولا للعظم فان الفخذ أعظم منه ولا للحدة فان الظفر أحد منه وإنما تلك الرياسة بسبب العلم فدل على أن العلم أشرف الصفات .

﴿ أما الحكايات ﴾ : « ا » حكى أن هرون الرشيد كان معه فقهاء وكان فيهم أبو يوسف فأتى برجل فادعى عليه آخر أنه أخذ من بيته مالا بالليل فأقر الآخذ بذلك فى المجلس فاتفق الفقهاء على أنه تقطع يده . فقال أبو يوسف : لا قطع عليه ، قالوا لم ؟ قال لأنه أقر بالأخذ والأخذ لا يوجب القطع بل لا بد من الاعتراف بالسرقة فصدقه الكل فى قوله ، ثم قالوا للآخذ أسرقتها ؟ قال نعم ، فأجمعوا كلهم على أنه وجب القطع لأنه أقر بالسرقة فقال أبو يوسف : لاقطع لأنه وإن أقر بالسرقة لكن بعد ماوجب الضمان عليه باقراره بالأخذ فاذا أقر بالسرقة بعد ذلك فهو بهذا الاقرار يسقط الضمان عن نفسه فلا يسمع إقراره فتعجب الكل من ذلك « ب » عن الشعبى كنت عند الحجاج فأتى بيحيي بن يعمر فقيه خراسان من بلخ مكبلا بالحديد فقال له الحجاج أنت زعمت أن الحسن والحسين من ذرية رسول الله ﷺ فقال بلى فقال الحجاج لتأتينى بها واضحة بينة من كتاب الله أو لأقطعنك عضواً عضوا فقال آتيك بها واضحة بينة من كتاب الله يا حجاج قال فتعجبت من جرأته بقوله ياحجاج فقال له ولا تأتنى بهذه الآية (ندع أبناءنا وأبناءكم) فقال آتيك بها واضحة من كتاب الله وهو قوله (ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان) إلى قوله (وزكريا ويحي وعيسى) فمن كان أبو عيسى وقد ألحق بذرية نوح ؟ قال فأطرق مليا ثم رفع رأسه فقال كأنى لم أقرأ هذه الآية من كتاب الله حلوا وثاقه وأعطوه من المال كذا « ج » يحكى أن جماعة من أهل المدينة جاءوا إلى أبى حنيفة ليناظروه فى القراءة خلف الامام ويبكتوه ويشنعوا عليه فقال لهم لا يمكننى مناظرة الجميع ففوضوا أمر المناظرة إلى أعلمكم لأناظره فأشاروا إلى واحد فقال هذا أعلمكم ؟ قالوا نعم قال والمناظرة معه كالمناظرة معكم ؟ قالوا نعم قال والالزام عليه كالالزام عليكم ؟ قالوا نعم قال وإن ناظرته وألزمته الحجة فقد لزمتكم الحجة ؟ قالوا نعم قال كيف ؟ قالوا لأنا رضينا به إماما فكان قوله قولا لنا قال أبو حنيفة فنحن لما اخترنا الامام فى الصلاة كانت قراءته قراءة لنا وهو ينوب عنا فأقروا له بالالزام « د » هجا الفرزدق واحدا (١) فقال :

لقد ضاع شعرى على بابكم كما ضاع در على خالصة

وكانت خالصة معشوقة سليمان بن عبد الملك وكانت ظريفة صاحبة أدب وكانت هيبة سليمان ابن عبد الملك تفوق هيبة المروانيين فلما بلغها هذا البيت شق عليها فدخلت على سليمان وشكت

(١) الخبر يروى فى كتب الأدب بصورة أخرى لأبى نواس يقوله فى الرشيد وخالصة جاريته ويقال فى هذا البيت أنه بيت قلعت عيناه فأبصر .

الفرزدق فأمر سليمان باشخاص الفرزدق على أفظع الوجوه مكبلا مقيداً فلما حضر وما كان به من الرمق إلا مقدار ما يقيمه على الرجل من شدة الهيبة فقال له سليمان بن عبد الملك : أنت القائل

لقد ضاع شعرى على بابكم كما ضاع در على خالصة ؟

فقال ما قلته هكذا وإنما غيره على من أراد بى مكروها وإنما قلت : وخالصة من وراء الستر تسمع :

لقد ضاء شعرى على بابكم كما ضاء در على خالصة

فسرى عن خالصة فلم تملك نفسها أن خرجت من الستر فألقت على الفرزدق ما كان عليها من الحلى وهى زيادة على ألف ألف درهم فأتبعه سليمان بن عبد الملك حاجبه لما خرج من عنده حتى اشترى الحلى من الفرزدق بمائة ألف ورده على خالصة « ه » دعا المنصور أبا حنيفة يوما فقال الربيع وهو يعاديه يا أمير المؤمنين هذا يعنى أبا حنيفة يخالف جدك حيث يقول : الاستثناء المنفصل جائز وأبوا حنيفة ينكره فقال أبو حنيفة هذا الربيع يقول ليس لك بيعة فى رقبة الناس فقال كيف ؟ قال انهم يعقدون البيعة لك ثم يرجعون إلى منازلهم فيستثنون فتبطل بيعتهم فضحك المنصور وقال : إياك ياربيع وأبا حنيفة فلما خرج فقال الربيع ياأبا حنيفة سعيت فى دمى فقال أبو حنيفة كنت البادى وأنا المدافع . ويحكى أن مسلما قتل ذميا عمدا فحكم أبو يوسف بقتل المسلم به فبلغ زبيدة ذلك فبعثت إلى إبى يوسف فقالت إياك وأن تقتل المسلم وكانت فى عناية عظيمة بأمر المسلمين فلما حضر أبو يوسف وحضر الفقهاء وجىء بأولياء الذمى والمسلم فقال له الرشيد أحكم بقتله فقال ياأمير المؤمنين هو مذهبى غير أنى لست أقتل المسلم به حتى تقوم البينة العادلة أن الذمى يوم قتله المسلم كان ممن يؤدى الجزية فلم يقدروا عليه فبطل دمه « ز » دخل الغضبان على الحجاج بعد ما قال لعدوه عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث تغد بالحجاج قبل أن يتعشى بك فقال له ما جواب السلام عليك ؟ فقال وعليكم السلام ثم فطن الحجاج ، وقال قاتلك الله ياغضبان ، أخذت لنفسك أمانا بردى عليك أما والله لولا الوفاء والكرم ، لما شربت الماء البارد بعد ساعتك هذه . فانظر إلى فائدة العلم فى هذه الصورة فلله در العلم ومن به تردى ، وتعسا للجهل ومن فى أوديته تردى « ح » بلغ عبد الملك ابن مروان قول الشاعر :

ومنا سويد والبطين وقعنب ومنا أمير المؤمنين شبيب

فأمر به فأدخل عليه ، فقال أنت القائل ومنا أمير المؤمنين شبيب ؟ فقال إنما قلت ومنا أمير المؤمنين شبيب ، بنصب الراء فناديتك واستغثت بك ، فسرى عن عبد الملك وتخاص الرجل من الهلاك بصنعة يسيرة عملها بعلمه ، وهو أنه حول الضمة فتحة . « ط » قال أبو مسلم صاحب الدولة لسليمان بن كثير : بلغنى أنك كنت فى مجلس وقدجرى بين يديك ذكرى ، فقلت اللهم سود وجهه واقطع عنقه وأسقنى من دمه ، فقال نعم قلته ، ولكن فى كرم كذا لما نظرت إلى الحصرم فاستحسن

قوله، وعفا عنه. «ى» قال رجل لأبى حنيفة: إنى حلفت لا أكلم امرأتى حتى تكلمنى وحلفت بصدقة ما تملك أن لا تكلمنى أو أكلمها فتحير الفقهاء فيه فقال سفيان من كلم صاحبه حنث فقال أبو حنيفة اذهب وكلمها ولا حنث عليكما. فذهب الى سفيان وأخبره بما قال أبو حنيفة؛ فذهب سفيان إلى أبى حنيفة مغضباً وقال: تبيح الفروج! فقال أبو حنيفة: وما ذاك؟ قال سفيان: أعيدوا على أبى حنيفة السؤال، فأعادوا وأعاد أبو حنيفة الفتوى، فقال من أين قلت؟ قال: لم شافهته باليمين بعد ما حلف كانت مكلمة فسقطت يمينه، وإن كلمها فلا حنث عليه ولا عليها؛ لأنه قد كلمها بعد اليمين فسقطت اليمين عنهما. قال سفيان: إنه ليكشف لك من العلم عن شىء كلنا عنه غافل. «يا» دخل اللصوص على رجل فأخذوا متاعه واستحلفوه بالطلاق ثلاثا أن لا يعلم أحدا، فأصبح الرجل وهو يرى اللصوص يبيعون متاعه وليس يقدر أن يتكلم من أجل يمينه، فجاء الرجل يشاور أبا حنيفة فقال أحضر لى إمام مسجدك وأهل محلتك فأحضرهم إياه، فقال لهم أبو حنيفة. هل تحبون أن يرد الله على هذا متاعه؟ قالوا نعم، قال فاجمعوا كلا منهم وأدخلوهم فى دار ثم أخرجوهم واحداً واحداً، وقولوا أهذا لصك؟ فان كان ليس بلصه قال لا، وإن كان لصه فليسكت، وإذا سكت فاقبضوا عليه، ففعلوا ما أمرهم به أبو حنيفة، فرد الله عليه جميع ما سرق منه «يب» كان فى جوار أبى حنيفة فتى يغشى مجلس أبى حنيفة، فقال يوما لأبى حنيفة: إنى أريد أن أتزوج ابنة فلان وقد خطبتها، إلا أنهم قد طلبوا منى من المهر فوق طاقتى، فقال: احتل واقترض وادخل عليها، فان الله تعالى يسهل الأمر عليك بعد ذلك، ثم أقرضه أبو حنيفة ذلك القدر؛ ثم قال له: بعد الدخول اظهر أنك تريد الخروج من هذا البلد إلى بلد بعيد، وأنك تسافر بأهلك معك: فأظهر الرجل ذلك. فاشتد ذلك على أهل المرأة وجاؤا إلى أبى حنيفة يشكونه ويستفتونه، فقال لهم أبو حنيفة: له ذلك، فقالوا: وكيف الطريق إلى دفع ذلك؟ فقال أبو حنيفة: الطريق أن ترضوه بأن تردوا عليه ما أخذتموه منه، فأجابوه إليه؛ فذكر أبو حنيفة ذلك للزوج، فقال الزوج: فأنا أريد منهم شيئاً آخر فوق ذلك، فقال أبو حنيفة: أيما أحب إليك أن ترضى بهذا القدر وإلا أقرت لرجل بدين فلا تملك المسافرة بها حتى تقضى ما عليها من الدين فقال الرجل الله الله لا يسمعوا بهذا فلا آخذ منهم شيئا ورضى بذلك القدر فحصل ببركة علم أبى حنيفة فرج كل واحد من الخصمين «يج» عن الليث بن سعد قال قال رجل لأبى حنيفة؛ لى ابن ليس بمحمود السيرة أشترى له الجارية بالمال العظيم فيعتقها وأزوجه المرأة بالمال العظيم فيطلقها فقال له أبو حنيفة اذهب به معك إلى سوق النخاسين فاذا وقعت عينه على جارية فابتعها لنفسك ثم زوجها إياه فان طلقها عادت إليك مملوكة وإن أعتقها لم يجز عتقه إياها، قال الليث فو الله ما أعجبنى جوابه كما أعجبنى سرعة جوابه «يد» سئل أبو حنيفة عن رجل حلف ليقربن امرأته نهاراً فى رمضان فلم يعرف أحد وجه الجواب فقال أبو حنيفة يسافر مع امرأته فيطؤها نهاراً

فى رمضان(١) «يه» جاء رجل الى الحجاج فقال سرقت لى أربعة آلاف درهم فقال الحجاج من تتهم؟ فقال لا أتهم أحدا قال لعلك أتيت من قبل أهلك ؟ قال سبحان الله امرأتى خير من ذلك قال الحجاج لعطاره اعمل لى طيبا ذكياً ليس له نظير فعمل له الطيب ثم دعا الشيخ فقال ادهن من هذه القارورة ولا تدهن منها غيرك ثم قال الحجاج لحرسه : اقعدوا على أبواب المساجد وأراهم الطيب وقال من وجد منه ريح هذا الطيب فخذوه فاذا رجل له وفرة فأخذوه فقال الحجاج من من أين لك هذا الدهن ؟ قال اشتريته قال أصدقنى وإلا قتلتك فصدقه فدعا الشيخ وقال هذا صاحب الأربعة آلاف عليك بامرأتك فأحسن أدبها ، ثم أخذ الأربعة آلاف من الرجل ، وردها إلى صاحبها «يو» قال الرشيد يوما لأبى يوسف : عند جعفر بن عيسى جارية هى أحب الناس إلى وقد عرف ذلك وقد حلف إن لا يبيع ولا يهب ولا يعتق ، وهو الآن يطلب حل يمينه . فقال يهب النصف ويبيع النصف ولا يحنث «يز» قال محمد بن الحسن : كنت نائما ذات ليلة ، فاذا أنا بالباب يدق ويقرع فقلت انظروا من ذاك ؟ فقالوا رسول الخليفة يدعوك فخفت على روحى فقمت ومضيت إليه ، فلما دخلت عليه قال دعوتك فى مسألة : إن أم محمد يعنى زبيدة قلت لها أنا الأمام العدل ، والامام العدل فى الجنة ، فقالت لى إنك ظالم عاص فقد شهدت لنفسك بالجنة فكفرت بكذبك على الله وحرمت عليك ، فقلت له يا أمير المؤمنين إذا وقعت فى معصية هل تخاف الله فى تلك الحالة أو بعدها : فقال إى والله أخاف خوفا شديدا ، فقلت أنا أشهد أن لك جنتين ، لا جنة واحدة قال تعالى (ولمن خاف مقام ربه جنتان) فلاطفنى وأمرنى بالانصراف فلما رجعت إلى دارى رأيت البدر متبادرة إلى «يح» يحكى أن أبا يوسف أتاه ذات ليلة رسول الرشيد يستعجله ، فخاف أبو يوسف على نفسه ، فلبس إزاره ومشى خائفاً إلى دار الخليفة ، فلما دخل عليه سلم فرد عليه الجواب وأدناه ، فعند ذلك هدأ روعه ، قال الرشيد إن حلياً لنا فقد من الدار فاتهمت فيه جارية من جوارى الدار الخاصة ، فحلفت لتصدقينى أو لأقتلنك وقد ندمت فاطلب لى وجها ؛ فقال أبو يوسف : فأذن لى فى الدخول عليها فأذن له فرأى جارية كأنها فلقة قمر ؛ فأخلى المجلس ثم قال لها : أمعك الحلى ؟ فقالت لا والله ، فقال لها احفظى ما أقول لك ولا تزيدى عليه ولا تنقصى عنه إذا دعاك الخليفة وقال لك أسرقت الحلى فقولى نعم ، فاذا قال لك فهاتها فقولى ما سرقتها ، ثم خرج أبو يوسف إلى مجلس الرشيد وأمر باحضار الجارية فحضرت ، فقال للخليفة : سلها عن الحلى . فقال لها الخليفة : أسرقت الحلى ؟ قالت نعم ، قال لها : فهاتها ، قالت لم أسرقها والله ، قال أبو يوسف : قد صدقت يا أمير المؤمنين فى الاقرار أو الانكار وخرجت من اليمين ، فسكن غضب الرشيد وأمر أن يحمل إلى دار أبى يوسف مائة ألف درهم ، فقالوا : إن الخزان غيب فلو أخرنا ذلك إلى الغد ، فقال : إن القاضى أعتقنا الليلة

(١) شرط الفقهاء فى السفر المبيح للفطر أن لا يكون الفطر هو مقصود المسافر بسفره كما فى هذه الحالة .

فلا نؤخر صلته إلى الغد ، فأمر حتى حمل عشر بدر مع أبى يوسف إلى منزله . « يط » قال بشر المريسى للشافعى : كيف تدعى انعقاد الاجماع مع أن أهل المشرق والمغرب لا يمكن معرفة وجود إجماعهم على الشىء الواحد وكانت هذه المناظرة عند الرشيد ، فقال الشافعى : هل تعرف إجماع الناس على خلافة هذا الجالس ؟ فأقر به خوفاً وانقطع ، « ك » أعرابى قصد الحسين بن على رضى الله عنهما ، فسلم عليه وسأله حاجة وقال سمعت جدك يقول : إذا سألتم حاجة فاسألوها من أحد أربعة : إما عربى شريف ، أو مولى كريم ، أو حامل القرآن ، أو صاحب وجه صبيح فأما العرب فشرفت بجدك ، وأما الكرم فدأبكم وسيرتكم ، وأما القرآن ففى بيوتكم نزل ، وأما الوجه الصبيح فانى سمعت رسول الله ﷺ يقول : إذا أردتم أن تنظروا إلى فانظروا إلى الحسن والحسين ، فقال الحسين : ما حاجتك ؟ فكتبها على الأرض ، فقال الحسين سمعت أبى عليا يقول قيمة كل امرىء ما يحسنه . وسمعت جدى يقول : المعروف بقدر المعرفة فأسألك عن ثلاث مسائل إن أحسنت فى جواب واحدة فلك ثلث ما عندى وإن أجبت عن اثنتين فلك ثلثا ما عندى وإن أجبت عن الثلاث فلك كل ما عندى وقد حمل إلى صرة مختومة من العراق فقال سل ولا حول ولا قوة إلا بالله فقال أى الأعمال أفضل قال الأعرابى : الايمان بالله . قال فما نجاة العبد من الهلكة قال الثقة بالله ، قال فما يزين المرء قال علم معه حلم قال فان أخطأه ذلك قال فمال معه كرم قال فإن أخطأه ذلك قال ففقر معه صبر قال فأن أخطأه ذلك قال فصاعقة تنزل من السماء فتحرقه فضحك الحسين ورمى بالصرة إليه

﴿ أما الشواهد العقلية فى فضيلة العلم ﴾ فنقول : اعلم أن كون العلم صفة شرف وكمال وكون الجهل صفة نقصان أمر معلوم للعقلاء بالضرورة ولذلك لو قيل للرجل العالم يا جاهل فأنه يتأذى بذلك وإن كان يعلم كذب ذلك ولو قيل للرجل الجاهل ياعالم فانه يفرح بذلك وإن كان يعلم أنه ليس كذلك وكل ذلك دليل على أن العلم شريف لذاته ومحبوب لذاته والجهل نقصان لذاته وأيضا فالعلم أينما وجد كان صاحبه محترما معظما حتى أن الحيوان إذا رأى الانسان احتشمه بعض الاحتشام وانزجر به بعض الانزجار وان كان ذلك الحيوان أقوى بكثير من الانسان وكذلك جماعة الرعاة إذا رأوا من جنسهم من كان أوفر عقلا منهم وأغزر فضلا فيما هم فيه وبصدده انقادوا له طوعا فالعلماء إذا لم يعاندوا كانوا رؤساء بالطبع على من كان دونهم فى العلم ولذلك فان كثيرا ممن كانوا يعاندون النبى ﷺ قصدوه ليقتلوه فما كان إلا أن وقع بصرهم عليه فألقى الله فى قلوبهم منه روعة وهيبة فهابوه وانقادوا له صلى الله عليه وسلم ولهذا قال الشاعر :

لو لم تكن فيه آيات مبينة   كانت بداهته تنبيك عن خبر

وأيضا فلا شك أن الانسان أفضل من سائر الحيوانات وليست تلك الفضيلة لقوته وصولته فان كثيراً من الحيوانات يساويه فيها أو يزيد عليه فاذن تلك الفضيلة ليست إلا لاختصاصه بالمزية

النورانية واللطيفة الربانية التى لأجلها صار مستعداً لا دراك حقائق الأشياء والاطلاع عليها والاشتغال بعبادة الله على ما قال (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) وأيضا الجاهل كأنه فى ظلمة شديدة لا يرى شيئا البتة والعالم كانه يطير فى أقطار الملكوت ويسبح فى بحار المعقولات فيطالع الموجود والمعدوم والواجب والممكن والمحال ثم يعرف انقسام الممكن إلى الجوهر والعرض والجوهر إلى البسيط والمركب ويبالغ فى تقسيم كل منها إلى أنواعها وأنواع أنواعها وأجزائها وأجزاء أجزائها والجزء الذى به يشارك غيره والجزء الذى به يمتاز عن غيره ويعرف أثر كل شيء ومؤثره ومعلوله وعلته ولازمه وملزومه وكليه وجزئيه وواحده وكثيره حتى يصير عقله كالنسخة التى أثبت فيها جميع المعلومات بتفاصيلها وأقسامها فأى سعادة فوق هذه الدرجة ثم إنه بعد صيرورته كذلك تصير النفوس الجاهلة عالمة فتصير تلك النفس كالشمس فى عالم الأرواح وسببا للحياة الأبدية لسائر النفوس فانها كانت كاملة ثم صارت مكملة وتصير واسطة بين الله وبين عباده ولهذا قال تعالى (ينزل الملائكة بالروح من أمره) والمفسرون فسروا هذا الروح بالعلم والقرآن وكما أن البدن بلا روح ميت فاسد فكذا الروح بلا علم ميت ونظيره قوله تعالى (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا) فالعلم روح الروح ونور النور ولب اللب ومن خواص هذه السعادة أنها تكون باقية آمنة عن الفناء والتغير ، فان التصورات الكلية لا يتطرق إليها الزوال والتغير وإذا كانت هذه السعادة فى نهاية الجلالة فى ذاتها ثم إنها باقية أبد الآبدين ودهر الداهرين كانت لا محالة أكمل السعادات وأيضا فالأنبياء صلوات الله عليهم مابعثوا إلا للدعوة إلى الحق قال تعالى (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة) إلى آخره ، وقال (قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى) ثم خذ من أول الأمر فانه سبحانه لما قال (إنى جاعل فى الأرض خليفة) قالت الملائكة (أتجعل فيها من يفسد فيها) قال سبحانه (إنى أعلم ما لا تعلمون) فأجابهم سبحانه بكونه عالما فلم يجعل سائر صفات الجلال من القدرة . والارادة ، والسمع ، والبصر ، والوجود ، والقدم ، والاستغناء عن المكان والجهة جوابا لهم وموجبا لسكوتهم وإنما جعل صفة العلم جوابا لهم وذلك يدل على أن صفات الجلال والكمال وإن كانت بأسرها فى نهاية الشرف إلا أن صفة العلم أشرف من غيرها ثم إنه سبحانه إنما أظهر فضل آدم عليه السلام بالعلم وذلك يدل أيضا على أن العلم أشرف من غيره ثم إنه سبحانه لما أظهر علمه جعله مسجود الملائكة وخليفة العالم السفلى وذلك يدل على أن تلك المنقبة إنما استحقها آدم عليه السلام بالعلم ثم ان الملائكة افتخرت بالتسبيح والتقديس والافتخار بهما انما يحصل لو كانا مقرونين بالعلم فانهما إن حصلا بدون العلم كان ذلك نفاقا والنفاق أخس المراتب قال تعالى (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) أو تقليداً والتقليد مذموم فثبت أن تسبيحهم وتقديسهم إنما صار موجبا للافتخار ببركة العلم . ثم إن آدم عليه السلام إنما وقع عليه اسم المعصية لأنه أخطأ

إحكام الفعل وإتقانه وهو ضعيف ، لأن العلم بوجوب الواجبات وامتناع الممتنعات لا يفيد الاحكام . وقال القفال : العلم إثبات المعلوم على ما هو به وربما قيل العلم تصور المعلوم على ما هو به والوجوه السالفة متوجهة على هذه العبارة . وقال إمام الحرمين : الطريق إلى تصور ماهية العلم وتميزها عن غيرها أن نقول إنا نجد من أنفسنا بالضرورة كوننا معتقدين فى بعض الأشياء ، فنقول اعتقادنا فى الشيء ، إما أن يكون جازما أو لا يكون ، فان كان جازما فاما أن يكون مطابقا أو غير مطابق فان كان مطابقا فاما أن يكون لموجب هو نفس طرفى الموضوع والمحمول وهو العلم البديهى أو لموجب حصل من تركيب تلك العلوم الضرورية وهو العلم النظرى أولا لموجب وهو اعتقاد المقلد ، وأما الجزم الذى لا يكون مطابقا فهو الجهل والذى لا يكون جازما فاما أن يكون الطرفان متساويين وهو الشك أو يكون أحدهما أرجح من الآخر فالراجح هو الظن والمرجوح هو الوهم واعلم ان هذا التعريف مختل من وجوه . أحدها : أن هذا التعريف لا يتم إلا إذا ادعينا أن علمنا بماهية الاعتقاد علم بديهى وإذا جاز ذلك فلم لا ندعى أن العلم بماهية العلم بديهى . وثانيها أن هذا تعريف العلم بانتفاء أضداده وليست معرفة هذه الأضداد أقوى من معرفة العلم حتى يجعل عدم النقيض معرفا للنقيض فيرجع حاصل الأمر إلى تعريف الشيء بمثله أو بالأخفى . وثالثها أن العلم قد يكون تصورا وقد يكون تصديقا والتصور لا يتطرق إليه الجزم ولا التردد ولا القوة ولا الضعف فاذا كان كذلك كانت العلوم التصورية خارجة عن هذا التعريف قالت المعتزلة العلم هو الاعتقاد المقتضى سكون النفس وربما قالوا العلم ما يقتضى سكون النفس قالوا ولفظ السكون وإن كان مجازا ههنا إلا أن المقصود منه لما كان ظاهرا لم يكن ذكره قادحا فى المقصود واعلم أن الأصحاب قالوا الاعتقاد جنس مخالف للعلم فلا يجوز جعل العلم منه ولهم أن يقولوا لا شك أن بين العلم واعتقاد المقلد قدرا مشتركا فنحن نعنى بالاعتقاد ذلك القدر قال الأصحاب وهذا التعريف يخرج عنه أيضا علم الله تعالى فانه لا يجوز أن يقال فيه إنه يقتضى سكون النفس قالت الفلاسفة العلم صورة حاصلة فى النفس مطابقة للمعلوم وفى هذا التعريف عيوب . أحدها : إطلاق لفظ الصورة على العلم لا شك أنه من المجازات فلا بد فى ذلك من تلخيص الحقيقة والذى يقال إنه كما يحصل فى المرآة صورة الوجه فكذلك تحصل صورة المعلوم فى الذهن وهو ضعيف لأنا إذا عقلنا الجبل والبحر فان حصلا فى الذهن ففى الذهن جبل وبحر وهذا محال وإن لم يحصلا فى الذهن ولكن الحاصل فى الذهن صورتاهما فقط فحينئذ يكون المعلوم هو الصورة فالشيء الذى تلك الصورة صورته وجب ان لا يصير معلوما وان قيل حصلت الصورة ومحلها فى الذهن فحينئذ يعود ماذكرنا من أنه يحصل الجبل والبحر فى الذهن . وثانيها : أن قوله مطابقة للمعلوم يقتضى الدور ، وثالثها : أن عندهم المعلومات قد تكون موجودة فى الخارج وقد لا تكون وهى التى يسمونها بالأمور الاعتبارية والصور الذهنية والمعقولات الثانية والمطابقة فى هذا القسم غير معقول . ورابعها :

أنا قد نعقل المعدوم ولا يمكن أن يقال الصورة العقلية مطابقة للمعدوم لأن المطابقة تقتضى كون المتطابقين أمراً ثبوتياً والمعدوم نفى محض يستحيل تحقق المطابقة فيه ولقد حاول الغزالى إيضاح كلام الفلاسفة فى تعريف العلم فقال إدراك البصيرة الباطنة نفهمه بالمقايسة بالبصر الظاهر ولا معنى للبصر الظاهر إلا انطباع صورة المرئى فى القوة الباصرة كما نتوهم انطباع الصورة فى المرآة مثلا فكما أن البصر يأخذ صورة المبصرات أى ينطبع فيه مثالها المطابق لها لا عينها فان عين النار لا تنطبع فى العين بل مثال مطابق صورتها فكذا العقل على مثال مرآة ينطبع فيها صور المعقولات وأعنى بصورة المعقولات حقائقها وماهياتها ففى المرآة أمور ثلاثة : الحديد وصقالته والصورة المنطبعة فيه فكذا جوهر الآدمى كالحديد وعقله كالصقالة والمعلوم كالصورة واعلم أن هذا الكلام ساقط جداً أما قوله لا معنى للبصر الظاهر إلا انطباع صورة المرئى فى القوة الباصرة فباطل لوجوه ، أحدها : أنه ذكر فى تعريف الابصار المبصر والباصر وهو دور . وثانيها أنه لو كان الابصار عبارة عن نفس هذا الانطباع لما أبصرنا إلا بمقدار نقطة الناظر لاستحالة انطباع العظيم فى الصغير فان قيل الصورة الصغيرة المنطبعة شرط لحصول إبصار الشيء العظيم فى الخارج قلنا الشرط مغاير للمشروط فالابصار مغاير للصورة المنطبعة . وثالثها : أنا نرى المرئى حيث هو ، ولو كان المرئى هو الصورة المنطبعة لما رأيته فى حيزه ومكانه ، وأما قوله : فكذا العقل ينطبع فيه صور المعقولات فضعيف لأن الصورة المرتسمة من الحرارة فى العقل ، إما أن تكون مساوية للحرارة فى الماهية أو لا تكون ، فان كان الأول لزم أن يصير العقل حاراً عند تصور الحرارة لأن الحار لا معنى له إلا الموصوف بالحرارة ، وإن كان الثانى لم يكن تعقل الماهية إلا عبارة عن حصول شيء فى الذهن مخالف للحرارة فى الماهية وذلك يبطل قوله ، وأما الذى ذكر من انطباع الصور فى المرآة فقد اتفق المحققون من الفلاسفة على أن صورة المرئى لا تنطبع فى المرآة فثبت أن الذى ذكره فى تقرير قولهم لا يوافق قولهم ولا يلائم أصولهم ولما ثبت أن التعريفات التى ذكرها الناس باطلة فاعلم أن العجز عن التعريف قد يكون لخفاء المطلوب جداً وقد يكون لبلوغه فى الجلاء إلى حيث لا يوجد شيء أعرف منه ليجعل معرفا له ، والعجز عن تعريف العلم لهذا الباب والحق أن ماهية العلم متصورة تصوراً بديهياً جلياً ، فلا حاجة فى معرفته إلى معرف ، والدليل عليه أن كل أحد يعلم بالضرورة أنه يعلم وجود نفسه وأنه يعلم أنه ليس على السماء ولا فى لجة البحر ، والعلم الضرورى بكونه عالما بهذه الأشياء علم باتصاف ذاته بهذه العلوم والعالم بانتساب شيء إلى شيء عالم لا محالة بكلا الطرفين ، فلما كان العلم الضرورى بهذه المنسوبية حاصلا كان العلم الضرورى بماهية العلم حاصلا وإذا كان كذلك كان تعريفه ممتنعا فهذا القدر كاف ههنا وسائر التدقيقات مذكورة فى الكتب العقلية والله أعلم .

﴿ المسألة الثامنة ﴾ فى البحث عن ألفاظ يظن بها أنها مرادفة للعلم وهى ثلاثون ، أحدها :

الادراك وهو اللقاء والوصول يقال أدرك الغلام وأدركت الثمرة قال تعالى (قال أصحاب موسى إنا لمدركون) فالقوة العاقلة إذا وصلت إلى ماهية المعقول وحصلتها كان ذلك إدراكا من هذه الجهة ، وثانيها : الشعور وهو إدراك بغير استثبات وهو أول مراتب وصول المعلوم إلى القوة العاقلة وكأنه إدراك متزلزل ولهذا يقال فى الله تعالى إنه يشعر بكذا كما يقال إنه يعلم كذا ، وثالثها : التصور إذا حصل وقوف القوة العاقلة على المعنى وأدركه بتمامه فذلك هو التصور ، واعلم أن التصور لفظ مشتق من الصورة ولفظ الصورة حيث وضع فانما وضع للهيئة الجسمانية الحاصلة فى الجسم المتشكل إلا أن الناس لما تخيلوا أن حقائق المعلومات تصير حالة فى القوة العاقلة كما أن الشكل والهيئة يحلان فى المادة الجسمانية أطلقوا لفظ التصور عليه بهذا التأويل . ورابعها : الحفظ فاذا حصلت الصورة فى العقل وتأكدت واستحكمت وصارت بحيث لو زالت لتمكنت القوة العاقلة من استرجاعها واستعادتها سميت تلك الحالة حفظا ولما كان الحفظ مشعراً بالتأكد بعد الضعف لا جرم لا يسمى علم الله حفظا ولأنه إنما يحتاج إلى الحفظ مايجوز زواله ولما كان ذلك فى علم الله تعالى محالا لا جرم لا يسمى ذلك حفظا . وخامسها : التذكر وهو أن الصورة المحفوظة إذا زالت عن القوة العاقلة فاذا حاول الذهن استرجاعها فتلك المحاولة هى التذكر . واعلم أن للتذكر سراً لايعلمه إلاالله تعالى وهو أن التذكر صار عبارة عن طلب رجوع تلك الصورة الممحية الزائلة فتلك الصورة إن كانت مشعوراً بها فهى حاضرة حاصلة والحاصل لا يمكن تحصيله فلا يمكن حينئذ استرجاعها وإن لم تكن مشعورا بهاكان الذهن غافلا عنها وإذا كان غافلا عنها استحال أن يكون طالبا لا سترجاعها لأن طلب مالا يكون متصورا محال فعلى كلا التقديرين يكون التذكر المفسر بطلب الاسترجاع ممتنعا مع أنا نجد من أنفسنا أنا قد نطلبها ونسترجعها وهذه الأسرار إذا توغل العاقل فيها وتأملها عرف أنه لا يعرف كنهها مع أنها من أظهر الأشياء عند الناس فكيف القول فى الأشياء التى هى أخفى الأمور وأعضلها على العقول والأذهان . وسادسها : الذكر فالصورة الزائلة إذا حاول استرجاعها فاذا عادت وحضرت بعد ذلك الطلب سمى ذلك الوجدان ذكرا فان لم يكن هذا الادراك مسبوقا بالزوال لم يسم ذلك الادراك ذكرا ولهذا قال الشاعر :

الله يعلم أنى لست أذكره   وكيف أذكره إذ لست أنساه

فجعل حصول النسيان شرطا لحصول الذكر ويوصف القول بأنه ذكر لأنه سبب حصول المعنى فى النفس قال تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) وههنا دقيقة تفسيرية وهى أنه سبحانه وتعالى قال (فاذكرونى أذكركم) فهذا الأمر هل يتوجه على العبد حال حصول النسيان أو بعد زواله فان كان الأول فهو حال النسيان غافل عن الأمر وكيف يوجه عليه التكليف مع النسيان وإن كان الثانى فهو ذاكر والذكر حاصل وتحصيل الحاصل محال فكيف كلفه به

وهو أيضا متوجه على قوله (فاعلم أنه لا إله إلا الله) إلا أن الجواب فى قوله فاعلم أن المأمور به إنما هو معرفة للتوحيد وهذا من باب التصديقات فلا يقوى فيه ذلك الاشكال وأما الذكر فهو من باب التصورات فيقوى فيه ذلك الاشكال وجوابه على الاطلاق أنا نجد من أنفسنا أنه يمكننا التذكر وإذا كان ذلك ممكنا كان ما ذكرته تشكيكا فى الضروريات فلا يستحق الجواب . بقى أن يقال فكيف يتذكر فنقول لا نعرف كيف يتذكر لكن علمك بتمكنك فى علمك بأن فى الجملة يكفيك فى الاشتغال بالمجاهدة وعجزك عن إدراك تلك الكيفية يكفيك من التذكر ذاك ليس منك بل ههنا سر آخر وهو أنك لما عجزت عن إدراك ماهية التذكر والذكر مع أنه صفتك فأنى يمكنك الوقوف على كنه المذكور مع أنه أبعد الأشياء مناسبة منك فسبحان من جعل أظهر الأشياء أخفاها ليتوصل العبـــد به إلى كنه عجزه ونهاية قصوره فحينئذ يطالع شيئا من مبادى مقادير أسرار كونه ظاهراً باطنا . وسابعها : المعرفة وقد اختلفت الأقوال فى تفسير هذه اللفظة فمنهم من قال المعرفة ادراك الجزئيات والعلم إدراك الكليات وآخرون قالوا المعرفة التصور والعلم هو التصديق وهؤلاء جعلوا العرفان أعظم درجة من العلم قالوا لأن تصديقنا باستناد هذه المحسوسات إلى موجود واجب الوجود أمر معلوم بالضرورة فأما تصور حقيقته فأمر فوق الطاقة البشرية ولأن الشىء ما لم يعرف وجوده فلا تطلب ماهيته فعلى هذا الطريق كل عارف عالم وليس كل عالم عارفا ولذلك فان الرجل لا يسمى بالعارف إلا إذا توغل فى ميادين العلم وترقى من مطالعها إلى مقاطعها ومن مباديها إلى غاياتها بحسب الطاقة البشرية وفى الحقيقة فان أحدا من البشر لا يعرف الله تعالى لأن الاطلاع على كنه هويته وسر ألوهيته محال . وآخرون قالوا من أدرك شيئا وانحفظ أثره فى نفسه ثم أدرك ذلك الشىء ثانياً وعرف أن هذا المدرك الذى أدركه ثانيا هو الذى أدركه أولا فهذا هو المعرفة فيقال : عرفت هذا الرجل وهو فلان الذى كنت رأيته وقت كذا . ثم فى الناس من يقول بقدم الأرواح ومنهم من يقول بتقدمها على الأبدان ويقول إنها هى الذر المستخرج من صلب آدم عليه السلام وإنها أقرت بالالهية واعترفت بالربوبية إلا أنها لظلمة العلاقة البدنية نسيت مولاها فاذا عادت إلى نفسها متخلصة من ظلمة البدن وهاوية الجسم عرفت ربها وعرفت أنها كانت عارفة به فلا جرم سمى هذا الادراك عرفانا . وثامنها . الفهم وهو تصور الشىء من لفظ المخاطب والافهام هو اتصال المعنى باللفظ إلى فهم السامع . وتاسعها : الفقه وهو العلم بغرض المخاطب من خطابه يقال فقهت كلامك أى وقفت على غرضك من هذا الخطاب ثم ان كفار قريش لما كانوا أرباب الشبهات والشهوات فما كانوا يقفون على ما فى تكاليف الله تعالى من المنافع العظيمة لا جرم قال تعالى (لا يكادون يفقهون قولا) أى لا يقفون على المقصود الأصلى والغرض الحقيقى . وعاشرها : العقل وهو العلم بصفات الأشياء من حسنها وقبحها وكمالها ونقصانها فانك متى علمت مافيها من المضار والمنافع صار علمك بما فى

الشيء من النفع داعيا لك الى الفعل وعلمك بما فيه من الضرر داعيا لك إلى الترك فصار ذلك العلم مانعامن الفعل مرة ومن الترك أخرى فيجرى ذلك العلم مجرى عقال الناقة . ولهذا لما سئل بعض الصالحين عن العقل ، قال هو العلم بخير الخيرين وشر الشرين ولما سئل عن العاقل قال العاقل من عقل عن الله أمره ونهيه ، فهذا هو القدر اللائق بهذا المكان والاستقصاء فيه يجيء فى موضع آخر إن شاء الله تعالى . الحادى عشر : الدراية وهى المعرفة الحاصلة بضرب من الحيل وهو تقديم المقدمات واستعمال الروية وأصله من دريت الصيد والدرية لما يتعلم عليه الطعن والمدرى يقال لما يصلح به الشعر وهذا لا يصح إطلاقه على الله تعالى لامتناع الفكر والحيل عليه تعالى . الثانى عشر : الحكمة : وهى اسم لكل علم حسن ، وعمل صالح وهو بالعلم العملى أخص منه بالعلم النظرى وفى العمل أكثر استعمالا منه فى العلم ، ومنها يقال أحكم العمل إحكاما إذا أتقنه وحكم بكذا حكما والحكمة من الله تعالى خلق ما فيه منفعة العباد ومصلحتهم فى الحال وفى المآل ومن العباد أيضا كذلك ثم قد حدت الحكمة بألفاظ مختلفة فقيل هى معرفة الأشياء بحقائقها ، وهذا إشارة إلى أن ادراك الجزئيات لا كمال فيه لأنها إداراكات متغيرة . فأما إدراك الماهية ، فانه باق مصون عن التغير والتبدل وقيل هى الاتيان بالفعل الذى عاقبته محمودة وقيل هى الاقتداء بالخالق سبحانه وتعالى فى السياسة بقدر الطاقة البشرية وذلك بأن يجتهد بأن ينزه علمه عن الجهل وفعله عن الجور وجوده عن البخل وحلمه عن السفه . الثالث عشر : علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين قالوا ان اليقين لا يحصل إلا إذا اعتقد أن الشيء كذا وأنه يمتنع كون الأمر بخلاف معتقده إذا كان لذلك الاعتقاد موجب هو اما بديهية الفطرة وإما نظر العقل ، الرابع عشر : الذهن وهو قوة النفس على اكتساب العلوم التى هى غير حاصلة وتحقيق القول فيه أنه سبحانه وتعالى خلق الروح خالياً عن تحقيق الأشياء وعن العلم بها كما قال تعالى (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً) لكنه سبحانه وتعالى إنما خلقها للطاعة على ماقال تعلى (وماخلقت الجن والانس إلا ليعبدون) والطاعة مشروطة بالعلم و قال فى موضع آخر (وأقم الصلاة لذكرى) فبين أنه أمر بالطاعة لغرض العلم والعلم لابد منه على كل حال فلا بد وأن تكون النفس متمكنة من تحصيل هذه المعارف والعلوم فأعطاه الحق سبحانه من الحواس ما أعان على تحصيل هذا الغرض فقال فى السمع (وهديناه النجدين) وقال فى البصر (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم) وقال فى الفكر (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) فاذا تطابقت هذه القوى صار الروح الجاهل عالما وهو معنى قوله تعالى (الرحمن علم القرآن) فالحاصل أن استعداد النفس لتحصيل هذه المعارف هو الذهن . الخامس عشر : الفكر وهو انتقال الروح من التصديقات الحاضرة إلى التصديقات المستحضرة قال بعض المحققين إن الفكر يجرى مجرى التضرع إلى الله تعالى فى استنزال العلوم من عنده . السادس عشر : الحدس ولا

شك أن الفكر لا يتم عمله إلا بوجدان شيء يتوسط بين طرفى المجهول لتصير النسبة المجهولة معلومة فإن النفس حال كونها جاهلة كأنها واقفة فى ظلمة ولا بد لها من قائد يقودها وسائق يسوقها وذلك هو المتوسط بين الطرفين وله إلى كل واحد منهما نسبة خاصة فيتولد من نسبته اليهما مقدمتان فكل مجهول لا يحصل العلم به إلا بواسطة مقدمتين معلومتين والمقدمتان هما كالشاهدين فكما أنه لا بد فى الشرع من شاهدين فكذا لا بد فى العقل من شاهدين وهما المقدمتان اللتان تنتجان المطلوب فاستعداد النفس لوجدان ذلك المتوسط هو الحدس. السابع عشر : الذكاء وهو شدة الحدس وكماله وبلوغه الغاية القصوى وذلك لأن الذكاء هو المضاء فى الأمر وسرعة القطع بالحق وأصله من ذكت النار وذكت الريح وشاة مذكاة أى مدرك ذبحها بحدة السكين. الثامن عشر : الفطنة وهى عبارة عن التنبه لشيء قصد تعريضه ولذلك فانه يستعمل فى الأكثر فى استنباط الأحاجى والرموز. التاسع عشر : الخاطر وهو حركة النفس نحو تحصيل الدليل وفى الحقيقة ذلك المعلوم هو الخاطر بالبال والحاضر فى النفس ولذلك يقال : هذا خطر ببالى إلا أن النفس لما كانت محلا لذلك المعنى الخاطر جعلت خاطرا إطلاقا لاسم الحال على المحل. العشرون : الوهم وهو الاعتقاد المرجوح وقد يقال إنه عبارة عن الحكم بأمور جزئية غير محسوسة لأشخاص جزئية جسمانية كحكم السخلة بصداقة الأم وعداوة المؤذى. الحادى والعشرون : الظن وهو الاعتقاد الراجح ولما كان قبول الاعتقاد للقوة والضعف غير مضبوط فكذا مراتب الظن غير مضبوطة فلهذا قيل انه عبارة عن ترجيح أحد طرفى المعتقد فى القلب على الآخر مع تجويز الطرف الآخر ثم إن الظن المتناهى فى القوة قد يطلق عليه اسم العلم فلا جرم قد يطلق أيضا على العلم اسم الظن كما قال بعض المفسرين فى قوله تعالى (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم) قالوا إنما أطلق لفظ الظن على العلم ههنا لوجهين أحدهما : التنبيه على أن علم أكثر الناس فى الدنيا بالاضافة إلى علمه فى الآخرة كالظن فى جنب العلم. والثانى : أن العلم الحقيقى فى الدنيا لا يكاد يحصل إلا للنبيين والصديقين الذين ذكرهم الله تعالى فى قوله تعالى (الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا) واعلم أن الظن إن كان عن أمارة قوية قبل ومدح وعليه مدار أكثر أحوال هذا العلم. وإن كان عن أمارة ضعيفة ذم كقوله تعالى (إن الظن لا يغنى عن الحق شيئا) وقوله (إن بعض الظن إثم) الثانى والعشرون : الخيال. وهو عبارة من الصورة الباقية عن المحسوس بعد غيبته. ومنه الطيف الوارد من صورة المحبوب خيالا والخيال قد يقال لتلك الصورة فى المنام وفى اليقظة ، والطيف لا يقال إلا فيما كان فى حال النوم. الثالث والعشرون : البديهة وهى المعرفة الحاصلة ابتداء فى النفس لا بسبب الفكر كعلمك بأن الواحد نصف الاثنين. الرابع والعشرون : الأوليات وهى البديهيات بعينها والسبب فى هذه التسمية أن الذهن يلحق محمول القضية بموضوعها أولا لا بتوسط شيء آخر فأما الذى يكون بتوسط شيء آخر. فذاك المتوسط هو المحمول أولا.

قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ .

قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم

الخامس والعشرون : الروية ، وهى ما كان من المعرفة بعد فكر كثير ، وهى من روى ، السادس والعشرون : الكياسة . وهى تمكن النفس من استنباط ما هو أنفع . ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت . من حيث إنه لاخير يصل إليه الانسان أفضل مما بعد الموت . السابع والعشرون : الخبرة ، وهى معرفة يتوصل إليها بطريق التجربة ، يقال خبرته قال أبو الدرداء : وجدت الناس أخبر تقله . وقيل هو من قولهم : ناقة خبرة . أى غزيرة اللبن ، فكان الخبر هو غزارة المعرفة . ويجوز أن يكون قولهم ناقة خبرة : هى المخبر عنها بغزارتها . الثامن والعشرون : الرأى ، وهو إحاطة الخاطر فى المقدمات التى يرجى منها إنتاج المطلوب ، وقد يقال للقضية المستنتجة من الرأى رأى ، والرأى للفكر كالآلة للصانع ، ولهـذا قيل : إياك والرأى الفطير ، وقيل : دع الرأى تصب . التاسع والعشرون : الفراسة وهى الاستدلال بالحق الظاهر على الخلق الباطن ، وقد نبه الله تعالى على صدق هـذا الطريق بقوله تعالى (إن فى ذلك لآيات للمتوسمين) وقوله تعالى (تعرفهم بسيماهم) وقوله تعالى (ولتعرفنهم فى لحن القول) واشتقاقها من قولهم : فرس السبع الشاة ، فكأن الفراسة اختلاس المعارف ، وذلك ضربان : ضرب يحصل للانسان عن خاطره ولا يعرف له سبب ، وذلك ضرب من الالهام بل ضرب من الوحى ، وإياه عنى النبى ﷺ بقوله « إن فى أمتى لمحدثين وإن عمر لمنهم » ويسمى ذلك أيضا النفث فى الروع ، والضرب الثانى من الفراسة ما يكون بصناعة متعلمة وهى الاستدلال بالأشكال الظاهرة على الأخلاق الباطنة وقال أهل المعرفة فى قوله تعالى (أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه) إن البينة هو القسم الأول وهو إشارة إلى صفاء جوهر الروح والشاهد هو القسم الثانى وهو الاستدلال بالأشكال على الأحوال .

﴿ المسألة التاسعة ﴾ قوله تعالى (وعلم آدم الأسماء كلها) وقوله (لا علم لنا إلا ما علمتنا) وقوله (الرحمن علم القرآن) لا يقتضى وصف الله تعالى بأنه معلم لأنه حصل فى هذه اللفظة تعارف على وجه لا يجوز اطلاقه عليه وهو من يحترف بالتعليم والتلقين وكما لا يقال المدرس معلم مطلقا حتى لو أوصى للمتعلمين لا يدخل فيه المدرس فكذا لا يقال لله إنه معلم الا مع التقييد ولولا هذا التعارف لحسن اطلاقه عليه بل كان يجب أن لا يستعمل إلا فيه تعالى لأن المعلم هو الذى يحصل العلم فى غيره ولا قدرة على ذلك لأحد الا الله تعالى

قوله تعالى ﴿ قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم

بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ .

بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ .

اعلم أن الذين اعتقدوا أن الملائكة أتوا بالمعصية فى قولهم (أتجعل فيها من يفسد فيها) قالوا إنهم لما عرفوا خطأهم فى هذا السؤال رجعوا وتابوا واعتذروا عن خطئهم بقولهم (سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا) والذين أنكروا معصيتهم ذكروا فى ذلك وجهين . الأول : أنهم إنما قالوا ذلك على وجه الاعتراف بالعجز والتسليم بأنهم لا يعلمون ما سئلوا عنه وذلك لأنهم قالوا إنا لا نعلم إلا ما علمتنا فاذا لم تعلمنا ذلك فكيف نعلمه ، الثانى : أن الملائكة إنما قالوا (أتجعل فيها) لأن الله تعالى أعلمهم ذلك فكأنهم قالوا إنك أعلمتنا أنهم يفسدون فى الأرض ويسفكون الدماء فقلنا لك أتجعل فيها من يفسد فيها وأما هذه الأسماء فانك ما أعلمتنا كيفيتها فكيف نعلمها . وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ احتج أصحابنا بقوله تعالى (لا علم لنا إلا ما علمتنا) على أن المعارف مخلوقة لله تعالى وقالت المعتزلة المراد أنه لا علم لنا إلا من جهته إما بالتعليم وإما بنصب الدلالة والجواب أن التعليم عبارة عن تحصيل العلم فى الغير كالتسويد فانه عبارة عن تحصيل السواد فى الغير لا يقال التعليم عبارة عن إفادة الأمر الذى يترتب عليه العلم لو حصل الشرط وانتفى المانع ولذلك يقال علمته فما تعلم والأمر الذى يترتب عليه العلم هو وضع الدليل والله تعالى قد فعل ذلك لأنا نقول المؤثر فى وجود العلم ليس هو ذات الدليل بل النظر فى الدليل وذلك النظر فعل العبد فلم يكن حصول ذلك العلم بتعليم الله تعالى وأنه يناقض قوله (لا علم لنا إلا ما علمتنا) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج أهل الاسلام بهذه الآية على أنه لا سبيل إلى معرفة المغيبات إلا بتعليم الله تعالى وأنه لا يمكن التوصل إليها بعلم النجوم والكهانة والعرافة ونظيره قوله تعالى (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) وقوله (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول) وللمنجم أن يقول للمعتزلى إذا فسرت التعليم بوضع الدلائل فعندى حركات النجوم دلائل خلقها الله تعالى على أحوال هذا العالم فاذا استدللت بها على هذه كان ذلك أيضا بتعليم الله تعالى ، ويمكن أن يقال أيضا إن الملائكة لما عجزوا عن معرفة الغيب فلأن يعجز عنه أحدنا كان أولى

﴿ المسألة الثالثة ﴾ العليم من صفات المبالغة التامة فى العلم ، والمبالغة التامة لا تتحقق إلا عند الاحاطة بكل المعلومات ، وما ذاك إلا هو سبحانه وتعالى ، فلا جرم ليس العليم المطلق إلا هو ، فلذلك قال إنك أنت العليم الحكيم) على سبيل الحصر .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الحكيم يستعمل على وجهين . أحدهما : بمعنى العليم فيكون ذلك من صفات الذات ؛ وعلى هذا التفسير نقول : إنه تعالى حكيم فى الأزل . الآخر : أنه الذى يكون فاعلا لما لا اعتراض لأحد عليه . فيكون ذلك من صفات الفعل ، فلا نقول إنه حكيم فى الأزل والأقرب ههنا أن يكون المراد هو المعنى الثانى وإلا لزم التكرار ، فكأن الملائكة قالت : أنت العالم بكل المعلومات فأمكنك تعليم آدم ، وأنت الحكيم فى هذا الفعل المصيب فيه . وعن ابن عباس : أن مراد الملائكة من الحكيم ، أنه هو الذى حكم بجعل آدم خليفة فى الأرض .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ أن الله تعالى لما أمر آدم عليه السلام بأن يخبرهم عن أسماء الأشياء وهو عليه الصلاة والسلام أخبرهم بها فلما أخبرهم بها قال سبحانه وتعالى لهم عند ذلك (ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض) والمراد من هذا الغيب أنه تعالى كان عالما بأحوال آدم عليه السلام قبل أن يخلقه وهذا يدل على أنه سبحانه وتعالى يعلم الأشياء قبل حدوثها ، وذلك يدل على بطلان مذهب هشام ابن الحكم فى أنه لا يعلم الأشياء إلا عند وقوعها ، فان قيل الايمان هو العلم ، فقوله تعالى (يؤمنون بالغيب) يدل على أن العبد يعلم الغيب فكيف قال ههنا (إنى أعلم غيب السموات والأرض) والاشعار بأن علم الغيب ليس إلا لى وأن كل من سواى فهم خالون عن علم الغيب وجوابه ما تقدم فى قوله (الذين يؤمنون بالغيب) أما قوله (وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) ففيه وجوه . أحدها ماروى الشعبى عن ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهم أن قوله (وأعلم ما تبدون) أراد به قولهم (أتجعل فيها من يفسد فيها) وقوله (وما كنتم تكتمون) أراد به ماأسر إبليس فى نفسه من الكبر وأن لا يسجد وثانيها :) إنى أعلم مالا تعلمون) من الأمور الغائبة والأسرار الخفية التى يظن فى الظاهر أنه لا مصلحة فيها ولكنى لعلمى بالأسرار المغيبة أعلم أن المصلحة فى خلقها . وثالثها : أنه تعالى لما خلق آدم رأت الملائكة خلقاً عجيباً فقالوا ليكن ماشاء فلن يخلق ربنا خلقاً إلا كنا أكرم عليه منه فهذا الذى كتموا ويجوز أن يكون هذا القول سراً أسروه بينهم فأبداه بعضهم لبعض وأسروه عن غيرهم فكان فى هذا الفعل الواحد إبداء وكتمان . ورابعها : وهو قول الحكماء أن الأقسام خمسة لأن الشىء إما أن يكون خيرا محضا أو شرا محضا أو ممتزجا وعلى تقدير الامتزاج فاما أن يعتدل الأمران أو يكون الخير غالباً أو يكون الشر غالبا أما الخير المحض فالحكمة تقتضى ايجاده وأما الذى يكون فيه الخير غالبا فالحكمة تقتضى إيجاده لأن ترك الخير الكثير لأجل الشر القليل شر كثير فالملائكة ذكروا الفساد والقتل وهو شر قليل بالنسبة إلى ما يحصل منهم من الخيرات فقوله (إنى أعلم غيب السموات والأرض) فأعرف أن خيرهم غالب على هذه الشرور فاقتضت الحكمة إيجادهم وتكوينهم .

﴿ المسألة السادسة ﴾ اعلم أن فى هذه الآية خوفا عظيما وفرحا عظيما أما الخوف فلأنه تعالى لا يخفى عليه شىء من أحوال الضمائر فيجب أن يجتهد المرء فى تصفية باطنه وأن لا يكون

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ

بحيث يترك المعصية لا طلاع الخلائق عليها ولا يتركها عند اطلاع الخالق عليها والأخبار مؤكدة لذلك . أحدها : روى عدى بن حاتم أنه عليه الصلاة والسلام قال « يؤتى بناس يوم القيامة فيؤمر بهم إلى الجنة حتى إذا دنوا منها ووجدوا رائحتها ونظروا إلى قصورها وإلى ما أعد الله لأهلها نودوا أن اصرفوهم عنها لا نصيب لهم فيها فيرجعون عنها بحسرة ما رجع أحد بمثلها ويقولون ياربنا لو ادخلتنا النار قبل أن ترينا ما أريتنا من ثوابك وما أعددت فيها لأوليائك كان أهون علينا : فنودوا ذاك أردت لكم كنتم إذا خلوتم بارزتمونى بالعظائم وإذا لقيتم الناس لقيتموهم بالمحبة مخبتين تراءون الناس بخلاف ماتضمرون عليه فى قلوبكم هبتم الناس ولم تهابونى أجللتم الناس ولم تجلونى تركتم المعاصى للناس ولم تتركوها لأجلى كنت أهون الناظرين عليكم فاليوم أذيقكم أليم عذابى مع ماحرمتكم من النعيم » وثانيها ، قال سليمان بن على لحميد الطويل : عظنى فقال إن كنت إذا عصيت الله خاليا ظننت أنه يراك فلقد اجترأت على أمر عظيم ، وإن كنت ظننت أنه لا يراك فلقد كفرت . وثالثها : قال حاتم الأصم : طهر نفسك فى ثلاثة أحوال : اذا كنت عاملا بالجوارح فاذكر نظر الله إليك . واذا كنت قائلا فاذكر سمع الله إليك ، وإذا كنت ساكتا عاملا بالضمير فاذكر علم الله بك إذ هو يقول (إننى معكما أسمع وأرى) . ورابعها : اعلم أنه لا اطلاع لأحد على أسرار حكمة الله تعالى ، فالملائكة وقع نظرهم على الفساد والقتل فاستحقروا البشر . ووقع نظرهم على طاعة ابليس فاستعظموه . أما علام الغيوب فانه كان عالما بأنهم وإن أتوا بالفساد والقتل لكنهم سيأتون بعده بقولهم (ربنا ظلمنا أنفسنا) وأن إبليس وإن أتى بالطاعات لكنه سيأتى بعدها بقوله (أنا خير منه ، ومن شأن العقل أن لا يعتمد على ما يراه وأن يكون أبدا فى الخوف والوجل ، فقوله تعالى (إنى أعلم غيب السموات) معناه أنا الذى أعرف الظاهر والباطن والواقع والمتوقع وأعلم أن ما ترونه عابدا مطيعا سيكفر ويبعد عن حضرتى ، ومن ترونه فاسقا بعيدا سيقرب من خدمتى ، فالخلق لا يمكنهم أن يخرجوا عن حجاب الجهل ولا يتيسر لهم أن يخرقوا أستار العجز فانهم لا يحيطون بشىء من علمه . ثم إنه سبحانه حقق من علم الغيب وعجز الملائكة أن أظهر من البشر كمال العبودية ومن أشد ساكنى السموات عبادة كمال الكفر لئلا يغتر أحد بعمله ويفوضوا معرفة الأشياء إلى حكمة الخالق ويزيلوا الاعتراض بالقلب واللسان عن مصنوعاته ومبدعاته

قوله تعالى ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾

اعلم أن هـذا هو النعمة الرابعة من النعم العامة على جميع البشر وهو أنه سبحانه وتعالى جعل أبانا مسجود الملائكة وذلك لأنه تعالى ذكر تخصيص آدم بالخلافة أولا ثم تخصيصه بالعلم الكثير ثانيا ثم بلوغه فى العلم الى أن صارت الملائكة عاجزين عن بلوغ درجته فى العلم وذكر الآن كونه مسجوداً للملائكة ، وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الأمر بالسجود حصل قبل أن يسوى الله تعالى خلقة آدم عليه السلام بدليل قوله (إنى خالق بشراً من طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين) وظاهر هذه الآية يدل على أنه عليه السلام لما صار حياً صار مسجود الملائكة لأن الفاء فى قوله (فقعوا) للتعقيب وعلى هذا التقدير يكون تعليم الأسماء ومناظرته مع الملائكة فى ذلك حصل بعد أن صار مسجود الملائكة

﴿ المسألة الثانية ﴾ أجمع المسلمون على أن ذلك السجود ليس سجود عبادة لأن سجود العبادة لغير الله كفر والأمر لا يرد بالكفر ثم اختلفوا بعد ذلك على ثلاثة اقوال . الأول : أن ذلك السجود كان لله تعالى وآدم عليه السلام كان كالقبلة ومن الناس من طعن فى هذا القول من وجهين . الأول : أنه لا يقال صليت للقبلة بل يقال صليت إلى القبلة فلو كان آدم عليه السلام قبلة لذلك السجود لوجب أن يقال اسجدوا الى آدم فلما لم يرد الأمر هكذا بل قيل اسجدوا لآدم علمنا أن آدم عليه السلام لم يكن قبلة . الثانى : أن إبليس قال أرأيتك هذا الذى كرمت على أى أن كونه مسجودا يدل على أنه أعظم حالا من الساجد ولو كان قبلة لما حصلت هذه الدرجة بدليل أن محمداً عليه الصلاة والسلام كان يصلى إلى الكعبة ولم يلزم أن تكون الكعبة أفضل من محمد ﷺ . والجواب عن الأول أنه كما لا يجوز أن يقال صليت إلى القبلة جاز أن يقال صليت للقبلة والدليل عليه القرآن والشعر ، أما القرآن فقوله تعالى (أقم الصلاة لدلوك الشمس) والصلاة لله لا للدلوك . فاذا جاز ذلك فلم لا يجوز أن يقال صليت للقبلة مع أن الصلاة تكون لله تعالى لا للقبلة ، وأما الشعر فقول حسان :

ما كنت أعرف أن الأمر منصرف عن هاشم ثم منها عن أبى حسن

أليس أول من صلى لقبلتكم وأعرف الناس بالقرآن والسنن

فقوله صلى لقبلتكم نص على المقصود . والجواب عن الثانى أن ابليس شكا تكريمه وذلك التكريم لانسلم أنه حصل بمجرد تلك المسجودية بل لعله حصل بذلك مع أمور أخر فهذا ما فى القول الأول أما القول الثانى فهو أن السجدة كانت لآدم عليه السلام تعظيما له وتحية له كالسلام منهم عليه ، وقد كانت الأمم السالفة تفعل ذلك كما يحيى المسلمون بعضهم بعضا بالسلام وقال قتادة فى قوله (وخروا له سجدا) كانت تحية الناس يومئذ سجود بعضهم لبعض . وعن صهيب أن معاذا لما قدم من اليمن سجد للنبى ﷺ فقال يامعاذ ما هذا قال إن اليهود تسجد لعظمائها

وعلماءها ورأيت النصارى تسجد لقسسها وبطارقتها قلت ما هذا قالوا تحية الأنبياء فقال عليه السلام كذبوا على أنبيائهم (١) وعن الثورى عن سماك بن هانى قال دخل الجاثليق على على بن أبى طالب فاراد أن يسجد له فقال له على اسجد لله ولا تسجد لى . وقال عليه الصلاة والسلام لو أمرت أحداً أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها . القول الثالث أن السجود فى أصل اللغة هو الانقياد والخضوع قال الشاعر : (ترى الأكم فيها سجدا للحوافر)

أى تلك الجبال الصغار كانت مذللة لحوافر الخيل ومنه قوله تعالى (والنجم والشجر يسجدان) واعلم أن القول الأول ضعيف لأن المقصود من هذه القصة شرح تعظيم آدم عليه السلام ، وجعله مجرد القبلة لا يفيد تعظيم حاله وأما القول الثالث فضعيف أيضا لأن السجود لا شك أنه فى عرف الشرع عبارة عن وضع الجبهة على الأرض فوجب أن يكون فى أصل اللغة كذلك لأن الأصل عدم التغيير فان قيل السجود عبادة والعبادة لغير الله لا تجوز قلنا لا نسلم أنه عبادة ، بيانه أن الفعل قد يصير بالمواضعة مفيداً كالقول يبين ذلك أن قيام أحدنا للغير يفيد من الأعظام مايفيده القول وماذاك إلا للعادة وإذا ثبت ذلك لم يمتنع أن يكون فى بعض الأوقات سقوط الانسان على الأرض وإلصاقه الجبين بها مفيدا ضربا من التعظيم وإن لم يكن ذلك عبادة وإذا كان كذلك لم يمتنع أن يتعبد الله الملائكة بذلك إظهاراً لرفعته وكرامته

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلفوا فى أن إبليس هل كان من الملائكة ؟ قال بعض المتكلمين ولا سيما المعتزلة إنه لم يكن منهم وقال كثير من الفقهاء إنه كان منهم واحتج الأولون بوجوه . أحدها : أنه كان من الجن فوجب أن لا يكون من الملائكة وإنما قلنا إنه كان من الجن لقوله تعالى فى سورة الكهف (إلا ابليس كان من الجن) واعلم أن من الناس من ظن أنه لما ثبت أنه كان من الجن وجب أن لا يكون من الملائكة لأن الجن جنس مخالف للملك وهذا ضعيف لأن الجن مأخوذ من الاجتنان وهو الستر ولهذا سمى الجنين جنيناً لاجتنانه ومنه الجنة لكونها ساترة والجنة لكونها مستترة بالأغصان ومنه الجنون لاستتار العقل فيه ، ولما ثبت هذا والملائكة مستورون عن العيون وجب اطلاق لفظ الجن عليهم بحسب اللغة فثبت أن هذا القدر لا يفيد المقصود فنقول لما ثبت أن إبليس كان من الجن وجب أن لا يكون من الملائكة لقوله تعالى (ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن) وهذه الآية صريحة فى الفرق بين الجن والملك . فان قيل لا نسلم أنه كان من الجن أما قوله تعالى (كان من الجن) فلم لا يجوز أن يكون المراد كان من الجنة على ما روى عن ابن مسعود أنه قال كان من الجن أى كان خازن الجنة ؟ سلمنا ذلك لكن لم لا يجوز أن يكون قوله من الجن أى صار من الجن كما أن قوله وكان من الكافرين أى صار من الكافرين سلمنا أن ما ذكرت

(١) ثبت أن معاذ رضى الله عنه حين بعثه النبى إلى اليمن لم يرجع منها إلا بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم .

يدل على أنه من الجن فلم قلت إن كونه من الجن ينافى كونه من الملائكة وماذكرتم من الآية معارض بآية أخرى وهى قوله تعالى (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً) وذلك لأن قريشاً قالت : الملائكة بنات الله فهذه الآية تدل على أن الملك يسمى جنا ؟ والجواب : لايجوز أن يكون المراد من قوله (كان من الجن) أنه كان خازن الجنة لأن قوله إلا ابليس كان من الجن يشعر بتعليل تركه للسجود لكونه جنياً ولا يمكن تعليل ترك السجود بكونه خازنا للجنة فيبطل ذلك قوله كان من الجن أى صار من الجن . قلنا هذا خلاف الظاهر فلا يصار إليه إلا عند الضرورة وأما قوله تعالى (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً) قلنا يحتمل أن بعض الكفار أثبت ذلك النسب فى الجن كما أثبته فى الملائكة وأيضا فقد بينا أن الملك يسمى جنا بحسب أصل اللغة لكن لفظ الجن بحسب العرف اختص بغيرهم كما أن لفظ الدابة وإن كان بحسب اللغة الأصلية يتناول كل مايدب لكنه بحسب العرف اختص ببعض ما يدب فتحمل هذه الآية على اللغة الأصلية ، والآية التى ذكرناها على العرف الحادث . وثانيها : أن ابليس له ذرية والملائكة لا ذرية لهم ، إنما قلنا إن ابليس له ذرية لقوله تعالى فى صفته (أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى) وهذا صريح فى إثبات الذرية له ، وإنما قلنا إن الملائكة لا ذرية لهم لأن الذرية إنما تحصل من الذكر والأنثى والملائكة لا أنثى فيهم لقوله تعالى (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم) أنكر على من حكم عليهم بالأنوثة فاذا انتفت الأنوثة انتفى التوالد لا محالة فانتفت الذرية ، وثالثها : أن الملائكة معصومون على ما تقدم بيانه وإبليس لم يكن كذلك فوجب أن لا يكون من الملائكة . ورابعها : أن ابليس مخلوق من النار والملائكة ليسوا كذلك إنما قلنا أن ابليس مخلوق من النار لقوله تعالى حكاية عن ابليس (خلقتنى من نار) وأيضا فلأنه كان من الجن لقوله تعالى (كان من الجن) والجن مخلوقون من النار لقوله تعالى (والجان خلقناه من قبل من نار السموم) وقال (خلق الانسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار) وأما أن الملائكة ليسوا مخلوقين من النار بل من النور ، فلما روى الزهرى عن عروة عن عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار ، ولأن من المشهور الذى لايدفع أن الملائكة روحانيون ، وقيل إنما سموا بذلك ، لأنهم خلقوا من الريح أو الروح . وخامسها : أن الملائكة رسل لقوله تعالى (جاعل الملائكة رسلا) ورسل الله معصومون ، لقوله تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته) فلما لم يكن ابليس كذلك وجب أن لا يكون من الملائكة واحتج القائلون بكونه من الملائكة بأمرين : الأول : أن الله تعالى استثناه من الملائكة والاستثناء يفيد إخراج ما لولاه لدخل أو لصح دخوله ، وذلك يوجب كونه من الملائكة لا يقال . الاستثناء المنقطع مشهور فى كلام العرب ، قال تعالى (وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى) وقال تعالى (لا يسمعون فيها

لغواً ولا تأثيما إلا قيلا سلاماً سلاماً) وقال تعالى (لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض) وقال تعالى (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ) وأيضا فلأنه كان جنياً واحداً بين الألوف من الملائكة ، فغلبوا عليه فى قوله (فسجدوا) ثم استثنى هو منهم استثناء واحد منهم ، لأنا نقول : كل واحد من هذين الوجهين على خلاف الأصل ، فذلك إنما يصار اليه عند الضرورة ، والدلائل التى ذكرتموها فى نفى كونه من الملائكة ، ليس فيها إلا الاعتماد على العمومات ، فلو جعلناه من الملائكة لزم تخصيص ما عولتم عليه من العمومات ، ولو قلنا إنه ليس من الملائكة ، لزمنا حمل الاستثناء على الاستثناء المنقطع ، ومعلوم أن تخصيص العمومات أكثر فى كتاب الله تعالى من حمل الاستثناء على الاستثناء المنقطع فكان قولنا أولى . وأيضا فالاستثناء مشتق من الثنى والصرف ومعنى الصرف إنما يتحقق حيث لولا الصرف لدخل والشىء لا يدخل فى غير جنسه فيمتنع تحقق معنى الاستثناء فيه ، وأما قوله إنه جنى واحد بين الملائكة فنقول إنما يجوز إجراء حكم الكثير على القليل إذا كان ذلك القليل ساقط العبرة غير ملتفت إليه وأما إذا كان معظم الحديث لا يكون إلا عن ذلك الواحد لم يجز اجراء حكم غيره عليه (الحجة الثانية) قالوا لو لم يكن ابليس من الملائكة لما كان قوله (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) متناولا له ، ولو لم يكن متناولا له لا ستحال أن يكون تركه للسجود إباء واستكبارا ومعصية ولما استحق الذم والعقاب ، وحيث حصلت هذه الأمور علمنا أن ذلك الخطاب يتناوله ولا يتناوله ذلك الخطاب إلا إذا كان من الملائكة ، لا يقال إنه وإن لم يكن من الملائكة إلا أنه نشأ معهم وطالت مخالطته بهم والتصق بهم ، فلا جرم يتناوله ذلك الخطاب وأيضا فلم لا يجوز أن يقال : إنه وإن لم يدخل فى هذا الأمر ، ولكن الله تعالى أمره بالسجود بلفظ آخر ما حكاه فى القرآن بدليل قوله (مامنعك أن لا تسجد إذ أمرتك) لأنا نقول : أما الأول فجوابه أن المخالطة لا توجب ما ذكرتموه ، ولهذا قلنا فى أصول الفقه إن خطاب الذكور لا يتناول الاناث وبالعكس مع شدة المخالطة بين الصنفين ، وأيضا فشدة المخالطة بين الملائكة وبين ابليس لما لم تمنع اقتصار اللعن على ابليس فكيف تمنع اقتصار ذلك التكليف على الملائكة ، وأما الثانى فجوابه أن ترتيب الحكم على الوصف مشعر بالعلية . فلما ذكر قوله أبى واستكبر عقيب قوله (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) أشعر هذا التعقيب بأن هذا الاباء إنما حصل بسبب مخالفة هذا الأمر لا بسبب مخالفة أمر آخر فهذا ما عندى فى الجانبين والله أعلم بحقائق الأمور

﴿ المسألة الرابعة ﴾ اعلم أن جماعة من أصحابنا يحتجون بأمر الله تعالى للملائكة بسجود آدم عليه السلام على أن آدم أفضل من الملائكة فرأينا أن نذكر ههنا هذه المسألة فنقول : قال أكثر أهل السنة : الأنبياء أفضل من الملائكة وقالت المعتزلة بل الملائكة أفضل من الأنبياء وهو قول جمهور الشيعة ، وهذا القول اختيار القاضى أبى بكر الباقلانى من المتكلمين منا وأبى عبد الله الحليمى من

فقهائنا ونحن نذكر محصل الكلام من الجانبين : أما القائلون بأن الملائكة أفضل من البشر فقد احتجوا بأمور . أحدها : قوله تعالى (ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته) إلى قوله (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) والاستدلال بهذه الآية من وجهين . الأول : أنه ليس المراد من هذه العندية عندية المكان والجهة فان ذلك محال على الله تعالى بل عندية القرب والشرف ولما كانت هذه الآية واردة فى صفة الملائكة علمنا أن هذا النوع من القربة والشرف حاصل لهم لا لغيرهم ولقائل أن يقول إنه تعالى أثبت هذه العندية فى الآخرة لآحاد المؤمنين وهو قوله (فى مقعد صدق عند مليك مقتدر) وأما فى الدنيا فقال عليه الصلاة والسلام حاكياً عنه سبحانه « أنا عند المنكسرة قلوبهم لأجلى » وهذا أكثر إشعارا بالتعظيم لأن هذا الحديث يدل على أنه سبحانه عند هؤلاء المنكسرة قلوبهم وما احتجوا به من الآية يدل على أن الملائكة عند الله تعالى ، ولا شك أن كون الله تعالى عند العبد أدخل فى التعظيم ، من كون العبد عند الله تعالى . الوجه الثانى : فى الاستدلال بالآية ، أن الله تعالى احتج بعدم استكبارهم على أن غيرهم وجب أن لا يستكبروا ولوكان البشر أفضل منهم لما تمهذا الاحتجاج ، فان السلطان إذا أراد أن يقرر على رعيته وجوب طاعتهم له يقول : الملوك لايستكبرون عن طاعتى ، فمن هؤلاء المساكين حتى يتمردوا عن طاعتى ! وبالجملة فمعلوم أن هذا الاستدلال لايتم إلا بالأقوى على الأضعف . ولقائل أن يقول : لا نزاع فى أن الملائكة أشد قوة وقدرة من البشر ، ويكفى فى صحة الاستدلال هذا القدر من التفاوت ، فانه تعالى يقول إن الملائكة مع شدة قوتهم واستيلائهم على أجرام السموات والأرض وأمنهم من الهرم والمرض وطول أعمارهم ، لا يتركون العبودية لحظةواحدة ، والبشر مع نهاية ضعفهم ووقوعهم فى أسرع الأحوال فى المرض والهرم وأنواع الآفات ، أولى أن لا يتمردوا فهذا القدر من التفاوت كاف فى صحة هذا الاستدلال ، ولا نزاع فى حصول التفاوت فى هذه المعنى ، إنما النزاع فى الأفضلية بمعنى كثرة الثواب ، فلم قلتم إن هذا الاستدلال لا يصح إلا إذاكان الملك أكثر ثواباً من البشر ، ولا بد فيه من دليل ؟ مع أن المتبادر إلى الفهم هو الذى ذكرناه . وثانيها : أنهم قالوا عبادات الملائكة أشق من عبادات البشر ، فتكون أكثر ثوابا من عبادات البشر ، وإنما قلنا إنها أشق لوجوه . أحدها : أن ميلهم إلى التمرد أشد فتكون طاعتهم أشق ، وإنما قلناإن ميلهم إلى التمرد أشد ، لأن العبد السليم من الآفات ، المستغنى عن طلب الحاجات ، يكون أميل الى النعم والالتذاذ من المغمور فى الحاجات ، فانه يكون كالمضطرب فى الرجوع إلى عبادة مولاه والالتجاء إليه ، ولهذا قال تعالى (فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) ومعلوم أن الملائكة سكان السموات وهى جنات وبساتين ومواضع التنزه والراحة وهم آمنون من المرض والفقر ثم إنهم مع استكمال أسباب التنعم لهم أبداً مذخلقوا مشتغلون بالعبادة خاشعون وجلون مشفقون كأنهم مسجونون لايلتفتون إلى نعيم الجنان

واللذات بل هم مقبلون على الطاعات الشاقة موصوفون بالخوف الشديد والفزع العظيم وكأنه لا يقدر أحد من بنى آدم أن يبقى كذلك يوما واحدا فضلا عن تلك الأعصار المتطاولة ويؤكده قصة آدم عليه السلام ، فانه أطلق له فى جميع مواضع الجنة بقوله (وكلا منها رغداً حيث شئتما) ثم منع من شجرة واحدة فلم يملك نفسه حتى وقع فى الشر ، وذلك يدل على أن طاعتهم أشق من طاعات البشر ، وثانيها : أن انتقال المكلف من نوع عبادة إلى نوع آخر كالانتقال من بستان إلى بستان ، أما الاقامة على نوع واحد فانها تورث المشقة والملالة ولهذا السبب جعلت التصانيف مقسومة بالأبواب والفصول ، وجعل كتاب الله مقسوما بالسور والأحزاب والأعشار والأخماس ، ثم إن الملائكة كل واحد منهم مواظب على عمل واحد لا يعدل عنه إلى غيره على ما قال سبحانه (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) وقال (وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون) وإذا كان كذلك كانت عبادتهم فى نهاية المشقة ، اذا ثبت ذلك وجب أن تكون عباداتهم أفضل لقوله عليه الصلاة والسلام « أفضل الأعمال أحمزها » أى أشقها ، وقوله لعائشة رضى الله عنها « إنما أجرك على قدر نصبك » والقياس أيضا يقتضى ذلك ، فان العبد كلما كان تحمله المشاق لأجل رضا مولاه أكثر كان أحق بالتعظيم والتقديم . ولقائل أن يقول على الوجهين : هب أن مشقتهم أكثر فلم قلتم يجب أن يكون ثوابهم أكثر ؟ وذلك لأنا نرى بعض الصوفية فى زماننا هذا يتحملون فى طريق المجاهدة من المشاق والمتاعب ما يقطع بأن النبى ﷺ ما كان يتحمل بعض ذلك ثم إنا نقطع بأن النبى ﷺ أفضل منه ومن أمثاله ، بل يحكى عن عباد الهند وزهادهم ورهبانهم أنهم يتحملون من المتاعب فى التواضع لله تعالى ما لم يحك مثله عن أحد من الأنبياء والأولياء مع أنا نقطع بكفرهم ، فعلمنا أن كثرة المشقة فى العبادة لا تقتضى زيادة الثواب . وتحقيقه هو أن كثرة الثواب لا تحصل إلا بناء على الدواعى والقصود . فلعل الفعل الواحد يأتى به مكلفان على السواء فيما يتعلق بالأفعال الظاهرة ويستحق أحدهما به ثوابا عظيما والآخر لا يستحق به إلا ثواباً قليلا ، لما أن إخلاص أحدهما أشد وأكثر من إخلاص الثانى ، فاذن كثرة العبادات ومشقتها لا تقتضى التفاوت فى الفضل ثم نقول : لا نسلم أن عبادات الملائكة أشق . أما قوله فى الوجه الأول : السموات كالبساتين النزهة قلنا مسلم ولكن لم قلتم بأن الاتيان بالعبادة فى المواضع الطيبة أشق من الاتيان بها فى المواضع الرديئة ؟ أكثر ما فى الباب أن يقال : إنه قد يهيأ له أسباب التنعم فامتناعه عنها مع تهيئها له أشق ، ولكنه معارض بما أن أسباب البلاء مجتمعة على البشر ثم إنهم مع اجتماعها عليهم يرضون بقضاء الله ولا تغيرهم تلك المحن والآفات عن الخشوع له والمواظبة على عبوديته ، وذلك أدخل فى العبودية وذلك أن الخدم والعبيد تطيب قلوبهم بالخدمة حال ما يجدون من النعم والرفاهية ولا يصبر أحد منهم حال المشقة على الخدمة إلا من كان فى نهاية الاخلاص فما ذكروه بالعكس أولى ، أما قوله : والمواظبة على نوع واحد من العبادة شاق ، قلنا هذا معارض بوجه آخر

وهو أنهم لما اعتادوا نوعا واحدا من العبادة صاروا كالمجبورين على الشيء الذي لا يقدرون على خلافه على ما قيل : العادة طبيعة خامسة ، فيكون ذلك النوع في نهاية السهولة عليهم ، ولذلك فان النبي ﷺ نهى عن الوصال في الصوم وقال « أفضل الصوم صوم داود عليه السلام » وهو أن يصوم يوما ويفطر يوما . وثالثها : قالوا عبادات الملائكة أدوم فكانت أفضل بيان أنها أدوم قوله سبحانه وتعالى (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) وعلى هذا لو كانت أعمارهم مساوية لأعمار البشر لكانت طاعاتهم أدوم وأكثر فكيف ولا نسبة لعمر كل البشر إلى عمر الملائكة على ما تقدم بيانه في باب صفات الملائكة وعلى هذه الآية سؤال : روى في شعب الايمان عن عبدالله بن الحارث بن نوفل قال : قلت لكعب أرأيت قول الله تعالى (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) ثم قال (جاعل الملائكة رسلا) أفلا تكون الرسالة مانعة لهم عن هذا التسبيح ؟ وأيضا قال (أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) فكيف يكونون مشتغلين باللعن حال اشتغالهم بالتسبيح ؟ أجاب كعب الأخبار فقال : التسبيح لهم كالتنفس لنا فكما أن اشتغالنا بالتنفس لا يمنعنا من الكلام فكذلك اشتغالهم بالتسبيح لا يمنعهم من سائر الأعمال . وأقول : لقائل أن يقول الاشتغال بالتنفس إنما لم يمنع من الكلام لأن آلة التنفس غير آلة الكلام أما اللعن والتسبيح فهما من جنس الكلام فاجتماعهما في الآية الواحدة محال . والجواب الأول ؛ أي استبعاد في أن يخلق الله تعالى لهم ألسنة كثيرة يسبحون الله تعالى ببعضها ويلعنون أعداء الله تعالى بالبعض الآخر . والجواب الثاني : اللعن هو الطرد والتبعيد ، والتسبيح هو الخوض في ثناء الله تعالى ولا شك أن ثناء الله يستلزم تبعيد من اعتقد في الله مالا ينبغي فكان ذلك اللعن من لوازمه . والجواب الثالث ؛ قوله (لا يفترون) معناه أنهم لا يفترون عن العزم على أدائه في أوقاته اللائقة به كما يقال إن فلانا مواظب على الجماعات لا يفتر عنها لا يراد به أنه أبداً مشتغل بها بل يراد به أنه مواظب على العزم أبدا على أدائها في أوقاتها وإذا ثبت أن عباداتهم أدوم وجب أن تكون أفضل . أما أولا فلأن الأدوم أشق فيكون أفضل على ما سبق تقريره في الحجة الثانية . وأما ثانيا : فلقوله عليه السلام أفضل العباد من طال عمره وحسن عمله والملائكة صلوات الله عليهم أطول العباد أعمارا وأحسنهم أعمالا فوجب أن يكونوا أفضل العباد ولأنه عليه السلام قال « الشيخ في قومه كالنبي في أمته » وهذا يقتضي أن يكونوا في البشر كالنبي في الأمة وذلك يوجب فضلهم على البشر . ولقائل أن يقول إن نوحا عليه السلام وكذا لقمان وكذا الخضر كانوا أطول عمرا من محمد ﷺ فوجب أن يكونوا أفضل من محمد ﷺ وذلك باطل بالاتفاق فبطل ما قالوه وقد نجد في الأمة من هو أطول عمراً وأشد اجتهاداً من النبي صلى الله عليه وسلم وهو منه أبعد في الدرجة من العرش إلى ما تحت الثرى . والتحقيق فيه ما بينا أن كثرة الثواب إنما تحصل لأمر يرجع إلى الدواعي والقصود فيجوز أن تكون الطاعة القليلة تقع من الانسان على وجه يستحق بها ثوابا كثيرا والطاعات الكثيرة تقع على وجه لا يستحق بها

إلا ثوابا قليلا . ورابعها : أنهم أسبق السابقين فى كل العبادات ، لا خصلة من خصال الدين إلا وهم أئمة مقدمون فيها بل هم المنشئون العامرون لطرق الدين والسبق فى العبادة جهة تفضيل وتعظيم . أما أولا فبالاجماع . وأما ثانيا فلقوله تعالى (والسابقون السابقون أولئك المقربون) وأما ثالثا فلقوله عليه السلام « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة فهذا يقتضى أن يكون قد حصل الملائكة من الثواب كل ما حصل للأنبياء مع زيادة الثواب التى استحقوها بأفعالهم التى أتوا بها قبل خلق البشر . ولقائل أن يقول ؛ فهذا يقتضى أن يكون آدم عليه السلام أفضل من محمد ﷺ لأنه أول من سن عبادة الله تعالى من البشر وأول من سن دعوة الكفار إلى الله تعالى ولما كان ذلك باطلا بالاجماع بطل ما ذكروه والتحقيق فيه ما قدمناه أن كثرة الثواب تكون بأمر يرجع إلى النية فيجوز أن تكون نية المتأخر أصفى فيستحق من الثواب أكثر ما يستحقه المتقدم ، وخامسها : أن الملائكة رسل الأنبياء والرسول أفضل من الأمة فالملائكة افضل من الأنبياء . أما أن الملائكة رسل إلى الأنبياء فلقوله تعالى (علمه شديد القوى وقوله (نزل به الروح الأمين على قلبك) وأما أن الرسول أفضل من الأمة فبالقياس على أن الأنبياء من البشر أفضل من أممهم فكذا ههنا . فان قيل : العرف أن السلطان إذا أرسل واحداً إلى جمع عظيم ليكون حاكما فيهم ومتولياً لأمورهم فذلك الرسول يكون أشرف من ذلك الجمع ، أما إذا أرسل واحداً إلى واحد فقد لا يكون الرسول أشرف من المرسل إليه كما إذا أرسل واحدا من عبيده إلى وزيره فى مهم فانه لا يلزم أن يكون ذلك العبد أشرف من الوزير . قلنا ، لكن جبريل عليه السلام مبعوث إلى كافة الأنبياء والرسل من البشر فلزم على هذا القانون الذى ذكره السائل أن يكون جبريل عليه السلام أفضل منهم . واعلم أن هذه الحجة يمكن تقريرها على وجه آخر وهو أن الملائكة رسل لقوله تعالى (جاعل الملائكة رسلا) ثم لا يخلوا الحال من أحد أمرين إما أن يكون الملك رسولا إلى ملك آخر أو إلى واحد من الأنبياء الذين هم من البشر وعلى التقديرين فالملك رسول وأمته رسل وأما الرسول البشرى فهو رسول لكن أمته ليسوا برسل والرسول الذى كل أمته رسل أفضل من الرسول الذى لا يكون كذلك فثبت فضل الملك على البشر من هذه الجهة ولأن ابراهيم عليه السلام كان رسولا إلى لوط عليه السلام فكان أفضل منه وموسى عليه السلام كان رسولا إلى الأنبياء الذين كانوا فى عسكره وكان أفضل منهم فكذا ههنا . ولقائل أن يقول الملك إذا أرسل رسولا إلى بعض النواحى قد يكون ذلك لأنه جعل ذلك الرسول حاكما عليهم ومتولياً لأمورهم ومتصرفاً فى أحوالهم وقد لا يكون لأنه يبعثه إليهم ليخبرهم عن بعض الأمور مع أنه لا يجعله حاكما عليهم ومتولياً لأمورهم فالرسول فى القسم الأول يجب أن يكون أفضل من المرسل اليه أما فى القسم الثانى فظاهر أنه لا يجب ان يكون أفضل من المرسل اليه فالأنبياء المبعوثون إلى أممهم من القسم الأول فلا جرم كانوا أفضل من الامم فلم قلتم إن بعثة الملائكة إلى الأنبياء من

القسم الأول حتى يلزم أن يكونوا أفضل من الأنبياء ، وسادسها أن الملائكة أتقى من البشر فوجب أن يكونوا أفضل من البشر أما أنهم أتقى فلأنهم مبرؤون عن الزلات وعن الميل اليها لأن خوفهم دائم وإشفاقهم دائم لقوله تعالى (يخافون ربهم من فوقهم) وقوله (وهم من خشيته مشفقون) والخوف والاشفاق ينافيان العزم على المعصية وأما الأنبياء عليهم السلام فهم مع أنهم أفضل البشر ما خلا كل واحد منهم عن نوع زلة وقال عليه الصلاة والسلام مامنا من أحد إلا عصى أوهم بمعصية غير يحيي ابن زكريا عليهما السلام فثبت أن تقوى الملائكة أشد فوجب أن يكونوا أفضل من البشر لقوله تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) فان قيل : إن قوله (إن أكرمكم عندالله أتقاكم) خطاب مع الآدميين فلا يتناول الملائكة وأيضا فالتقوى مشتق من الوقاية ولا شهوة فى حق الملائكة فيستحيل تحقق التقوى فى حقهم . والجواب عن الأول : أن ترتيب الكرامة على التقوى يدل على أن الكرامة معللة بالتقوى فحيث كانت التقوى أكثر كانت الكرامة أكثر . وعن الثانى : لا نسلم عدم الشهوة فى حقهم لكن لا شهوة لهم إلى الأكل والمباشرة ولكن لا يلزم من عدم شهوة معينة عدم مطلق الشهوة بل لهم شهوة التقدم والترفع ولهذا قالوا (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) وقال تعالى (ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم) ولقائل أن يقول الحديث الذى ذكرتم يدل على أن يحيي عليه السلام كان أتقى من سائر الأنبياء فوجب أن يكون أفضل من محمد ﷺ وذلك باطل بالاجماع فعلمنا أنه لا يلزم من زيادة التقوى زيادة الفضل وتحقيقه ما قدمنا أن من المحتمل أن يكون إنسان لم تصدر عنه المعصية قط وصدر عنه من الطاعات ما استحق به مائة جزء من الثواب وإنسان آخر صدرت عنه معصية ثم أتى بطاعة استحق بها ألف جزء من الثواب فيقابل مائة جزء من الثواب بمائة جزء من العقاب فيبقى له تسعمائة جزء من الثواب فهذا الانسان مع صدور المعصية منه يكون أفضل من الانسان الذى لم تصدر المعصية عنه قط وأيضا فلا نسلم أن تقوى الملائكة أشد وذلك لأن التقوى مشتق من الوقاية والمقتضى للمعصية فى حق بنى آدم أكثر فكان تقوى المتقين منهم أكثر . قوله إن الملائكة لهم شهوة الرياسة قلنا هذا لا يضرنا وذلك لأن هذه الشهوة حاصلة للبشر أيضا وقد حصلت لهم أنواع أخر من الشهوات وهى شهوة البطن والفرج وإذا كان كذلك كانت الشهوات الصارفة عن الطاعات أكثر فى بنى آدم فوجب أن تكون تقوى المتقين منهم أشد . وسابعها : قوله تعالى (لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون) وجه الاستدلال أن قوله تعالى (ولا الملائكة المقربون) خرج مخرج التأكيد للأول ومثل هذا التأكيد إنما يكون بذكر الأفضل يقال هذه الخشبة لا يقدر على حملها العشرة ولا المائة ولا يقال لا يقدر على حملها العشرة ولا الواحد ويقال هذا العالم لا يستنكف عن خدمته الوزير ولا الملك ولا يقال لا يستنكف عن خدمته الوزير ولا البواب . ولقائل أن يقول هذه الآية إن دلت فانما تدل على فضل الملائكة المقربين على المسيح

لكن لا يلزم منه فضل الملائكة المقربين على من هو أفضل من المسيح وهو محمد وموسى وإبراهيم عليهم الصلاة والسلام وبالجملة فلو ثبت لهم أن المسيح أفضل من كل الأنبياء كان مقصودهم حاصلا فأما إذا لم يقيموا الدلالة على ذلك فلا يحصل مقصودهم لا سيما وقد أجمع المسلمون على أن محمداً صلى الله عليه وسلم أفضل من المسيح عليه السلام وما رأينا أحدا من المسلمين قطع بفضل المسيح على موسى وإبراهيم عليهما السلام ثم نقول قوله «ولا الملائكة المقربون» ليس فيه إلا واو العطف والواو للجمع المطلق فيدل على أن المسيح لا يستنكف والملائكة لا يستنكفون فاما أن يدل على أن الملائكة أفضل من المسيح فلا ، وأما الأمثلة التي ذكروها فنقول المثال لا يكفي في إثبات الدعوى الكلية ثم إن ذلك المثال معارض بأمثلة أخرى وهو قوله ما أعانني على هذا الأمر زيد ولا عمرو فهذا لا يفيد كون عمرو أفضل من زيد وكذا قوله تعالى (ولا الهدى ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام) ولما اختلفت الأمثلة امتنع التعويل عليها ثم التحقيق أنه إذا قال هذه الخشبة لا يقدر على حملها الواحد ولا العشرة فنحن نعلم بعقولنا أن العشرة أقوى من الواحد فلا جرم عرفنا أن الغرض من ذكر الثاني المبالغة فهذه المبالغة إنما عرفناها بهذا الطريق لا من مجرد اللفظ فههنا في الآية إنما يمكننا أن نعرف أن المراد من قوله (ولا الملائكة المقربون) بيان المبالغة لو عرفنا قبل ذلك أن الملائكة المقربين أفضل من المسيح وحينئذ تتوقف صحة الاستدلال بهذه الآية على ثبوت المطلوب قبل هذا الدليل ويتوقف ثبوت المطلوب على دلالة هذه الآية عليه فيلزم الدور وأنه باطل سلمنا أنه يفيد التفاوت لكنه لا يفيد التفاوت في كل الدرجات بل في بعض دون آخر بيانه أنه إذا قيل هذا العالم لا يستنكف عن خدمته القاضي ولا السلطان فهذا لا يفيد إلا أن السلطان أكمل من القاضي في بعض الأمور وهو القدرة والقوة والاستيلاء والسلطان ولا يدل على كونه أفضل من القاضي في العلم والزهد والخضوع لله تعالى إذا ثبت هذا فنحن نقول بموجبه وذلك لأن الملك أفضل من البشر في القدرة والبطش فان جبريل عليه السلام قلع مدائن لوط والبشر لا يقدرون على شيء من ذلك فلم قلتم إن الملك أفضل من البشر في كثرة الثواب الحاصل بسبب مزيد الخضوع والعبودية وتمام التحقيق فيه أن الفضل المختلف فيه في هذه المسألة هو كثرة الثواب وكثرة الثواب لا تحصل إلا بالعبودية والعبودية عبارة عن نهاية التواضع والخضوع وكون العبد موصوفا بنهاية التواضع لله تعالى لا يناسب الاستنكاف عن عبودية الله ولا يلائمها البتة بل يناقضها وينافيها وإذا كان هذا الكلام ظاهراً جليا كان حمل كلام الله تعالى عليه مخرجا له عن الفائدة ، أما اتصاف الشخص بالقدرة الشديدة والاستيلاء العظيم فانه مناسب للتمرد وترك العبودية فالنصارى لما شاهدوا من المسيح عليه السلام إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص أخرجوه عن العبودية بسبب هذا القدر من القدرة فقال الله تعالى إن عيسى لا يستنكف بسبب هذا القدر من القدرة عن عبوديتي بل ولا الملائكة المقربون الذين هم فوقه في القدرة والقوة والبطش والاستيلاء على عوالم السموات

والأرضين وعلى هذا الوجه ينتظم وجه دلالة الآية على أن الملك أفضل من البشر فى الشدة والبطش لكنها لا تدل البتة على أنه أفضل من البشر فى كثرة الثواب أو يقال إنهم إنما ادعوا إلهيته لأنه حصل من غير أب فقيل لهم الملك ما حصل من أب ولا من أم فكانوا أعجب من عيسى فى ذلك مع أنهم لا يستنكفون عن العبودية . فان قيل فى الآية ما يدل على أن المراد وقوع التفاوت بين المسيح والملائكة فى العبودية لا فى القدرة والقوة والبطش وذلك لأنه تعالى وصفهم بكونهم مقربين والقرب من الله تعالى لا يكون بالمكان والجهة بل بالدرجة والمنزلة فلما وصفهم ههنا بكونهم مقربين علمنا أن المراد وقوع التفاوت بينهم وبين المسيح فى درجات الفضل لا فى الشدة والبطش . قلنا إن كان مقصودك من هذا السؤال أنه تعالى وصف الملائكة بكونهم مقربين فوجب أن لا يكون المسيح كذلك فهذا باطل لأن تخصيص الشيء بالذكر لا يدل على نفسه عما عداه وإن كان مقصودك أنه تعالى لما وصفهم بكونهم مقربين وجب أن يكون التفاوت واقعا فى ذلك فهذا باطل أيضا لاحتمال أن يكون المسيح والمقربون مع اشتراكهم فى صفة القرب فى الطاعة يتباينون بأمور أخر فيكون المراد بيان التفاوت فى تلك الأمور . سؤال آخر : وهو أنا نقول بموجب الآية فنسلم أن عيسى عليه السلام دون مجموع الملائكة فى الفضل فلم قلتم إنه دون كل واحد من الملائكة فى الفضل . سؤال آخر : لعله تعالى إنما ذكر هذا الخطاب مع أقوام اعتقدوا أن الملك أفضل من البشر فأورد الكلام على حسب معتقدهم كما فى قوله (وهو أهون عليه) . وثامنها : قوله تعالى حكاية عن إبليس) ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين) ولو لم يكن متقررا عند آدم وحواء عليهما السلام أن الملك أفضل من البشر لم يقدر إبليس على أن يغرهما بذلك ولا كان آدم وحواء عليهما السلام يغتران بذلك . ولقائل أن يقول هذا قول إبليس فلا يكون حجة ، ولا يقال إن آدم اعتقد صحة ذلك وإلا لما اغتر ، واعتقاد آدم حجة ، لأنا نقول : لعل آدم عليه السلام أخطأ فى ذلك إما لأن الزلة جائزة على الأنبياء أو لأنه ما كان نبيا فى ذلك الوقت ، وأيضا هب أنه حجة لكن آدم عليه السلام لم يكن قبل الزلة نبيا فلم يلزم من فضل الملك عليه فى ذلك الوقت فضل الملك عليه حال ما صار نبيا ، وأيضا هب أن الآية تدل على أن الملك أفضل من البشر فى بعض الأمور المرغوبة فلم قلت : إنها تدل على فضل الملك على البشر فى باب الثواب ؟ وذلك لأنه لا نزاع أن الملك أفضل من البشر فى باب القدرة والقوة ، وفى باب الحسن والجمال ، وفى باب الصفاء والنقاء عن الكدورات الحاصلة بسبب التركيبات فان الملائكة خلقوا من الأنوار ، وآدم مخلوق من التراب فلعل آدم عليه السلام وإن كان أفضل منهم فى كثرة الثواب إلا أنه رغب فى أن يكون مساويا لهم فى تلك الأمور التى عددناها فكان التغرير حاصلا من هذا الوجه ، وأيضاً فقوله (إلا أن تكونا ملكين) يحتمل أن يكون المراد إلا أن تنقلبا ملكين فحينئذ يصح استدلالكم ويحتمل

أن يكون المراد أن النهى مختص بالملائكة والخالدين دونكما . هذا كما يقول أحدنا لغيره ما نهيت أنت عن كذا إلا أن تكون فلانا ويكون المعنى أن المنهى هو فلان دونك ولم يرد إلا أن ينقلب فيصير فلانا ، ولما كان غرض إبليس إيقاع الشبهة بهما فمن أوكد الشبهة إيهام أنهما لم ينهيا وإنما المنهى غيرهما ، وأيضاً فهب أن الآية تدل على أن الملك أفضل من آدم فلم قلت إنها تدل على أن الملك أفضل من محمد ؟ وذلك لأن المسلمين أجمعوا على أن محمداً أفضل من آدم عليهما السلام ولا يلزم من كون الملك أفضل من المفضول كونه أفضل من الأفضل . وتاسعها : قوله تعالى (قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك) . وللقائل أن يقول يحتمل أن يكون المراد ولا أقول لكم إنى ملك فى كثرة العلوم وشدة القدرة والذى يدل على صحة هذا الإحتمال وجوه . الأول : وهو أن الكفار طالبوه بالأمور العظيمة نحو صعود السماء ونقل الجبال وإحضار الأموال العظيمة وهذه الأمور لا يمكن تحصيلها إلا بالعلوم الكثيرة والقدرة الشديدة . الثانى : أن قوله (قل لا أقول لكم عندى خزائن الله) هذا يدل على اعترافه بأنه غير قادر على كل المقدورات وقوله (ولا أعلم الغيب) يدل على اعترافه بأنه غير عالم بكل المعلومات ثم قوله (ولا أقول لكم إنى ملك) معناه والله أعلم وكما لا أدعى القدرة على كل المقدورات والعلم بكل المعلومات فكذلك لا أدعى قدرة مثل قدرة الملك ولا علما مثل علومهم الثالث : قوله (ولا أقول لكم إنى ملك) لم يرد به نفى الصورة لأنه لا يفيد الغرض وإنما نفى أن يكون له مثل ما لهم من الصفات وهذا يكفى فى صدقه أن لا يكون له مثل ما لهم ولا تكون صفاته مساوية لصفاتهم من كل الوجوه ولا دلالة فيه على وقوع التفاوت فى كل الصفات فان عدم الاستواء فى الكل غير ، وحصول الاختلاف فى الكل غير . وعاشرها : قوله تعالى (ماهذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم) . فان قيل لم لا يجوز أن يكون المراد وقوع التشبيه فى الصورة والجمال . قلنا : الأولى أن يكون التشبيه واقعاً فى السيرة لا فى الصورة لأنه قال (إن هـذا إلا ملك كريم) فشبهه بالملك الكريم والملك إنما يكون كريما بسيرته المرضية لا بمجرد صورته فثبت أن المراد تشبيهه بالملك فى نفى دواعى البشر من الشهوة والحرص على طلب المشتهى وإثبات ضد ذلك وهى حالة الملك وهى غض البصر وقمع النفس عن الميل إلى المحرمات ، فدلت هذه الآية على إجماع العقلاء من الرجال والنساء ، والمؤمن والكافر ، على اختصاص الملائكة بدرجة فائقة على درجات البشر . ولقائل أن يقول : إن قول المرأة (فذلكن الذى لمتننى فيه) كالصريح فى أن مراد النساء بقولهن (إن هذا إلا ملك كريم) تعظيم حال يوسف فى الحسن والجمال لا فى السيرة ، لأن ظهور عذرها فى شدة عشقها ، إنما يحصل بسبب فرط يوسف فى الجمال لا بسبب فرط زهده وورعه . فان ذلك لا يناسب شدة عشقها له . سلمنا أن المراد تشبيه يوسف عليه السلام بالملك فى الإعراض عن المشتهيات ، فلم قلت يجب أن يكون يوسف عليه

السلام أقل ثوابا من الملائكة ؟ وذلك لأنه لا نزاع فى أن عدم التفات البشر إلى المطاعم والمناكح أقل من عدم التفات الملائكة إلى هذه الأشياء ، لكن لم قلتم إن ذلك يوجب بالمزيد فى الفضل بمعنى كثرة الثواب ؟ فان تمسكوا بأن كل من كان أقل معصية وجب أن يكون أفضل ، فقد سبق الكلام عليه . الحجة الحادية عشرة : قوله تعالى (وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) ومخلوقات الله تعالى إما المكلفون أو من عداهم ولا شك أن المكلفين أفضل من غيرهم ، أما المكلفون فهم أربعة أنواع الملائكة والإنس والجن والشياطين . ولا شك أن الإنس أفضل من الجن والشياطين ، فلو كان أفضل من الملك أيضاً لزم حينئذ أن يكون البشر أفضل من كل المخلوقات ، وحينئذ لا يبقى لقوله تعالى (وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) فائدة : بل كان ينبغى أن يقال وفضلناهم على جميع من خلقنا تفضيلا ، ولما لم يقل ذلك علمنا أن الملك أفضل من البشر ، ولقائل أن يقول حاصل هذا الكلام تمسك بدليل الخطاب ، لأن التصريح بأنه أفضل من كثير من المخلوقات لا يدل على أنه ليس أفضل من الباقى إلا بواسطة دليل الخطاب ، وأيضا فهب أن جنس الملائكة أفضل من جنس بنى آدم ولكن لا يلزم من كون أحد المجموعين أفضل من المجموع الثانى أن يكون كل واحد من أفراد المجموع الأول أفضل من المجموع الثانى ، فانا إذا قدرنا عشرة من العبيد كل واحد منهم يساوى مائة دينار ، وعشرة أخرى حصل فيهم عبد يساوى مائتى دينار والتسعة الباقية يساوى كل واحد منهم دينارا . فالمجموع الأول أفضل من المجموع الثانى ، إلا أنه حصل فى المجموع الثانى واحد هو أفضل من كل واحد من آحاد المجموع الأول ، فكذا ههنا . وأيضا فقوله (وفضلناهم) يجوز أن يكون المراد وفضلناهم فى الكرامة التى ذكرناها فى أول الآية وهى قوله (ولقد كرمنا بنى آدم) ويكون المراد من الكرامة حسن الصورة ومزيد الذكاء والقدرة على الأعمال العجيبة والمبالغة فى النظافة والطهارة ، وإذا كان كذلك فنحن نسلم أن الملك أزيد من البشر فى هذه الأمور ولكن لم قلتم أن الملك أكثر ثوابا من البشر ، وأيضا فقوله (خلق السموات بغير عمد ترونها) لا يقتضى أن يكون هناك عمد غير مرئى وكذلك قوله تعالى (ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به) يقتضى أن يكون هناك إله آخر له برهان فكذلك ههنا ، الحجة الثانية عشرة : الأنبياء عليهم السلام ما استغفروا لأحد إلا بدأوا بالاستغفار لأنفسهم ثم بعد ذلك لغيرهم من المؤمنين ، قال آدم (ربنا ظلمنا أنفسنا) وقال نوح عليه السلام (رب اغفرلى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمناً) وقال إبراهيم عليه السلام (رب اغفرلى ولوالدى) وقال (رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين) وقال موسى (رب اغفرلى ولأخى) وقال الله تعالى لمحمد ﷺ (واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) وقال (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) أما الملائكة فانهم لم يستغفروا لأنفسهم ولكنهم طلبوا المغفرة للمؤمنين من البشر يدل عليه تعالى حكاية عنهم (فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم) وقال (ويستغفرون

للذين آمنوا) لو كانوا محتاجين إلى الاستغفار لبدأوا فى ذلك بأنفسهم لأن دفع الضرر عن النفس متقدم على دفع الضرر عن الغير ، " عليه الصلاة والسلام « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول » وهذا يدل على أن الملك أفضل من البشر . ولقائل أن يقول : هذا الوجه لا يدل على أن الملائكة لم يصدر عنهم الزلة البتة وأن البشر قد صدرت الزلات عنهم ، لكنا بينا فيما تقدم أن التفاوت فى ذلك لا يوجب التفاوت فى الفضيلة ، ومن الناس من قال إن استغفارهم للبشر كالعذر عمن طعنوا فيهم بقولهم (أتجعل فيها من يفسد فيها) الحجة الثالثة عشرة : قوله تعالى (وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين) وهذا عام فى حق جميع المكلفين من بنى آدم فدخل فيه الأنبياء وغيرهم وهذا يقتضى كونهم أفضل من البشر لوجهين . الأول : أنه تعالى جعلهم حفظة لبنى آدم والحافظ للمكلف من المعصية لا بد وأن يكون أبعد عن الخطأ والزلل من المحفوظ ، وذلك يقتضى كونهم أبعد عن المعاصى وأقرب إلى الطاعات من البشر وذلك يقتضى مزيد الفضل ، والثانى : أنه سبحانه وتعالى جعل كتابتهم حجة للبشر فى الطاعات وعليهم فى المعاصى ، وذلك يقتضى أن يكون قولهم أولى بالقبول من قول البشر ولو كان البشر أعظم حالا منهم لكان الأمر بالعكس . ولقائل أن يقول أما قوله الحافظ يجب أن يكون أكرم من المحفوظ فهذا بعيد فان الملك قد يوكل بعض عبيده على ولده ولا يلزم أن يكون الحافظ أشرف من المحفوظ هناك ، أما قوله : جعل شهادتهم نافذة على البشر فضعيف ، لأن الشاهد قد يكون أدون حالا من المشهود عليه . الحجة الرابعة عشرة : قوله تعالى (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا) والمقصود من ذكر أحوالهم المبالغة فى شرح عظمة الله تعالى وجلاله ولو كان فى الخلق طائفة أخرى قيامهم وتضرعهم أقوى فى الانباء عن عظمة الله وكبريائه من قيامهم لكان ذكرهم أولى فى هذا المقام ، ثم كما أنه سبحانه بين عظمة ذاته فى الآخرة بذكر الملائكة فكذا بين عظمته فى الدنيا بذكر الملائكة وهو قوله (وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم) ولقائل أن يقول : كل ذلك يدل على أنهم أزيد حالا من البشر فى بعض الأمور فلم لا يجوز أن تلك الحالة هى قوتهم وشدتهم وبطشهم ، وهذا كما يقال إن السلطان لما جلس وقف حول سريره ملوك أطراف العالم خاضعين خاشعين فان عظمة السلطان إنما تشرح بذلك ثم إن هذا لا يدل على أنهم أكرم عند السلطان من ولده فكذا ههنا . الحجة الخامسة عشرة : قوله تعالى (والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله) فبين تعالى أنه لا بد فى صحة الإيمان من الإيمان بهذه الأشياء ثم بدأ بنفسه وثنى بالملائكة وثلث بالكتب وربع بالرسل وكذا فى قوله (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم) وقال (إن الله وملائكته يصلون على النبى) والتقديم فى الذكر يدل على التقديم فى الدرجة ويدل عليه أن تقديم الأدون على الأشرف فى الذكر قبيح عرفا ، فوجب أن يكون قبيحا شرعا ، أما أنه قبيح عرفا فلأن الشاعر قال :—

عميرة ودع إن تجهزت غاديا كفى الشيب والاسلام للمرء ناهيا

قال عمر بن الخطاب : لو قدمت السلام لأجزتك ، ولأنهم لما كتبوا كتاب الصلح بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين المشركين وقع التنازع فى تقديم الاسم وكذا فى كتاب الصلح بين على ومعاوية ، وهذا يدل على أن التقديم فى الذكر يدل على مزيد الشرف وإذا ثبت أنه فى العرف كذلك وجب أن يكون فى الشرع كذلك ، لقوله عليه السلام « ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن » فثبت أن تقديم الملائكة على الرسل فى الذكر يدل على تقديمهم فى الفضل ولقائل أن يقول : هذه الحجة ضعيفة لأن الاعتماد إن كان على الواو ، فالواو لا تفيد الترتيب ، وإن كان على التقديم فى الذكر ينتقض بتقديم سورة تبت على سورة قل هو الله أحد . الحجة السادسة عشرة : قوله تعالى (إن الله وملائكته يصلون على النبى) فجعل صلوات الملائكة كالتشريف للنبى صلى الله عليه وسلم وذلك يدل على كون الملائكة أشرف من النبى صلى الله عليه وسلم . ولقائل أن يقول هذا ينتقض بقوله (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه) فأمر المؤمنين بالصلاة على النبي ولم يلزم كون المؤمنين أفضل من النبى عليه السلام فكذا فى الملائكة . الحجة السابعة عشرة : أن نتكلم فى جبريل ومحمد صلى الله عليه وسلم فنقول : إن جبريل عليه السلام أفضل من محمد والدليل عليه قوله تعالى (إنه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين وما صاحبكم بمجنون) وصف الله تعالى جبريل عليه السلام بست من صفات الكمال ، أحدها : كونه رسولا لله . وثانيها : كونه كريما على الله تعالى . وثالثها . كونه ذا قوة عند الله ، وقوته عند الله لا تكون إلا قوته على الطاعات بحيث لا يقوى عليها غيره . ورابعها : كونه مكينا عند الله . وخامسها : كونه مطاعا فى عالم السموات . وسادسها : كونه أمينا فى كل الطاعات مبرأ عن أنواع الخيانات . ثم إنه سبحانه وتعالى بعد أن وصف جبريل عليه السلام بهذه الصفات العالية وصف محمداً صلى الله عليه وسلم بقوله (وما صاحبكم بمجنون) ولو كان محمد مساويا لجبريل عليه السلام فى صفات الفضل أو مقارنا له لكان وصف محمد بهذه الصفة بعد وصف جبريل بتلك الصفات نقصا من منصب محمد صلى الله عليه وسلم وتحقيرا لشأنه وإبطالا لحقه وذلك غير جائز على الله ، فدلت هذه الآية على أنه ليس لمحمد صلى الله عليه وسلم عند الله من المنزلة إلا مقدار أن يقال إنه ليس بمجنون ، وذلك يدل على أنه لا نسبة بين جبريل وبين محمد عليهما السلام فى الفضل والدرجة . فان قيل لم لا يجوز أن يكون قوله (إنه لقول رسول كريم) صفة لمحمد لا لجبريل عليهما السلام . قلنا لأن قوله (ولقد رآه بالأفق المبين) يبطل ذلك . ولقائل أن يقول إنا توافقنا جميعا على أنه قد كان لمحمد صلى الله عليه وسلم فضائل أخرى سوى كونه ليس بمجنون وأن الله تعالى ما ذكر شيئا من تلك الفضائل فى هذا الموضع فاذن عدم ذكر الله تعالى تلك الفضائل ههنا لا يدل على عدمها بالاجماع ، وإذا ثبت أن لمحمد عليه السلام فضائل

سوى الأمور المذكورة ههنا فلم لا يجوز أن يقال إن محمدا عليه السلام بسبب تلك الفضائل التى هى غير مذكورة ههنا يكون أفضل من جبريل عليه السلام فانه سبحانه كما وصف جبريل عليه السلام ههنا بهذه الصفات الست وصف محمدا صلى الله عليه وسلم أيضا بصفات ست(١) وهى قوله (يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً) فالوصف الأول كونه نبيا والثانى كونه رسولا والثالث كونه شاهدا والرابع كونه مبشرا والخامس كونه نذيرا والسادس كونه داعيا إلى الله تعالى بإذنه والسابع كونه سراجا والثامن كونه منيرا وبالجملة فإفراد أحد الشخصين بالوصف لا يدل البتة على انتفاء تلك الأوصاف عن الثانى . الحجة الثامنة عشرة : الملك أعلم من البشر والأعلم أفضل فالملك أفضل إنما قلنا إن الملك أعلم من البشر لأن جبريل عليه السلام كان معلما لمحمد عليه السلام بدليل قوله (علمه شديد القوى) والمعلم لا بد وأن يكون أعلم من المتعلم ، وأيضا فالعلوم قسمان : أحدهما العلوم التى يتوصل اليها بالعقول كالعلم بذات الله تعالى وصفاته ؛ فلا يجوز وقوع التقصير فيها لجبريل عليه السلام ولا لمحمد صلى الله عليه وسلم ، لأن التقصير فى ذلك جهل وهو قادح فى معرفة الله تعالى . وأما العلم بكيفية مخلوقات الله تعالى وما فيها من العجائب والعلم بأحوال العرش والكرسى واللوح والقلم والجنة والنار وطباق السموات وأصناف الملائكة وأنواع الحيوانات فى المغاور والجبال والبحار فلا شك أن جبريل عليه السلام أعلم بها ، لأنه عليه السلام أطول عمرا وأكثر مشاهدة لها فكان علمه بها أكثر وأتم . وثانيها : العلوم التى لا يتوصل إليها إلا بالوحى لا لمحمد صلى الله عليه وسلم ولا لسائر الأنبياء عليهم السلام إلا من جهة جبريل عليه السلام فيستحيل أن يكون لمحمد عليه الصلاة والسلام فضيلة فيها على جبريل عليه السلام ، وأما جبريل عليه السلام فهو كان الواسطة بين الله تعالى وبين جميع الأنبياء فكان عالما بكل الشرائع الماضية والحاضرة ، وهو أيضا عالم بشرائع الملائكة وتكاليفهم ومحمد عليه الصلاة والسلام ماكان عالما بذلك ، فثبت أن جبريل عليه السلام كان أكثر علما من محمد عليه الصلاة والسلام ، وإذا ثبت هذا وجب أن يكون أفضل منه لقوله تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) . ولقائل أن يقول لا نسلم أنهم أعلم من البشر ، والدليل عليه أنهم اعترفوا بأن آدم عليه السلام أكثر علما منهم بدليل قوله تعالى (يا آدم أنبئهم بأسمائهم) ثم إن سلمنا مزيد علمهم ولكن ذلك لا يقتضى كثرة الثواب ، فانا نرى الرجل المبتدع محيطا بكثير من دقائق العلم ولا يستحق شيئا من الثواب فضلا عن أن يكون ثوابه أكثر وسببه ما نبهنا مرارا عليه أن كثرة الثواب إنما تحصل بحسب الإخلاص فى الأفعال ولم نعلم أن إخلاص الملائكة أكثر . الحجة التاسعة عشرة : قوله تعالى (ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم) فهذه الآية دالة على أنهم

(١) المناسب أن يقول بصفات ثمان أو (بست بل زاد عليها) لأن الصفات التى وصف بها الرسول عليه السلام ليست ستا وإنما هى ثمان

بلغوا فى الترفع وعلو الدرجة إلى أنهم لو خالفوا أمر الله تعالى لما خالفوه إلا بادعاء الإلهية لا بشىء آخر من متابعة الشهوات وذلك يدل على نهاية جلالهم . ولقائل أن يقول لا نزاع فى نهاية جلالهم ، أما قوله إنهم بلغوا فى الترفع وعلو الدرجة إلى حيث لو خالفوا أمر الله تعالى لما خالفوه إلا فى ادعاء الإلهية فهذا مسلم وذلك لأن علومهم كثيرة وقواهم شديدة وهم مبرؤون عن شهوة البطن والفرج ومن كان كذلك فلو خالف أمر الله لم يخالف إلا فى هذا المعنى الذى ذكرته لكن لم قلتم إن ذلك يدل على أنهم أكثر ثوابا من البشر فان محل الخلاف ليس إلا ذاك . الحجة العشرون : قوله عليه الصلاة والسلام رواية عن الله تعالى « وإذا ذكرنى عبدى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير من ملائه » وهذا يدل على أن الملأ الأعلى أشرف . ولقائل أن يقول هذا خبر واحد وأيضا فهذا يدل على أن ملأ الملائكة أفضل من ملأ البشر وملأ البشر عبارة عن العوام لا عن الأنبياء فلا يلزم من كون الملك أفضل من عامة البشر كونهم أفضل من الأنبياء ، هذا آخر الكلام فى الدلائل النقلية ، واعلم أن الفلاسفة اتفقوا على أن الأرواح السماوية المسماة بالملائكة أفضل من الأرواح الناطقة البشرية واعتمدوا فى هذا الباب على وجوه عقلية نحن نذكرها إن شاء الله تعالى . الحجة الأولى : قالوا الملائكة ذواتها بسيطة مبرأة عن الكثرة والبشر مركب من النفس والبدن والنفس مركبة من القوى الكثيرة والبدن مركب من الأجزاء الكثيرة والبسيط خير من المركب لأن أسباب العدم للمركب أكثر منها للبسيط ولذلك فان فردانية الله تعالى من صفات جلاله ونعوت كبريائه . الاعتراض عليه : لا نسلم أن البسيط أشرف من المركب وذلك لأن جانب الروحانى أمر واحد وجانب الجسمانى أمران روحه وجسمه فهو من حيث الروح من عالم الروحانيات والأنوار ومن حيث الجسد من عالم الأجساد فهو لكونه مستجمعا للروحانى والجسمانى يجب أن يكون أفضل من الروحانى الصرف والجسمانى الصرف وهذا هو السر فى أن جعل البشر الأول مسجودا للملائكة ومن وجه آخر وهو أن الأرواح الملكية مجردات مفارقة عن العلائق الجسمانية فكأن استغراقها فى مقاماتها النورانية عاقها عن تدبير هذا العالم الجسدانى أما النفوس البشرية النبوية فانها قويت على الجمع بين العالمين فلا دوام ترقيها فى معارج المعارف وعوالم القدس يعوقها عن تدبير العالم السفلى ولا التفاتها إلى مناظم عالم الأجسام يمنعها عن الاستكمال فى عالم الأرواح فكانت قوتها وافية بتدبير العالمين محيطة بضبط الجنسين فوجب أن تكون أشرف وأعظم . الحجة الثانية : الجواهر الروحانية مبرأة عن الشهوة التى هى منشأ سفك الدماء والأرواح البشرية مقرونة بها والخالى عن منبع الشر أشرف من المبتلى به . الاعتراض : لاشك أن المواظبة على الخدمة مع كثرة الموانع والعوائق أدل على الإخلاص من المواظبة عليها من غير شىء من العوائق والموانع ، وذلك يدل على أن مقام البشر فى المحبة أعلى وأكمل وأيضا فالروحانيات لما أطاعت خالقها لم تكن طاعتها موجبة قهر الشياطين الذين

هم أعداء الله ، أما الأرواح البشرية لما أطاعت خالقها لزم من تلك الطاعة قهر القوى الشهوانية والغضبية وهى شياطين الانس فكانت طاعاتهم أكمل وأيضا فمن الظاهر أن درجات الروحانيات حين قالت (لا علم لنا إلا ما علمتنا) أكمل من درجاتهم حين قالت (أتجعل فيها من يفسد فيها) وما ذاك إلا بسبب الانكسار الحاصل من الزلة وهـــذا فى البشر أكمل ولهذا قال عليه الصلاة والسلام حكاية عن ربه تعالى (لأنين المذنبين أحب إلى من زجل المسبحين) الحجة الثالثة : الروحانيات مبرأة عن طبيعة القوة فان كل ما كان ممكنا لها بحسب أنواعها التى فى أشخاصها فقد خرج إلى الفعل والأنبياء ليسوا كذلك ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام « إنى لأستغفر الله فى اليوم والليلة مائة مرة وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم » (ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان) ولا شك أن ما بالفعل التام أشرف مما بالقوة . الاعتراض : لا نسلم أنها بالفعل التام فلعلها بالقوة فى بعض الأمور ، ولهذا قيل إن تحريكاتها للأفلاك لأجل استخراج التعقلات من القوة إلى الفعل وهذه التحريكات بالنسبة إليها كالتحريكات العارضة للأرواح الحاملة لقوى الفكر والتخيل عند محاولة استخراج التعقلات التى هى بالقوة إلى الفعل . الحجة الرابعة الروحانيات أبدية الوجود مبرأة عن طبيعة التغير والقوة والنفوس الناطقة البشرية ليست كذلك . الاعتراض : المقدمتان ممنوعتان أليس أن الروحانيات ممكنة الوجود لذواتها واجبة الوجود بمبادئها فهى محدثة سلمنا ذلك ، فلا نسلم أن الأرواح البشرية حادثه ، بل هى عند بعضهم أزلية وهؤلاء قالوا هذه الأرواح كانت سرمدية موجودة كالأظلال تحت العرش يسبحون بحمد ربهم إلا أن المبدىء الأول أمرها حتى نزلت إلى عالم الأجسام وسكنات المواد ، فلما تعلقت بهذه الأجسام عشقتها . واستحكم إلفها بها فبعث من تلك الأظلال أكملها وأشرفها إلى هذا العالم ليحتال فى تخليص تلك الأرواح عن تلك السكنات وهذا هو المراد من باب الحمامة المطوقة المذكورة فى كتاب كليلة ودمنة . الحجة الخامسة : الروحانيات نورانية علوية لطيفة ، والجسمانيات ظلمانية سفلية كثيفة وبدائة العقول تشهد بأن النور أشرف من الظلمة ، والعلوى خير من السفلى ، واللطيف أكمل من الكثيف . الاعتراض : هـذاكله إشارة إلى المادة وعندنا سبب الشرف الانقياد لأمر رب العالمين على ما قال (قل الروح من أمر ربى) وادعاء الشرف بسبب شرف المادة هو حجة اللعين الأول وقد قيل له ما قيل ، الحجة السادسة : الروحانيات السماوية فضلت الجسمانيات بقوى العلم والعمل . أما العلم فلاتفاق الحكماء على إحاطة الروحانيات السماوية بالمغيبات واطلاعها على مستقبل الأمور ، وأيضا فعلومهم فعلية فطرية كلية دائمة . وعلوم البشر على الضد فى كل ذلك ، وأما العمل فلأنهم مواظبون على الخدمة دائما يسبحون الليل والنهار لا يفترون لا يلحقهم نوم العيون ولا سهو العقول ولا غفلة الأبدان طعامهم التسبيح وشرابهم التقديس والتحميد والتهليل وتنفسهم بذكر الله وفرحتهم بخدمة الله متجردون من العلائق البدنية

غير محجوبين بشيء من القوى الشهوانية والغضبية فأين أحد القسمين من الآخر : الاعتراض : لا نزاع في كل ما ذكرتموه إلا أن ههنا دقيقة وهي أن المواظب على تناول الأغذية اللطيفة لا يلتذ بها كما يلتذ المبتلى بالجوع أياما كثيرة فالملائكة بسبب مواظبتهم على تلك الدرجات العالية لا يجدون من اللذة مثل ما يجد البشر الذين يكونون في أكثر الأوقات محجوبين بالعلائق الجسمانية والحجب الظلمانية فهذه المزية من اللذة مما يختص بها البشر ولعل هذا هو المراد من قوله تعالى (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملها وأشفقن منها وحملها الانسان) فان إدراك الملايم بعد الابتلاء بالمنافى ألذ من إدراك الملايم على سبيل الدوام ولذلك قالت الأطباء : إن الحرارة في حمى الدق أشد منها في حمى الغب لكن حرارة الحمى في الدق إذا دامت واستقرت بطل الشعور بها فهذه الحالة لم تحصل للملائكة لأن كمالاتها دائمة ولم تحصل لسائر الأجسام لأنها كانت خالية عن القوة المستعدة لا دراك المجردات فلم يبق شيء ممن يقوى على تحمل هذه الأمانة إلا البشر . الحجة السابعة : الروحانيات لهم قوة على تصريف الأجسام وتقليب الأجرام والقوة التي هي لهم ليست من جنس القوى المزاجية حتى يعرض لها كلال ولغوب ، ثم إنك ترى الخامة اللطيفة من الزرع في بدء نموها تفتق الحجر وتشق الصخر وما ذاك إلا لقوة نباتية فاضت عليها من جواهر القوى السماوية فما ظنك بتلك القوى السماوية والروحانيات هي التي تتصرف في الأجسام السفلية تقليبا وتصريفا لا يستثقلون حمل الأثقال ولا يستصعبون تحريك الجبال فالرياح تهب بتحريكاتها والسحاب تعرض وتزول بتصريفها وكذا الزلازل تقع في الجبال بسبب من جهتها والشرائع ناطقة بذلك على ما قال تعالى (فالمقسمات أمرا) والعقول أيضا دالة عليه والأرواح السفلية ليست كذلك فأين أحد القسمين من الآخر . والذي يقال أن الشياطين التي هي الأرواح الخبيثة تقدر على ذلك ممنوع وبتقدير التسليم فلا نزاع في أن قدرة الملائكة على ذلك أشد وأكمل ولأن الأرواح الطيبة الملكية تصرف قواها إلى مناظم هذا العالم السفلي ومصالحها والأرواح الخبيثة تصرف قواها إلى الشرور فأين أحدهما من الآخر . الاعتراض : لا يبعد أن يتفق في النفوس الناطقة البشرية نفس قوية كاملة مستعلية على الأجرام العنصرية بالتقليب والتصريف فما الدليل على امتناع مثل هذه النفس . الحجة الثامنة : الروحانيات لها اختيارات فائضة من أنوار جلال الله عز وجل متوجهة إلى الخيرات مقصورة على نظام هذا العالم لا يشوبها البتة شائبة الشر والفساد بخلاف اختيارات البشر فانها مترددة بين جهتي العلو والسفالة وطرفي الخير وميلهم إلى الخيرات إنما يحصل بإعانة الملائكة على ماورد في الاخبار من أن لكل إنسان ملكا يسدده ويهديه . الاعتراض : هذا يدل على أن الملائكة كالمجبورين على طاعاتهم والأنبياء مترددون بين الطرفين والمختار أفضل من المجبوز وهذا ضعيف لأن التردد ما دام يبقى استحال

صدور الفعل وإذا حصل الترجيح التحق بالموجب فكان للأنبياء خيرات بالقوة وبواسطة الملائكة تصير خيرات بالفعل ، أما الملائكة فهم خيرات بالفعل فأين هذا من ذاك الحجة التاسعة : الروحانيات مختصة بالهياكل وهى السيارات السبعة وسائر الثوابت والأفلاك كالأبدان والكواكب كالقلوب والملائكة كالأرواح فنسبة الأرواح إلى الأرواح كنسبة الأبدان إلى الأبدان ثم إنا نعلم أن اختلافات أحوال الأفلاك مبادىء لحصول الاختلافات فى أحوال هذا العالم فانه يحصل من حركات الكواكب اتصالات مختلفة من التسديس والتثليث والتربيع والمقابلة والمقاربة وكذا مناطق الأفلاك تارة تصير منطبقة بعضها على البعض وذلك هو الرتق فحينئذ يبطل عمارة العالم وأخرى ينفصل بعضها عن البعض فتنتقل العمارة من جانب من هذا العالم العلوى مستولية على هياكل العالم السفلى فكذا أرواح العالم السفلى لا سيما وقد دلت المباحث الحكمية والعلوم الفلسفية على أن أرواح هذا العالم معلولات لأرواح العالم العلوى وكمالات هذه الأرواح معلولات لكمالات تلك الأرواح ونسبة هذه الأرواح إلى تلك الأرواح كالشعلة الصغيرة بالنسبة إلى قرص الشمس وكالقطرة الصغيرة بالنسبة إلى البحر الأعظم فهذه هى الآثار وهناك المبدأ والمعاد فكيف يليق القول بادعاء المساواة فضلا عن الزيادة . الاعتراض : كل ما ذكرتموه منازع فيه لكن بتقدير تسليمه فالبحث باق بعد لأنا بينا أن الوصول إلى اللذيذ بعد الحرمان ألذ من الوصول إليه على سبيل الدوام فهذه الحالة غير حاصلة إلا للبشر . الحجة العاشرة : قالوا الروحانيات الفلكية مبادىء لروحانيات هذا العالم ومعادلها والمبدأ أشرف من ذى المبدأ لأن كل كمال يحصل لذى المبدأ فهو مستفاد من المبدأ والمستفيد أقل حالا من الواجب وكذلك المعاد يجب أن يكون أشرف ، فعالم الروحانيات عالم الكمال فالمبدأ منها والمعاد إليها والمصدر عنها والمرجع إليها وأيضا فان الأرواح إنما نزلت من عالمها حتى اتصلت بالأبدان فتوسخت بأوضار الأجسام ثم تطهرت عنها بالأخلاق الزكية والأعمال المرضية حتى انفصلت عنها إلى عالمها الأول فالنزول هو النشأة الأولى والصعود هو النشأة الأخرى فعرف أن الروحانيات أشرف من الأشخاص البشرية . الاعتراض : هذه الكلمات بنيتموها على نفى المعاد ونفى حشر الأجساد ودونهما خرط القتاد . الحجة الحادية عشرة : أليس أن الأنبياء صلوات الله عليهم اتفقت كلمتهم على أنهم لا ينطقون بشىء من المعارف والعلوم إلا بعد الوحى فهذا اعتراف بأن علومهم مستفادة منهم أليس أنهم اتفقوا على أن الملائكة هم الذين يعينونهم على أعدائهم كما فى قلع مدائن قوم لوط وفى يوم بدر وهم الذين يهدونهم إلى مصالحهم كما فى قصة نوح فى نجر السفينة فاذا اتفقوا على ذلك فمن أين وقع لكم أن فضلتموهم على الملائكة مع تصريحهم بافتقارهم إليهم فى كل الأمور . الحجة الثانية عشرة : التقسيم العقلى قد دل على أن الأحياء إما أن تكون خيرة محضة أو شريرة محضة أو تكون خيرة من وجه شريرة من

وجه فالخير المحض هو النوع الملكي والشرير المحض هو النوع الشيطاني والمتوسط بين الأمرين هو النوع البشرى وأيضا فان الانسان هو الناطق المائت وعلى جانبيه قسمان آخران . أحدهما : الناطق الذى لا يكون مائتا وهو الملك : والآخر المائت الذى لا يكون ناطقا وهم البهائم فقسمة العقل على هـــذا الوجه قد دلت على كون البشر فى الدرجة المتوسطة من الكمال والملك يكون فى الطرف الأقصى من الكمال فالقول بأن البشر أفضل قلب للقسمة العقلية ومنازعة فى ترتيب الوجود الاعتراض : ان المراد من الفضل هو كثرة الثواب فلم قلتم إن الملك أكثر ثوابا فهذا محصل ماقيل فى هذا الباب من الوجوه العقلية وبالله التوفيق . واحتج من قال بفضل الانبياء على الملائكة بأمور . أحدها : أن الله تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم وثبت أن آدم لم يكن كالقبلة بل كانت السجدة فى الحقيقة له ، وإذا ثبت ذلك وجب أن يكون آدم أفضل منهم لأن السجود نهاية التواضع وتكليف الأشرف بنهاية التواضع للأدون مستقبح فى العقول فانه يقبح أن يؤمر أبو حنيفة بأن يخدم أقل الناس بضاعة فى الفقه فدل هذا على أن آدم عليه السلام كان أفضل من الملائكة . وثانيها : أن الله تعالى جعل آدم عليه السلام خليفة له والمراد منه خلافة الولاية لقوله تعالى (ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق) ومعلوم أن أعلى الناس منصبا عند الملك من كان قائما مقـــامه فى الولاية والتصرف ، وكان خليفة له فهذا يدل على أن آدم عليه السلام كان أشرف الخلائق وهذا متأكد بقوله (وسخر لكم ما فى البر والبحر) ثم أكد هذا التعميم بقوله (خلق لكم ما فى الأرض جميعا) فبلغ آدم فى منصب الخلافة إلى أعلى الدرجات فالدنيا خلقت متعة لبقائه والآخرة مملكة لجزائه وصارت الشياطين ملعونين بسبب التكبر عليه والجن رعيته والملائكة فى طاعته وسجوده والتواضع له ثم صار بعضهم حافظين له ولذريته وبعضهم منزلين لرزقه وبعضهم مستغفرين لزلاته ثم إنه سبحانه وتعالى يقول مع هـذه المناصب العالية (ولدينا مزيد) فاذن لا غاية لهذا الكمال والجلال . وثالثها : أن آدم عليه السلام كان أعلم والاعلم أفضل ، أما إنه أعلم فلانه تعالى لما طلب منهم علم الأسماء (قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم) فعند ذلك قال الله تعالى (يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم) وذلك يدل على أنه عليه السلام كان عالما بما لم يكونوا عالمين به وأما أن الاعلم أفضل فلقوله تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) ورابعها : قوله تعـــالى (إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمرآن على العالمين) والعالم عبارة عن كل ما سوى الله تعالى وذلك لأن اشتقاق العالم على ما تقدم من العلم فكل ما كان علما على الله ودالا عليه فهو عالم ولا شك أن كل محدث فهو دليل على الله تعالى فكل محدث فهو عالم فقوله (إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين) معناه أن الله تعالى اصطفاهم على كل المخلوقات ولاشك أن الملائكة من المخلوقات

فهذه الآية تقتضى أن الله تعالى اصطفى هؤلاء الأنبياء على الملائكة . فان قيل : يشكل هذا بقوله تعالى (يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين) فانه لايلزم أن يكونوا أفضل من الملائكة ومن محمد صلى الله عليه وسلم فكذا ههنا قال الله تعالى فى حق مريم عليها السلام (إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين) ولم يلزم كونها أفضل من فاطمة عليها السلام فكذا ههنا قلنا : الإشكال مدفوع لأن قوله تعالى (وأنى فضلتكم على العالمين) خطاب مع الأنبياء الذين كانوا أسلاف اليهود وحين ما كانوا موجودين لم يكن محمد موجوداً فى ذلك الزمان ولما لم يكن موجوداً لم يكن من العالمين لأن المعدوم لا يكون من العالمين وإذا كان كذلك لم يلزم من اصطفاء الله تعالى إياهم على العالمين فى ذلك الوقت أن يكونوا أفضل من محمد صلى الله عليه وسلم وأما جبريل عليه السلام فإنه كان موجوداً حين قال الله تعالى : (إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين) فلزم أن يكون قد اصطفى الله تعالى هؤلاء على جبريل عليه السلام وأيضا فهب أن تلك الآية قد دخلها التخصيص لقيام الدلالة وههنا فلا دليل يوجب ترك الظاهر فوجب إجراؤه على ظاهره فى العموم . وخامسها قوله تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) والملائكة من جملة العالمين فكان محمد عليه السلام رحمة لهم فوجب أن يكون محمد أفضل منهم . وسادسها : أن عبادة البشر أشق فوجب أن يكونوا أفضل وإنما قلنا إنها أشق لوجوه . الأول : أن الآدمى له شهوة داعية إلى المعصية والملك ليست له هذه الشهوة والفعل مع المعارض القوى أشد منه بدون المعارض فإن قيل الملائكة لهم شهوة تدعوهم إلى المعصية وهى شهوة الرياسة قلنا هب أن الأمر كذلك لكن البشر لهم أنواع كثيرة من الشهوات مثل شهوة البطن والفرج والرياسة والملك ليس له من تلك الشهوات إلا شهوة واحدة وهى شهوة الرياسة والمبتلى بأنواع كثيرة من الشهوات تكون الطاعة عليه أشق من المبتلى بشهوة واحدة . الثانى : أن الملائكة لايعملون إلا بالنص لقوله تعالى (لاعلم لنا إلا ماعلمتنا) وقال (لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) والبشر لهم قوة الاستنباط والقياس قال تعالى (فاعتبروا يا أولى الأبصار) وقال معاذ اجتهدت برأيى فصوبه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك . ومعلوم أن العمل بالاستنباط أشق من العمل بالنص الثالث : أن الشبهات للبشر أكثر مما للملائكة لأن من جملة الشبهات القوية كون الأفلاك والأنجم السيارة اسبابا لحوادث هذا العالم فالبشر احتاجوا إلى دفع هذه الشبهة والملائكة لايحتاجون لأنهم ساكنون فى عالم السماوات فيشاهدون كيفية افتقارها إلى المدبر الصانع ، الرابع : أن الشيطان لاسبيل له إلى وسوسة الملائكة وهو مسلط على البشر فى الوسوسة وذلك تفاوت عظيم إذا ثبت أن طاعتهم أشق فوجب أن يكونوا أكثر ثواباً بالنص فقوله عليه الصلاة والسلام « أفضل العبادات أحمزها » أى أشقها وأما القياس فلأنا نعلم أن الشيخ الذى لم يبق له ميل إلى

النساء إذا امتنع عن الزنا فليست فضيلته كفضيلة من يمتنع عنهن مع الميل الشديد والشوق العظيم فكذا ههنا وسابعها : أن الله تعالى خلق الملائكة عقولا بلا شهوة وخلق البهائم شهوات بلا عقل وخلق الآدمى وجمع فيه بين الأمرين فصار الآدمى بسبب العقل فوق البهيمة بدرجات لاحد لها فوجب أن يصير بسبب الشهوة دون الملائكة ثم وجدنا الآدمى إذا غلب هواه عقله حتى صار يعمل بهواه دون عقله فانه يصير دون البهيمة على ما قال تعالى (أولئك كالأنعام بل هم أضل) ولذلك صار مصيرهم إلى النار دون البهائم فيجب أن يقال إذا غلب عقله هواه حتى صار لا يعمل بهوى نفسه شيئاً بل يعمل بهوى عقله أن يكون فوق الملائكة اعتبارا لأحد الطرفين بالآخر . وثامنها : أن الملائكة حفظة وبنو آدم محفوظون والمحفوظ أعز وأشرف من الحافظ فيجب أن يكون بنو آدم أكرم وأشرف على الله تعالى من الملائكة . وتاسعها : ماروى أن جبريل عليه السلام أخذ بركاب محمد صلى الله عليه وسلم حتى أركبه على البراق ليلة المعراج وهذا يدل على أن محمدا صلى الله عليه وسلم أفضل منه ولما وصل محمد عليه الصلاة والسلام إلى بعض المقامات تخلف عنه جبريل عليه السلام وقال « لو دنوت أنملة لاحترقت » وعاشرها : قوله عليه الصلاة والسلام « إن لى وزيرين فى السماء ووزيرين فى الأرض ، أما اللذان فى السماء فجبريل وميكائيل ، وأما اللذان فى الأرض فأبو بكر وعمر » فدل هذا الخبر على أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان كالملك وجبريل وميكائيل كانا كالوزيرين له والملك أفضل من الوزير فلزم أن يكون محمد افضل من الملك . هذا تمام القول فى دلائل من فضل البشر على الملك . أجاب القائلون بتفضيل الملك عن الحجة الأولى فقالوا . قد سبق بيان أن من الناس من قال : المراد من السجود هو التواضع لا وضع الجبهة على الأرض ومنهم من سلم أنه عبارة عن وضع الجبهة على الأرض لكنه قال السجود لله وآدم قبلة السجود وعلى هذين القولين لا إشكال أما إذا سلمنا أن السجود كان لآدم عليه السلام فلم قلتم إن ذلك لا يجوز من الأشرف فى حق الشريف وذلك لأن الحكمة قد تقتضى ذلك كثيرا من حب الأشرف وإظهار النهاية فى الانقياد والطاعة فان للسلطان أن يجلس أقل عبيده فى الصدر وأن يأمر الأكابر بخدمته ويكون غرضه من ذلك إظهار كونهم مطيعين له فى كل الأمور منقادين له فى جميع الأحوال فلم لا يجوز أن يكون الأمر ههنا كذلك وأيضا أليس من مذهبنا أنه (يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد) وأن أفعاله غير معللة ولذلك قلنا إنه لا اعتراض عليه فى خلق الكفر فى الانسان ثم فى تعذيبه عليه أبد الآباد وإذا كان كذلك فكيف يعترض عليه فى أن يأمر الأعلى بالسجود للأدنى وأما الحجة الثانى ؛ فجوابها أن آدم عليه السلام إنما جعل خليفة فى الأرض وهذا يقتضى أن يكون آدم عليه السلام كان أشرف من كل من فى الأرض ولا يدل على كونه أشرف من ملائكة السماء فان قيل فلم لم يجعل واحداً من ملائكة السماء خليفة له فى الأرض قلنا لوجوه

منها أن البشر لا يطيقون رؤية الملائكة ومنها أن الجنس إلى الجنس أميل ومنها أن الملائكة فى نهاية الطهارة والعصمة وهذا هو المراد بقوله تعالى (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا) وأما الحجة الثالثة : فلا نسلم أن آدم عليه السلام كان أعلم منهم أكثر ما فى الباب أن آدم عليه السلام كان عالما بتلك اللغات وهم ماعلموها لكن لعلهم كانوا عالمين بسائر الأشياء مع أن آدم عليه السلام ما كان عالما بها والذى يحقق هذا أنا توافقنا على أن محمداً صلى الله عليه وسلم أفضل من آدم عليه السلام مع أن محمدا صلى الله عليه وسلم ما كان عالما بهذه اللغات بأسرها وأيضا فان إبليس كان عالما بأن قرب الشجرة مما يوجب خروج آدم عن الجنة وآدم عليه السلام لم يكن عالما ذلك ولم يلزم منه كون إبليس أفضل من آدم عليه السلام والهدهد قال لسليمان أحطت بما لم تحط به ولم يلزم أن يكون الهدهد أفضل من سليمان سلمنا أنه كان أعلم منهم ولكن لم لا يجوز أن يقال إن طاعاتهم أكثر إخلاصا من طاعة آدم فلا جرم كان ثوابهم أكثر . أما الحجة الرابعة : فهى أقوى الوجوه المذكورة . أما الحجة الخامسة : وهى قوله تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) فلا يلزم من كون محمد صلى الله عليه وسلم رحمة لهم أن يكون أفضل منهم كما فى قوله (فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها) ولا يمتنع أن يكون هو عليه الصلاة والسلام رحمة لهم من وجه وهم يكونون رحمة له من وجه آخر . وأما الحجة السادسة : وهى أن عبادة البشر أشق فهذا ينتقض بما انا نرى الواحد من الصوفيه يتحمل فى طريق المجاهدة من المشاق والمتاعب مايقطع بأنه عليه السلام لم يتحمل مثلها مع أنا نعلم أن محمدا صلى الله عليه وسلم أفضل من الكل وما ذاك إلا أن كثرة الثواب مبنية على الإخلاص فى النية ويجوز أن يكون الفعل أسهل إلا أن إخلاص الآتى به أكثر فكان الثواب عليه أكثر . أما الحجة السابعة : فهى جمع بين الطرفين من غير جامع . وأما الحجة الثامنة : وهى أن المحفوظ أشرف من الحافظ فهذا ممنوع على الاطلاق بل قد يكون الحافظ أشرف من المحفوظ كالأمير الكبير الموكل على المتهمين من الجند . وأما الوجهان الآخران : فهما من باب الآحاد وهما معارضان بما رويناه من شدة تواضع الرسول صلى الله عليه وسلم فهذا آخر المسألة وبالله التوفيق

﴿ المسأله الخامسة ﴾ اعلم أن الله تعالى لما استثنى إبليس من الساجدين فكان يجوز أن يظن أنه كان معذورا فى ترك السجود فبين تعالى أنه لم يسجد مع القدرة وزوال العذر بقوله أبى لأن الاباء هو الامتناع مع الاختيار ، أما من لم يكن قادرا على الفعل لا يقال له إنه أبى ثم قد كان يجوز أن يكون كذلك ولا ينضم اليه الكبر فبين تعالى أن ذلك الإباء كان على وجه الاستكبار بقوله واستكبر ثم كان يجوز أن يوجد الإباء والاستكبار مع عدم الكفر فبين تعالى أنه كفر بقوله (وكان من الكافرين) قال القاضى هذه الآية تدل على بطلان قول أهل الجبر من وجوه . أحدها : أنهم يزعمون أنه لما لم يسجد لم يقدر على السجود لأن عندهم القدرة

على الفعل منتفية ومن لا يقدر على الشيء يقال إنه أباه ، وثانيها : أن من لا يقدر على الفعل لا يقال استكبر بأن لم يفعل لأنه إذا لم يقدر على الفعل لا يقال استكبر عن الفعل وإنما يوصف بالاستكبار إذا لم يفعل مع كونه لو أراد الفعل لأمكنه . وثالثها : قال تعالى (وكان من الكافرين) ولا يجوز أن يكون كافراً بأن لا يفعل مالا يقدر عليه . ورابعها : أن استكباره وامتناعه خلق من الله فيه فهو بأن يكون معذورا أولى من أن يكون مذموما قال ومن اعتقد مذهبا يقيم العذر لإبليس فهو خاسر الصفقة ، والجواب عنه أن هذا القاضي لا يزال يطنب فى تكثير هذه الوجوه وحاصلها يرجع إلى الأمر والنهى والثواب والعقاب فنقول له نحن أيضا : صدور ذلك الفعل عن إبليس عن قصد وداع أو لا عن قصد وداع ؟ فان كان عن قصد وداع فمن أين ذلك القصد ؟ أوقع لا عن فاعل أو عن فاعل هو العبد أو عن فاعل هو الله ؟ فان وقع لا عن فاعل كيف يثبت الصانع وإن وقع عن العبد فوقوع ذلك القصد عنه إن كان عن قصد آخر فيلزم التسلسل وإن كان لا عن قصد فقد وقع الفعل لا عن قصد وسنبطله وإن وقع عن فاعل هو الله فحينئذ يلزمك كل ما أوردته علينا ، أما إن قلت وقع ذلك الفعل عنه لا عن قصد وداع فقد ترجح الممكن من غير مرجح وهو يسد باب إثبات الصانع وأيضا فان كان كذلك كان وقوع ذلك الفعل اتفاقيا والاتفاقى لا يكون فى وسعه واختياره فكيف يؤمر به وينهى عنه فيا أيها القاضى ما الفائدة فى التمسك بالأمر والنهى ، وتكثير الوجوه التى يرجع حاصلها إلى حرف واحد مع أن مثل هذا البرهان القاطع يقلع خلفك ، ويستأصل عروق كلامك ولو أجمع الأولون والآخرون على هذا البرهان لما تخلصوا عنه إلا بالتزام وقوع الممكن لا عن مرجح وحينئذ ينسد باب إثبات الصانع أو بالتزام أنه يفعل الله مايشاء ويحكم مايريد وهو جوابنا

﴿ المسألة السادسة ﴾ للعقلاء فى قوله تعالى (وكان من الكافرين) قولان : أحدهما : أن إبليس حين اشتغاله بالعبادة كان منافقا كافرا وفى تقرير هذا القول وجهان ، أحدهما : حكى محمد بن عبد الكريم الشهرستانى فى أول كتابه المسمى بالملل والنحل عن مارى شارح الأناجيل الأربعة وهى مذكورة فى التوراة متفرقه على شكل مناظرة بينه وبين الملائكة بعد الأمر بالسجود قال إبليس للملائكة إنى أسلم أن لى إلهاً هو خالقى ، وموجدى ، وهو خالق الخلق ، لكن لى على حكمة الله تعالى أسئلة سبعة، الأولى : ما الحكمة فى الخلق لا سيما إن كان عالما بأن الكافر لا يستوجب عند خلقه الآلام ؟ الثانى : ثم ما الفائدة فى التكليف مع أنه لا يعود منه ضر ولا نفع وكل مايعود إلى المكلفين فهو قادر على تحصيله لهم من غير واسطة التكليف ؟ الثالث : هب أنه كلفنى بمعرفته وطاعته فلماذا كلفنى السجود لآدم ؟ الرابع ثم لما عصيته فى ترك السجود لآدم فلم لعننى وأوجب عقابى مع أنه لا فائدة له ولا لغيره فيه ، ولى فيه أعظم الضرر ؟ الخامس : ثم لما فعل ذلك فلم مكننى من الدخول إلى الجنة ووسوست لآدم عليه السلام ؟ السادس : ثم لما فعلت ذلك

فلم سلطنى على أولاده ومكننى من إغوائهم وإضلالهم ؟ السابع : ثم لما استمهلته المدة الطويلة فى ذلك ، فلم أمهلنى . ومعلوم أن العالم لوكان خاليا عن الشر لكان ذلك خيرا ؟ قال شارح الأناجيل : فأوحى الله تعالى إليه من سرادقات الجلال والكبرياء : ياإبليس إنك ماعرفتنى ، ولوعرفتنى لعلمت أنه لااعتراض على فى شىء من أفعالى فانى أنا الله لاإله إلا أنا لاأسأل عما أفعل . واعلم أنه لو اجتمع الأولون والآخرون من الخلائق وحكموا بتحسين العقل وتقبيحه لم يجدوا عن هذه الشبهات مخلصا وكان الكل لازما ، أما إذا أجبنا بذلك الجواب الذى ذكره الله تعالى زالت الشبهات واندفعت الاعتراضات وكيف لا وكما أنه سبحانه واجب الوجود فى ذاته واجب الوجود فى صفاته فهو مستغن فى فاعليته عن المؤثرات والمرجحات إذ لو افتقر لكان فقيراً لاغنياً فهو سبحانه مقطع الحاجات ومنتهى الرغبات ومن عنده نيل الطلبات وإذا كان كذلك لم تتطرق اللمية إلى أفعاله ولم يتوجه الاعتراض على خالقيته وما أحسن ماقال بعضهم : جل جناب الجلال عن أن يوزن بميزان الاعتزال فهذا القائل أجرى قوله تعالى (وكان من الكافرين) على ظاهره وقال إنه كان كافراً منافقا منذ كان . الوجه الثانى : فى تقرير أنه كان كافراً أبداً قول أصحاب الموافاة وذلك لأن الإيمان يوجب استحقاق العقاب الدائم والجمع بين الثواب الدائم والعقاب الدائم محال فاذا صدر الإيمان من المكلف فى وقت ثم صدر عنه والعياذ بالله بعد ذلك كفر فأما أن يبقى الاستحقاقان معا وهو محال على مابيناه أو يكون الطارىء مزيلا للسابق وهو أيضا محال لأن القول بالإحباط باطل فلم يبق إلا أن يقال إن هذا الفرض محال وشرط حصول الإيمان أن لايصدر الكفر عنه فى وقت قط فاذا كانت الخاتمة على الكفر علمنا أن الذى صدر عنه أولا ما كان إيمانا إذا ثبت هذا فنقول : لما كان ختم أبليس على الكفر علمنا أنه ما كان مؤمنا قط ، القول الثانى : أن إبليس كان مؤمنا ثم كفر بعد ذلك وهؤلاء اختلفوا فى تفسير قوله تعالى (وكان من الكافرين) فمنهم من قال معناه وكان من الكافرين فى علم الله تعالى أى كان عالما فى الأزل بأنه سيكفر فصيغة كان متعلقة بالعلم لا بالمعلوم ، والوجه الثانى : أنه لما كفر فى وقت معين بعد أن كان مؤمنا قبل ذلك فبعد مضى كفره صدق عليه فى ذلك الوقت أنه كان فى ذلك الوقت من الكافرين ومتى صدق عليه ذلك وجب أن يصدق عليه أنه كان من الكافرين جزء من مفهوم قولنا كان من الكافرين فى ذلك الوقت ، ومتى صدق المركب صدق المفرد لامحالة . الوجه الثالث : المراد من كان صار ، أى وصار من الكافرين . وههنا أبحاث . البحث الأول : اختلفوا فى أن قوله تعالى (وكان من الكافرين) هل يدل على أنه وجد قبله جمع من الكافرين حتى يصدق القول بأنه من الكافرين ، قال قوم إنه يدل عليه لأن كلمة من للتبعيض ، فالحكم عليه بأنه بعض الكافرين يقتضى وجود قوم آخرين من الكافرين حتى يكون هو بعضاً لهم والذى يؤكد ذلك ماروى عن أبى هريرة أنه قال « إن الله تعالى خلق خلقا من الملائكة ثم قال لهم إنى خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين فقالوا لا نفعل ذلك فبعث

الله عليهم ناراً فأحرقتهم وكان إبليس من أولئك الذين أبوا ، وقال آخرون هذه الآية لاتدل على ذلك ثم لهم فى تفسير الآية وجهان ، أحدهما : معنى الآية أنه صار من الذين وافقوه فى الكفر بعد ذلك وهو قول الأصم وذكر فى مثاله قوله تعالى (والمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض) فأضاف بعضهم إلى بعض بسبب الموافقة فى الدين فكذا ههنا لما كان الكفر ظاهرا من أهل العالم عند نزول هذه الآية صح قوله وكان من الكافرين . وثانيها : أن هذا إضافة لفرد من أفراد الماهية إلى تلك الماهية وصحة هذه الاضافة لاتقتضى وجود تلك الماهية كما أن الحيوان الذى خلقه الله تعالى أولا يصح أن يقال إنه فرد من أفراد الحيوان لا بمعنى أنه واحد من الحيوانات الموجودة خارج الذهن بل بمعنى أنه فرد من أفراد هذه الماهية وواحد من آحاد هذه الحقيقة ، واعلم أنه يتفرع على هذا البحث أن إبليس هل كان أول من كفر بالله ، والذى عليه الأكثرون أنه أول من كفر بالله .

البحث الثانى : أن المعصية عند المعتزلة وعندنا ، لاتوجب الكفر ، أما عندنا فلأن صاحب الكبيرة مؤمن ، وأما عند المعتزلة فلأنه وإن خرج عن الايمان فلم يدخل فى الكفر ، وأما عند الخوارج فكل معصية كفر ، وهم تمسكوا بهذه الآية ، قالوا إن الله تعالى كفر إبليس بتلك المعصية فدل على أن المعصية كفر ، الجواب إن قلنا إنه كافر من أول الأمر فهذا السؤال زائل ، وإن قلنا إنه كان مؤمنا ، فنقول إنه إنما كفر لاستكباره واعتقاده كونه محقاً فى ذلك التمرد واستدلاله على ذلك بقوله : (أنا خير منه) والله أعلم .

﴿ المسألة السابعة ﴾ قال الأكثرون إن جميع الملائكة مأمورون بالسجود لآدم واحتجوا عليه بوجهين . الأول : أن لفظ الملائكة صيغة الجمع وهى تفيد العموم لاسيما وقد وردت هذه اللفظة مقرونة بأكمل وجوه التأكيد فى قوله (فسجد الملائكة كلهم أجمعون) . الثانى : هو أنه تعالى استثنى إبليس منهم واستثناء الشخص الواحد منهم يدل على أن من عدا ذلك الشخص كان داخلا فى ذلك الحكم ومن الناس من أنكر ذلك وقال المأمورون بهذا السجود هم ملائكة الارض واستعظموا أن يكون أكابر الملائكة مأمورين بذلك . وأما الحكماء فانهم يحملون الملائكة على الجواهر الروحانية وقالوا يستحيل أن تكون الأرواح السماوية منقادة للنفوس الناطقة إنما المراد من الملائكة المأمورين بالسجود القوى الجسمانية البشرية المطيعة للنفس الناطقة والكلام فى هذه المسألة مذكور فى العقليات .

تم الجزء الثانى ويليه الجزء الثالث ، وأوله قوله تعالى

« وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة »

فهرست

الجزء الثانى من التفسير الكبير للإمام الفخر الرازى

صفحة

صفحة

{ تم الفهرست }